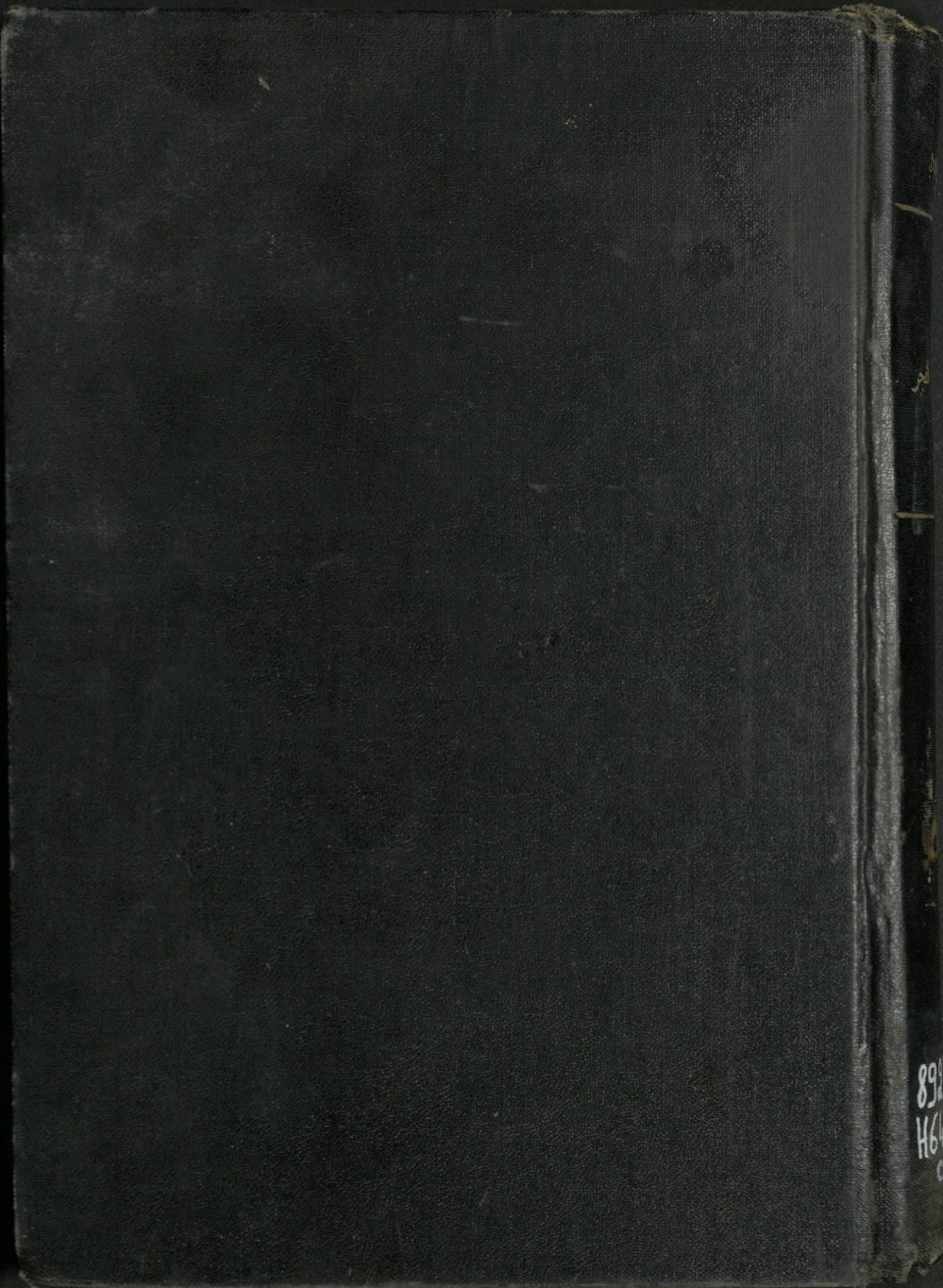
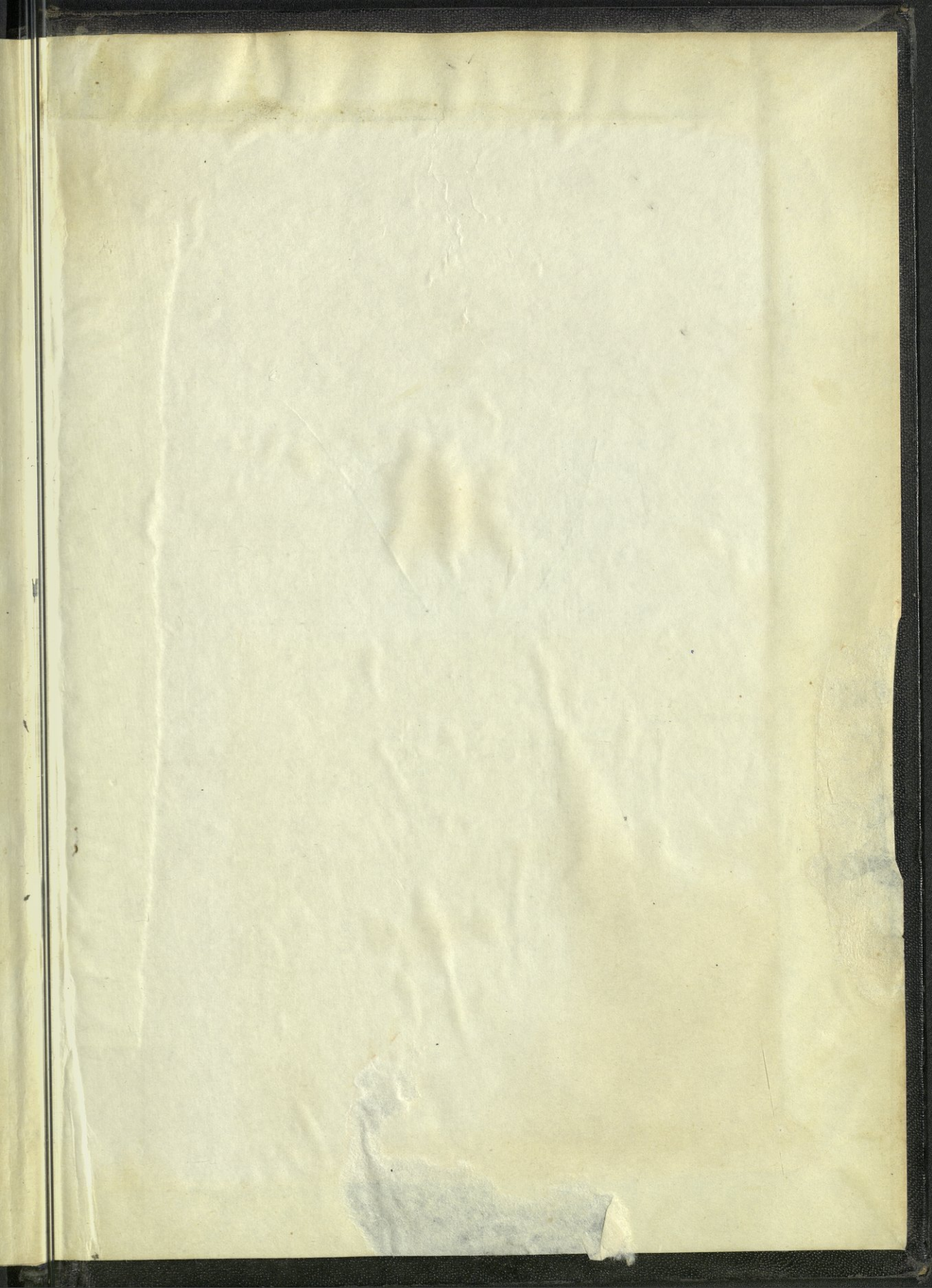
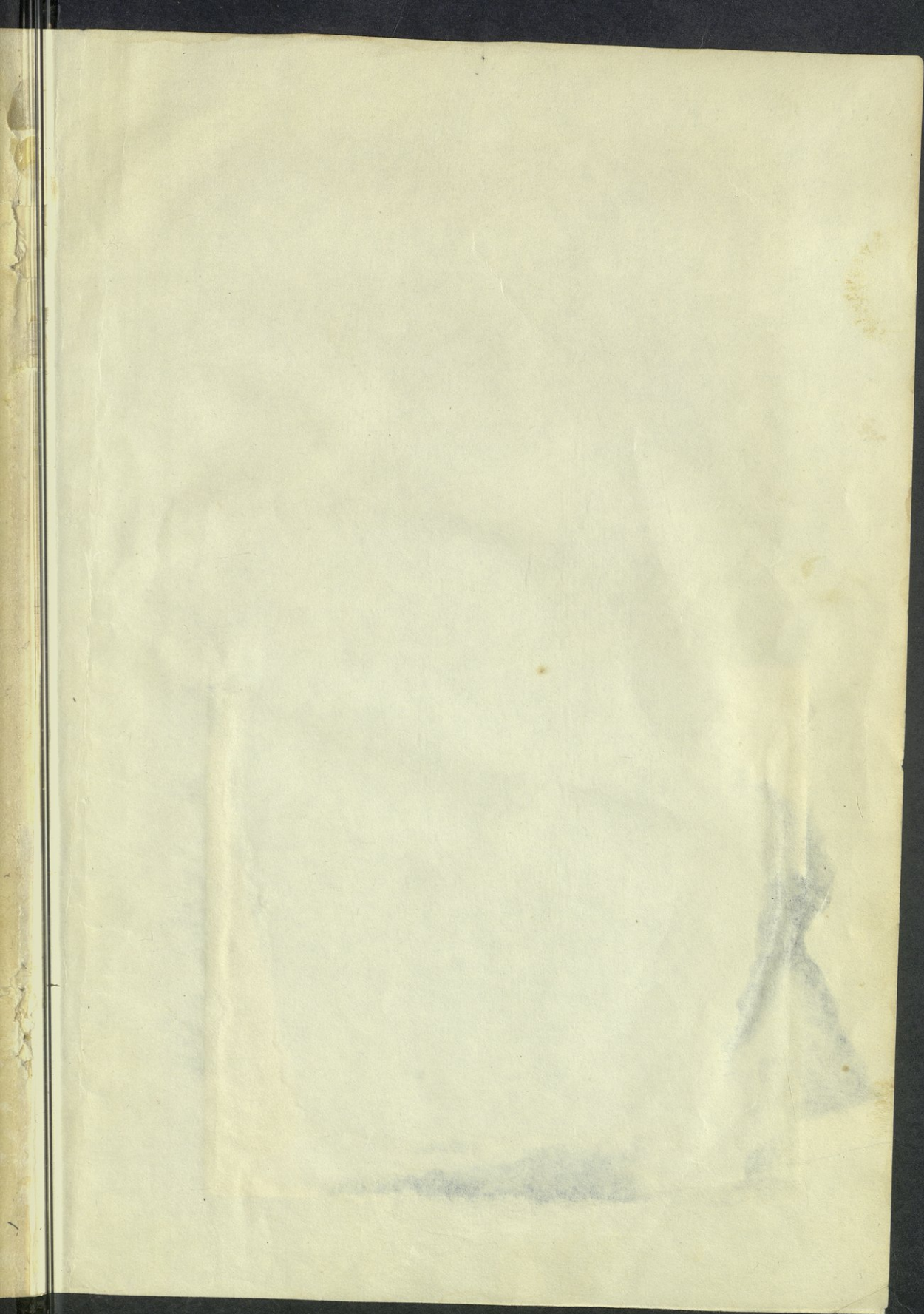






897

HC



اين المجلد الى

8012.74

H64nA

892.78

H641nA

C.1



بَدِيّ الْفَجْرِ

عِلْمِ ادبِ اجتماع

مطبعة دار الكتاب العربي

شارع فاروق مجنة

تلفون ٥٠٩٣٨

cat. 13 no. 153

٧٥٠٣٥٨
١٩٥٧



(حقوق الطبع محفوظة)

بإعقاب الله استغفر

الأهـمـة

إلى روح والدي الكريم

وفاء لقطرة مما أسديت لابنك البار
من فيض ذلك الكرم والمن

أمين اللهم

المشهور

في كتاب الرضا و...

في كتاب الرضا و...

في كتاب الرضا و...

في كتاب الرضا و...

بسم الله الرحمن الرحيم

المقَدِّمَةُ

كنت ولا أزال أتعشق أزهار الفجر وأندائها
وكنت ولم أزل أحن إلى وضحة الفجر وأنوارها
تلك الهالة العظيمة المقدسة التي تقبل وجنة الكون
من ههنا في أول الصباح الباكر

وتطبع عليه من ثغرها الباسم روح الحياة الدائبة
وتروح تلف ببردها الأبيض رقعة من الأرض
واسعة بقدر ما تستطيع

وتظل على ذلك ساعات وساعات
تريد أن تبقّيها غارقة في النور اللامع
لا تمسي

غير أن الأرض لا ترضى ولا تطيع
بل تدور مسرعة وهي معرضة عن هاته النعمة
وذلك الجلال

إلى حيث الظلمة السوداء الخالكة
ويا ليت للإنسان من حظ مسعد نابه
يدفع به إلى الحق في حياته الأولى هذه
بحيث لا يجعل من أيامه فيها إلا فجراً ونوراً
فيا أيها الحق

إن هذا بعض الجهد الذي يدفعني إليك دفعاً
إلى الإمام . . .

أمين الرحمن

بغداد — ١٤ نيسان ١٩٤٨

القسم الأول

عَلَّمَ

العلم يكشف عن الموجود ويتسع في العبارة عنه
ويحاول جعله كلاً بنفسه وما هو إلا ظاهرة من جزء
من كل مما وراء الكل .

الرائع

نظم الطبيعة

فمالك أيتها الأرض كل يوم عن وجه جديد
تسفرين ولا تزالين تتقلبين وتتلونين . أجل ما التلال
إلا الظلال توجد للزوال وتكون للاضمحلال وهي
اليوم بشكل وغداً وبعده بأشكال وكذب من قال إنها
جلد وصال ، بل هي ضباب عابر وغمام حائر
أو سحابة صيف عن قريب تقشع وكل آت قريب .
نفسونه

إن من أظهر ما امتازت به المخلوقات الحية هو (النظم) ويراد به وجود دوافع قوية تتعاقب من جرائها على هذه المخلوقات أدوار الفتور وأدوار النشاط مدة أعمارها فإن أكثر من صرف الطاقة كانت بحاجة شديدة إلى دور جديد تدخر فيه منها وإن استهلكته مجهوداً مرت بزمان تستجمع فيه قواها وتجدد ما فاتها من مادتها . والواقع أن الفعالية الحيوية تتضمن عملية مزدوجة هي عبارة عن التهديم والإصلاح أو التبديد والتعويض أو النشاط والفتور فإن سادت العملية الأولى أعقبها الثانية وإن اختفت هذه انبعثت الأخرى وإن جادت إحداها زمناً تخلفت أختها إلى أن تظهر فتندثر السابقة وهكذا نجد بعد زمن الادخار يأتي دور العمل وبعد تكامل النمو يحل دور التكاثر .

إن هذا التعاقب الواضح للتبدلات الإنشائية والتهديمية في المادة الحية لا يتأتى إلا وفقاً لأوقات دورية ظاهرة من شأنها أن تهب الطبيعة نظماً بديعاً وتعطى الحياة جمالا فتانا وذلك كتوالي الليل والنهار وتناوب المد والجزر ومسير الفصول الأربعة في كل عام . والمعروف أن جميع المخلوقات الحية على اختلاف أنواعها تكتسب ميزة النظم عن طريق الوراثة وأن عمليات هذه الميزة تبقى مستمرة على الدوام في الحالات الاعتيادية أما الأمر المهم فيها فهو توافق التذبذب الداخلي في هذه المخلوقات إلى الأوقات الدورية الظاهرة بصورة منتظمة ، فإننا يلزم أن ننام ولو لم يسدل الليل ستاره وذلك كما يحصل فعلا لسكان المناطق الشمالية البعيدة أيام الصيف غير أننا على كل حال نفضل نوم الليل الذي إن حلّ أوقف الكثير من مسالك الإحساس في جهازنا العصبي وعطل وصول إشارات التبليغ إلى مراكزها بعكس ما كانت عليه في ساعات النهار .

ومما يلفت النظر أن المخلوق الحي مهما كان نوعه لا بد وأن يعقب مدة حياته خطاً بيانياً واضحاً يدعى اصطلاحاً بخط المرور — فيه من الجهة الواحدة الانحناء

الصاعد أو (قوس التعالى) الذى يبين نمو الخلق المتزايد يوماً بعد يوم حتى يصل قمة القوس وهى نقطة التكامل التى تشير إلى دور البلوغ لذلك الخلق ، وفى الجهة الأخرى تبين الانحناء النازل أو قوس الهبوط الذى يظهر أدوار الفتور والعجز فى الخلق وهو يستمر فى التدنى إلى أن يصل إلى أوطأ نقطة وهى ساعة الفناء أو الموت . ففى حالة ما إذا كان الخلق الحى نباتاً كان أو حيواناً مالم لا يعمر أكثر من عام واحد نجد أن خطه البيانى بقوسيه الصاعد والنازل يطابق تماماً تتابع الفصول الأربعة فى السنة لأن الربيع هو موسم الشباب والصيف هو موسم النضوج ؛ كما أن الخريف هو بداية دور الانحلال والضعف ، أما إذا كان من المخلوقات المعمرة فإننا نشاهد على القوس الواحد كثيراً من التوجّجات التى تتفق وتأثير الأوقات الدورية الظاهرة التى تمر فى كل سنة من سنى ذلك الخلق .

افحص مقطعاً عرضياً لساق إحدى الأشجار الكبيرة من ذوات الفلقتين تجد فيه سجلاً واضحاً لعمر الشجرة وذلك بعد أن تحصى فيه عدد الحلقات الظاهرة عليه ؛ وإنك لو دقت ملياً المقطع العرضى لساق الشجرة المعروفة بـ (سيكوياس أوف كلفورنيا) لأخذك العجب من كثرة ما فيه من الحلقات ولصعب عليك عدّها إلا بعد حين ، إذ فيه مالا يقل عن (٢٤٢٥) حلقة وعلى هذا يخبرك النباتيون أن نشوء هذه الشجرة كان قبل ميلاد المسيح بـ (٥٢٥) عاماً . ولكن ما السبب يا ترى فى عدم اتحاد هذه الحلقات الخشبية واندماجها ببعضها لتكون قطعة واحدة لا فواصل فيها ولا حدود . إن العلة فى ذلك بسيطة جداً فهى تعود إلى تأثير الحركة الدورية فى المواسم وخلاصتها هى أن تركيب الخشب الذى يتكون أثناء الصيف يختلف اختلافاً كبيراً عن الخشب المتكون فى الخريف وأن هذا التفاوت يترك فواصل النمو الظاهرة عن بعضها بكل جلاء وبهذا يمكنك تمييز علاوات النمو السنوية بكل سهولة .

وكذلك نستطيع بنفس الطريقة أن نفرّق بين فعالية الصيف والشتاء فى

الخطوط المتراكزة أو المتحدة المركز التي تظهر على حراشف السمك المدعو بسمك سليمان وغيره من الأسماك وفي الأماكن تعزيز ذلك أيضاً بعمل مقطع في حصة الأذن (التيه الغشائي في بعض الأسماك) . إن هذه الخطوط تدعى بعلامات التموج في النمو وهي شائعة في الطبيعة العضوية فما الخطوط المتوازية التي تشاهد على أصداف النواعم وعلى ترس السلحفاة وعلى حراشف الثعابين ذات الجرس وما مناطق النمو الجلدية في أشواك توتيا البحر وغيرها إلا أمثال لهذه العلامات وهي قليل من كثير من المشاهد التي توضح تأثير تعاقب الأوقات الدورية الظاهرة في الطبيعة على المخلوقات الحية في كل مكان .



(١)

يَقْظَةُ الرَّبِّ

« وَأَنْتِ يَا ذَا الْبَرْدِ الْمَوْشَى .. »

تشرق الشمس في أوائل الربيع وفي أشعتها من الحرارة ما يكفي لأن يبعث في معظم الأحياء نشاطاً غريباً من شأنه أن يسلك بها في حياتها سبلاً جديدة ويلبسها في أيامها لبوساً زاهياً ، فالأشجار تورق والبذور تنبت والضفادع تبيض والشيء تطلق .

تفتح البراعم :

ولعل أظهر ما في هذا الثوب القشيب الذي يدل على هذه اليقظة الجبارة هو (تفتح البراعم) . لقد نشأت هذه البراعم أيام القوة من العام الفائت وترعرعت وكمل نموها حتى إذا ما حل فصل الشتاء المنصرم التحفت بحراشفها الواقية وكنمت في مخابئها تنتظر انقضاء لتمر به بسلام وهي كذلك وإذا بالحرارة تدب فيها فتتمطى هنيئة وتستيقظ من رقدتها تحمل للملأ كل البشائر عن قدوم عصر الفتوة والشباب . والبرعمة الاعتيادية عبارة عن غصين أو عسلوج صغير نبتت عليه مناشيء الأوراق التي تكون في الغالب متراسة وعلى هيئة الخبزون . خذ رأس الملفوف ونصفه بصورة عمودية وانظر إلى المقطع الحاصل تتجسم أمامك شكل البرعمة كما هي في الواقع لأن رأس الملفوف هو عبارة عن برعمة هائلة ليس إلا . ولو نصفت برعمة أنموذجية كإحدى براعم شجرة الشامبلوط تشاهد فيها عسلوجاً صغيراً في القلب وقد انطوت حوله أوائل الأوراق انطواء متكاملاً . أمعن النظر قليلاً تجد أنه كلما اندفع هذا الغصين في النمو انبسطت الأوراق في مراكزها الخاصة ، والنمو في الحقيقة هو الأصل في هذا الاندفاع إلا أنه لا يبدأ حتى تدب في العسلوج حرارة الربيع وتنفذ إليه قطرات غيثه وعلى هذا فالبراعم غير قادرة على أن تفتح إلا بعد أن تنمو ، والنمو بحد ذاته يعني تكاثر الحجيرات وتزايد عددها وهو لا يتم إلا إذا مرّ بالبرعمة عصير البنتنة المغذى . إن هذا العصير قد يعتبر من بعض الوجوه الماء المخزون في أجزاء الساق ، غير أنه في الوقت نفسه لا يمكن أن يغفل عن أهمية ماء التربة الذي

امتصته الجذور ودفعته إلى أعلى النبتة وعلى كل فتأثير هذا وذاك وبالإضافة إلى حرارة الشمس تنفك مغاليق السجون لآلاف البراعم الناشئة على مثل هذه الأشجار المرتفعة التي تبعد ذراتها عن سطح الأرض بمائة قدم أو ينيف فتنتطلق لتقابل النور وجهاً لوجه .

وفيا عدا هذا النوع من البراعم نلاحظ أنواعاً آخر تدعى بـ (البراعم الزهرية) وهي التي تتفتح عن الأزهار أو الأوراد ، وهنا أيضاً نجد أن معظمها ينشأ في غضون السنة الفائتة ويبقى كذلك إلى أن يحل فصل الربيع فيضحي ويزهو كما كان الحال مع البراعم الورقية .

والشائع هو أن تظهر الأوراق أولاً ثم الأزهار ولكن قد يصادف في بعض الحالات النادرة أن تسبق البراعم الزهرية البراعم الورقية في الظهور فهذه نبتة (الأجاص البرى) التي تكثر على قارعة بعض المسالك تشاهد في أوائل الربيع وهي مغطاة بأزهار بيضاء ناصعة وذلك قبل أن تتفتح فيها البراعم الورقية . وهناك أنواع من الأنجم التي يكثر وجودها في الحدائق والرياض أشهرها نبتة (الغار) أو الدفنى — لها أزهار بنفسجية اللون تظهر مبكرة في الغالب وذلك قبل أن يكون للنبتة أوراق بزمن طويل . هذا ولا يبعد أن تتكون على العسلوج النامى براعم زهرية تنشأ في أباط أوراقه تتفتح رويداً أثناء الموسم .

إن أبرز ما يمتاز به الأزهار في أوائل الربيع هو تغلب اللونين الأصفر والأبيض فيها على سائر الألوان أما الأزهار الحمراء والبنفسجية فيتأخر ظهورها عادة ومع أنه من السهل جداً أن نعثر على بعض الشواذ إلا أننا لا نستطيع أن نجد مقابل اللون الأصفر منافساً فهو الذى يسود في أول الربيع إجمالاً حتى على اللون الأبيض . تأمل نباتات حشيشة الخطاف والأكونيت الشتائى (خانق الذئب) وحافر المهر (قبل ظهور الأوراق) والنجس (القيجرى) وزلقة العجل والسنفرس الذهبى وأقحوان البطائح في الخنادق وهندباء البر والسيaras والمنثور البرى والخروب

الهندي تجد أزهارها صفراء زاهية ، ولا شك أن هناك أنواعا من الخزامى والفل والبنفسج وكلها نباتات تظهر أزهارها مبكراً وهي ذات لون أزرق إلا أن غير قليل من أنواعها الأخرى يشيع فيها الزهر الأصفر .

هذا وفيما عدا ذلك فالكثير من أزهار الربيع بيضاء اللون وذلك كأزهار نباتات (الأجاص البرى) المذكور آنفاً ونقاطة الثلج وشقائق النعمان البرى والحماض البرى والليمون الأبيض (ولو أن النوع الأحمر يكثر كثيراً) وكذلك معظم أنواع الترجس الأبيض وزهر اللؤلؤذى الأطراف القرمزية .

والبياض يعنى فقدان الصبغة أو المادة الملونة بصورة مطلقة فإذا كان ذلك فالنور ينعكس بالكلية من بين الفراغات وقاعات الماء العديدة الموجودة في أو بين الحجيرات الحية لأوراق التويج (البتلات) وعلى هذا فزهرة نقاطة الثلج ترى بيضاء لنفس السبب الذى يجعلنا نرى الثلج أبيض . ولعل السبب في شيوع الأزهار البيضاء في مستهل هذا الموسم هو أن حرارة الشمس الفتية وهي في أوائل شدتها لم تصبح بعد قادرة على أن تثير في الحجيرات فعالية الحياة القوية التى تخلف وراءها عادة تكوين المادة الملونة في أمثال هذه الحجيرات .

إن الرواد يعلموننا كثيراً عن سناء الربيع المفاجيء في السهول الأسبوية المترامية الأطراف بعد أن تذوب الثلوج عنها فهناك مئات الأفدنة من الأراضى التى يغطيها السوسن الأبيض والأصفر والأحمر ومئات مثلها يكسوها الزنبق الذهبى والأزرق وباستطاعتنا أن نشاهد أمثال هذا المنظر بالقرب منا وذلك بمقياس أصغر فالقسم الأعظم من سهولنا تمتد فيها البسط الزاهية لشقائق النعمان والخزامى وغيرها من الأزهار التى تبهج لرؤيتها النفس .

ورب سائل يقول : « ما هو منبع هذه الثروة التى تبعث إلينا هذا السناء الزهرى العجيب والموسم في أوائل نشاطه ؟ قد يكون هناك قليل من الأوراق التى تفتحت عن براعمها ولكنه على كل حال ليس له من الوقت ومن النور

ما يكفينا لتجهيز كل هذه الكميات الزائدة من المواد الغذائية في هذه النباتات ذات الأزهار الوفيرة ؛ أن الجواب على هذا هو ما يلي «
أولاً : إن براعم هذه النباتات التي تبكر أزهارها لم تنشأ إلا في غضون العام الفائت .

وثانياً : إن النبتة لم يفتها أن تخزن الكثير من الغذاء الاحتياطي في أجزائها المطمورة تحت التراب أى في البصيلات والدرنات والجذور والريزومات والكرمات وما يحدث في أول الربيع هو الاستهلاك فقط ؛ الاستهلاك المسرف مما خزن من هذه المواد في السنة الماضية . وللتأكد من ذلك اقلع نبتة الخزامى الناضجة بكامل بصيلتها ثم اقطع هذه البصيلة عامودياً تلاحظ كيف أن حراشف براعمها قد امتلأت بالمواد الغذائية فظهرت بدينة ، ثم انظر كيف أن هذه الحراشف تحيط بسلسلة من البراعم الزهرية الصغيرة وكلها متحفزة للتفتح والظهور . ولا يفوتك أن أمثال هذه الأغذية المخزونة في البصيلات ما هو معروف لدينا فما نأكله في البصلة المسلوقة إن هو إلا تلك المواد التي نشير إليها وفي إمكاننا أن نتحقق من ذلك بأكلنا بعضاً من البطاطا أو الأرضى شوكى وكثير من الخضراوات الشبيهة ومع أن أمثال هذه النباتات ليست ببصيلات ولكنها على كل حال تمثل ذلك الخزن الذي يتم في أجزاء النبتة النامية تحت الأرض لكثير من المواد المتحصلة في غضون العام الفائت .

إنبات البذور :

إن المظهر الثاني من مظاهر الربيع الزاهية هو إنبات البذور . والبذور يكمل نشوءها في الصيف الماضى وهى بعد أن ترعاها الأم زمناً تنتشر في الخريف التالى راحلة إلى حيث يسوقها القدر . والبذرة الواحدة عبارة عن نبتة صغيرة جداً هى الجنين يحيط بها أو بضمنها ميراثها الكامل من المواد الغذائية والكل قابع داخل غلاف محكم يبقى المخلوق الحى وغذائه شر الحوادث ، وهذا ليس ببعيد عنا معرفته (٢ - ندى الفجر)

ونحن نزرع بالسكين والشوكة القشور عن القول المسلوقة الذى نأكله أحيانا .

هناك حقيقتان تجدر معرفتهما قبل كل شيء .

أولاهما : أن البذرة تختلف عن البيضة التى وضعت حديثاً ولكنها أشبه شيء بالبيضة التى مرّ على حضنها مدة من الزمن فتقدم الجنين فيها بنموه مراحل ظاهرة .
وثانيهما : إن الغذاء المخزون فى البذرة يتأتى من جراء اتصالها الوثيق بالأم حيناً وهو مالا يحصل للبيضة مطلقاً ، إذ المعروف أن أفران النباتات الراقية وأبناء اللبائن (وهى الحيوانات الراقية) هى الوحيدة من بين جميع المخلوقات الحية التى تختص بكونها تقضى زمناً وهى متعلقة بأمهاتها قبل أن تتحرر وتتخذ سبيلها فى الحياة الاستقلالية منفردة .

إن كثيراً من البذور التى تنبت فى الربيع تقرب أعمارها من ستة إلى تسعة أشهر وقد بقيت كامنة منذ أن انتشرت وتوزعت فى الخريف المنصرم ومع أن هناك أنواعاً من البذور — مثل بذور أشجار الحور — لا تتأخر عن الإنبات فى أى وقت زرعت ، إلا أن ذلك غير مألوف لدى معظم البذور لأن البذور بصورة عامة بحاجة ماسة إلى زمن تسكن فيه قبل موعد الإنبات وقد يطول هذا الزمن أحيانا إلى أكثر من عام واحد وهو مما يدل على أن هذا التأخير لا يعود بالكلية إلى الحقيقة المعروفة وهى أن الشتاء فى الأقطار الباردة هو الموسم الذى لا يلائم الإنبات . أما تفسير ذلك فهو أن داخلية البذرة يجب أن تمر خلال عمليات استحضارية ضرورية أظهرها قيام الأنزيمات (الخماثر) بإعداد المواد الغذائية المخزونة فى البذرة بحيث تصبح أكثر نفعاً وأسهل تناولاً من قبل النبتة الفتية فهى إذن عملية هضم تقوم فى البذرة على قدم وساق قبل أن يحدث الإنبات بزمن ولو كان قصيراً .

وبعد ذلك يأتى دور التداعى التدريجى لقشرة البذرة الخارجية التى تكون عادة سميكة وصلبة ، وماذا يعمل الجنين حتى يستطيع أن يظهر إلا أن يفتح دونه

الأبواب ويكسر مغالقها ، وقد ثبت أن هذا التداعي يتم بمساعدة أنواع من البكتريا الموجودة في التربة وهو ما دلّ على أن الميكروبات المكروية التي تعمل في الغالب على إفناء وإهلاك المخلوقات الحية تساهم أحيانا على تقدم وإنعاش حياة جديدة في هذا العالم .

ولقد توصل العلماء إلى اكتشاف حقيقة مذهشة تخص نمو بعض البذور وخلاصتها أن هناك بذورا من ألزم اللوزم عليها أن تتعاون في حياتها مع شركاء يشاطرونها العمل .

فبذور الحمص والبرسيم (نوع من الجت) واللبياء والترمس وغيرها من نباتات الفصيلة البقولية لابد وأن تصاب بنوع من أنواع البكتريا التي يكثر وجودها في التربة حتى تستطيع أن تنفع بطريقة لم تزل غامضة لحد الآن من عنصر الناتروجين الحر الموجود في الهواء كما لوحظ أن جل نباتات الفصيلة الثعلبية أو فصيلة السحلب (إن لم يكن كلها) يجب أن يكون لها شريك في جذورها من نوع الفطريات المسماة (الميكوريزا) ، فضلا عن ذلك فإن بذور هذه النباتات بحاجة ماسة إلى نفس هذه الفطريات حتى أثناء الإنبات وقد حار الزراع قبلا في محاولاتهم التي رغبوا من ورائها أن يزرعوا بذور هذه النباتات في غير موطنها وكادوا يعودون بالفشل لولا أن تمكنوا بعدها من إحضار الشريك إلى تلك التربة الذي ظهر للاختصاصيين أنه يجب أن يكون من نوع خاص .

وبعد كل هذا علينا أن نؤمن عند إنبات البذور الناضجة شرطين آخرين وهما الإرواء الكافي ودرجة الحرارة الملائمة فإن تم ذلك فلا بد من أن تندفع البادرة بزغبتها إلى الأعلى حيث النور وبجذورها إلى الأسفل حيث الظلمة وهذا يحق لهو أهم وأعظم ما تحمله جعبة الربيع إلينا .

إن حركة البادرة وقت الإنبات لأمر عجيب يستلقت النظر فكما ارتفع السويق نجده يلتوى وينثنى في جميع اتجاهات الإبرة المغناطيسية حتى يصبح رأسه

أشبهه بدائرة أو بمقطع أهليلجى صغير والسبب فى هذا هو عدم انتظام النمو فى جميع أجزاء السويق وذلك لاختلاف شدة النور على مسافات النبتة نظراً إلى التغير الحاصل فى هذه الشدة بين حين وآخر أثناء ساعات النهار . والواقع أن النور يببط معدل النمو كما تدل على ذلك التجارب : فلو زرعنا هذه البذور فى صندوق معرض للنور من جهة واحدة فقط نلاحظ أن البادرة تنبج بكليتها إلى هذه الجهة . ولا يفوتنا فى الوقت عينه أهمية الحرارة وتغيرها من آن لآخر أثناء النهار وما يتركه ذلك من أثر فى نمو النبتة وتكوين الحركة فيها .

وبين هذين العاملين — النور والحرارة — تباين ظاهر فالأول يببط النمو (كما ذكرنا) والآخر يعجله وهما كلما اختلفا فى الشدة ولدا فى النبتة تلك الحركة الترنحية العجيبة التى يتعدو علينا تمييزها فى معظم النباتات حتى لنفعل عنها أحيانا بصورة مطلقة .

رجعة الحيوانات :

وفى الربيع تبادر الحيوانات إلى ميادين النشاط من جديد تلك الميادين التى سبقت فيها النباتات أيضاً . ولعل أعرف مشاهد هذه الرجعة هو نهوض ملكة النحل ومبادرتها فى السعى وراء الأزهار رغبة منها لإعاش نفسها بعد صوم الشتاء المضنى وشوقا إلى أن تجمع من الرحيق وحبوب الطلع زادا شهياً تقدمه لأفراخها فى الخلية التى ستقوم بإنشائها قريباً من الشاطئ الأخضر .

لقد كانت سابنة طليعة الشتاء وهى واحدة من بضعة أخلاف أو هى الخلف الوحيد الذى استطاع أن يعيش من بين أفراد تلك العائلة الكبيرة — فقد قضى نحب ذلك العدد العديد الذى كانت تعج به الخلية المشحونة آنذاك ولم يسلم منه غير صغار الملكات .

إن معظم الحشرات تمر بموسم الشتاء وهى غير كاملة ، فلقد كانت سرفات أو يرقات دودية الشكل متحركة فدخلت عنده بدور الشرقة الهادى . وهى فى هذه

الخلوة نراها تسبب كالومياء ملتحفة بلفائفها الواقية إلى أن تتمخض عن أعظم التغيرات وأعقدها في صور الاستحالة فتتشكل بشكل جديد وتستيقظ في الربيع فإذا هي حشرات كاملة ذات أجنحة تنتقل بها من مكان إلى آخر كما يفعل الفراش. وهكذا الحال مع القواقع التي تبدأ حينئذ في السعي وراء رزقها بعد أن بقيت كامنة طيلة الشتاء في ثقب الجدران المتداعية وقد أغلقت على أنفسها فتحات أصدافها بكل دقة. أما الضفادع فيقظتها ظاهرة للعيان : فتش عنها أيام الشتاء تجدها سابتة في أجحارها المريحة بجوار البرك والمستنقعات ، عيونها مغلقة ومناخيرها مغلقة وأفواهها مغلقة وهي تتنفس تنفساً جليداً وأفئدتها تحقق خفقاناً ضعيفاً. ثم انظر إليها في الربيع واسمع نقيق الذكور المتواصل والسرعة التي تمتاز بها الإناث في وضع كتل بيوضها الهائلة في الغدران والأحواض عند ذاك يتجلى لك الفرق بين حياة الموسمين وتعرف حينئذ درجة هذه اليقظة الجبارة . وفي الأخير لا تنس تيقظ الكثير من أمثال هذه الحيوانات التي اعتادت السبات في مواسم البرد كالقنفذ والزغبة أو الدرموش من آكلة الحشرات والمرموط من القواضم والخمّاش من المجنّحات .

التكاثر والتجمعات الجديدة :

والربيع — كما قلنا — هو موسم الشباب فيه ينتعش الزرع الجديد وتفتح على يده البراعم والأزهار وعنده تنفقس البيوض فتزداد أفرانح الضفادع والكتاكيت وعلى مسرحه تطارد صغار الأنعام والحيوانات الأخرى ، وبمجيئه تتكاثر المخلوقات الحية الدقيقة التي تسبح في البرك والبحيرات والأنهار والبحار ذلك التكاثر العجيب الهائل .

ولم لا تعجب إذا عرفت أن العلماء قد توصّلوا إلى أن أغلب البرك ذات المياه العذبة تحتوي على مادة كيميائية هي نتيجة فناء الكثير من النباتات أثناء الخريف والشتاء تدعى (أو كرتكس) وهي ذات مفعول قوى في ترويض تكاثر الحجيرات ، كما علموا أن المادة المسماة (أو كنتورز) التي من شأنها أن تقوى سواعد

الأفراخ الصغار تزداد كمياتها في هذه المياه قبيل حلول فصل الربيع ازديادا مطردا . وماذا تنتظر من الطبيعة بعد كل هذا ؟ أليست هي دائبة في كل ما يدesh ويحير ، بدرجة أن أخرجت من الميت ما أمسى سببا في إثارة نشاط اليقظة التي وهبها الربيع للوجود في كل مكان حتى في حياة الغدران والبحيرات ولتوضيح ذلك نجد أن الفرد الواحد من النقايات (وهو صنف من الحيوانات الابتدائية) التي تعيش في هذه الأوساط يمكن أن يصبح السلف للمليون من أمثاله في بحر أسبوع وقد ينوف على ذلك إن كان الربيع بهيجا والبيئة مساعدة ، والمشهور أن براغيث الماء تلتهم النقايات والأسماك تتلع براغيث الماء وهكذا ترتبط حلقات الحياة مع بعضها ويعتمد هذا على ذاك ويبني الأعلى على الأسفل وبذا يسير العالم ويدور دون توقف .

ومما يمتاز به الربيع هو ازدياد كميات المياه التي شحت أثناء الشتاء في كل صقع ومكان وازديادها تخرج أنثى البعوض من خباياها التي قضت فيها موسم البرد لتضع بيوضها في الماء على شكل طوافات عائمة على سطحه في كل منها ما يقرب من المائتين إلى الثلاثمائة بيضة ؛ والبيضة طويلة أشبه شكلا بالسيكارة . ومن هذه البيوض تنقف السرفات التي تبقى معلقة قريبا من سطح الماء الراكد ورءوسها مدلاة إلى الأسفل وهي تغطس إلى الأعماق في فترات لتظهر ثانية وذلك بمساعدةذبذبة ذيولها القوية . إن هذه السرفات تتغذى وتنمو وتتطور وأخيرا تتحول إلى شرقة أو حورية تختلف في المظهر عما كانت عليه كل الاختلاف حيث تستقر وتتخذ في مقامها وضعا واحدا وتبقى رءوسها متجهة إلى الأعلى قريبة من سطح الماء ، وهي في حالتها هذه لا تتذوق طعاما قط حتى إذا مر عليها زمن لايزيد عن أربعة أيام نراها تنتزع عنها القشرة الخارجية وتنبعث بسهولة من داخل الشرقة على شكل بعوضة كاملة ذات جناحين تقوى بهما على الطيران . وهنا لابد من ملاحظة كثير من الأمور البيولوجية المهمة :

١ — تكيف سرفة البعوض للمعيشة وسط الماء رغم أنها تنفس الهواء الجاف .

٢ — تجمع القوت الاحتياطي لحياة متعاقبة قصيرة الأدوار ولكنها نشيطة تختص بالحياة التناسلية بصورة مطلقة .

٣ — فناء الصغار الهائل ومقاومة التكاثر الخصب له فالبعوض هو الطعام الشهي للطيور المهاجرة التي تعود إلى الشمال أيام الربيع كما أن سرفاته لا يجد معظمها مناصا من أن يقدم نفسه أكلة لذينة لصغار الأسماك ، ولكن تأمل ألا تجد بعد كل هذا عددا وافرا من البعوض وهو حي يرزق .

٤ — العلاقة الوثيقة بين حياة البعوضة وحياة الإنسان : فالبعوض الحامل لجراثيم الملاريا والتي تصيب الإنسان بالمرض الخبيث المعروف هو نوع من أنواع البعوض ولتحقيق وطأة هذا المرض يقوم البعض بصب كمية من سائل البرافين في الأحواض والمحلات الأخرى التي يبيض فيها البعوض فيكون على سطح الماء غشاء رقيقاً يمنع السرفات من أن تتمسك به فتختنق وتموت .
البعوض والفراش :

إن دورة حياة البعوض تستمر حوالى الشهر ويكون له أثناء الصيف ما يدعى بتعاقب الأجيال . وإننا عندما نقارن هذه الدورة بتاريخ حياة ذبابة آذار التي قد تعيش تحت سطح الماء زمنا يتراوح بين الثلاث أو الأربع سنوات ولا تكون هوائية إلا لمدة ثلاثة أيام أو ليوم واحد تتجلى أمامنا حقيقة بيولوجية مهمة وهى أنه قد يستمر جزء من تاريخ حياة المخلوق — وهو على طرز واحد — حيناً طويلاً ثم يتلبس بعد ذاك بطراز آخر رغبة في التكيف لمختلف أحوال الحياة .
وفي أيام الربيع تظهر أنواع الفراش والسوس (العث) التي قضت الشتاء كحشرات كاملة فتتزاوج وتهاجى المزارعين بسرفاتها الجشعة حتى تكون لهم عدوا لدودا يقلق راحتهم ويستقيمهم كأس العذاب المر . وحديث المقارنة بين السرفة الدودية الشكل والفراشة المجنحة موضوع شحى للسامع إذا لم يكن له إلمام به : — فالسرفة حيوان دودى فى رأسها مجاسات صغيرة وعيون بسيطة ولها ثلاثة أزواج من الأرجل المفصلية وكلها منتهية بمخالب ، ثم إن لها خمسة أزواج

أخرى من الأطراف الإضافية الخلفية ولكنها غير مفصلة ولا تنتهى بمخالب وإن أجزاء فيها مخصصة للقضم، والسرفة الزاحفة بحد ذاتها مهمة جدا بعكس الفراشة الطائرة التي من عاداتها أن تمتص الرحيق باعتدال أو تصوم أحيانا بالكليّة. إن هذه المقارنة تظهر لنا التباين العظيم بين دورين أساسيين هما دور التغذى ودور التناسل: ففي الدور الأول (دور السرفة) يخزن الزاد الاحتياطي في الجسم فيعجل في تكوين الفراشة أو الحشرة الكاملة ولا بد أن تكون للتغيرات التي تحصل في المناخ أثر نافع في إطالة دور السرفة حتى تستطيع أن تقوم بما يلزم تجاه هذا الأمر. فإذا انتهى الدور الأول انقلبت اليرقة إلى شرقة هادئة تقاوم البرد وتكون أنسب إلى المعيشة في الشتاء. وفي الشرقة ينشط أعظم أدوار الاستحالة تبديلاً مما يؤدي إلى ظهور الحشرة الكاملة في النهاية والانتقال إلى الدور الجديد وهو دور التناسل. ولكن كيف يقوى النمو الذي يوضح ميزات وراثية خاصة في بناء السرفة على أن يعيد الكرة وفقاً إلى تصميم جديد فيبعث إلى الوجود بميزات وراثية أخرى من شأنها أن تخلق تلك الحشرة الجميلة الكاملة. ذاك مما لم تسهل معرفته بعد. عودة الطيور المهاجرة:

ومن أروع مظاهر الربيع عودة الطيور المهاجرة (كالسمنون والبلبل والخطاف الجبلي والقوق) إلى مساكنها في الشمال بعد أن قضت فصل الشتاء في مراتب الجنوب. وقد تبين في أكثر الحالات أن الذكور الكاملة لهذه الطيور هي التي تصل أولاً أما البعض منها وذلك كالصافير المغردة مثلاً فإنها تتخذ جهة خاصة تنتظر فيها أزواجها لتعود إلى موطنها سوية وعلى كل حال فإن صغار هذه الطيور هي التي تكون القافلة الأخيرة بين أنواع الطيور المهاجرة. وقد أظهرت أمثال هذه الضيوف التي تحمل عندنا أثناء الصيف مهارة غريبة في دقة المحافظة على الوقت اللازم لوصولها، كما أنها برعت كثيراً في قوة الرجوع إلى أوكارها التي بنتها في الأعوام الماضية. هذا ورجوع الطيور المهاجرة إلينا أيام الربيع ينقطع عنا سكون الشتاء فوراً وتنمحي معالمه الخاملة فإذا بالهواء يمتلئ بالأصوات الإيقاعية الجميلة والغاريد الشبيهة العذبة.

فَعَالِيَةِ الصِّيفِ

« ابن المهجير ... »

فات الربيع وبمروره انقضت أيام اللهو والمرح وجاء الصيف فإذا هو موسم العمل الملح والإنتاج العميم ، ففي فصل الصيف تتفتح براعم الربيع فتكسو الأغصان بالأوراق اليانعة الخضراء ، وتحلّ الأشجار بالأزهار الجميلة الزاهية وفيه تستعر نار الحياة وتلتهب القوى فتساعد على توليد الطاقة الوفيرة وتعين على بناء ما يجب بناؤه لجيل آت جديد . وفي هذا الحين ينبعث نشاط مدهش في أجزاء الأشجار وفي خلايا النحل وعنده تقوم الأحياء جميعاً بأعمالها إلى أقصى حدود الإمكان ، إلا إذا ارتفعت درجة الحرارة كثيراً بحيث تصيب الأوراق بالذبول وتجبر الحيوان على التماس القيلولة لزمان غير قصير . وبالإجمال فإنك أينما وليت وجهك في الطبيعة أثناء الصيف تشاهد (الحب) و (الجوع) ثم تضطرك الحوادث في النهاية لاعتباره بحق موسم دراسة الحياة العائلية الصحيحة .

نشاط الصيف المفرط : ولعل من أقوى وأكمن علامات هذا النشاط هو إنتاج السكر والنشا وغيرها من المواد الغذائية التي تقوم بصنعها معامل النباتات أو الأوراق الخضراء وهو ما يؤول حتماً إلى تجمع ثروة عظيمة من الغذاء النافع وهالك حقول القمح الواسعة مثلاً عما نذكر : إن هذه الثروة الغالية يستهلك قسم منها لأغراض النمو في البتة وذلك كتوليد براعم العام المقبل ، ويخزن البعض منها في الساق والجذر والبذور ، بينما تندفع كميات كبيرة منها إلى الأزهار فتنصب فيها على هيئة مادة عسلية لذيذة الطعم تعرف بالرحيق ، أو تتجمع لئلا الثمرة بالعصارة الطيبة الشهية . وهنا يتقدم الحيوان فيلتهم جزءاً كبيراً من هذه الثروة الغذائية الطائفة مباشرة فيمثلها في جسمه ويحيا بها . والصناعة بحد ذاتها لا تغني إلا تحويل المادة والطاقة من شكل إلى آخر فإذا كان كذلك فإن النباتات الخضراء تصبح بهذا الاعتبار مخلوقات صناعية لانظير لها ، وعملها المذكور أشبه شيء بما يقوم به النحل في تحويل الرحيق إلى عسل يجمعه في الأقراص غذاء لأفراخه .

وفي حياة النحل اليومية آيات عجاب : — إن هذه الحشرة العاملة تنجذب إلى الأزهار بعوامل شتى مفصلة في بحوث علم النبات منها فعالية الألوان الزاهية التي تسترعى بصائرهما والرائحة الزكية التي تؤثر على حواس الشم فيها أو تذكر الأكلة الشبيهة من الرحيق الذي تناولته الحشرة في الوجبة السابقة وتلك بأجمعها بواعث أساسية ترغب النحلة في السعي وراء الأزهار لتخطر بينها عاملة نافعة . وإنك لو أمعنت النظر ملياً لشاهدت ما استطاع أن يلاحظه قبل ألفي عام الفيلسوف اليوناني (أرسطاطاليس) إذ وجد أن النحلة لا تنتقل في كل حملة من حملاتها من نوع واحد من النبات إلى نوع آخر ولكنها تتقيد بنوع واحد منه فلا تغير ذلك إلا بعد أن تزور الخلية مرة وتعود . والواقع أن هناك بعض الشواذ غير أن ما شاهدته أرسطاطاليس يصبح بوجه عام في أكثر الأحيان . وهذه العادة التي يتخلق بها النحل تؤكد لنا بأن الإقحاح لا يجري على غير هدى كما يخيل لكثير من الناس ، بل يتم بكل ضبط واتقان . وهنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة بعض الملاحظات البيولوجية الدقيقة أظهرها أهمية التلاقح غير الذاتي وسهولة إنجازه بواسطة أم وأقوى رباط في العالم ، ثم شدة تكيف بعض الحشرات للزهرة ، والزهرة لهذه الحشرات بحيث أصبح الطرفان يوافق كل منهما الآخر كمواقفة القفاز للكف .

إن الوظيفة المزدوجة التي تظهر في حياة الحيوان لا تتعدى عنايته بنفسه واهتمامه بالغير وكلاهما قد ينطوي على نوع من الصناعة جليل للغاية .

فهناك أشياء تصنع وتنقل ، تصاد أو تخزن ، تعمّر أو تعمر من هيئة إلى أخرى أو من حال إلى حال . تأمل قليلاً في تل النمل المنصوب وفي قرص العسل المنصوب وفي عش الطائر المبنى ووجار الينر المحفور ألا تسلم حتماً بأن الحيوانات غالباً ما تكون عاملة مجدة يتعبها الكد ويضئها النصب في هذه الحياة الدنيا .

انظر إلى صنعة الصيد تراها فناً محكماً وحرقة متمن على أوجه مختلفة فكلب الماء يصطاد منفرداً والذئب يندفع للقنص في الشتاء كجماعات وباز العصفير يصطاد

نهاراً ، وبوم المخازن لا يخرج إلى ذلك إلا ليلاً ، والبعض من كبار العناكب يقضّ على فرائسه بينما الكثير من أنواعها ينشئ الشراك والنسيج .

أما سرفة الخنفساء النمرى فتبنى فخاً تترصد فيه فرائسها ، وكذلك تعمل سباع النمل (وهى سرفات النمل السبعى) إذ تحفر فى الأرض نقرّاً تربض فيها بانتظار الحشرات الساقطة التى إن حلّ نوع منها هاجمتها واتهمت بها بفكوكها القوية الحادة . والقاقوم (وهو نوع من بنات عرس ذو فرو) يلاحق الأرنب لمسافات بعيدة بسرعة نادرة بينما نجد القط لا يقتنص الفار إلاّ عن قرب .

وتأمل صيد السمك تر أن الطائر المعروف بالحوصل (أبو جراب) يصطاد مشتركاً مع رفاقه ومالك الحزين يقتنص على انفراد .

أما الدنكلة فإنه يتخطى هنا وهناك ويعشى الماء أحياناً لهذا الغرض بينما عقاب البحر يصطاد السمك بمعونة المخالب .

وتأمل بعدئذ أشكال الرعى تجد أن بضعة أنواع من النمل ترعى الذباب الأخضر أو مايسمى ببق النبات رعيًا كرعى الأنعام حتى إنها تلازم صغارها وتعتنى بتربيتها اعتناء فائقاً .

ثم انظر إلى حرفة الفلاحة تجد أن نمل تكساس الزراعى ينقى الحشيش بمناطق دائرية صغيرة ، ولا يهمل منه إلا حثالة دقيقة تختلط فى التربة وتساعد على إنبات أفضل البذور وأقواها .

ويقوم كل من النمل الاعتيادى والنمل الأبيض بتربية نوع من الفطريات يستقى منه جزءاً مهماً من الغذاء الذى يحتاجه .

ويظهر أن الفائدة من جمع أوراق الشجر وطحنه من قبل بعض أصراب النمل هي خلق وسط ملائم لنمو ذلك النوع الممتاز من الفطريات فإذا ما عزمت الملكة على إنشاء مستعمرة جديدة جاءت بحبة صغيرة من هذا الفطر وزرعته على دقيق الورق وبذا تستهل به نمو الفطر النافع .

وأخيراً وجّه نظرك إلى عملية الخزن والمواد المخزونة التي يقوم بها الحيوان
تشاهد جوار السنجاب المطمور وغلال النمل المتنوعة وعنابر العسل العديدة في خلايا
النحل والدود الأشل الذي يهتم بجمعه الزنبور الحافر .

وبعد هذا وذاك تأمل عمل الأوكار والأعشاش والأوجار تجد البعض منها يقع
في الذروة من حيث الدقة والجبروت فمنها الأوجار ذات الجدران الهائلة التي يفوق
علوها ارتفاع الإنسان وقد أنشأت من التراب الممزوج باللعاب وفرشت من الداخل
بنشارة الخشب الناعمة ومنها الوكر المعلق الذي يبنيه العيسوب من ورق الأشجار
وينشؤه بطبقة واحدة متدلّية من أحد طرفيها ومحاطة بجدران تقيها شر المياه
وعبث الريح .

فهل هناك بعد كل هذا من شك في أن الحيوان يمتلك قدرة صناعية هائلة
مختلفة الأوجه ومتعددة السمات .

حياة الفراش :

والفراش نوع من الأحياء معروف بنحافته ورقته وجماله من حيث الشكل
واللون والحركة . وليس بين أنواع الحيوان من يقوم بحمل شعار الصيف ويمثّل
فعاليته كالقراش ؛ فهو يعلن سمة الصيف بحال واحدة على الأقل وذلك أن الحشرة
الواحدة منه وهى فى طورها المجنّح لا تلهو إلّا بالحب ولا تعيش إلّا للصبا والغرام ،
وقد نجد أنواعا من الفراش لا يذوق الطعام مطلقا فقد شغله هواه حتى عن تناول
الأغذية . إن تعليل ذلك جد يسير فإنّ نهم الحشرة وهى فى دور السرقة قد أعان
الفراشة كثيرا فى الجرى وراء هذه الحياة الخليعة التى تمثّل طرزا جديدا من طراز
التباين الذى وجدنا مثيله فى النبات وهو التباين بين الزهرة والورقة ، أو بين القسم
الخضرى والقسم التوالدى ، وليس هو إلّا مثل حى للترنح الذى يشاهد على ستار
الحياة الصاخبة : الترنح بين الجوع والحب أو بين التغذى والتناسل وبكلمة أخرى
الترنح بين رعاية النفس ورعاية الغير .

والقراش أنواع كثيرة منها ما يستوطن مناطق مختلفة من المعمورة بصورة دائمية ، ومنها ما لا يستقر في موطن واحد بسبب عدم ملائمة الأحوال الجوية له أو لعدم وجود الغذاء النباتي الموافق .

إن الألوان التي تشاهد عادة في أجسام أكثر الحيوانات كجراد البحر (الروبيان) مثلاً ناجمة عن تأثير بعض الأصباغ الموجودة في الجسم غير أن هناك حالات أخرى تنشأ فيها الألوان بدون أن يكون للأصباغ حكم فيها . فاللون الطيف الشمسي التي تتراءى لنا على وجه محار اللؤلؤ الداخلي ما هي إلا نتيجة تركيب طبيعي أي أنها تنشأ عن انعكاس أشعة النور من سطوح مختلفة قريبة بعضها من بعض فيتحلل نور الشمس إلى ألوانه وتنفى أمواج بعض الألوان أمواج البعض الآخر ، ومن يسحق قطعة من صدفه يستطيع التأكد من ذلك بكل سهولة إذ أنه لا يحصل إلا على طباشير أبيض . أما منشأ الألوان الزاهية التي ترصع أجنحة القراش والطيور الطنّانة فناتجة من اتحاد الصبغات بذرات جزئية ناعمة في الأنسجة السطحية للجنح وأن جمال هذه الصبغات يسمو عادة بالخطوط والتموجات التي ترسم على السطح ؛ فالحرشف الصغيرة التي تكسو أجنحة القراشة تكون مغطاة في الغالب بخطوط دقيقة جداً لا ترى بالعين المجردة تصطف مرتفعة عن سطح الحرشفة فكأنها سلاسل من الجبال تفصل بينها السهول . إن هذه الخطوط هي الأصل في انبعاث تلك الألوان الجميلة التي هي أشبه شيء بألوان قوس قزح ، ولنعلم أن هناك ضروباً من القراش الأزرق لا تمتلك أجسامها الصبغة الزرقاء بصورة مطلقة . وهكذا كان اتحاد اللون المادي واللون التركيبي سبباً في زيادة جمال القراش وبهائه حتى ليتصوره الرائي أحياناً بأنه أزهار طائرة .

وكما أن ذكر البعوض يستطيع أن يعرف أنشائه من مسافة ما عندما تبدأ هي بإيقاع نغمتها الحادة ، كذلك نجد أن ذكر القراش يمكنه أن يتعرف إلى أنشائه عن بعد ميل واحد على وجه التقريب وذلك بمعونه رائحة خاصة تحملها الذكور عادة

فإذا أطلقناها في الهواء عند مسيس الحاجة كان لها الأثر البين في انجذاب الأتني الهلوية إلى الذكر . إن مادة هذه الرائحة تفرز من قبل غدد جلدية تقع في الوجه الخلفي من الأجنحة فتتضح من خلال ثقب دقيقة جدا أو تتجمع في كيس صغير بجوارها . وفي بعض الأحوال نجد أن هذه المادة تتساقط حين انصبابها فرشة ناعمة قابلة للحركة تقتصر مهمتها على تسهيل نشر الرائحة في الهواء بأسرع وقت ممكن ، غير أن هذه الفرشة تكون في الأغلب عند نهاية الذيل ولذا كان لزاما على الفرشة أن تسمح أجنحتها بالذيل أولا لكي تقوم بتلطيخ الفرشة بالمادة المفترزة . هذا ولبعض أنواع الفراش خيوط دقيقة تنشأ في كيس الفرشة تدعى بالخيوط الغبارية تتشقق حالا في الوقت المناسب فتتحول إلى غبار معطر ينبعث في الهواء فيؤدى رسالته إلى الاتني بكل اتقان .

وللفراشه حاسه للشم تختلف كثيرا عن حاسه الشم في الإنسان ولعلنا نستطيع أن ندرك هذا الاختلاف بالمقارنة إذا أمعنا النظر في عيون الفراش الظاهرة . إن هذه العين تختلف كذلك اختلافا كبيرا عن عين الإنسان بكونها غير متحركة وفاقدة للأجفان فضلا عن كونها تحتوى على بضعة آلاف من العيون الدقيقة حتى تبلغ أحيانا الخمسة آلاف عدا ، كل عين منها كاملة ومستقلة عن الأخرى بقريبتها وعدستها وشبكاتها وهى تمتاز بكونها قصيرة النظر إلى حد بعيد بحيث لا يتعدى مجال الرؤية عندها بصورة عامة عن الiardة الواحدة ، أما الصورة الحاصلة في فرجة العين فهى عبارة عن صورة قاتمة وليست مقلوبة كما هو الحال عندنا ، وفيما عدا ذلك فلها قوة محدودة للتمييز بين الألوان وعلى كل فالفراش لا يستطيع أن يتطلع إلى الوجود كما يتطلع إليه الإنسان بأفق نظره الواسع البعيد .

وبيضة الفراش آية من آيات الزينة والزخرف ولعلنا لا نعجب في أن يكون الفراش سباقا في مضمار الفن الرفيع إذا علمنا أن له عهدا على سطح هذه الأرض توالى فيه أجياله وأنساله إذ كان ولا يزال يحوب أطراف هذا العالم من نحو ثلاثة ملايين

من السنين . والبيضة كما هو معروف مخلوق حى فى دور الحبيرة الواحدة من نشأته ونحن إذ نشاهد أثنى الفراش وهى تضع بيضها منفردا على نوع خاص من النبات يكون هو الغذاء الملائم للسرفة لابد وأن تقف حيارى أمام أحد أسرار الفراش الغامضة لتتطلع إلى القوة الخفية الكامنة التى تدفع بالفراش لاتقاء هذا النوع من النبات ولا تتعداه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كيف نستطيع أن نفسر التقلبات فى حياة السرفة الهادئة التى تتمخض فى النهاية عن تصميم جديد فريد فى نوعه لم يسبق أن كان قبلا فإذا بالسرفة الخالدة فراشة جميلة تنتقل على أجنحة الهوى إلى حيث تعبت وتلهو . إن هذا والحق لغز مغلق من ألغاز هذا الكون العجيب .

أعشاش الطيور :

ويجدر بنا أن لا نغفل عند ذكر الطيور عن موضوع له أهميته من الوجهة البيولوجية ألا وهو عمل العشوش . إن هذا العمل يقوم بالأكثر على دوافع غريزية كامنة وقد يشترك الذكاء الفطرى معها فى بعض الأحوال . غير أن نوع العش وشكله يتوقفان عادة على جنس الطير بحيث يكون لكل جنس منه نوع معين من الأعشاش فالشحاري والدج (وهو طير مغرد) رغم كونها من الطيور التى ترتبط بصلة القرابة نجدها تبنى أعشاشا مختلفة . والملاحظ أن هناك خطأً بيانيا واضحا فيما يخص عمل الأعشاش عند الطيور يبتدىء فى الطرف الاول بحالة عدم الاهتمام ببناء الأعشاش بصورة مطلقة كما نجد ذلك لدى طير (الغلموت) وينتهى الخط بالذروة حيث نجد حالة الاهتمام التام بعمل الأعشاش المتقنة الدقيقة الصنع وذلك كأعشاش الطائر الحائك والبانة . أن ارتقاء العشوش وتطورها كانا بنتيجة المعرفة التى دلت الطير إلى خطورة وضع البيض على الأرض ، وحاجة الجنين والفرخ إلى حرارة كافية لنموها والتى لا يمكن أن تؤمن إلا باستخدام بعض المواد غير الموصلة للحرارة مما يمكن جمعها من المحيط ، ثم حاجة الأبوين إلى الراحة فى زمن التفريخ

المتعب وتسهيل مشقة إطعام الأفراخ وضرورة إخفاء كل من البيض والأفراخ عن
العيون الجائعة ومحافظتها من نور الشمس الباهر ومن خطر التدهور والسقوط .
الاعتناء الوالدى :

وهي ظاهرة من ظاهرات الصيف الممتعة التى لا تقتصر على نوع من
الحيوان دون غيره ولكنها تعم جميع المخلوقات الحية فى العالم ولو كان ذلك بدرجات
متفاوتة وعلى هذا فإننا نجد لها حتى لدى العناكب الوضيعة .

لو جالسنا متربصين بين الأعشاب فى أحد المروج أو الغيطان لشاهدنا أحيانا
أنثى العنكبوت وهى تنتقل بحمّة ومهارة حاملة على صدرها كيساً حريراً صغيراً .
إن هذا الكيس هو عبارة عن الشرقة التى تغلف البيض إلى زمن لا يطول حتى
يفقس عن صغار العناكب ، ومهما كانت الظروف فإن الأم تحاول أن تحتضن
الشرقة بأطرافها وقد تربطها أحياناً بجسمها بواسطة خيوط حريرية دقيقة وهكذا
نجدها كما لو كانت مهتمة بها اهتماماً زائداً ؛ غير أننا يجب أن نفترض أنها تفكر
بالطريقة التى نعهدها . ولو جربنا فى أن نبعد الشرقة عن الأم ونضعها على بعد
مناسب منها لشاهدنا أنها تسعى فى البحث عنها بحمّة فائقة ولما كانت الأم قصيرة
النظر جداً فإننا نرجح أنها تستعين بعملها هذا بحاسة الشم . وهكذا فإن أنثى
العنكبوت تظل حاملة لأفراد عائلتها حتى يحين الوقت فتنبعث الأفراخ ساعية هنا
وهناك وراء رزقها وكل منها كمصغر حقيقى للأم .

وإلى جانب ما ذكر آنفاً فإن هناك أنواعا عديدة من العناكب تسلك سبلا شتى
فى تنشئة صغارها فمنها ما يقوم بصنع الأعشاش الحريرية فوق غصون النبات أو فى
الخبايا التى قد توجد بين الأحجار أو الشقوق الحاصلة فى لحاء الأشجار ومنها ما يخفى
شرانقه الجميلة البيضاء أو الخضراء أو الوردية فى مخابئ تتخذ عادة من أوراق العوسج
بعد أن تلف وإياها برباط من الخيوط الحريرية . وهناك العناكب المائية التى تهتم بتربية
صغارها داخل كؤوس من الحرير تبقيها عائمة فى قعر أحد الغدران أو تتركها معالقة

بعود تغرزها في الأرض كما يصنع ذلك العنكبوت ذو الفخ .

ومن منا لا يعجب لنسيج عنكبوت الحقل ، فهو والحق تحفة فريدة بجمالها وسلطانها ولو أتيح لنا أن نعمل ما يعمله لبقينا نفتخر بذلك مدى الحياة . وفي الامكان أن نعتبر صنعتها عملاً فنياً رائعاً ولكن ذلك يقصر عن بيان وصفه فالقن لا يعنى إلا تعبيراً دقيقاً لفكرة أو عاطفة ولما كان كذلك فلا يصح إطلاق ذلك على نسيج العنكبوت . ولا ريب في أن هذا النسيج هو ثمرة من ثمار القن الغريزي ولا علاقة له بالقن العقلي ، والغريزة قدرة وراثية داخلية تدفع صاحبها لعمل أشياء دقيقة بمهارة فائقة ومع هذا فليس في سلوكها ما يستدعي الاستحسان العقلي بوجه من الوجوه .

ولعلنا لا نجد خيراً من الظاهرة المعروفة بقابلية التكيف كعيار نستند إليه في التفريق بين الذكاء من جهة والغريزة من الجهة الأخرى . فالنسيج الممدود بين حجرين على ساحل البحر يدلنا ولا شك على تلك الأنواع من العناكب التي امتازت به ، غير أن هذا النسيج لا يقتصر على ما هو معلوم لدينا في الحالات الاعتيادية بل نجد فيه خيوطاً إضافية تمتد بعضها نحو الجهة المعاكسة لاتجاه الريح وبعضها الآخر يمتد ليبقى تلك الخيوط الأولى متوترة ومحكمة وتلك حالة ندعوها بقابلية الصوغ أو التكيف التي تستهدف المحافظة على النسيج لئلا تذهب به الريح وهو ما يؤيد وجود الذكاء بدون أدنى ريب . وقد نجد في بعض الأحوال أن هذا النسيج يبني في ظروف عصيبة مما يبعث الدهشة من كيفية بنائه ولا يستبعد أن نجد العنكبوت في حالات أخرى يقوم بربط الخط الأساسي الأسفل لنسيج عمودى بحجر خفيف يعين على تثبيت النسيج ويحكم أطرافه بحيث يسهل له اقتناص الحشرات وهو ما يذكرنا بالثقل الذي يعلق أحياناً بسقف الكوخ المعمول من القش لغرض تثبيته وتركيزه . ومع هذا فإننا نلاحظ أن الخط الأساسي المذكور آنفاً لا يترك على حاله

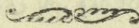
بل يربط دائماً بخيوط تتصل بالأرض مباشرة وعلى ذلك فمن اللازم التأكيد إن أمكن من أن هذا الثقل لم يكن محمولا بصورة أوتوماتيكية وإلا لكان الأمر وانقضى الذكاء .

وفي حالة عمل نسيج أفقي عبر أخدود أو مجرى مما يستوجب نقل الخيط الأول على الأقل بواسطة الريح علينا أن لانرفع كثيراً من قيمة الكفاءة التي لا ريب فيها وذلك لأنها عملية شائعة الاستعمال بين أنواع كثيرة من العناكب وهي لا تنجز عادة إلا لمسافات قصيرة ولا تتعدى السماح لهبة ريح تجر الخيط حتى يمسك طرفه الثاني بشيء يبعد قليلا عن مصدره .

وتلعب (الزناير) دوراً مهماً في الطبيعة من الوجهة الاقتصادية وذلك بتقليل عدد الحشرات الضارة لكونها تعيش عليها وتطم فراخها منها . ومن الزناير الحفارة ما يحفر الأخاديد والأنفاق على الشواطئ الجافة وبحوار الطرق تضع فيها الأتني بقرب بيوضها بعض الديدان التي تشلها فإذا قسمت البيوض عن السرفات وجدت هذه أمامها لهماً طرياً تتغذى به . ولما كانت الأم في هذا الوقت تقضى نحبها ولا تشاهد ثمرة أعمالها فمن المرجح إذن أن هذه العادة التي تتبعها في إحضار الطعام لأفراخها قبل أن يبدأ التفقيس قد نشأت من زمن بعيد حيث كانت فيه أعمار الأبوين أطول . أما (الزنبور الغاضب الأفريقي) وهو نوع من الزناير المقترسة فإن إنثاه تقدم لأفراخها حشرات ملسوعة حديثاً ويندر أن تبقى بقربها أكثر من واحدة مما يدل على أن لهذه الأنواع قوة للمس لا بأس بدرجتها . وفي مجموعة أخرى من هذه الأنواع نجد أن الأم تمت الحشرة رأساً وتمضغها ثم تطعمها لسرفاتها ولا تتسلم منها مقابل ذلك إلا قطرة من اللعاب السائل الذي تمتصه من فم السرفة وهو أكسير يلوح لنا أن الأم كثيراً ما تستطيه وتلتذ به .

وهكذا نجد أن من أبرز المظاهر البيولوجية التي يمتاز بها الصيف هي فعاليته

العجيبة في مختلف النواحي الخضرية والغريزية والعقلية . وهي فعالية تترنح بين دافعين هما الجوع والحب ؛ فعالية معروفة بالنهم الغريب بعيد النشوء وعناية لا يستهان بها تستهدف سلامة النشء . وقد تشد حدة الحياة فيه أحيانا فتذهب إلى الغاية كما يتمثل ذلك في عمال النحل فإن هذه الحشرات رغم عمرها القصير تراها مجدة كدودة إلى الحد الأقصى حتى إن عددا من حجيراتهما الدماغية تصاب في أكثر الأحيان بالإعياء فتنتطلق من جهازها وتقضي على حياة الحشرة .



(٣)

شجر الخريف

« الثرى الأعظم »

فات الصيف بنشاطه ونعيمه وجاء الخريف يدبّ بسحره وكأنه . ومع أنه يعتبر موسم التحول والدنو إلى السكون ؛ إلا أنه يتّصف بطابع حيوى جليل ألا وهو وفرة الحياة . تأمل هاتيك البساتين المديدة وتلك الحدائق العديدة تراها كلها تنوء أشجارها وزروعها بأحمال ثقيلة وأثمار يانعة فهي قد أورقت فى الربيع وأزهرت فى الصيف ، وهما فى الخريف تثمر لتعد العدة إلى السكون والراحة فى موسم البرد القادم ، وتلك هى ولا شك دورة الحياة الاعتيادية فى النبات .

وما هى الثمرة يا ترى ! . الثمرة هى علبة بذور أو علب كاملة النضوج ، تتصل فى الغالب بأجزاء إضافية متطورة الشكل من أقسام الزهرة أو عنقها مما قد يدوم بعد الإلتحاق ولا يزوى . إن هذا النمو يبتدىء فى الثمرة بعد الإخصاب الذى أعانت عليه الحشرات الوافدة فأصبحت به البويضات بذورا حقيقية تحتضن الأجنة فى قلوبها فإذا ما تم ذلك أغلقت مخازن الرحيق فى الأزهار وسحب السكر الفاضل من أكياسها ليبعث إلى الثمرة النامية سداً للحاجة ، وهذا ما يشاهد عادة فى التوت وغيره من الفواكه اللحمية . إننا بالطبع على علم بأن هناك أنواعاً أخرى من الفواكه كالجوز والبندق وغيرها مما يدعى بالأثمار الجافة وقد صنّفت على حدة لوجود بعض الاختلافات البسيطة بينهما وبين القسم السالف الذكر مما هو طرى وريان . وإذن فما هى منافع الأثمار للنباتات التى تحملها ؟ إن الجواب على هذا السؤال هو فيما يلى :

أثمار الخريف :

إن المتتبع لا يحميد فى الجواب على السؤال المذكور عن أن تلك المنافع هى سلبية جنسية وليست ذاتية شخصية . فالأثمار تحفظ البذور وتعين فى الغالب على انتشارها ، فهى إما أن تجف وتنقلق ثم تتساقط منها البذور كما تتساقط أوراق الخريف الذابلة ، أو أنها تعلق بفرو الحيوانات التى تمر بها بواسطة خشونة أجزائها اليابسة . وفى حالات آخر تكون الأقسام الطرية ذات الألوان

البهيجة عاملاً قويا لاجتذاب الطيور واللبائن الجائعة آكلة الأثمار . ورب سائل يقول : إذن ما هي أهمية ذلك في انتشار البذور وزرعها إذا كانت أثمارها تستؤكل من قبل تلك الحيوانات النهمة . الواقع أننا لو تأملنا ملياً لوجدنا أن تلك البذور تترك غالباً بدون هضم ، وعليه فإنها تندفع مع البراز إلى الخارج وتبذر بكثرة في مناطق واسعة وبعيدة عن مراكز الأمهات .

والبذور جد غنية بالبروتينين وذلك بعكس الأثمار التي لا تحوى من هذه المركبات الكربونية الناتروجينية الغالية إلا الطفيف الزهيد . نعم قد تحوى الأثمار كميات وفيرة من السكر غير أن هذه المادة — كما هو معروف — أدنى أهمية من البروتينين فضلاً عن كونها غير نتروجينية . ولو فرضنا أن البذور غير قابلة للأكل لوجدنا أن ١٥ ليبرة من العنب (الكيلو الواحد يساوى ٢٢ ليبرة) و ٢ ليبرة من التوت و ٢٥ ليبرة من التفاح و ٤ ليبرات من الكمثرى تستطيع بمجموعها أن تجهزنا بمقدار من البروتينين يعادل ما تمدنا به بيضة واحدة من بيض الدجاج أو حفنة صغيرة من الحمص . وما معنى ذلك يا ترى : إن ذلك يعنى بوضوح أن ما يدفع إلى الثمرة ضائع منقود وإن ما يخزن في البذرة موروث متصل .

والطبيعة لا تفرق عاملة دؤوبة ففي أيام الحصاد تشرع هي بنشر البذور وتوزيعها . ولا يفوت المتأمل الواعى أن يسمع مثلاً في أيام الخريف الهادئة انفلاق ثمرة (القندول) وهو نبات شائك معروف . والواقع أن الكثير من الأثمار الجافة يتشقق بأقل كلفة وبلا عناء وقد تعين الطيور الآكلة للبذور أحياناً على ذلك . أما الأثمار ذات الأغلفة الخشنة التي يمكن أن تماثل البذور في هيئتها من الوجهة العملية فإنها كثيراً ما تعلق بفرو الحيوان كالأرنب وتتساقط منه رويداً رويداً بعيداً عن مركز الأم . وكما أن بذور الهندباء البرية والحسك تطير محمولة على أجنحة الريح بقصد الهجرة إلى مواطن جديدة فإن جوارات (دوحه المسافرين) وهى من النباتات المتساقطة تنعقد في خيوط طويلة وتطفو على سطح الماء مندفعة بحركات تموجية رشيقة شبيهة بتلوى الثعابين القضيّة في الهواء .

ومع أن البعض من الطيور الآكلة للأثمار يهضم البذور التي يبتلعها إلا أن معظمها لا يفعل ذلك بل يدفعها إلى الخارج عن طريق البراز سالمة وذلك دون أن يصاب مدة مكوثها القصير في القناة الهضمية بأيّ خدش أو عيب مهما كان بسيطاً. وتنتشر أنواع أخرى من البذور بواسطة الطين الذي يعالق في أقدام الطيور فإذا ما لمست الماء تحرّرت حلاً وانسابت في سبيلها. وفيما يعمل كل من (القول السوداني) أو جوز الأرض و(البلاب الاحرش المتساق) على الجدران درس مدهش وأسلوب جديد. فالأول يضرب الأرض بأثماره فيعين على تشقق أغلفتها وتبيد بذورها. أما الثاني فإنه يدفع بصناديق أثماره في الشقوق الظاهرة من الجدران ويمزقها. ولا شك أن هذين الأسلوبين مسالكان من مسالك الحيوان لا بد أن نقرّهما بالرغم من أن العملية الدائرة في كل منهما يمكن أن تفسّر عن طريق التحوير الأنوماتيكي.

مميزات الخريف :

إن لأيام الخريف الجميلة فتنة وسحراً فائقين تتلّس آثارها في كثير من الظواهر كبرودة الجوّ وسلاسته، وتكوّن بقع الغيوم المنتثرة هنا وهناك ، وتورّد الأوراق الذابلة ، ونضوج الأثمار ، وتدويم البذور وهو دورانها السريع المتثقل ، وتوديع الطيور المهاجرة النازحة إلى الجنوب . إنه والحق فصل وديع بالنسبة إلى كل من الربيع والصيف كيف لا والطيور المغرّدة المرتلة ترحل فيه فتبطل أناشيدها المسكرة والحشرات العازقة على عُددها تسكن إلى الراحة وتنزوى بحيث لا نعود نسمع مايشجينا من نغمها ، وحتى الألوان تكون مدعاة للسكون وما في ذلك ريب أليست البقع الجبارة في الغابات والمستنقعات ترى وكأنها أرق لونا وأبهت من رياض الصيف ومروجه .

وإن مما يلفت النظر حقاً لأهميته العلمية الجزيلة هو انتشار صغار العناكب التي لا تألو عابثة تغدق بريقها كلما انتقلت في الهواء من مكان إلى آخر ثم وصول الطيور الموسمية من مناطقها الشمالية وكذا وثوب (حوت سليمان) إلى أعلى مساقط

المياه ومنحدراتها واستهلاك دودة الأرض نشاطها الاعتيادي الذي يمكن من غرس البذور وأخيراً أعبال الورق وهلاك الزنايير والنحل الطنان وصناعة الخزن عند السنجاب وأمثال ذلك مما يمكن مطالعته في قائمة طويلة جذابة .

والخلاصة أن في تاريخ حياة الخريف أربع مجموعات من حقائق ظاهرة سامية :

١ — اندثار الأفراد مع استمرار حياة الجنس وتتابع الذرية ولتأمين ذلك تعددت الأساليب وتنوعت الخطط في مختلف الأحياء . وعليه فالنبات يموت والبذور تبقى حية والقراش يغني والعديد من الشرائق تظل سالمة .

٢ — وفي ذلك ما فيه من اتجاهات متشعبة تعلن تضحية الجزء أو حتى الفرد أحياناً وذلك في سبيل ضمان الحياة للباقي وللمجموع .

فالأوراق تسقط غير أن الشجرة تقف حية واليعاسيب أو ذكور النحل والعملة من بين النحل الطنان كلها تموت بينما تبقى صغار الملكات طيلة الشتاء كامنة .

٣ — التأهب للأوقات العصيبة وللأيام السود ولا شك أن بعض تلك التحضيرات إما أن يكون أوتوماتيكياً أي غير أرادى وذلك كالتسميد وإما أن يكون غريزياً كعمل النحل أو أرادياً مبنيًا على الفهم وذلك مثل كافة عمليات الخزن وماعسى أن يكون لدى (القندس) وقد نجد فيما عدا ذلك أنواعاً أخرى من مختلف التحضيرات شبيهة بأساليب التدثر وذلك كالبراعم والبذور والشرائق وما عند الحيوانات ذات الفراء .

٤ — ولعل أشهر من كل ما ذكر هو ما يدعى بالخدع الخريفية التي يتوسل بها الخلق بقصد اجتياز المصاعب فالمألوف لدى الكثير من الطيور هو التملص أو التهرب من الشتاء بالهجرة . ولسنا نجعل ما يعبر عنه بالتشتية المعروفة عند بعض الحيوان كالقنفاذ وغيرها من اعتاد على السبات الشتوي .

ذبول الأوراق :

لا تلبث الأوراق الخضراء التي ظلت طوال أشهر الصيف الحارة مقرراً للمعالجة

جبارة ، نقول لا تلبث أن تتضاءل في الخريف وتضمحل ثم تذبل وتذوى وتحف .
فلقد أصبحت تقاسى مرارة الاندثار وانطواء العمر ، ذلك أن الجهاز الذى يمدّ معامل
الحجيرات أوشك على الانحلال وقارب الاضمحلال ، ومع هذا فمن الخير للأوراق
أن تموت لتقلل من مساحة السطح المعرض الذى يتبخّر منه الماء ؛ فالتربة كلما
بردت أصبح من الصعب على الجذور أن تمد النبتة بالزاد والمؤن وبالحكمة ودقتها :
فالأوراق قبل أن تسقط تعيد لأمرها كل ما كان لديها من نافع ثمين وذلك من
خلال مجاريسيل فيها نحو الساق والجذور . وما هو هذا النافع الثمين غير السكر
والصبغة الخضراء بالإضافة إلى مواد معقّدة أخرى قد لا يستثنى منها أحياناً حتى
المادة الحيّة في الحجيّرة نفسها .

وعلى هذا فلا يبقى في الورقة الذابلة غير الرفات والجمال ، أمّا المادة الخضراء
(الكلوروفيل) فإنها إذ تتراجع تخلف وراءها حبيبات صفر تزين الورقة عادة
بكساء ذهبي جميل . وفيما عدا ذلك تظهر في الأزهار وفي الأثمار أيضاً صبغة خاصة
هى من النفايات أو الفضلات تدعى بمادة (الأنثوساينين) وهى صبغة الزهور
الزرق التى تكمل أوراق العوسج والكرم والعلّيق القرچينى وغيرها بأكاليل
الخريف البهية وبألوانه الباسمة الزاهية .

وأعمال الورق عملية بسيطة تنجزها النبتة على مهل وبطرق مختلفة وذلك بأن
ينشأ في قاعدة الورقة حيث اتصالها بالغصن خط ضعيف يتولد ضمنه فاصل فلينى
مستعرض يساعد على الانفraz الفعلى في حينه تاركا وراءه ندبة من أثر الالتحام
تقى النبات من إساءة الجراح . ومن ثم تأتى الأيام العاصفة فتساقط الأوراق على
الأرض بالآلوف وبذا تسبب إخصاب التربة كما أخضبت النبتة قبل حين .

جهاد دودة الأرض :

وفي الخريف تشرع دودة الأرض بجهادها المضنى وكفاحها المشر إذ تستهل

نشاطها بسحب أوراق الشجر المنتشرة على الصعيد إلى حفرها وهناك تحيلها إلى عجائن نباتية تدفعها إلى قانصاتها بعد أن تخلطها بالتربة الناعمة ومن ثم تعيدها إلى الأرض مسحوقة مهروشة وعن هذا الطريق الذي لا يتعدى الحفر والجرش والدفن أبانت هذه الدودة على تكوين معظم الأراضي الخصبة في العالم .

ريق العناكب :

قد لا يفوت يوم من أيام السنة لا نلاحظ فيه غالباً شأيب طائرة من ريق العناكب ومع ذلك فإننا نعتبر الخريف دون سواه هو موسمها الخاص . إن أهمية ذلك من الوجهة البيولوجية تعود إلى كثرة انتشار العناكب الصغيرة ونفرتها من أوكار تزدهم فيها ، وهذا الازدحام يتعاضم كلما ازداد حر الصيف . وإليك ما يحدث فهو جدير بالالتفات والتأمل .

إذا هب النسيم عليلًا في أصبحة أيام الخريف الهادئة تندفع العناكب الصغيرة (وخصوصاً الفتية منها) من محلاتها وتأخذ طريقها متبخثرة تعلى الصواري والأسوار وذراى الأعشاب العالية كيفما اتفق ، وهناك تقف متوجهة إلى الريح وتبعث من غزالاتها خيوطاً حريرية لا تقل عن أربعة لكل منها . إن هذه الخيوط المتعددة تنبثق من سائل لعابي يتصلب عند تعرضه للهواء حالا وبذا تظل تلك الخيوط فى الهواء ممددة سائبة ترف وتتموج ، وفى هذا الوقت تترك العنكبنة الصغيرة مجشها وتعلق بالخيوط بشكل مقلوب وتطير بها على أجنحة الريح إلى ما شاء الله . وإذا ما شرعت ألوف من هذه العناكب برحلاتها الهوائية فى صباح يوم من هذه الأيام تنهى فى النهاية إلى الأرض فإن خيوطها عندئذ لتغطى سطوحا واسعة من بقاع الرياض والحقول والمروج المنبسطة وهذا ما يدعى بشأيب ريق العناكب . ولنتصور هذا الركب غير الممنح الذى يتمطى العديد من مناطيده إلى أميال بعيدة حتى لا يكاد يقف إلا عند ساحل البحر وإلا فإن هذه الحيوانات تكون قادرة على القيام بهجرة قصية ناجحة بكل سهولة وبدون أن تعرف الكلل .

ألوان الخريف :

إن من بين مظاهر الخريف المبهجة السارة هو التلون البديع الذى يصيب أوراق الأشجار الذابلة . نعم قد يصادف أحيانا أن الأوراق تتساقط وهى لا تزال خضرة قوية ولكنها تنكسر بتأثير الصقيع الذى يجلّ قبل أوانه ثم تهب عليها العواصف فتلتوى وتتساقط قبل أن تموت . غير أن هذه الحال قليلة والغالب هو حدوث تغير فى الهيئة عجيب فقد تتجلى الأوراق الذابلة بأشكال جميلة حتى لتبين وكأنها أزهار جديدة تزين الأشجار فى موسم غير موسمه المعروف . خبرنى ألا تستأق أن تتمتع نفسك ببعض أزهار الغاب فى الخريف . إذا كنت كذلك ؛ إذن فانظر أمامك فهى شجرة (البتولا) صفراء ذهبية وتلك هى شجرة (الدرء) أو ما يسمى بشجرة لسان العصفير صفراء ليمونية وهذا الزان أحمر مغبر . أما البلوط فأمغر (أسمر ضارب للحمرة) والكرز الغابى قرمزي فاتح والعليق الفرجينى قرمزي أيضاً . وأخيراً تأمل أوراق العوسج والكرم ألا تراها وكأنها لا تختلف بشيء عن لوحة المصوّر ذات الألوان السندسية العجيبة .

لقد اتضح لنا فيما فات أن الخريف هو ناقوس الغروب فى السنة وهذا صحيح لأن النار التى تأججت فى الصيف توشك أن تتمد أو تنطفئ وعليه تسرع الحلوقات إلى التنازل عن بعض أجزائها المكشوفة القابلة للعطب ؛ كما أن الكثير من الطيور تودّع أوطانها وداعاً حاراً وتتنى لها أن تعود إليها سالمة . أما غيرها من الحيوان فيترك إلى مكانه ملتصقاً السبات لينزوى ويستكن . وماذا يعنى سقوط الورقة إنه ولا شك بمثابة الجزية التى تؤدّيها الشجرة لقاء تلك الألعاب والجهود التى أنفقتها فى الصيف المنصرم .

ذكرنا آنفاً أن بعض الأوراق يتفق سقوطها وهى لا تزال طرية ثقيلة خلافاً للمألوف الذى لا يجمله أحد وهو أن الأوراق المتساقطة يجب أن تكون يابسة خفيفة بحيث يسهل حملها على أجنحة الريح ، وهى إذا ما حطّت استطاع الإنسان أن يسمع

لها خشخشة أو حفيفا كلما جرفها الهواء على الأرض . وسبب ذلك يعود إلى الحقيقة الكبرى وهي أن الأوراق قبل أن تدبل تسلم إلى سوق أمهاتها كل ما لديها من ثمين نافع ، فلقد كانت هناك حركة نقل للبضاعة المصنوعة طيلة وقت الصيف تدأب بلا انقطاع ما دامت الورقة حيّة . إن هذه النقطة مهمة جداً لتفهّم أصباغ الخريف وذلك لوجود علاقة متينة بينهما وبين انحلال المادة الخضراء ، أو ما تدعى بحبيبات الكلوروفيل . إن هذه الحبيبات التي هي ضرورية لحد ما في الانتفاع بنور الشمس جهاز لوني معقد ، إذ أنه فيما عدا احتوائه على نوعين من الصبغة الخضراء الزرقاء وهما المهمتان في التركيب الضوئي لاحتفاظيه وجود نوعين آخرين من الصبغة الخضراء الصفراء مما نجعل فائدتهما في الوقت الحاضر . ومهما يكن من أمر فإن ما يحدث أثناء الذبول حيث يتم انحلال عقد الكلوروفيل هو أن الصبغتين الخضراء والزرقاء الثمينتين تنحدران من الورقة إلى الساق لحفظهما والاستفادة منهما في العام القادم . أما الصبغتان الأخريان فتبقىان حيث هما وذلك لعدم الحاجة إليهما وهكذا فإن الشجرة لا تتكلف بدفعهما إلى بدن الأم وهما بعد أن يمرا ببعض التحوّلات يكسبان الأوراق عند الذبول اللون الذهبي البهيج ، فبالجمال الرفات المحمولة إلينا من وجه الطبيعة النضر الصبوح .

والواقع أن الصبغة الصفراء الكلوروفيلية هي التي تخلق في تلك العمارات الخالية كل تلك الألوان الذهبية الزاهية . أما علة بقاء الألوان كالياقوتي والعقيق والرماني التي تعجبنا في السكرز الأرجواني وفي بعض الأشجار من جنس الكمثرى ، واللون القرمزي في نبات أمير باريس وكرز الغاب ، واللون البنفسجي في نبات حب الشوم وشجرة المردن ، فهي بلاريب متأتية من وجود صبغة قابلة الذوبان في العصير الحجيرى تدعى (الاثوساينين) أو صبغة الزهور الزرقاء التي يكثر وجودها في النبات بهيئات مختلفة حيث تتعاون فيها أحيانا مع الصبغة الصفراء الكلوروفيلية الطليقة ، وبذا تخلق في النبات هذا المزج الساحر المعقد من الألوان .

(٤)

هجرة الشتاء

« هذا الملتف بأبراد الثلج »

وبذهاب الصيف والخريف تلاشت حركة المد وحلت حركة الجزر في عمر السنة . وعلة ذلك في الأساس هي هبوط في وارد كل من الحرارة والنور مما يسبب بطئاً ظاهراً في العمليات الكيماوية الدائرة في الجسم الحيّ وعطلاً كلياً في فعالية الأوراق الخضر . ومع هذا فإن هناك دواعي أخرى بيّنة لأن تدني الحرارة يحتم دون ما هوادة إقصاء وطرح الكثير من الأجزاء الرخوة الدقيقة في النبات والحيوان لئلا يتعرض المخلوق كله للموت . أما شدة البرد الذي يكتنف سطح الأرض آنذا فهو عامل يجبر معظم الحيوانات على الاختباء والرقاد في المنخفضات كما أن الفاقة وقصر النهار والعواصف الهابة أسباب ثلاثة كافية تحدد بالطيور إلى الهجرة نحو المناطق الجنوبية الدافئة وفيما عدا هذا وذاك فإننا نتلمس بوضوح انبعاث حاجة فسيولوجية قوية تدعو الجميع إلى الراحة بعد ذاك العناء الطويل .

بياض الشتاء :

ولعل أبرز صفحة في الأهمية تتصل بتاريخ حياة هذا الموسم هي ما نقرؤه من تعدد الحلول التي تبذلها المخلوقات لمواجهة ظواهر القبر المذكورة آنفاً ألا وهي البرد والفاقة ومرارة العواصف . إن في مقدمة تلك الصفحة يأتي تغير اللون والاكتساء بالبياض لأن هذه الظاهرة تعتبر بحق من أدق تلك الحلول وأتقنها . انظر إلى القطا الجبلي (وهو نوع يقطن في جبال شمالى أوروبا) والأرنب البري والمنجو (وهو من ذوات الأربع يشبه الفأر ويعيش في المناطق القريبة من خليج هدسن في أمريكا) والثعلب القطبي والقاقوم الأسمر العادي وهو من فصيلة ابن عرس الذي يصبح فيما بعد القاقوم الأبيض الناصع فهي قليل من كثير من الحيوانات التي تتوسل بهذا الحلّ الفريد العجيب .

إننا نجعل لحد الآن الشرح اللازم الذي يفسر لنا كيف يمثل هذا الشعار الشتوي الأبيض دورية متأصلة في الجنس خالية من أي صبغة للشعر أثناء

مهبط السنة كما أننا لا نعلم مدى صحة القول من أن البياض يعنى أن البرد له تأثير ذاتى مباشر على العمليات الكيميائية في الجسم وعلى الدورة الدموية في الجلد. إننا على كل حال بانتظار حقائق جديدة تكشف لنا ما عُمِيَ علينا من هذين الأمرين.

ونحن لو جئنا نقتفى آثار القطا الجبلى الأبيض وهو ينتقل وسط الثلوج التي تغطي التلال العالية أصبح لزاما أن نقنع بأهمية البياض من الوجهة الوقائية إذ أنه يحلّل الطير بقتاع يخفيه عن الأعين. وهذا رأى لا بد من قبوله في الحال. غير أنه لو تأملنا كيف يكون الأرنب الجبلى ظاهرا جليا عندما تنتصب وراء موقفه أكوام الثلج فسرعان ما تهاجمنا الشكوك وتطغى علينا الريب ونكون عندئذ على استعداد لرفض التفسير السابق الذكر. وخصوصا بعد أن نعلم أن (القاوم) ليس له في الغالب عدو يخشاه حتى يتحوّل إلى القاوم الأبيض. أما إذا قيل إن الضواري الرواغة قادرة على الانسلال إلى فريستها من مثل (الطرحان) و (الطيحوج) وهما نوعان من القطا يعيشان وسط الثلج في الجبال فبالامكان عندئذ الرد على ذلك بقولنا إن القطا الجبلى الأبيض ظاهر غير خفي في محيط غير أبيض. وإذن فنحن مضطرين أن نبحت عن مغزى أعمق وأدق فيما يتصل بكل من دورية البياض للطرحان والقطا الجبلى ومن دوام البياض الذي يكسو البوم الثلجي والدب القطبي. ولعلنا نستطيع أن نتلمس هذا الغز البيولوجي بالتفسير التالى : وهو أن

البياض في الأجواء الباردة يتفق وجوده اقتصاديا وحاجة الحيوان من ذوى الدم الحار لأنه لا يكلف صاحبه خسارة تذكر من ينبوع الحرارة الغريزية الثمين وهو من الوجهة الفسيولوجية أفضل كساء في مقدوره أن يحتفظ دائما بحرارة الجسم الضرورية لتسيير كافة العمليات الكيميائية بسهولة وسرعة وإتقان ، وهو كذلك أفضل رداء يرتديه الحيوان في الأجواء الحارة لأنه قادر في هذه الحالة على أن يمتص من الحرارة الخارجية أقل مما يمتصه أى لون آخر .

الرقاد في المنخفضات :

وهذا هو الأسلوب الثاني من الأساليب المتبعة لمواجهة حدة الشتاء . إنه الاستسلام للنوم العميق في أوكار منخفضة داخلية دون ما حساسة أو كلام . والسبب في ذلك هو أن الهبوط في الوارد يحتمّ تقليل المصروف أو حتى إيقافه بالمرّة وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يجب إقراره آنثذ .

تأمل أنواع القواقع ترها تندفع للتفتيش عن مخايب وفرجات في الجدر المتداعية حتى إذا ما اطأنت راحت فيها مدة أشهر البرد سابتة هادمة ساكنة بعد أن تحكم سدّ أفواهها القشرية بغطاء من المدر والجير الصلب ، وهي على هذا لا تفقد أي شيء من وزنها ولا تضعيع بالانحلال جزءاً من أنسجتها . حتى إذا ما وصلت درجة حرارة المحيط إلى نقطة الانجماد شرع القلب في بعض أنواعها مثل قواقع الرياض بالضرب أربع مرّات في الدقيقة الواحدة بدلا من أربعين كان يضر بها أيام الصيف . إن ذلك ولا شك أسلوب قاس واختبار في المعيشة مرير . ولكنه بالرغم من كل الأحوال المذكورة أسلوب يمنح السلام ويمنّ بالأمان ويبقى من الموت وله عياره في هذا الوجود على الدوام .

والجدير بالذكر هو أن العثّ والفراش يتبع كل منهما في الغالب نفس هذه الطريقة التي تتبعها القواقع لتأمين السبات الشتوي ، إذ نجدها تمكث محتفية داخل الشرائق مدة أشهر البرد حتى لتبين وهي بأوضاعها المختلفة أشبه شيء ببذور النبات . هذا ولا يفوتنا أن نشيد إلى أن التحوّلات الكيميائية في كل من الحالتين المارّ ذكرهما لا تني قائمة على قدم وساق وخصوصا إذا خفّت حدة الشتاء وصارت أيام الربيع على الأبواب .

وإليك مثل آخر في الضفدع البالغ : إن هذا الحيوان يفتات عادة على دود الأرض والبرّاق وبعض أنواع الحشرات والديدان الصغيرة مما لا يستطيع الحصول عليه في أيام الشتاء القارسة ، تلك الأيام التي من شأنها أن تجلب العسر وتذهب

باليسر ، وعليه فإن الضفدع حالما يشعر بلذعة البرد يتعجل طريقه إلى أحد الثقوب الكائنة على الشاطئ أو على سطح أنبوب عاطل من أنابيب تصريف المياه وحتى بين طيات الوحول أحياناً كي يستكن فيه ويعرق في نوم هادئ عميق .

وما يفعله الضفدع تفعله العظاية عديمة الأطراف ، والديدان البطيئة ؛ حيث تكن عادة بقرب حواشى المجارى المطحلبة وفي الخبائء الكائنة بين الأحجار وأكداس الدريس ملتفة على بعضها بشكل حزم تحتوى الواحدة منها على عشر أو يزيد . ولا يستبعد أن نعر بينها — وهى بهذا الوضع — على عقد كبيرة من الأفاعى الغافية . وقبل أن تنتهى من هذا البحث علينا أن نفهم بأن هذا النوع من النوم الشتوى هو غير ما يدعى بالتشتية الحقيقية لأن هذه الأخيرة تخص فقط بعض أنواع اللبائن لا غير وليس لبقية الأنواع علاقة بها بصورة مطابقة .

والواقع أن حرارة الجسم فى الحيوانات باردة الدم كالزواحف والبرمائيات والأسماك تهبط فى الشتاء حتى لتكاد تقترب من حرارة الوسط الذى تعيش فيه . ولذا نجد أنها ترجح الانزواء فى الخبائء المنعزلة والخفر المستورة لدقتها ، ومع ذلك فقد يصاب الجسم عندها بالبيوسة ، غير أن ذلك لا يؤدى بالحيوان إلى الموت إلا إذا أصيب القلب بالجمود ، وعند ذاك فقط علينا أن نتوقع بأن الرقدة أبدية ليس للحياة فيها من نصيب أو عود .

ومما يدهش حقاً هو ندرة البقاء فى حالة ما إذا كانت الحياة الاعتيادية للحيوان ذات فعالية عنيفة ، ولكن ليس من الصعوبة بمكان أن نتفهم علة دوام الجنس عندما نشاهد إحدى الحشرات مثلاً وهى تقضى الشتاء فى دور عذراء حية ملتصقة بأرديتها بكل دقة وإتقان . ومن هذه الحالات أمثال آخر عديدة ، منها التجاء ملكة الزنبور البالغة إلى فجوة أو شق قديم من ساق شجرة معمرة واختفاء ملكة النحل المسنة فى بطن إحدى الخفر الدافئة التى تطل على ضفاف شاطئ معشوشب .

التشتية أو نوم الشتاء الحقيقي :

وهي كما أسلفنا تخصّ بعض أنواع اللبائن المعروفة مثل القنفذ والمرموط أو قار الجبل والزغبة والخفاش وإليك سبب ذلك موجزاً : إن أنواعاً من اللبائن كالتي ذكرت آنفاً مصابة بنقص قوّة الدم التي تمتلكها بقية اللبائن وكل أنواع الطيور ونعني بها القوّة التي تنظّم إنتاج الحرارة وصرفها بحيث لا تخل بميزان حرارة الجسم بل تبقيه على قرار ثابت معتدل . وإذن فالحيوانات الشتائية هي تلك اللبائن التي ليس في مقدورها ضبط حساباتها الخاصة بدرجات الحرارة ولذا لا تري بدام أن تستسلم للنوم إذا حلّ الشتاء ، وقد أخضع برده القارس مواطنها لسلطانها الجبار وذلك لكونها تصبح عاجزة عن المقاومة في نزاع غير مجدى فتتقاد مرغمة لذلك الإيقاع الطبيعى الموروث الذى يدفعها للانسياب غريزياً إلى أوكار خفية مريحة تكون عادة أدفاً من المحيط الخارجى . وهي بهذا يشبه حال الزواحف ذوات الدم البارد فلا يؤدّى مكوثها في هذه الزوايا خلال أشهر الشتاء إلى الموت اللهم إلا إذا اندفعت للتشتية في العراء فينثند يصبح هلاكها محتماً وفنائها أكيداً .

التكسّ في أجرام صغيرة :

وانظر إلى السوسن والخزامى و(الحلحل) تجد أن لها أسلوباً آخر للقاء الشتاء وهو أن ينزوى جسم النبتة ويلتئم ثم يتجمّع بحجم صغير بحيث يصبح عرضة لأقل ما يمكن من المؤثرات الخارجية وهكذا لا تلبث أوراق النبتة أن تنسل عنها فوراً وتتساقط مرة واحدة من مرابطها كما تترك أفراد الطليعة مراكزها القائمة على الحدود حينما يدهمها العدو ويكرهها على الاستسلام ، أما البرعمة فتظل كأسفين أو رأس رمح في مضرب الشتاء المنتصب .

ولعلنا لا نرى أمتع من أسلوب النبتة المسماة (بذات الأكياس) في ملاقة موسم البرد والصقيع . إن هذه النبتة هي من النباتات (الثائية) وهي ضرب من الأنواع المائية يعيش قرب الخلجان والبحيرات ويقتات على براغيث الماء التي يقتنصها بواسطة

شباك صغيرة منتشرة على سوقه الطافية . ففي الخريف تمتلئ البراعم الانتهازية بالزاد الاحتياطي الوفير حتى إذا آن أوانها سقطت في الماء وغطست إلى القاع الدافئ لتمكث هنالك في مكمنها المريح إلى أن يحلّ الربيع وعندئذ تخفّ وتطفو كرة أخرى على سطح الماء وبذا تعيد دورة حياتها الأصلية من جديد .

أمّا (الإدخار) فحلّ آخر بدیع يختص به بعض الحيوانات فالسنجاب بأهرائه المشحونة بالبندق يحاكي غريزيا ربة البيت الماهرة . و (الهمستر) وهو نوع من الجرذان له على كل جنب من فكّيه كيس تحت الجلد ينقل بواسطتهما الحبوب والحمص والبلوط إلى مخازنه الشتوية ، فهو بتلك العنابر المملوءة بالحشيش والحبوب يقلّد بالغريرة عمل الفلاح النبيه .

ومن المفيد أن نتعرّف قليلا إلى نوع من النمل يدعى بنمل البحر الأبيض المتوسط أو مايسمى عاميّا (افنو كاستر ساردو) . إن هذا النمل يعيش في حفر تحت الأرض ولكنه لا يخزن شيئا بل يزدحم على بعضه بشكل كتل كروية تعطى لنظام مجتمعه طابعا خاصا ، وكيفية ذلك هي أن جماعات النمل تشتبك في تلك الكتل مع بعضها البعض متلازمة بواسطة الفكوك وأرساغ الأقدام وهي تحمل في أحضانها أي في مراكز الكرات البيض واليرقات والشرانق . أليست هذه الجماعات وهي في وضعها هذا تعطينا صورة أولية ولكنها واضحة من صور المجتمع الأمومي ، أفي ذلك شك ؟ ولقد دلّ الفحص بأن الكتلة الواحدة تعدّ من ٣٠٠ إلى الألف نملة وكل منها خال من الذكور وليس فيه أكثر من ملكة واحدة . والغريب أن هذه المكرة تظهر في الشتاء صلبة متينة لا يفصم عراها بسهولة وخصوصا إذا لم تقط بالتراب ؛ أما إذا جاء الصيف فإنها تصبح بطبيعة الحال مرنة قابلة للتحلل والتمدد باستمرار . والذي يهمنّا من كل ذلك هو أن هذا الوضع البسيط الذي نشاهده هنا لدى جماعة متضامة لا بد وأن يكون نقطة البداية التي أدّت إلى إنشاء تلك

العمارات الشاهقة من تلؤل قرى النمل حيث أعان الخزن الوفير فيها على خلق حياة اجتماعية للنمل أكثر إتقاناً وأبعد أصولاً .

الهجرة :

وتلك هي مداراة الشتاء ومصانعته بالخدمة مما أدى إلى اعتبارها بحق أدق الحلول جميعاً على الإطلاق وهي وسيلة مهترت بها الطيور المهاجرة التي لا تعرف (بالمعنى الخرفي) وجه الشتاء في كل عام من أعوام عمرها . ولتوضيح ذلك نقول : — لقد تأصل في تكوين الأغلبية الساحقة من طيور المنطقة المعتدلة الشمالية غريزة الإجتياز في فصل الخريف (من مناطق التفرخ التي تكون في الغالب أبرد جواً من بقاع الهجرة) إلى أماكن مريحة تقع في أصقاع المنطقة الدافئة الجنوبية . والواقع هو أن عدم مواجهة الشتاء والإفلات منه بالمرّة هو أدق الأساليب التي أبدعها الحيوان حفظاً لسلامته من شرور هذا الموسم المربّد . ويتضح لنا ذلك نسبياً من شواهد معروفة وهي أن أغلب طيور الكروان (بفتح الكاف والراء) وهو طائر مغرّد تكثف بالانحدار من أطراف المستنقعات الجذبة إلى الحقول والمزارع المشرفة على السواحل . كما أن طيور الزقراق أو التّباح (بضم النون) تقنع بالاجتياز فقط من (ابردينشير) في انكلترا إلى أيرلندة . والجدير بالملاحظة هو أن أنواعاً مختلفة من الطيور التي اعتادت أن تعيش في أقصى الشمال مثل طائر (السكلة) (بفتح السين والكاف واللام) من فصيلة الدجّ (بضم الدال) وطائر أم رباح وطائر الدرسة الثلجي (بضم الدال) والكثير من الطيور الغواصة وقليل من البطريق تلوذ كلها في الشتاء بالجزر البريطانية وذلك لملاءمة جوّها وموافقته لها فهي إذن ضيوف الجزر في هذا الموسم .

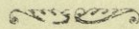
الاختزال في العدد :

وهو ما يمثل لنا في عشّ (الزنبور) الخاوي ، إذ يبتلى سكانه قبل ذاك باختزال مخيف لا يبقى على أثره سوى الملكات الصغيرات اللاتي يظالّن مدة الشتاء وحيدات

وهن محتبئات سابغات فى الأوكار الدافئة الواقعة فى ساق شجرة منحوبة . أما تفصيل الحال فهو أنه عندما يوشك الخريف أن ينقضى تحلّ فى عشّ الزنبور نكبة قاهرة ومأساة مرعبة كالحلة تأتى على جميع اليرقات الموجودة فى الخلايا فلا تبقى منها ولا تذر وذلك لأنها تلتهم بشرهة فتكون الدّ غداء للأميرات . إن هذا الإفناء بالجملة الذى يصيب الأفراخ لا يتوقع حدوثه إلّا بمنجل الموت الحادّ الذى يصطحب الشتاء . ولكن ذلك لا يحصل . ومن يدرى فلعل هذا الاتهام يعين الملكات الصغيرات على أن يجتزن أشهر الشتاء بسلام وهن وادعات فى الخباىء المصونة . والمعروف أن كل ذلك يحصل أيضا بقضه وقضيضه فى خلايا النحل فتلك الجماعات الغفيرة التى عاشت فى الصيف لا يبقى منها فى الشتاء سوى الملكات الناشئة لا غير .

إقصاء وحذف :

إن كل ما ذكرناه آنفا هو مجمل لحالات تؤدّى بنا طبيعيا إلى الحقيقة المعروفة فى تاريخ حياة الشتاء ألا وهى الغرلة أو التنقية . فالشتاء فى الواقع بالرغم من كونه الموسم الذى تتدوّق فيه المخلوقات طعم الراحة والسكون فهو فى نفس الوقت فرصة قاسية تبلى فيها الأحياء بالإقصاء والغرلة دون ما هوادة أو لين . ومما لا شك فيه أن الراحة والنوم والهدوء غالبا ما تكون شروطا ضرورية لبعث النشاط والهمة والاندفاع خلال الربيع القادم . ولو شئنا أن نزيد لقلنا إن الغرلة والتذرية والتشذيب والحذف والإقصاء مما نجده حتما فى صلب أعمار الشتاء كلها عوامل فعّالة قوية من شأنها أن تخلق ربيعا بعد ربيع مما لا نهاية له فى سلم التطوّر المتعالى الشامخ .



التبائن والتشابه في المخلوقات الحية

« إن الكأس المصدوعة يسيل منها عصير
الكروم، والريحان الذابل؛ إذا وطئته قدماك
تضوع شذاه بين خطاك » .

يختص علم الحيوان بدراسة الحيوانات من حيث تركيبها وبنيتها ووظائفها وعلاقتها بالبيئة التي تعيش فيها وهذا العلم شقيق علم النبات الذي يبحث عن جميع المخلوقات النباتية وكلاهما فرعان من علم شامل هو البيولوجيا أو علم الحياة .
إن المخلوقات الحية من نبات وحيوان تكتسب ميزات مشتركة لا نجدها في الموجودات الجامدة فهي تتغذى وتنمو وتتكاثر، وعلى ذلك يمكننا أن نعرف الحياة بالحالة التي يكون فيها المخلوق قادرا على أن يتغذى وينمو ويتكاثر . بيد أن هذا النمو يختلف كثيرا عن نمو قطعة صغيرة من الثلج عند تدرجها على سفح الجبل إلى أعماق الوادي كما أنه لا يشبه نمو بلورة من ملح معين وسط محلول من السوائل ذلك لأن نمو المخلوق الحي لا يتم بإضافة بعض المواد الجديدة إلى سطحه الخارجي بل في تسرب جزيئات المادة المضافة خلال أدق الأجزاء الموجودة في جسمه وهذا ما يسمى أحيانا بالنمو الداخلي . أما التكاثر أو التناسل فنعني بهما تكوين مخلوقات جديدة من جراثيم صغيرة تنفصل عن الجسم الحي المولّد وتصبح بعد أن يكمل نموها مشابهة له .

ولا بد لطالب هذا العلم أن يعرف قبل الخوض في الموضوع الفوارق الأساسية بين النبات والحيوان . والواقع إن التمييز بينهما سهل غالبا وقد يشكل أحيانا لعدم وجود مقاييس ثابتة يمكننا الاعتماد عليها ، فقد لا يصعب على الطفل مثلا أن يعلم أن الحيوان هو المخلوق الذي له القدرة على الهروب من العدو حتى لا يقع أسيرا في يده وذلك بعكس النبات الذي يفقد تلك المقدرة في المقاومة فلا يبدي حراكا أمام أى اعتداء كان . والحقيقة أن المعنى الذي انطوت عليه في الأصل كلمة الحيوان هي الحركة الذاتية . ولكن مهلاً ! فقد أظهرت بعض الأفلام السينمائية للجمهور بصورة جلية أن للنباتات أيضا نوعا من الحركة لكنها على كل حال لا تضاهي بالطبع حركة الحيوان في نشاطها وسرعتها .

لماذا يأكل الحيوان النبات :

إن البحث عن الفوارق الأساسية بين الحيوانات والنباتات يقودنا لا محالة إلى دراسة طبيعة الغذاء الذى يختص به كل منهما على حدة . فالحيوان حسب التعريف العلمى هو المخلوق الذى له قابلية الحركة والذى يتطلب لمعيشته نوعا من الطعام يتكون من مركبات كيميائية معقدة تعرف بالزلاليات يأخذها غالبا فى حالة الصلابة ويهضمها فى جوفه .

أما النبات من الجهة الثانية فمقدوره أن يركب إذا كان معرضا لنور الشمس مادة البروتوبلازما الحية وذلك من مواد فى غاية البساطة . وتتم هذه العملية فى النباتات الخضر بمساعدة اليخضير (الكلوروفيل) ، فإن هذه المادة تسهل اتحاد الكربون من غاز ثانى أوكسيد الكربون الموجود فى الهواء بالماء لتكوين النشا ثم السكر ، وفى حالة الحصول على بعض المواد الأزوتية من التربة تنقلب تلك المركبات الناتجة إلى زلال . ومن هذا نعلم أن الحيوان ليس فى طاقته أن يركب من المواد العضوية بروتوبلازما حية حتى ولا يمكنه ذلك من مشتقات الزلال نفسها كالحوامض الأمينية وهى مركبات جاهزة أبسط فى تكوينها من المركبات الزلالية (البروتينية) التى تحتوى عادة على الأزوت بدرجة واحدة فقط . ولما كان الحال كذلك أصبح فى حكم الحتم أن تندفع الحيوانات الكاسرة فتفترس الحيوانات الآكلة للحشائش للحصول على الأزوتيات الضرورية . وهذه الأخيرة تتكامل على النبات مباشرة إذ تستمد منه تلك المواد بطريقة أدق . وهكذا أصبحت جميع الحيوانات فى النتيجة عالة على النباتات تكتسب منها قوتها اللازم وفى ذلك مجال لنموها وتكاثرها .

إننا نجد عند البحث عن الكائنات الدنيا التى يكون معظمها ميكروسكوبى الحجم — أنه من الصعب جداً إذا لم يكن مستحيلا تمييز الحيوان عن النبات

بعكس ما إذا كان هذا التمييز جاريا بين المخلوقات الراقية من المملكةتين ، ففي هذه الحالة تظهر الميزات الفارقة بارزة للعيان حيث نشاهد أن الحيوان ملزوم بالتفتيش عن غذائه وله من حركته وانتقاله ما يعينه على ذلك ويساعده على التزاوج السريع كما أن وجود بعض الأجهزة الدقيقة التركيب في جسمه كالجهازين العصبى والهضمى يدل على أن له جسما أعقد بكثير من جسم النبات .

إن نظرية التطور قد أبدلت نظرة العالم للحيوانات إذ أثبتت أن الحيوان هو مجموعة تكيفات لأحوال الحياة المتغيرة باستمرار ، وذلك من جراء التنارع القائم على قدم وساق بين المخلوقات الحية ، بقصد المحافظة على النفس والمحافظة على النوع . ومن الجدير بالذكر إن التنارع لا بد من وجوده في كل مناطق العالم المسكونة بالأحياء .

تكييفات الحيوان :

يظهر التكيف جليا عند النمر والقط وذلك في التعقب وملاحقة الفريسة وكيفية قبضها والانقضاض عليها ، فالنمر مثالا يسير وراء فريسته دون أن يحدث صوتا إذ يخفى محالبه في أغلفة خاصة ولا يمشى إلا على أصابعه فقط متتبعا ومعتمدا على قوة حاستيه الشامة والسامعة بينما يعينه شارباه الطويلان في قياس وسعة الثغور الضيقة بين الأدغال الكثيفة ، وينتهى الصيد عادة بقفزة سريعة وقوية جدا تبرز أثناءها الخالب الصلبة من مكانها فتعين الأنياب الحادة في القبض على الفريسة قبضة لا مفر منها . وهناك أنواع من اللبائن — الحيوانات ذات الدم الحار والتي ترضع صغارها — مثل الفقمّة (عجل البحر) والحيتان ، أصبحت بتكيفها الثانوى قادرة على المعيشة المائية حيث نجدها قد اكتسبت الشكل الظاهري للأسماك .

أننا عند ما نتفهم مميزات آكلة اللحوم (المفترسة) نجد أن هناك فروقا بين

بعضها البعض أو تشابها بين الواحد والآخر مما يدل على قرب الصلة أو بعدها، فالكلب والذئب والثعلب وابن آوى كلها حيوانات متقاربة أكثر من تقارب أى منها إلى القط والنمر والأسد والفهد ولهذا السبب صنّفت الجماعة الأولى تحت فصيلة لا تشابه فصيلة الفرقة الثانية فسمّيت الأولى فصيلة الكلب ودعيت الثانية فصيلة القط ، وعلى هذا القياس وضعت الدببة تحت اسم فصيلة الدب والضبع تحت اسم فصيلة الضبع . ولكن عند ما نتأمل قليلا نشاهد أن أفراد الفصيلة الواحدة لا تخلو من بعض الاختلافات التى تتعلق مثلا بهيئة الأسنان أو بشكل الخالب وهذا يضطرنا لعزلها إلى جماعات أصغر تسمى بالأجناس التى تنشعب بدورها لوجود بعض التباينات بين أفرادها إلى أنواع .

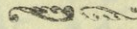
لقد ابتكر العالم الأسويدي (لينوس) فى تصنيف الحيوان و (النبات أيضا) طريقة التسمية المزدوجة ، وهذه الطريقة تعنى أن الحيوان الواحد يعرف دائما باسم مزدوج ؛ الكلمة الأولى منه اسم للجنس الشامل لجميع الأنواع التابعة له والكلمة الثانية اسم للنوع الخاص بذلك الحيوان والكلمتان تنتهيان بأداة لاحقة ، لاتينية التركيب ومن مسميات بعض المناطق أو الموجودات . ويقدم اسم الجنس عادة على اسم النوع ويكتب أوله بحرف كبير إشارة إلى العلمية . فمثلا إن القطّة الأهلية تدعى *Felis domestica* والنمرة *Felis tigris* والأسد *Felis leo* وبما أن أسماء الحيوانات تختلف كثيرا باختلاف المناطق وحتى فى أجزاء المنطقة الواحدة أصبح الاسم العلمى ذا فائدة كبرى فى تسهيل البحث على طالبيه .

ولكن قد يحدث أن لا تتفق أفراد النوع الواحد ببعض الصفات العامة إذ يكون بينها تباين طفيف جدا فى الميزات التفصيلية ، فمثلا نشاهد أن بعضا من القطط الأهلية لا ذيل لها والبعض يملك شعرا طويلا مثل القطط الفارسية ولمعرفة هذه بدقة يقسم النوع إلى زمر ؛ كل زمرة منها تدعى ضرب للهرة البيئية

إن هذه الضروب الناتجة بتأثير الانتخاب الطبيعي تدعى بالعروق أو الأنسال كما نجد ذلك في الحمام : فهناك حمام الزاجل والحمام ذو الكيس والحمام ذو الذنب المروحي والقمرى والفواخت وغيرها من أنسال الحمام ، التي ولو كانت تختلف نوعا في الهيئة والحجم إلا أنها من أرومة واحدة هي حمامة الصخر الزرقاء . أما (الدجاجة الهندية) الصغيرة المسماة بدجاجة الغاب فتعد الجذع الأصلي لجميع تنوعات الدجاج التي منها الليغورن والمينوركاس والويندات والاوربنكتون وغيرها .

لقد سعى علماء الحيوان كثيرا في اتباع طريقة طبيعية في التصنيف وتحاشوا الطريقة الصناعية لأن الطريقة الثانية قد تجر مثلا إلى جمع الخفاش والطيور تحت عنوان واحد على أساس وجود الجناح عند الطرفين وتصنيف الحيتان والأسماك في مرتبة واحدة لمعيشتها المائية ولوجود الزعانف في أجسامها . غير أن الدراسة الدقيقة في المرفولوجيا (علم تركيب الأعضاء) والميستولوجيا (علم الأنسجة) والأنثروبولوجيا أو (علم الأجنحة) تقيدنا أن كلا من الخفاش والحوت له الميزات الأساسية لنوات الأربع ولهما قرابة متينة باللبائن . وعلى ذكر الخفاش والحوت علينا أن نشرح القارىء اصطلاحين مهمين في علم الحيوان هما (الممولوجيا) أو التعادل في التركيب و (الأنولوجيا) أو التعادل في الوظيفة فإذا كانت أجزاء جسمين حيوانين مختلفين تحتل موضعا معينا في كل من الجسمين وتنمو بصورة واحدة نقول عندئذ إن لها التعادل في التركيب بصرف النظر عن الوظيفة التي تقوم بها وبالعكس إذا ما قامت هذه الأجزاء بنفس الوظيفة واختلفت مواضعها في الجسمين أو نمت بطرق مختلفة كان لها التعادل في الوظيفة فأجنحة الخفاش والطيور لها ذلك حيث تراها تقوم بنفس الوظيفة أو العمل ولكنها تنمو أيضا بنفس الطريقة فكلاهما (الجناحان) أطراف محورة ولذا كان لها التعادل في التركيب أيضا . وبالعكس نجد أن أجنحة الطيور وأجنحة الحشرات لها التعادل في الوظيفة وليس لها التعادل في التركيب لأن أجنحة الحشرات نتيجة نمو ظاهري من جلد الحشرة وليس نتيجة تحوير بعض الأطراف .

إن الهمولوجيا أو التعادل في التركيب اصطلاح لا يستعمل إلا في المشابهات التي يعتقد بها أنها تشير إلى القرابة في الدم ، والالامام بذلك علينا أن نحصى جميع التغيرات التي تطرأ على الفرد عند نموه الجنيني (أو ما يسمى علم الأنتوجونيا) وفي ذلك ما يرشدنا إلى أن الطبيعة أثناء ذلك الدور تلتخص في الجنين بهذه التغيرات تاريخ النوع (أو الفيلوجيني)، أي أنه يتشكل بأشكال أسلافه واحدا بعد آخر إلى أن يأخذ في النهاية شكل الجنين الإنساني وهذه هي خلاصة نظرية (البلاخيص).



قضايا حيوية في علم الحياة

هل يستطيع الجزء أن يرى الكل .

« توفيق الحكيم »

تقدم علم (البيولوجيا) في الثلاثين سنة الأخيرة تقدما هائلا ، والأرجح أنه لم يدانه أثناءها بهذا التقدم وبالاكتشافات العديدة التي تمت في ساحته علم آخر . وهو مع كونه علما يهم كل فرد في هذا الوجود سواء من طلب الاختصاص فيه أو من رغب في اكتساب المعلومات لتفهم بعض حقائق الحياة ، إلا أنه ولا شك يفوق العلوم الأخرى بشدة ضرره عندما يكون الإلزام بفصوله سطحيا أو تكون المعرفة فيه ناقصة وإذ أنه من العلوم التي تبعث في النفس نزعات حادة تدفع إلى العمل على مبادئ ذات أهداف موحدة .

لقد أثارت النظريات الحديثة كنظرية داروين مثلا حول مبدأ النشوء والارتقاء ضجة كبرى في الأوساط العلمية دامت عدة سنوات ، وبعثت إليها سهام الانتقادات الدينية والسياسية من جميع الجهات . ومما أدى إلى تضارب في الآراء حول حقيقة الحياة فاكثنف الموضوع غموض تام لعدم صحة أكثر تلك الآراء ولقد علم عهدا وهذا مما يؤسف له بالطبع لا سيما وأن فائدة البيولوجيا عامة تهتم السياسي والاجتماعي والبدوي على السواء .

إن الاكتشاف العلمي الأخير المعروف بقوانين (مندل) حول التسايف أو التزاوج المختلط قد أصبح اليوم نظرا لبساطته وقصة تاريخه الجيد من المعلومات العامة تقريرا المنتشرة بين جميع الطبقات . ولكن بالرغم من ذلك نجد في النتيجة أن الناس لا يزال معظمهم يقف في الغالب موقف المعارض تجاه ما يحسبونه مهزلة الأقوام المتمدنة وقد لا يتخلف مثل هؤلاء الناس من تطبيق القوانين والأنظمة على كثير من أعمالهم التافهة التي تشبه مثلا قولهم (متى وأين يمكننا شراء الدخان والسجائر) بينما نراهم لا يضعون العقبات في سبيل المتزوجين من المعتوهين وراثيا والمصابين بضعف أجهزتهم العصبية أو الذين لهم أسلاف أصيبوا بالخبل أو الجنون ولا يمنعون الزواج بالمسولين أو الذين لهم الميول الظاهرة أو الكامنة للجرام ، أقول بالرغم من أنهم يعلمون

أن الهيئة الاجتماعية هي التي ترفع على عاتقها عبء المسؤولية التي يحملها إياها مواليد هؤلاء الجانين أو المجرمين ، بيد أنهم في الوقت عينه لا يتوانون عن السؤال من آبائهم أو أقاربهم بدفع الأجور التي تتطلبها المؤسسات العامة للانفاق على مواليدهم وهم في مستشفيات المجاذيب أو في مصحات السل . يوضح لنا هؤلاء المعارضون مسعاهم في تحسين نسل المواشي والأنعام لاستحصال النوع الجيد من الصوف ويبينون لنا استعدادهم التام لتطبيق ما يلقى عليه (بيغين) بخصوص الطريقة التي اكتشفها زراعة الحنطة للحصول على النوع الأكثر إنتاجاً والأشد مقاومة لمرض الصدأ أو ما يسمى بتدرن الحنطة . وينظرون بأمل أعينهم إلى مربّي الخيول فيرونهم حاضرين أنى شاءوا ومتى أرادوا لإنسال أى نوع من الخيول الاعتيادية ، ولكن عندما تصل هذه الفئة المخالفة إلى قضية تحسين السلالة البشرية والنوع الإنسانى (هذا إذا صرفنا النظر عن قانون التعقيم الجنسى الذى سنته مؤخراً حكومة الولايات المتحدة ونفذته في جميع دويلاتها) نراها تقف مكتوفة الأيدي لا تبدى حراكاً . والحق أنه من الصعب علينا أن نجزم إذا كان فى الامكان التحكم عملياً فى ذرية الإنسان كما أنه لا يمكننا القول فيما إذا كان أطفال المعتوهين هم أشد خبلاً من أطفال بقية الناس الاعتياديين فقد يجوز أن يكون كذلك أو بالعكس ، وعليه فمن الضروري جداً أن نلم بمعلومات أخرى جديدة وكافية تكون عن قوانين الوراثة البيولوجية أدق مما لنا منها فى الوقت الحاضر .

إن جميع القضايا المتعلقة بالأمور المذكورة حديثة العهد فالإنسان القديم بانتقاله التدريجى من طور الحيوان المطلق صحبته ظروف قاسية جداً أبطت فى الحياة ما كان من أفراد قوي الجسم حاد الذكاء وأما مت منه الضعيف القليل الفطنة والبطىء الحركة إما جوعاً لعدم حصوله على الغذاء الكافى أو أنه انساق طعمة لأعدائه الكثيرين وفريسة لمن حوله من الوحوش . هذا ما كان بالأمس ؛ أما اليوم فقد تبدلت الحال

وأخذت الهيئة الاجتماعية على عاتقها الاعتناء اللازم لراحة مثل هؤلاء التعساء الذين لم تمنحهم الطبيعة قوة كافية فأصبحوا يتنعمون بما لديهم ويعيشون وسط عوائل خاصة يؤسسونها لهم .

طبيعة الحياة :

يستهل الطالب ببخثه السؤال عن ماهية الحياة وحقيقتها فيجابه صعوبة قوية في إدراك المعنى الحقيقي لها وخصوصا عندما يعلم أن لافرق مهم من الوجهتين الفيزيائية والكيميائية بين خواص المادة الحية والمادة الجامدة ، فالعناصر الداخلة في تركيبها — كالكاربون والأوكسجين والنايتروجين — متشابهة في الطرفين وهي تتحد وتنفرد في كلتا المادتين بنسب معينة تابعة جميعها إلى القوانين الكيميائية المعروفة إلا أننا نجد أن هذه العناصر تتحد في البروتوبلازما — وحدة جميع المواد الحية — بصورة أعقد وبطريقة أدق مما هي في تركيب المواد الجامدة . إن علماء الفيزياء والكيمياء ينظرون إلى الجسم الحى كما كينة تشتغل باستمرار لتكيف نفسها دوما وفق عوامل محيطها والكيميائى يزيد على ذلك بقوله : أن التفاعلات الكيميائية بين عنصري الكربون والأوكسجين لا بد من انبعاث طاقة حرارية من نتيجة هذا التفاعل وقد لا ننكر ذلك فكلنا يعرف أن احتراق الفحم يبعث إلينا هذه الطاقة التى نستغلها فى محرك الآلة البخارية . والبروتيدات أيضا هى من جملة المركبات الكيميائية المعقدة وغير الثابتة إذ تنحل بسرعة عند اتحادها مرة ثانية بالأوكسجين وتطلق الطاقة الحرارية المعروفة . إن هذه البروتيدات هى من أهم محتويات البروتوبلازما وفعاليتها الكيميائية التى تتم عند اتحادها بالأوكسجين هى التى تجهز الجسم الحى بالطاقة المطلوبة ولهذا السبب نجد أنه من اللازم أن تجدد البروتوبلازما فى الحجيرات الحية دوما بواسطة التغذية ، وفى عين الوقت يجب أن

ندفع إليها الأوكسجين الضروري للاحتراق خلال أجهزة التنفس كما نجد الآلة الحديدية بالنار ونفتح لها مجارى من الهواء لإكمال الاشتعال وستكلم بعدئذ في موضوع خاص عن الفعالية الميكانيكية للجسم الحى مع بيان تركيب الأعضاء مفصلاً عندما نصل إلى أجهزة الهضم والدورة الدموية ، ولكن لنعلم من الآن أن الجسم الحى له ما يجعله فى مستوى أرق من الآلة البخارية الحديدية لأنه ممتاز بخاصية التكاثف والتوالد .

مكائن المستقبل :

تصوّر (صموئيل بطر) ما كنه المستقبل وهى فى دور الكمال فقال عنها : أنه سيكون فى مقدورها أن تلد . أما نحن فلا يسعنا رغم هذه التصورات الخلابه التى جالت فى فكر هذا المخترع الكبير عن الطفلة الوديعه (العدة الصغيرة) وهى تلعب مرحاً أمام أمها الآلة الكبيرة أن نعتقد بإمكان حصول هذه الولادة أو باحتمال وقوعها . أما الجسم الحى فلم يزل منذ ملايين السنين ولودا يمتلك خاصية التكاثف والتناسل بحيث أظهر للوجود أشكالاً متنوعة من المخلوقات تحت عنوانين : النبات والحيوان ؛ أشكال ذات تركيب دقيقة ومعقدة فى صور وكميات لا يحصى نطاقها ولا يمكن وضع حجوما تحت حصر : نماذج من جمال بدیع زاهى الألوان وهيئاته الموضوعة جنباً إلى جنب تتراءى للناظر المعجب بها غريبة الشكل أخاذة فى حسنها أو غير جذابة تعافها النفس ولا شك أننا عندما ندرس إلى مباحث النشوء والارتقاء سيكون فى مقدورنا أن نتتبع قصة الحياة المدهشة وهى تولد وتبعث الحياة على مر السنين وإلى الأزل فنقرأ نظريات : لامارك ودورين ووايزمن وغيرهم ؛ التى ابتدعوها بنبوغهم لتفسير هذا التباين فى الأشكال والنماذج ولتأويل ظهور الإنسان على الأرض . وحينما نصل إلى البحث عن قوانين مندل وتعمق كثيراً فى التحقيق والاستعلام عن خفايا الوجود وسر الحياة سنقدر حينذاك

أهمية العقبات التي تقف في سبيل المصالحين الاجتماعيين ورجال تحسين النسل
البشرى فنعمل على إبداء فكرة مشتركة عن القضايا التي إدراجها في مستهل
هذا البحث .

إن هذا الدرس الذي بدأنا به حول علم الحياة هو تمهيد لعلم واسع النطاق هو
أشبه شيء بشجرة شائخة ذات فروع وأغصان متشعبة تمتد إلى كافة الجهات
والنواحي .

بماذا ندان لعلم النبات

« إيه يا زارا أن أثمارك ناضجة !
غير أنك لم تنضج أنت لأثمارك » .

تحتاج دراسة النباتات إلى الخوض في عالم يختلف سكانه عن سكان عالم
الحيوان بكثير من الصفات ، فإن أفراد العالم الأول تأكل كل بغير فم وتتحرك
بلا أطراف ، وتبصر بلا أعين ، وتعيش بدون أن يساعدها دماغ أو جهاز عصبي
في حياتها — وهي على الدوام تشكل فرق الطلائع التي تستكشف الأرض وتحتل
المناطق إلا بعد أن يتم فيها الاستيطان بواسطة النباتات والأعشاب . وزيادة على
ذلك فإن النباتات هي العامل الأساسي في تحويل الأرض إلى تربة خصبة تسهل
لغيرها من النباتات العليا العيش فيها . ولنأخذ لذلك مثلاً : عمل بعض النباتات
الصغيرة المعروفة كالخزاز أو بهك البحر Grey Lichens إن هذا النوع من
النبات يعيش على الصخور حيث تنفذ فروعه في أجزائها ، وهكذا نراه يساعد
قوى الطبيعة كالمنطق والصقيع والرياح في تكسير تلك الصخور وتحويلها إلى فتات
أو ذرات معدنية التي هي الأصل في تكوين التربة . وقد يمرُّ على مثل هذه
النباتات الدنيا أجيال عديدة وهي تتكاثر وتعيش وتندثر على التربة قبل أن تحوّلها
إلى أرض خصبة حتى تصبح بعدها موافقة وصالحة لمعيشة النباتات العليا ، وإن
عملية إخصاب التربة لاتقوم بواسطة النباتات الحية فقط ، بل إنها تستمر أيضاً بعد
هلاكها ، فإذا جردت الأرض من أعشابها ترجع لا محالة عاجلاً أو آجلاً إلى
حالتها القاحلة التي كانت عليها قبل أن تستوطنها تلك النباتات .

اكتسبت النباتات الخضر بمساعدة مادتها (اليخضر أو الكلوروفيل)
القدرة على تركيب المواد الغذائية التي اعتمدت هي وجميع الحيوانات والمخلوقات
الحية الأخرى عليها في معيشتها وحياتها . إن هذه المواد الغذائية التي تركيبها هذه
الأنواع من النباتات هي على صنفين : السكريات (الفحيمات) والازوتيات ،
فالصنف الأول منهما مركبات تتكون من ثلاثة عناصر : الكربون والهيدروجين

والأوكسجين . والصنف الثانى مركبات تتكون من العناصر الثلاثة المذكورة آنفاً مضافاً إليها الأزوت وعناصر أخرى غيرها . ولتركيب السكر تحتاج النباتات الخضراء إلى بعض المواد الخام التى تحصل عليها من الهواء ، وهى الماء وغاز ثانى أكسيد الكربون و إلى طاقة لتسيير عملية التركيب تستمدّها من نور الشمس ، تؤخذ هذه الطاقة وتخزن مؤقتاً مع عناصر المركبات الخام فى المواد الغذائية المتكونة فتبقى كذلك زمناً وبمجرد أن تتحد هذه المواد بالأوكسجين تحترق وتبعث بالمواد الخام الأولية إلى الهواء ككرة ثانية بعد أن تنطلق منها الطاقة المخزونة حرّة ، وبهذه الطريقة تجهز النباتات وموادّها الغذائية الطاقة اللازمة لجميع المخلوقات الحيّة .

إننا بدراستنا طريقة التغذية فى النباتات نتكشف لنا الحقيقة الآتية : « وهى أن المواد التى تستعملها النباتات لبناء أعضائها هى نفسها المستعملة بواسطة الحيوانات كما أن القوة المستخدمة عند الطرفين فى العمليات الحيوية تكون مقتبسة من مصدر واحد هو الشمس ، غير أن النباتات الخضراء تكون دوماً الجامعة للطاقة ، فكل جزيئة من الطعام التى تركبها فى معاملها تشبه بطارية خازنة ، وعند ما تنحل هذه الجزيئة بواسطة التغذية الحيوانية أو النباتية تنحرّر الطاقة المذكورة وتبديد ، والنباتات الخضراء تقوم بهذه العملية فى نور النهار بدرجة عالية بحيث تكون المركبات الناتجة كافية ليس فقط لسد حاجة النباتات والحيوانات فى بناء أجسامها ، بل إنها تجهز الإنسان كذلك بالطاقة الضرورية للحياة .

القوة المستحصلة من النبات :

كانت النباتات ولم تزل بواسطة فعاليتها المذكورة سابقاً الأصل فى تكوين وقود العالم كالكبوت والفحم الحجرى . ومن المناسب هنا أن نذكر بإيجاز مصدر الطاقة المخزونة فى هذا الفحم .

أشرقت الشمس فى عصور الحياة القديمة على أوراق النباتات الخضراء التى عاشت

حينذاك فى الغالب وسط الآجام والمستنقعات وبالطبع إن قسماً كبيراً من هذه الطاقة الشعاعية كانت قد امتصت بواسطة الأوراق الخضر واستخدمت لعمل السكر الذى استهلك أكثره ولا شك فى تغذية النبتة مدة حياتها ، غير أن الكمية الباقية منه بعد أن مرت بسلسلة من التحوّلات الكيميائية البسيطة — أصبحت جزءاً من الهيكل الخشبي الذى يسند النبتة ويقومها ، وهكذا إلى أن ماتت النبتة فطمرت الأطنان وساعدت فى تحنيطها قبل أن يكمل تفسخ الخشب فيها . وعلى هذا لم يطرأ على العناصر — الكربون والهيدروجين والأكسجين — التى اتحدت قبلاً تحت تأثير نور الشمس أى تغيير ؛ فبقيت الطاقة المذكورة كامنة وهى تبقى كذلك إلى أن يستخرج الفحم ويملاً به رجل الآلة البخارية ، وعندئذ يتحد بالأكسجين ويتحوّل إلى غاز ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء ويطلق الطاقة التى خزنت فيه منذ أمد بعيد . وهكذا نجد أن النبات يجهز القوة المطلوبة للحيوان والمشاريع الصناعية بصورة متناهية . وقد يفكر الإنسان فيلتجئ إلى قوى المياه لاستحصال الطاقة الكهربائية واستخدامها فى تحريك معاملها ، إلا أنه ولا شك يضطر إلى أن لا يستغنى فى الأخير عن النبات فى الحصول على السكاوتشوك (الصمغ المر) والصمغ الهندى ليعزل بهما الأسلاك البرقية عن بعضها ، كما أنه لا يمكنه أن يستغنى عن الدهان لتزيت الآلات المتحركة .

علاقة النبات بالحيوان :

وهنا سنعرض مظهراً آخر لبيان فضل النبات على الحيوان ، فقد دلت الاكتشافات المتوالية على أن بجانب الطاقة والمواد الغذائية التى تمنحها النباتات لبناء الأجسام توجد مواد أخرى غيرها ذات تراكييب معقدة لا شك أنها تلعب دوراً مهماً فى حياة الحيوان كأدوية طبيعية واقية ، بحيث يمكن أن نقول إن عدم وجودها يسبب سوء التغذية ونقصاناً فى النمو الطبيعى للجسم . إن هذه الأغذية الإضافية تدعى بالفيتامينات ، وهى من محاصيل النبات الأساسية .

لقد غير علم الكيمياء — بفضل الاكتشافات التي وصل إليها علماءه — فكرة الصلة بين عالمي الحيوان والنبات ، إذ استنبط الأخصائيون في الوقت الحاضر طريقة لتكوين السكر من مواد صلبة بسيطة ، كما أنهم تمكنوا من تركيب البروتينات (الزلايات) التي هي أهم محتويات المادة الحية ، وتوصلوا إلى بعض الوسائل التي تزيد من فعالية التركيب الزلاي في النبات . إن النايترينز (الآزوتيت) هي من أول المركبات اللاعضوية (المعدنية) لعنصر الأزوت التي يعتمد عليها النبات في تركيب المواد الزلاية ، وهي مركبات قابلة للذوبان في الماء ووجودها في التربة الخصبه ناتج عن فعالية بعض أنواع البكتريا التي تعمل عملها في بقايا الحيوانات والنباتات . غير أن هذه الفعالية بطيئة جداً ، ولذا كان الإنتاج من هذه المركبات قليلاً ، وفضلاً عن ذلك فإن الأمطار والمياه الجارية تذيبه فينساح معها وينتشر في مناطق واسعة ، ولهذا السبب أصبحت هذه الأملاح نادرة جداً لقلة كمياتها ، فأخذ الناس منذ القديم سداً لهذه الثغرة وتلافياً للنقص في تكثير كمية الناتوجين في التربة بطرق صناعية ، وذلك باستعمال السماد الحيواني وخلطه مع التراب ، ومع هذا فإن محاصيل العالم الزراعية بقيت محدودة لقلة الأسمدة ، فما كان من علماء الكيمياء في الوقت الحاضر ، إلا أن سعوا في إيجاد وسيلة يزيدون فيها المنابع الطبيعية لمركبات الناتوجين ، فاستنبطوا أخيراً الطريقة الكهربائية في توحيد بعض العناصر الأساسية مع عنصر الأزوت ، وأخذوا بصنع تلك المركبات الضرورية بمقاييس عالية جداً ، وهي التي دعوها بالأسمدة الصناعية .

تصنيف النباتات :

أن عالم النبات هو الذي يعول جميع ما في البحر والبر من مخلوقات حيّة، وجماعات أفرادها سواء كان منها الراقى أو المنحط يقوم بهذه المهمة خير قيام : فالنباتات البذورية (كالفصيلة الصنوبرية أو الخروطية والنباتات المزهرة) تجهز لنا المواد

الغذائية وحيوط النسيج كالقطن والكتان والقنبس الهندي والقنب والأخشاب والراتينج (وهو نوع من الخشب السريع الالتهاب) والسكاوتشوك والصمغ الهندي والكافور والشمع والزيوت والوارنيش والبهارات والتوابل والعطورات والأصباغ والعقاقير هذه هي النباتات التي تعول الحياة على وجه البسيطة، أما الأشنيات مثلا وهي من أقسام النباتات غير الراقية التي تحتوى على عشب البحر وكثير من النباتات المسكرو سكونية فإنها تعول الحياة المكتنزة في البحار .

إن أدنى شعب المملكة النباتية تشمل ما عدا الاشنيات التي ذكرناها آنفا الفطريات أيضا ويشمل هذا القسم (السكا) و (الفطر) بنوعية السام وغير السام ويضاف إلى ذلك الخمائر والعفن، والفطريات هذه تنقصها المادة الخضراء (الكلوروفيل) ولذا أصبحت عاجزة عن أن تقيت نفسها ولكنها كسائر الحيوانات يجب أن تحصل على غذائها من مصادر خارجية فالفطر مثلا إما أن يعيش عيشة الطفيليات على مواد حية أخرى يسلب منها بعض الغذاء ويشاركها في قوتها وإما أن ينمو على المواد العفنة أو الرمم فيدعى عندئذ (رمام) . ومن هذه الوجهة نجد أن الفطريات تشبه بيماتها البكتريا وهي جماعة ثالثة من جماعات المملكة النباتية التي تمتاز بتركيبها البسيط وبدقة حجمها فلا ترى إلا بواسطة الميكروسكوب (المجهر) فالفطريات والبكتريا فضلا عن كونها من أدنى المخلوقات النباتية مرتبة فإنها تلعب دورا هاما في العالم وفي حياة المخلوقات الأخرى، فأهمية الخمائر في معمولات الخبز والخمر معروفة للجميع كما أن البكتريا هي الأصل في خصوبة التربة، وهذه النباتات البسيطة هي من مسببات حفظ الصحة العامة في العالم فمن فعاليتها المستمرة تنفس بقايا الأموات شيئا فشيئا حتى تنحل إلى مواد بسيطة غير عضوية لا تزيد عن المركبات التي استعملتها النباتات في باديء الأمر في عملية تركيب الأغذية . وهنا لا بد من أن نقول إنه بالرغم من الأعمال العجيبة التي تمت على يد علماء الكيمياء العملية بقي عالم النبات وسيمضي إلى ما شاء الله المنبع الرئيسي الذي تستقي منه المواد اللازمة والطاقة الضرورية

لإعاشة الحيوانات جميعها ومنها الإنسان ولتقويم الحياتين الاجتماعية والصناعية في العالم .

ويجدر بنا قبل أن نبدأ بدراسة أشكال النباتات وتراكيبها الداخلية وأحوال معيشة أفراد كل نوع منها أن نعرف القارىء بالأقسام الرئيسية للمملكة النباتية مشيرين باختصار إلى أهم الميزات التي يختص بها كل من هذه الأقسام :

تصنف المملكة النباتية إلى أربع شعب أساسية وهي :

١ — النباتات المزهرة وتشمل جميع النباتات الوردية سواء كانت أشجاراً أو أعشاباً أو أنجماً وتسمى اصطلاحاً بالنباتات ظاهرة الإلقاح . إن كل أفراد هذه الشعبة لها الجذر والساق والأوراق ويعترض كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة شبكة دقيقة جداً من الأوعية التي تدعى بالعروق ولذا دُعيت بالنباتات الوعائية وكلها تعطى بذوراً . إن لهذه الشعبة قسمين :

(١) وعائية البذور :

وفيها تكون البذور مغطاة بأغلفة واقية وإن أكثر أنواع النباتات البذورية ينسب إلى هذا القسم .

(ب) عارية البذور :

وهي عكس ذلك إذ تفقد تلك الأغلفة التي تحيط ببذورها ويشمل هذا القسم النباتات الحروطية (الصنوبرية) كالشربين والصنوبر وشجر اللاريس . أما بقية الشعب فتشمل جميع النباتات غير المزهرة ويصطاح عليها اسم النباتات عديمة الأزهار (مكتومة التناسل) فهي لا تزهر ولا تعطى بذوراً . أما الوسيلة العامة للتكاثر فيها فهي طريقة التوالد بالسورات .

٢ — شعبة النباتات السرخسية :

وسميت كذلك لأن السرخس هو من أهم أفرادها وتشمل النباتات

الوعائية عديمة الأزهار وأشهر أنواعها نبات مخلب الذئب ونبات الكينيات أو دنب الحصان (وهو نبات مدرّ للبول) .

٣ — شعبة الطحليات :

وتشمل الطحلب والكبديات وهي نباتات ليس لها جذور ولا أنابيب وعائية .

٤ — شعبة الثالوفائيت :

وهي الشعبة الرابعة والأخيرة تحتوى على المخلوقات النباتية البسيطة التركيب (والدنيا) فى طرق معيشتها وأدوار حياتها ، وهي نباتات خفية التزاوج وعديمة الأزهار وليس فيها تفاوت أو تمييز بين الجذر والساق والأوراق. تسمى النبتة الواحدة منها (ثالوس) ومعظمها مكروسكوبى الحجم والشعبة هذه لها أربع فرق :

(١) الاشنيات وتحتوى على مادة الكلوروفيل وذلك مثل ردغة المستنقعات الخضراء وعشب البحر .

(ب) الفطريات وتنقصها المادة الخضراء وأشهرها الكما والفطر والخميرة والعفن .

(ج) البكتريا وهي من الفطريات الدقيقة الحجم ولها أهمية كبرى فى حياة الإنسان والحيوان كما أسلفنا .

(د) حشائش البحر وهي نباتات مركبة من الفطريات والاشنيات تعيش مع بعضها مشتركا .

الْأَنْتَرُ وَبُولُوجِيَا أَوْ عِلْمُ دِرَاسَةِ الْإِنْسَانِ

« وَخَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا » .

يعتبر علم (الانثروبولوجيا) بأوسع معانيه علماً شاملاً لا يخص دراسة الإنسان وحياته الاجتماعية فقط ، بل نجده يبحث عن كل موجود على ظهر البسيطة ، ونطاقه الواسع يدعونا إلى الاختصاص به ، فقد تفرعت منه عدة فروع وفصول مستقلة لها ما يربطها ببعضها وبالعلوم الطبيعية الأخرى كثير من الصلات . إن أهم هذه الفروع هي :

١ — الانثروبولوجيا الطبيعية ، وتخص دراسة الإنسان كحيوان فتبحث عن صلته ببقية المخلوقات الحية وعلاقته معها من حيث شكل جسمه وتركيب أعضائه وتفصيل الفوارق التي تظهر آنأً بعد آن بين أفراده مع بيان كيفية معيشة كل الهياآت التي تشكلها هذه الأفراد وتأثير بيئة كل منها عليها بما فيها من تأثير الأغذية ، وكذلك ما تكسبه في محيطها من قوة المقاومة الطبيعية أمام الأجواء والأمراض الموجودة فيه . وإذن فلا بد أن نستعين في هذه المباحث ببعض العلوم الأخرى لتسكون دراستنا في هذا الفرع كاملة ودقيقة ، فنعتمد ببحثنا على علم البايولوجيا (علم الحياة) وعلم التشريح وعلم الأنسجة (المستولوجيا) وعلم البكتريا وعلم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وعلم الحشرات والجغرافية وعلم النباتات وعلم الآثار القديمة مع الإحاطة بقانون مندل .

٢ — الانثروبولوجيا الاجتماعية وتبحث هذه عن الإنسان كحيوان اجتماعي يهتم بأفراد نوعه بكل علاقاته من زواج ووراثه ، وتوضح لنا الصلات القبلية أو الدولية كالحرب والتجارة والدين ولدراسة كل هذه المواضيع علينا مراجعة علم النفس أو السيكولوجيا .

٣ — الانثروبولوجيا الصناعية أو علم الفنون والصنائع ، وهذا يعتبر الإنسان كعامل وصانع وزارع ، فيبحث عن حرفه منذ أقدم الأزمنة حينما كان يستعمل أدواته الحجرية ومنوآله الخشبي إلى أن توصل إلى اختراع الطائرة والمحركات

الجديدة . إن هذا الفرع من الانثروبولوجيا له مساس كبير بأكثر العلوم الطبيعية وخاصة الجيولوجيا وعلم النباتات والكيمياء وغيرها ، كما أنه يكتنف الانثروبولوجيا الاجتماعية إلى حد كبير بدرجة أنه لا يمكن أن يدرس أحدهما دون الآخر ، وفي الواقع إن الفارق بينهما علمي بحت . فمثلا هناك في بعض المناطق الاسترالية وخاصة في الجزر المحيطة بتلك القارة تكثر بعض القبائل المتأخرة التي تعيش على البساطة : إن في هذه القبائل رجالا يقومون بحياكة أنواع من الملابس الوطنية والعامل بينهم لا يفتأ ينشد بعض الأغاني الشعبية إلى أن ينتهي من حياكة الملابس فإذا صادف أن نسي إحدى الكلمات في أغنيته أو أخطأ في تلفظها عليه أن يعود ويشعر بعمله من جديد لاعتقاده — كما هو في اصطلاحنا — أن حفظ اللباس يعثر في هذه الحالة ويكون لباسه شؤما عليه . كما أننا نجد أن أكثر الحرف كصناعة الحديد في أفريقيا ، أو كبناء البيوت وعمل القوارب في مقاطعة (اوشينيا) لها أعمال مختصين يقومون بها دون غيرهم ، بحيث لا يسمح لغيرهم بمزاولةها أما هؤلاء فيعيّنون من بعض أفراد العشائر أو العائلات التي تلم بالأغاني الشعبية والعوائد القومية وعلى هذا الأساس نشاهد في بعض جزر الباسفيك ظاهرة عجيبة جداً لها علاقة كبرى بهذه العوائد فإن مهنة الحياكة وحتى مهنة بناء الزوارق قد ماتتا وذلك لفناء العائلات التي كان لها إلمام بهذه الطقوس وكان لها وحدها الحق بمزاولة هذه الأعمال ومن هذا نستدل أن الوراثة والعادات والمهن مترابطة ببعضها ويصعب تفريقها كما أنه لا يمكن دراستها مع الفائدة المتوخاة إلا سوياً .

إن في علم الانثروبولوجيا بعض الاصطلاحات منها (اثنوكرافي) و(اثنولوجي) ووجود هذه التعابير كان سبباً في ورود تعاريف شتى أدت إلى بعض التباسات . وبالإجمال نقول إن التعبير الأول يأخذ الإنسان مداراً للبحث في الحياة القبلية وذلك من الناحيتين الاجتماعية والأدبية فهو تعبير وصفي كما يشير إليه المعنى أما التعبير الثاني (اثنولوجيا) فيأخذ الجماعة القبلية مداراً للبحث في العالم كله

(٦ — ندى الفجر)

وهو في ذلك يستعير جميع مدلولاته من (الاثنوكرافيا) فهو إذن تعبير تقارنى لاغير .
والاثنولوجيا تعتمد كثيرا على الاثروبولوجيا الطبيعية ، ومن المحتمل أن يكون سبب
الارتباك الظاهر في التعبير متأث من استعمال كلمة (اثنولوجي) في الافرندية التي
تعنى الاثروبولوجيا الطبيعية .

الكتابة وأثرها في تقدم الإنسان :

كثيرا ما تستعمل كلمة التقدم أو المدنية كحد فاصل بين الأزمنة الحاضرة
وعصور الأزمان القديمة ، ولكن أين يقع هذا الحد الفاصل ؟ وأين هو موضع
العزل ؟ لقد استعمل البعض لفظة الهمجية مشيرا إلى جميع الأدوار التي سبقت العصر
الذي توصل الإنسان فيه إلى اختراع طرز من الكتابة والخط ، غير أن الكتابة
لا تستوجب أن تكون المستوى الذي يوزن به تقدم البشرية فشعوب (المايا) في
أواسط أمريكا كان لها نوع من الكتابة المروغليفية الراقية وكان لها إمام كبير
بصناعة النسيج وخاصة الحلل المزركشة الجميلة وعمل الفخار والخزف الممتاز فضلا
عن كونها كانت تقيم من الأبنية العصرية ما يقف أمامها الفرد مسلوب العقل
ومع هذا فإن هذه القبائل لم تكن تعرف المعادن . وكان أهالي (بيرو) — في
العصور التي سبقت اكتشاف أمريكا — من أعظم الناجين بحيث لو انقرض فن
النسيج من الدنيا القديمة لعامل ما لأصبح في الإمكان إحيائه من جديد من
مقابر بيرو البالية ، أما مصنوعاتهم الخزفية وفهم المعاري ونظمهم الاجتماعية فكانت
تفوق بدقتها ما كان عند شعوب المايا وفصلا عن كل هذا لم يكن لديهم معرفة
بالكتابة اللهم إلا ما قد تركوه لنا في سجلاتهم التاريخية المنظمة بطريقة عمل
العقد على الحبال . وكانت قبائل (البثاك) الهمجية التي عاشت في جزيرة سومطرا
قديما تستعمل نوعا من الكتابة الخطية ومع ذلك فإنها لم تكن تملك تلك الثقافة
التي تجعلها في مصاف الثقافات القديمة لسكان أواسط وجنوب أمريكا . إن مدينتنا
الحاضرة لا زالت تمشي وفق القواعد الاثروبولوجية ، ويظهر ذلك جليا إذا معنا

النظر في تأثير وسائل النقل الحديثة وتقدمها في تغيير حياة الإنسان وتبديل طراز معيشته فنجده يتنا لا يحتاج إلى برهان ولو كان هذا التأثير أدنى نسبياً من تأثير اكتشاف الحديد أو اختراع القوس . من كل هذا يمكننا أن نقول إن التقدم أو التمدن قد ظهر في الوجود منذ أن اندفع الإنسان إلى التجوال والتحول من مكان إلى آخر ، أحياناً برغبته وغالباً اضطراراً وقهراً من جراء التغيرات الجوية وسعياً وراء الحيوانات السائمة التي يعتاش عليها وهذا ما أدى بالطبع إلى الاختلاط والتزاوج بين جماعات البشر النازحة من الأصقاع النائية وبذا أصبح من المحتم انتشار المعارف والفنون ومختلف المهن والبدء بزراعة النباتات الغذائية . ولنضرب لك مثلاً عن زراعة (الذرة) فقد كانت الذرة تزرع أولاً في أمريكا ولم تترك أراضيها حبة واحدة قبل زيارة (كولومبس) لتلك القارة ، ولكن لم يمر بعد هذا قرن واحد إلا وأصبحت الذرة من الحاصلات الزراعية لنصف قارة أفريقيا ، ولا ننس أن الحجر لها تأثيرها الكبير في مزج العروق البشرية وخلق الثقافات ببعضها وهذا ما يقرب الانثرو بولوجيا والتاريخ إلى كليهما .

إن الانثرو بولوجيا علم حديث والآداب التاريخية حتى عصرنا هذا لم تكن قد أعدت له المسكنة اللائقة به وهو يعتمد بالأكثر على الألواح التاريخية ولا يعير أية أهمية للأحاديث والروايات التي ينقلها التاريخيون المعروضون ، وعند عدم وجود الكتابات والمخطوطات يكتفى بما تنقله إليه الذاكرة . فقد نجد في (زيلندة الجديدة) مثلاً أن أولاد الطبقة الراقية يلقنون تاريخ قومهم في مدارس خاصة أنشئت لهذا الغرض ومن جملة الشروط المطلوبة من المعلم والمتعلم في هذا التدريس الصدق في القول ، ويقال أن الزعيم الواحد من تلك القبائل يمكنه أن يسرد من الحافظة رأساً حوادث تاريخية وأحاديث مهمة عن السلف ويذكر سلسلة النسب بكاملها حتى ليلاً حديثه صفحات كتاب ضخمة . وإن نقل الأخبار من الذاكرة معروف أيضاً في الأواسط الأفريقية حيث إن رئيس القبيلة (كما يحدث في قبائل بوشنجو)

ملزم أن يلتقى على المجموع في حفلة تنصيبية تاريخ عشيرته ويعدد أسماء أسلافه بكل دقة وقد يحدث أن يصحح كلامه أحد رجال القبيلة الذين بلغوا من السكر عتيا .
عادة المحافظة على القديم :

إن النوع البشرى مع استعداده الكافى للتقليد وحب الاستعارة واكتساب المعارف الصناعية والزراعية من بعضه البعض فإننا نجد بطيئاً في هذا الاكتساب وذلك ما يجعله يمتاز بالمحافظة على القديم و متمسكاً به إلى درجة قصوى . وقد يعتبر القديم حديثاً في وقته فهناك كثير من الآلات الصناعية والأدوات التى اخترعت فى الماضى موجودة الآن ولكن تغيرت وظيفتها وتبدلت وجهة استعمالها عما كانت عليه فى أول اختراعها وليس أدل على ذلك من الاكتشافات التى تمت فى غرب أفريقيا وأواسط أوروبا وفى جزر الملايو فقد وجد علماء الاحافير كثيراً من الأدوات الحجرية والذخائر والآثار المنقوشة على الأحجار التى لا يعرف عنها السكان الحالىون فى تلك الاصقاع شيئاً وتعتبر عندهم كأحجار تهدمت بواسطة الصواعق وقد وجد فى أماكن عديدة من (غينا الجديدة) بعض المدقات اليدوية المصنوعة من الحجر كان قد استعملها الأهليون فى الأزمنة التاريخية كطالسم أو أحجار سحرية تدفن فى المزارع لتجلب الخصب إلى أراضيهم وتزيد من حاصلات مزارعاتهم ، ولا يستعمل سكان (غينا الجديدة) فى الوقت الحاضر الجبوب والأطعمة الزراعية التى تحتاج إلى استخدام تلك المدقات الحجرية غير أن بقاء مثل هذه الأدوات الحجرية إلى الآن غير مناحى استعمالها عندهم لأغراض أخرى وهذا ما يدعونا للاعتقاد بأنهم يملكون ثقافة قديمة مؤسسة على أصول اقتصادية متعددة .

أما من حيث استخدام العلم لإكمال حاجيات الإنسان الحاضرة والمستقبله فيمكن أن يقال عنه الشيء الكثير ، والحقيقة أن الانثروبولوجيا لم يكن سجلاً للعادات المبهجة الغربية فقط بل ولم يكن كذلك موسوعة قصص وحكايات تبحث عن طرق المعيشة التى انتهجتها الشعوب المختلفة خلافاً لما نألفه نحن ولكنه فوق ذلك

يرينا أيضا بكل وضوح قواعد الاحتكاك الذي لامفر منه بين ثقافات هذه الشعوب في الأحوال الحاضرة. نعم ربما ادعى الشماليون بأن لهم الأسبقية في استعمار بعض الأصقاع الجديدة ولكن هذا الادعاء بعيد عن الصواب؛ صحيح أن جماعة من الاسكنديناويين (النورزمن) كانوا قد اكتشفوا الجزيرة الخضراء وقسموا من بقاع أمريكا إلا أن الاستعمار الحقيقي كما نعلمه تاريخيا بدأ بالفعل في عصر القائد المقدوني الشهير اسكندر الكبير وذلك حينما استوطن فريق كبير من اتباعه في شمال غربي الهند وأدخلوا الفن الإغريقي في تلك المناطق، وهناك كثير من الأمثلة التي تظهر لنا جليا احتكاك الثقافات المختلفة بعد أن تم الاستعمار فيها ومن جملة هذه الشواهد هجرة الصينيين إلى تركستان وسفر البرتغاليين إلى غرب أفريقيا وإلى جزر الهند الشرقية ورحلة الدانمركيين إلى جنوب أفريقيا وذهاب الافرنسيين إلى الهند وغيرها. إن في إدارة الشعوب التي تختلف من وجهة حياتها الاجتماعية ومناحي تفكيرها يكون علم الانثروبولوجيا أكبر عون لتسهيل هذه الإدارة.

أغلاط أساسها الاختلاف في التأويل :

ربما اقترف الحاكم الإداري غلطة صغيرة ولو كانت تتعلق بأداب المعاشرة والسلوك بحيث لا يمكن تلافيها وإعادة المياه إلى مجاريها إلا بعد بضع سنين. ومن المحتمل أن لا يحب السكان حاكما من العرق الأبيض وذلك لجرد كونه من هذا العون ولو كان في حوزته سلطة مالية واسعة وفي يده قوة سحرية تستولى على إدراك الشعب المحكوم إلا أن اعتباره وكرامته يتوقفان بالدرجة الأولى على شخصيته، وفي التاريخ بعض الشواهد التي دلت على حصول مثل هذه الأغلاط والتي كان يمكن تلافيها لو استمع مرتكبوها إلى عدد من المحاضرات في مبادئ علم الاجتماع فمثلا: نشبت حرب «الموري» سنة ١٨٤٥ على أثر أن قطع أحدهم صارى العلم الإنجليزي الذي كان منصوبا على بناية إحدى الدوائر في كوروريكا في زيلندة الجديدة فقد كان هناك نزاع حول امتلاك بعض الأراضي بين الأهليين والمحنتلين،

ومن عادة الأهالي أن يقيموا عمودا من الخشب في الأرض إعلانا منهم بحق امتلاكها فما كان من طالب آخر إلا أن احتج وقطع ذلك العمود المنصوب . ومن هنا نشأ الخلاف لأن في انكسارهم يعدون قطع صارى العلم أهانة كبرى للعلم البريطاني وبذا اشتد النزاع واندلعت نيران الثورة على أثره في البلاد ودامت كذلك زمنا طويلا .

أما حرب «البوكسير» التي وقعت في بكين في الصين فلم يكن بتعدى العامل في إثارتها إضافة برج (مسلة) إلى الكنيسة التبشيرية في المدينة المذكورة . فقد كان الاعتقاد الصيني أن أرواح الأموات المقدسة تنتقل في الهواء على علو متوسط ، وبناء على هذا لا يمكن أن تقام هناك ابنية عالية تعيق مسراها في الهواء فلذا كان في تلبية بناية الكنيسة المشار إليها العامل الأول في إثارة تلك الحرب الضروس . وهكذا يمكننا أن نورد شواهد عدة من هذا القبيل وخاصة فيما يتعلق بنتائج الاصطدامات التي حصلت بين آراء الأمم الغربية ومعتقداتها الدينية بآراء ومعتقدات الشعوب ذات الحضارة الأولية ؛ ونحن لا يمكننا أن نتصور عظم القوة التي تبديها مثل هذه الشعوب أمام أى محاولة أجنبية يقصد بها محو معتقداتها وإماتها .

آداب سكان البحار الجنوبية :

بناء على عدم وجود غذاء جاهز للأطفال في المناطق الاستوائية فإن دور الرضاعة يستمر فيها إلى ما يقارب الثلاث سنوات ، وفي هذا الدور لا يقترب الرجل من زوجه لاعتقادهم أن أى ميل أو مودة يظهره أحدهما للآخر يكون له التأثير الكبير على صحة المولود وربما أدت هذه الصلة «إن حصلت» إلى مجاعة غليظة بين الزوجين . وفي (ميلانيسيا) مثلا نجد الرجل يلتجئ في هذا الدور إلى دار النادى حيث يجتمع مع بقية الرجال والشبان العزب لإقامة بعض الحفلات والسهرات أشبه بما تقيمه الجمعيات الماسونية في أوروبا ، وفي هذا النادى يبيت الأولاد الذين قاربوا دور المراهقة تحت إشراف الكبار . وقد حدث ويالأسف أن احتجت

بعض الإرساليات على هذه المؤسسة مدعية أنها من المعاهد الوثنية فأمر بإغلاقها رسمياً، وكان من نتائج ذلك أن اضطر الرجال المتزوجون للذهاب إلى مساكنهم واندفعوا بغريزتهم البشرية إلى مجاورة نسائهم وبذا ولد لهم أطفال غير مرغوب فيهم من الوجهة الصحية فتفشيت بينهم عادة قتل الأطفال .

أما شبان القرى فلم يعودوا تحت إشراف كبارهم فأخذوا يسعون بملاحقة الفتيات وكان هذا أساساً في تهديم صرح الآداب العائلية وإبادة الأخلاق الشعبية الفاضلة . هذا مثل آخر يبين لنا أهمية علم الأنثروبولوجيا في إيقاف مثل هذه التدخلات غير الضرورية في قضايا المؤسسات التي ينشئها الرجال المسنون من السكان وهي ولو بدت في الظاهر غريبة بنظامها وأصولها إلا أنها لا تعدم الفائدة العامة التي تخص تلك القبائل .



أين ينتهي العلم

خدمة الإنسان غاية العلم في نظر البسطاء
ولو سئل عالم في ذلك، لابتسم وقال :
« مالى وللانسان ! إنما أنا أبحث عن سر
أسلوب الصانع الأعظم » .

نوفزير الحكيم

حدثنا « فرسيس كارتر » في صحيفة هيرالد تريبون النيويوركية : أن
« باستور » لم يعتبر اكتشافه للجراثيم إلا برهاناً لوجود القوة الحكيمة الخالقة ،
وأن « مليكن » لم يفض معين إيمانه بعد اكتشافه قلب الجزئية ، كأن « نيوتن »
اعتقد قبلهما أن له ذاتاً .

حقاً ليس هناك من نزاع بين العلم والدين . فالعلم — فيما يرى كارتر —
لا يبحث إلا في النواميس المدبرة للعالم ، وهو خال من المعارف الخاصة التي لها
مساس بالإيمان وكل قول يأخذ بمثل هذه المعارف لا يمكن أن يكون له قيمة
أعظم مما لو أخذ من مصدر آخر ، والواقع أن اكتشافات العلم لا تنفي وجود الخالق
وإذا ما أبطلت الاكتشافات الحديثة ما سبقها من نظريات قديمة فهذا لا يعنى
إنكار العقيدة بالله العظيم جل جلاله . وهذان العلمان الكبيران — نيوتن والسر
الفرلودج — وهما المشهوران في عالم الكهرباء نجدهما على إيمان وثيق في معرفة
الخالق العظيم .

وإذا تأملنا في المبتدعات الخطيرة في علم الفلك التي مكنتنا من تحليل مركبات
النجوم البعيدة بطريقة متقنة كما لو كنا نفحص قطعة من الفولاذ في المختبر ،
وفي تلك الطرق المضنية التي أصبحنا نستطيع بواسطتها قياس فاعلية الدماغ أو
أجزاء الفصوص الذهنية لوجدنا أن كل عمل من هذا القبيل لا يضاف نتأج فحص
فاعلية الجهاز السلبي الأوتوماتيكي الذي بواسطته ترسل الروح أوامرها إلى العالم
الخارجي . وعليه فمن اللازم أن نبقى على بينة من أن القوانين المكتشفة ليست إلا
عبارات وقتية مما تفهمناه نحن الآن وما آراء عطاء الطبيعيين العديدة إلا نظريات
قطعية للزمن الحاضر فقط . أما رأى هؤلاء في ماهية الروح وفي القوة السامية
حتى وفي الحياة الأخرى فإنه لا يختلف عما لدى أبسط مخلوق في الوجود .

تعريف السكجة أو علم النفس

« وهو علم الطبيعة البشرية الغامضة »

عند البحث عن موضوع من المواضيع لا بد أن يستهل بمقدمة مختصرة
تعرف ذلك الموضوع وتبين حدوده ، فإذا رغبتنا في درس علم النبات مثلاً نفتح
الدرس بجملة تقول إن علم النبات درس يبحث عن حياة النباتات وأنواعها وأفعال
أعضائها . غير أننا إذا أقدمنا على تعريف السكجة نجد صعوبة كلية في إعطاء
تعريف شامل يجمع شتات جميع مواضيعه المتفق عليها في أكثر الكتب
كالذاكرة والانفعال والتعلم والتفكير وتكوين العادة والملاحظة والتخيل وغيرها
والتي درست بتفصيل كل على حدة .

فإن قلنا إن السكجة هي دراسة الواعية أو الفكر فهل يكفي هذا ليفهمنا
صورة واضحة عن معاني هاتين الكلمتين كما لو عرفنا معنى الكلمتين « العنصر
أو الفلز في الكيمياء » ، أو هل في استطاعة أحد أن يفهم معنى كلمة الفكر ولو شرحت
إليه ببضعة أسطر . وعلى كل حال فالواجب نحتم علينا بيان تعريف أساسي يكون
أقرب إلى الحقيقة والواقع وهذا ما سنجتهد أن نصل إليه وعند ذاك نعلم أن
السكجة من ألد العلوم وأصعبها .

ومن المعروف أننا نفقد الوعي عند السبات أو الإغماء وعلى هذا يمكننا القول
بأن حياتنا الواعية هي عبارة عن حياتنا العملية التي نشعر فيها بالموجودات حولنا
أو بما نحس به ونرغب فيه ، والوعي ليس بمادة بل صفة خاصة تتعلق بأفعالنا العقلية
الباطنية التي ندعوها بالملاحظة والتفكير والحس والشعور وغيرها ، وإذا ما ذكر
علماء السكجة الأقدمون بأن علم النفس هو عبارة عن دراسة الوعي فإنهم
يقصدون بهذا أنهم درسوا كل هذه الأفعال عن الإنسان دراسة لا بأس بها .

وهنا لنفرض أن شخصاً ألحق بك ضرراً في الماضي فكما تشاهده أو تذكره
ينبعث فيك (على الأرجح) شعور الكره أو البغضاء ، وإذا ما مر بك زمن

ينسبك إياه فإنك لازلت في الوقت عينه كارها له ولو كنت ناسيه أو ساهيا عنه أي إن كرهك له صفة فيك كنتيجة لعلاقات سابقة بينك وبينه تثبت من حين لآخر شعور الكره فيك ولو لم تكن واعيا له في وقت من الأوقات ، فيصح إذن أن نقول عن هذا الشعور إنه صفة عقلية فيك وليست بجسمية كلون العين أو الشعر . وبناء على ذلك نجد أن هناك كثيرا من العوامل كهذا النوع التي يجب أن يحسب لها حساب قبل أن نعرف تماما أفعال الوعي في الإنسان ولوجود هذه العوامل كفاً أكثر السكليين عن تعريف علمهم بأنه علم يهتم بدراسة الوعي إذ أن التعريف يجب أن يتضمن مع حقائق الوعي جميع الأحوال التي تعين هذه الحقائق .

وبالإضافة إلى ما مر نجد اعتراضا آخر لهذا التعريف لا يقل أهمية عن الأول وهو أن دراستنا للوعي تقتصر مباشرة على أنفسنا فقط ولكن أليس في الإمكان أن نستدل من سلوك الآخرين على أن للناس صفة الوعي أيضا؟ حتى إذا كان عن طريق اللغة لأن اللغة وهي القيام بعمل سلسلة من الأصوات الخاصة بالنم والخنجرة هي أيضا شكل من التصرفات أو السلوك الذي يبدو من الإنسان والحيوان ما دامت تصف لنا انفعالاتها وأفكارها بالكلمات . من كل هذا استخلص علماء السكليجة حديثا تعريف علم النفس فقالوا : أنه درس للسلوك والتصرف ، وإننا بهذا التعريف نستطيع أن نفهم الشيء الكثير من أسرار هذا العلم ويبقى من يلتزم بإطلاق التعريف على دراسة الوعي حاصرا بحثه عن وعي نفسه ولذا يصعب عليه أن يتوصل إلى نتائج صحيحة شاملة تنطبق على هذا وذاك وأولئك أجمعين .

وبناء على هذا يصبح من الواجب أن ندرك معنى التصرف ؛ كلنا يعلم أن الموجودات تقسم طبيعيا إلى قسمين (نسمة) و (موات) والتصرف لا يمكن أن يطلق إلا على القسم الأول حيث إن المواد أو الكائنات الجامدة تتغير بتغير المؤثرات الخارجية بينما الأحياء تسير وتعمل بفعالية داخلية نحو غاية أو هدف هو من صالحها كما يظهر ذلك من هجرة الطيور مثلا أو من قيامها بعمل الأعشاش لتبيض

وتربى أفرأخها فيها وبهذا تتميز النسمة عن الموات بتصرفاتها تفريقا لها عن الحركات الميكانيكية التي تظهر على الموات بصورة عامة .

وهنا لا بد من أن نلفت النظر إلى نقطتين هامتين :

الأولى : عندما نذكر أن الإنسان يعمل بقصد الوصول إلى نتيجة يرتضيها معنى بذلك أنه يعمل لإنجاز واجب أو عمل كان قد افترس به سابقا قبل الشروع فيه ، وإذا قلنا إن الأحياء جميعها تعمل تقصدا فهل يعنى ذلك أنها تؤدي ما يؤديه الإنسان وهل للزئطح أو الديدان قوة تتصور فيها نتائج العمل قبل الشروع فيها . إن الجواب على ذلك لا يأتي صحيحاً إلا بعد أن القيام بتجارب عديدة لدرس تصرفات الحيوانات ومقارنتها بتصرف الإنسان فإن كان هناك شبه بين النوعين من السلوك ولو كان بظروف خاصة فقط حكمنا على أن لبقية الحيوانات مقاصد واعية . والواقع أن سلوك أنواع شتى من الحيوانات تتشابه من بعض الوجوه وسلوك الإنسان ولكنها تختلف عنه من وجوه أخرى .

والثانية : قد لانجد جميع أعمال الإنسان وتصرفاته مساقاة بمقصد واع ، إذ في الإمكان مثلاً أن يمشى إنسان في الطريق وهو مشغول البال فلا ينتبه إلى جهة سيره وعلى كل فانه يقصد الغاية دون أن يضعها ، ولا يبعد أن يكون للإنسان كثير من هذه التصرفات الميكانيكية التي اكتسبت بالعادة وتلوح بأدى ذى بدى أن لها شأناً ضعيفاً أو ما يقرب من العدم من الفعلية الواعية .

حجر المائتين

« الحجر الكريم القاسم
معشوق الأترياء . »

أذاعت الجمعية الجغرافية الوطنية في أميركا في نشرتها المسماة « صحيفة الأخبار الجغرافية » مجل التبدلات التي طرأت على حركة الماس وذكرت شيئا عن تعدينه واستعماله فقالت : —

هبطت واردات الماس عام ١٩٣٠ كثيرا فقد بلغ النقص ثلث الوارد قبل عام من التاريخ المذكور ، وكان زنة هذا الوارد ما يقارب النصف مليون قيراط و يقدر ثمنه بستة ملايين من الدنانير . وتعلل زيادة الوارد من هذا الحجر الكريم حتى أيام الكساد نسبة إلى السلع الأخرى بأن الماس لا يستعمل فقط في أمور الزينة والتبرج المتطلبة من قبل النساء والرجال بل إنه يستهلك كذلك في الصناعات المختلفة الدقيقة و يصرف لكل ذلك من منتوجه بما يقارب ٥٠٪ في المائة من المحصول سنويا فمنه تصنع مثاقيل مختلف الساعات والموازين التي يخصص بعضها لقياس الزمن أو التيارات الكهربائية ، ومنه تستعمل معظم الآلات الدقيقة والأجهزة الثمينة المعدة للمختبرات الكيميائية . إن قسما من هذه الأجهزة يحتوى على ثقب صغير جدا يمكن بواسطتها تحضير أسلاك دقيقة من المعادن النادرة كالذهب والفضة والذهب الأبيض « البلاتين » التي تستحضر منها خيوط الآلات الكهربائية وبصلاات الراديو إلى آخر ما هنالك من المصنوعات الفنية . وفيما عدا ذلك نجد استعمالات صناعية أخرى لهذا الحجر وهي عمل آلات لحرق الزجاج والخزف وأمثالها من المواد الصلبة وإعداد أجهزة تستعمل في البرق والخزف كابر النقش والحفر والشفرات الحادة لزرف الرخام والحجر .

إن الماس المستهلك للأغراض السالفة الذكر هو بالطبع من النوع الرديء أو المتوسط في الجودة وهذا يزيد محصوله عن نصف ما يستخرجه العالم من الماس عموما ، وهو بالطبع ذو قيمة أقل بكثير من النوع الممتاز الذي يستفاد منه في عمل الجواهرات والحلى . إن أكثر من ٨٥٪ في المائة من الماس الموجود الآن في أقطار المعمورة

يستورد من قارة أفريقيا ، ونصف هذا المقدار يصدر من مناطقها الجنوبية . أما الولايات المتحدة الأميركية فهي أكثر الممالك العالمية استهلاكاً للماس وهي في الواقع تستورد جميع ما يستخرج من مناجم أفريقية الجنوبية .
تقدر كمية الماس المستخرجة عام ١٩٢٩ بكتلة مكعبة الشكل طول ضلعها ٥ أقدام ونصف ويقارب ارتفاعها قمة إنسان متوسط الطول أما وزنها فيبلغ طناً ونصف الطن .

إن الأراضي الغرينية ذات الرسوبات المحتوية على الماس كانت إلى سنين متأخرة المنبع الفياض لهذا الجوهر الثمين حتى إذا ما تقدمت طرق التعدين صار في الإمكان الحصول على كميات كبيرة من الماس بطريقة الحفر العميق في مجارى البراكين المدرسة منذ عشرات السنين بعد عزل الأحجار المعدنية من التراب والصخور . وإن أعظم هذه المجارى يقع في جنوب القارة الأفريقية قرب منطقة « ريثوريا » حيث اكتشف عام ١٨٩٠ واستطاعت يد الإنسان الجبارة من حفر خندق عظيم يقارب عمقه من الألف قدم بعد أن أزيح من هذه الحفرة ١٣٠ مليوناً من الأحمال كلها من الطين الخزفي الأزرق . فأصبح هناك هوة تحير الألباب في مقدورها أن تبتلع بعض ناطحات السحاب الأميركية ، وبهذا استخلص الحفاريون من مواد هذا المنجم الواحد ما يقارب الثلاثة ملايين قيراط من الماس تقدر بـ ٣٣ مليوناً من الدنانير .

أما المناطق الغرينية الأخرى المهمة فقد اكتشفت قبل ذلك بسنة أو ما يقاربها في (نماكولند) في الجهة الشمالية من رأس (بوفنس) في جنوب أفريقية حيث وجد الماس فيها بين طيات الرمال على طول ساحل البحر . وامتد عمل الحفر في أراضي واسعة جداً . أما طريقة التنجيم في هذه الجهات فقد اقتضت على غرف الرمال بواسطة الجارف البخارية أو الكهربائية وشحنه بعربات مسطحة حيث ينقل ليصفي ويعزل عنه الماس وبهذه الصورة استحصل من الماس في السنة التي

ابتدأ فيها الحفر بما يقدر ثمنه بـ (٤٠٠٠٠) من الدنانير . وبلغ أحيانا زنة الماسة الواحدة بـ (٨٥) قيراطا . ووجد أن الرسوبات المستخرجة من منطقة (نما كولند) مخلوطة بكثير من صدف الحمار الذي عاش في الأزمنة القديمة قبل التاريخ وكانت هذه بالحقيقة أكبر عون للباحثين في استكشاف تلك الرسوبات الرملية لأنها إن وجدت فقد نجد معها الماس لا محالة .

والمعروف أن هناك نظريتين عن أصل الماس في هذه المنطقة : أولاهما تدعى بأنه جرف بواسطة مياه البحار من الجبال الداخلية القريبة فغطاه الرمل بطبقة كثيفة وستره عن الأعين ؛ أما النظرية الثانية فترجع أصله إلى أعماق البحر حيث دفعته الأمواج من هناك إلى الشواطئ بمعونة فعالية البراكين وجيشانها في العصور السالفة .



الجَزَاد

معيشته ، طبائعه ، طرق مكافحته

الجرادة حشرة صغيرة من الحيوانات غير الفقرية التابعة لشعبة المفصليات ؛ يبلغ طول جسمها ستة سنتيمترات ، ويكون لونها في الغالب أحمر قرنفلياً أو أصفر ولها زوجان من الأجنحة : الأمامية منها مرقطة ببقع غامقة أو سوداء ، أما الخلفية فشفافة ومزينة باللونين الوردي والبنفسجي .

يجري السفاد (المرادفة) بين الجراد في أوائل الربيع ، وذلك عند ما يكمل نضوج الأعضاء التناسلية فيها ، وبعد الانتهاء من التلقيح تموت الذكور وتضع الإناث سوءها (بيضها) بعد ما تمسكن (تجمع البيض في جوفها) مدة قليلة . وكيفية وضعه أنها تحفر لهذا الغرض ثقباً في الأرض يبلغ عمقه عادة عشرة سنتيمترات على الأكثر ، وذلك بمساعدة جزئها الخلفي حيث يوجد فيه عضو خاص للحفر يدعى «ذنب الجرادة» ، تغرزه في التربة وتضع منه بيضها في الحفرة ، بعضه بجانب بعض على شكل عنقود ، ويبلغ معدل عدد البيض في هذه الكتلة ثمانين بيضة . وبعد وضع البيض تفرغ عليه الجرادة بصاقها (لعابها) وهي مادة تشبه رغوة الصابون إلا أنها لزجة وتجمد حالاً عند ملامستها الهواء ، فتحفظ بذلك البيض من هجمات النمل وغيره من الحشرات المفترسة . وقد تستغرق عملية حفر الواحد من هذه الثقوب وإكمال وضع البيض فيه مدة تتراوح بين الساعة والساعتين ، إذ تتوقف على نوع الأرض ودرجة صلابتها ، وتموت الأنثى في الغالب بعد وضعها البيض بضع ساعات .

كيفية الحركة :

تضع الأنثى بيضها عادة في الجهات الرطبة ، وتفضل نادراً ضفاف الترع والسواقي والأراضي المزروعة المسقاة حديثاً ، ويفقس البيض بعد مدة قصيرة

لا تقل عن الثلاثة أسابيع ولا تزيد عن الخمسة ، فتنبعث منه اليرقات الدودية الشكل التي تأخذ طريقها إلى سطح التربة بمساعدة حركتها الدودية الخاصة ، فيمر عليها دور الانسلاخ التمهيدى حيث تتطوّر إلى حشرة صغيرة لم تنبت فيها الأجنحة المعروفة ، وتسمى عندئذ بالحوريات أو الدبا (الواحدة دبة) بفتح الدال وتعرف عند العامة باسم النطاط أو الزحاف ، وتكون إذ ذاك قادرة على الحركة بطرق عديدة مختلفة أبسطها ما يدعى بالديب أو الزحف ، ولم يعرف حتى الآن ماهية العمل الميكانيكى الباعث لهذه الحركة ، ولكن من المظنون أن جميع الأرجل الست فى الزحاف الواحد تشترك فى هذه العملية ، ومع هذا فإن الزوج الخلفى لا يلعب دوراً هاماً أثناء هذه الحركة كبقية الأرجل ، وقد قدر الأستاذ « نيكولسكى » معدل سرعة الزحف فوجده يقارب الثلاثة والعشرين قدماً فى الدقيقة الواحدة غير أن هذا الرقم لا يدل على حقيقة ثابتة بناء على اختلاف الحركات أثناء المهاجرة والرحيل .

تسلق الأشجار والسباحة :

والتسلق نوع من أنواع الديب ، وبه يستخدم الزحاف الزوجين الأماميين من أرجله فى أول الحركة ثم الزوج الخلفى وهكذا بصورة متتالية وعلى استمرار ، فتكون الحركة أشبه بالنط أو الوثب ، ولا شك أنها نتيجة أجوبة لمؤثرات خارجية . إن الزحاف والحشرات اليافعة من أنواع عديدة كثيراً ما تخوض المياه سباحة ، ومنه ما يعيش قرب الماء ويسبح فيه غالباً بين آن وآخر أو يقضى حياته على الحشائش المائية مدة من الزمن ، وقد ظهرت بعض التكيفات والتجورات فى تركيب أجسام هذه الحشرات السابحة نتيجة حياتها المائية ، وذلك كاتساع حواشى قصبه الرجل والأقسام الأولية من المفاصل (رسغ القدم) ، ولتعلم أن الحركة الميكانيكية فى السباحة لا تختلف عن القفز إلا أن للأرجل الخلفية هنا دوراً هاماً إذ هى التى تثب فى بادىء الحركة . والحشرة السابحة تخفى نصف جسمها تحت سطح

الماء حاملة كمية غير قليلة من الهواء داخل جزئها الظهري المتقدم ، وهو المدعو بـ«البروتم» . وبذلك يسهل على الحشرة التنفس خلال الفتحات أو الثغور التنفسية الصدرية ، وإذا ما أرادت تبديل الهواء رفعت جانبها قليلاً فوق الماء ، فيبرز ظهرها المتقدم ويلامس الهواء الخارجى ويحصل على كمية منه ، وهذا هو السبب الذى يجعل الزحاف قادراً على السباحة مدة طويلة تتجاوز الـ ٢٨ ساعة على سطح الماء دون أن تختل موازنته ، أو أن يموت اختناقاً .

الطيران :

وهذا لا يكون إلا عند الحشرات الكاملة النمو (اليافعة) . ويبدأ الطيران بوثبة يتبعها نشر الأجنحة إلا أن الوثب غير ضرورى دائماً ، لأنه قد يكون الطيران من فوق الأشجار ، وعلى كل تبقى الأجنحة الخلفية (وتسمى القشران بضم القاف) والأجنحة الأمامية أو الأعماد (وتسمى الظهران بفتح الظاء) أثناء الطيران منعزلة بعضها عن بعض فى الخفقتان حيث تكون الحركة فى اتجاهات مختلفة ولا تتوافق فى أوقاتها ، ويقترب زوج القدم الأمامى نحو الصدر كما هى الحال وقت السكون ، وينحنى الزوج الخلفى انحناء بسيطاً نحو الركبة .

ويمكن أن يكون الطيران عديم الفعالية (سليماً) ، وذلك حينما تجرف الرياح سرباً من الأسراب فى اتجاهها . والشائع أن للأكياس الهوائية أهمية كبرى فى الطيران فى امتلائها بالهواء تقليل للثقل النوعى لجسم الحشرة ، غير أن هذا الاعتقاد خطأ محض ، إذ لا يمكن للحويصلات الهوائية من تنقيص الوزن النوعى للجسم ما دام هناك اتصال دائم بين الهواء الموجود فى هذه التجاويف وبين الهواء الخارجى ، وهما فى الغالب بدرجة واحدة من الضغط .

المنبئات الخارجية وتأثيرها فى حركة الجراد :

إن كل الحركات التى تقوم بها الجراد الواحدة هى عبارة عن أفعال انعكاسية أى أجوبة لمؤثرات خارجية ، وقد يؤدى حصول بعض حركات انعكاسية ناتجة

من عوامل كثيرة تعمل عملها في وقت واحد إلى تصرف معقد لا يمكن فهمه إلا بالتحليل الدقيق ، وحتى الآن لم يتمكن الباحثون من درس هذا التصرف دراسة وافية ولهم في ذلك شذرات أو شروح بسيطة لا تنفي بالغرض المطلوب .

١ - المنبهات الميكانيكية - وهذه يختلف تأثيرها حسب المكان والعوامل المحيطة ، فمثلاً إذا ضغطنا على إحدى سيقان الجندب لشاهدنا فيه حصول شلل وقتي يستمر حيناً قصيراً أو طويلاً حسب درجة حرارة الجو ، فهو يدوم من ٤ إلى ١٠ دقائق في درجة الحرارة ١٣ سنتغراد ، ويدوم أقل من ذلك في الأيام الحارة ، وقد لا يحصل بتاتاً في أوقات القيق الشديد . والقفز هو بلا شك حركة انعكاسية إذ قد شوهد أن الأرجل الخلفية تبدأ عملها عند أدنى لمس يصيب البطن من الجهة السفلى قرب الظهران (الأعماد وهي الأجنحة الغليظة) وهذا ما يحصل عادة في الطبيعة عند احتكاك البطن بسطح الأرض أثناء الديب . ومن الوسائط أو المنبهات الميكانيكية التي تؤدي إلى حركات عكسية هي اهتزازات الأمواج الهوائية التي تؤثر على ما يظهر على الأجهزة السمعية للحشرة ، كما أن الاقتراب السريع من حشرة ساكنة يؤدي إلى حركتها من مكانها والابتعاد عنه قفزاً . وإذا كان الاقتراب منها بصورة بطيئة وخفيفة جداً بحيث لا تسبب خطراً في ذرات الأرض أو الهواء عند تلك المنطقة ، فعندئذ قد تبقى الحشرة ساكنة . هذا وليس من المستبعد كذلك اندفاع هذه المنبهات خلال الحاسة النظرية ولو كانت في الحقيقة ذات أهمية ثانوية .

ومن جملة الحركات الانعكاسية المهمة المعروفة للحشرات هي ما تدعى بمط الأرجل الخلفية أو (أوتوتوني) ويحصل ذلك عادة عند تعرض ساق الرجل أو أي جزء من أجزاء البدن للضغط أو لمنبه آخر كالتيار الكهربائي الذي يستفز الكتل العصبية في الميزوثوراكس . وقد يكون ذلك تحت تأثير السم بعد وضع الحشرة في قنينة (الساينيد) مثلاً ، ولا بد أن تحصل هذه الحركة لأول مرة أثناء مرور الحشرة

في أدوار الانسلاخ حيث تسعى لتحرير أرجلها الخلفية من ثوبها القديم .
وهناك خاصة ثانية للجراد والجندب وهي انبعاث السائل الأصفر (دبس)
من الفم كما مسكت الحشرة باليد وقد درس هذه الظاهرة الأستاذ (رابود) فقال
عنها إنها حركة انعكاسية للعدة تسبب انصباب محتوياتها إلى الخارج وذلك بسبب
الضغط الحاصل على الميزوثوراكس والميتوثوراكس أو الجزء الأمامي للصدر وقواعد
الأقدام وفي بعض الأحيان يصحب هذه الظاهرة نزيف ينبعث من بضعة مناطق
في الجسم ، والأرجح أنه يحصل من اندفاع افرازات غدية مكروسكوبية منتشرة
على سطح هذه المناطق ويقول البعض إن هذه السوائل هي عبارة عن دم الحشرة
الذي يسيل من منتفخات موجودة في القسم الظهري المتقدم ، غير أنه سرعان
ما تندمل هذه الجروح دون أن تبقى لها أثراً بعد أن تترك الحشرة وشأنها ولم يعرف
حتى الآن التركيب الكيماوي لهذا السائل .

إن كل هذه الظواهر التي تبديها الحشرة في مثل هذه الأحوال هي عبارة عن
سلاح تدفع به غائلة العدو وتحفظ بواسطته نفسها إذ أن العدو سرعان ما يطلق
سبيلها عندما تتدفق هذه الإفرازات إلى الخارج .

وفي الواقع إن خروج اليرقات إلى سطح الأرض بعد أن تنفخ عنها البيوض
لا يمكن أن يفسر إلا على قاعدة تأثير المنبهات الميكانيكية وذلك من جراء الضغط
الحاصل من التربة المحيطة باليرقات نفسها ثم إن اتجاه الحركة يتعلق بقوة الجذب
وهي أيضاً منبه ميكانيكي وهذه القوة هي ذاتها التي تعين اتجاه الحركة للزحاف عند
التسلق على الأشجار ليلاً وتسمى هذه الحركة التي تحصل تحت تأثير الجاذبية
« الاتجاه نحو مركز الأرض » ومن ذلك نعلم أن اليرقات اتجاهاً سليماً بالنسبة إلى
تلك القوة .

٢ — تأثير الحرارة — يمكننا إن نقول أن الزحاف يحتاج إلى حرارة معينة
تناسبه للمعيشة في محيطه فلو أخذ زحاف وجمّد تحت درجة الحرارة ٥ س لمدة

٣٠ دقيقة حتى يصبح جسمه قابلاً للقصف، ثم أخذ وعرض إلى نور الشمس لرأينا انتعاشه ورجوعه إلى الحالة الأولى، غير أن هذا لا يصح دائماً فنادرًا ما تعود الحياة للزحاف بعد انتشاله من محيط درجة حرارته تساوى — ١٤ س. كما أن ارتفاع درجة الحرارة إلى ٥٠ س يؤدي أيضاً إلى شلل في أعضاء الأرجل الخلفية وقليلًا ما تعيش الحشرات في جو حرارته تقارب ٥٧٫٧ س أكثر من ١٠٫٥ دقائق .

وتبين طبائع الحشرات حسب اختلافها وحسب درجات الحرارة فزحاف الجراد المراكشي مثلاً يذهب في دور سبات عميق في درجة ١٠ س بينما نجد أن الجراد الرخال يبدأ دور سباته الناشئ من الحرارة عند الدرجة ٤٠ س وفي الدرجة ١٦ س أثناء هبوط الحرارة واشتداد البرد ليلاً وإذا ارتفعت الحرارة أكثر من ذلك تسبب ازدياداً في النشاط والحركة إلى حد محدود، وأوفق حرارة للجراد الرخال التي تزيد فيه فعاليته بين ١٥ — ٤٠ س . وقد عملت تجربة لتقدير الحرارة الضرورية لمثل هذه الحشرات فأخذت قطعة من الزجاج مغطاة بورق خفيف ووضع عليها عدد من الزحاف ثم عرضت الزجاج إلى الحرارة بواسطة مصباح كهربائي بحيث تلمس أولاً مركز القطعة وكانت الحرارة فيه في الدرجة ٦٠ س وتقل بالطبع كلما ابتعدنا عن المركز، فشاهد أن الزحاف يبتعد عن نقطة المركز ويشكل دائرة منتظمة حوله في المنطقة التي تكون درجة حرارتها بين ٣٦٫٦ و ٣٧٫٧ وقد أعيدت هذه التجربة مرات عديدة فكانت النتائج متساوية . نستدل من كل ما تقدم أن ارتفاع درجة الحرارة يسبب الازدياد في فعالية الحشرة ونشاطها فتزداد حركاتها الانعكاسية ولو كان ذلك بتأثير عوامل أخرى، والحرارة تزيد في طول قفزة الزحاف وفي سرعة جماعات اليرقات المتقلة من مكان إلى غيره ومما لا شك فيه أن نزول الجراد من الشجر إلى الأرض هو نتيجة اختلاف في درجة الحرارة الجوية والأرضية معاً مما يؤدي بالجراد إلى أن يتجه بالانجذاب الإيجابي نحو الحرارة، ولكن إذا ارتفعت الحرارة أكثر من الدرجة التي ينبغي أن تكون أو الدرجة الأوفق فيصبح الانجذاب عندئذ سلبياً .

(٣) تأثير النور : ويظهر ذلك جلياً بعد انقضاء دور الانسلاخ ، فالجراد المراكشي يجتمع دائماً في الأيام التي تغطي فيها قطع الغيوم جزءاً من نور الشمس في المناطق البيضاء المنيرة . ويلوح لنا أن الانجذاب للنور يختلف حسب أنواع الحشرات فمثلاً يشاهد أن النور الصناعي يجذب نحوه في الليل عدداً غير قليل من أنواع الجراد التابعة لفصيلة (أكريدي) وكما أن سرعة فاعلية النور تتغير حسب نوع الحشرة فهي تتوقف أيضاً على طبيعة النور فتكون على أشدها في نور الشمس وتكون على أقلها في النور المختلط وتنعدم بتاتاً عندما تغلق جميع عيون الحشرة البسيطة منها والمركبة ، وقد دلت هذه التجارب على أن هذه الحيوانات الحشرية تتأثر برؤية الأشباح فقط ولهذا يمكن الاقتراب من الحشرة الواحدة وقبضها على شرط أن يتم ذلك بتؤدة وسكون .

(٤) تأثير العوامل الكيماوية : إن انجذاب الجراد لبعض المواد الكيماوية السامة حقيقة تعرفها الأثرية ولو كان التأثير هذا بسيطاً على العموم . وقد نجد هناك مواد يجذب نحوها الجراد انجذاباً إيجابياً وأهم هذه المواد هو الماء فكثيراً ما شوهد أن بعضاً من أنواع الجراد يحط على نباتات لا يعيش عليها البتة ولا يقتات بها ولكنه يقبل عليها لكونها تحوى على كميات كبيرة من الماء . والماء بحذ ذاته له أهمية فسيولوجية كبرى للجراد حيث إننا نشاهد أثناء الصوم الذي تقوم به الحشرة نقصاً بيناً في وزن جسمها وسببه قلة الماء المشروب وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الجراد الجائعة لا تستغنى عن شرب الماء أبداً . ومن الأمثلة الأخرى للمواد التي يقبل عليها الجراد هو مركب « خلات الأميل » والخلاصة أن الحشرة معرضة لكثير من المنبهات الخارجية من نور وحرارة وضغط ومواد كيماوية وغيرها وكما أن هذه قد تؤثر على الجسم بصورة منفردة فقد يحصل أن يقع تأثيرها مشتركاً فينتج عملاً واحداً وهكذا نجد أن سرعة القفز مثلاً قد تحصل من ازدياد في درجة الحرارة فقط أو بتأثير مزدوج لمنبهين ميكانيكي وحرارى أو غيرهما معاً .

طبائع التغذى والعوامل المؤثرة عليها :

إن الحشرات ومنها الجراد مشهورة بالشره العظيم إذ أنها تبتلع كل شئ تجده في سبيلها عند تجوالها ورحيلها ويتكون معظم طعام الجراد من الأجزاء الخضر لأكثر النباتات المزهرة وقليل منها يعيش على النباتات الأشنية التي تكثر في التربة الغنية بالمواد العضوية الأرضية ، وقد يندر أن نجد البعض من هذه الحشرات يعيش على غذاء الحيوانات البروتينية . وانتخاب الأغذية النباتية يختلف باختلاف أنواع الحشرات ويمكن أن نقول على العموم إن معظم أنواع الجراد يفضل من النباتات : « الفصيلة العشبية » أما الأشجار والعوسج والأدغال فتقبل عليها بضعة أنواع محدودة من الحشرات ليس إلا . أما الجراد الرحال فهو من الحشرات التي تأكل جميع أصناف الطعام ، وله ميل شديد إلى أكل القصب وأوراقه وإذا لم يجد في سبيله نباتات من الفصيلة العشبية فسرعان ما يهاجم نباتات أخرى من (الفصيلة البقولية) أو غيرها حتى ولو كانت تلك النباتات من الأنواع السامة . وقد دلت الاختبارات على أن مثل هذه النباتات له ضرر كبير على الحشرات نفسها فهي تعوق مثلاً نمو الأعضاء التناسلية فيها وتؤثر عليها تأثيراً سيئاً . وكلما زاد عدد الزحاف كبر ضرره بالأعشاب والخضر . وإن لكل نوع من الأنواع أصنافاً محدودة من النباتات يقتات عليها غير أنه لا يمكننا أن نحكم بأنها لا تتعداها إلى أصناف أخرى فكثيراً ما يشاهد البعض من الحشرات السابحة تهاجم النباتات لقرض أوراقها الخضر وتمزيقها فقط دون أن تأكلها ، وهذا ما عمله أسراب الجراد الرحال أيضاً عندما تهاجم الحقول وتسطو على المزروعات فتقضم سيقان نباتاتها وتجردها من أوراقها وتنثرها الأرض دون أن تبليها . وهناك أنواع أخرى تأكل أمواتها وقد سعي (نيكولسكي) كثيراً لتربية الجراد الرحال على طعام الحيوان فكانت النتيجة فاشلة سيما وأن الزحاف الرابي وفقى ما ذكر لا يقدر من إتمام عملية الانسلاخ بنفسه فيموت عاجلاً

أو أجلا . والجراد على العموم له المقدرة الكافية على البقاء حياً عدة أيام دون أن يشرب فيها الماء أو يتناول الطعام ، وفي الواقع إن الجراد المراكشي يمتنع عن أخذ غذائه وشربه في دوره الأول مدة ستة أيام أما الجراد الرخال فيبقى كذلك مدة لا تقل عن السبعة أيام ونصف اليوم ويستمر صائماً من الدور الثاني إلى الرابع مدة ستة أيام أما في الدور الخامس فيمكنه العيش بلا غذاء مدة تسعة أيام . هذه هي أدوار الصوم التي تتعاقب على الحشرة الواحدة وينقص وزن الجسم أثناءها نقصاً عظيماً يتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين بالمائة من وزنه الأصلي ، وعند الموت يكون النقص في الوزن بيناً وهو يرجع بالأكثر إلى فقدان كميات المياه وليس إلى تفتت المادة القشرية اليابسة . وتزداد نسبة التغذية بازدياد نمو الزحاف وانتقاله من دور إلى دور حتى تصبح عشرة أضعاف مما هي والحشرة في الدور الأول ، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن الحشرة الواحدة لا تهضم وتمثل كل ما تتلعه بل تدفعه إلى الخارج مع البراز دون تغيير وقد تأيد ذلك بالاختبار فكان أكثر محتوياته أليافاً نباتية وقطعاً من الورق لم تفقد شكلها . هذا وليس لدينا استدلالات علمية كافية تقيّدنا عن كمية ما يأكله الجراد في كل دور وبالإجمال يمكننا أن نقدر ما تستهلكه الحشرة الكاملة من الطعام بنصف ما استهلكته في جميع أدوارها اليرقية . وأوقات التغذية مهمة جداً لعلاقتها الشديدة بطرق المقاومة فالزحاف مثلاً يمتنع عن تناول الطعام بعد كل سلخة وهو يدوم في الجراد الرخال زمناً يتراوح بين ١٢ — ٢٤ ساعة ويبدأ دائماً في صباح اليوم التالي الذي يعقب يوم الانسلاخ دون أن تضعف من حدته الظواهر الجوية مهما كانت . والسبب الفسيولوجي الذي يحتم هذا الصيام كما يعتقد (كولاجن) هو وجود المواد الغذائية من صفار البيض ونحوه في معدة الحشرة إثر قسمها عن البيض وهي التي تعتمد عليها أثناء مرورها بأدوار الاستحالة وحالماً تأتي عليها الحشرة وتنتهي من هضمها تبدأ تشعر الحشرة بالجوع فإذا واعتماداً على هذا لا يمكننا أن نجزم بوجود دور للصيام أثناء نمو الحشرة . والحرارة

عامل آخر مهم في التغذية فهو يهبطها يقلل مقدار المستهلك من الأغذية بواسطة الزحف وذلك في دوريه الأول والثاني ، على أن هذا التأثير يسمى ضئيلاً في الأدوار المتأخرة ، أما الحشرات اليافعة فتدوم تغذيتها بالخضر والنباتات مادامت درجة الحرارة تقارب الـ ٢٠ س وتتوقف إذا زادت فوصلت (٣٢) س . وهذا ما يفسر لنا أيضاً تأثير الحرارة على الأعمال الفسيولوجية الأخرى إذ تزيدها كلما ارتفعت إلى حد محدود ثم تضعفها فتخمد أخيراً ولذا دعى ذلك بـ (الحمود الحرارى) وهكذا اختلفت كمية التغذى أيام الصحو والمطر حسب ازدياد الرطوبة الجوية ووفقاً لتأثير النور على فعالية الحشرات ، وقد قال (فالوفا) إن معدل مدة الصيام عقب كل انسلاخ هو ٢٠/٢٧ ساعة والصيام يحصل بالتدريج ولا يكون فجائياً .

طبائع الجراد المتجمع :

إن خاصية التجمع أو المشى أسراباً صفة من صفات الجراد ومن السهل جداً أن نشاهد الجراد وهو يكون هذه الأسراب في بداية التفقيس حتى يصل إلى دور السكمال ، ومن الأفضل أن نحدد كلمة « الأسراب » للجراد السكمال (اليافع) ونطلق على زمر الزحاف كلمة « جماعات » أو ما تسمى بالانكليزية (باندرز) وتتوقف خاصية التجمع على قوة حيوية كامنة في أنواع الزحاف تسوقها : أولاً — إلى أن تعيش سوية مع بعضها وثانياً — إلى أن تقلد الأفراد في الجماعة الواحدة حركات بعضها البعض وهذه بالطبع نتيجة أفعال انعكاسية بسيطة ولو كنا نجمل في الوقت الحاضر قواعدها العلمية المبنية عليها . والخاصية الأولى تختلف حسب شدتها حتى في أفراد النوع الواحد فالزحاف الذى يكون على أبواب دور الانسلاخ له ما يشغله عن التجمع مؤقتاً فرغبته للاجتماع قليلة نسبياً ولا نعرف حتى الآن إذا كان للقوى الشمية والناظرة عمل كبير في خلق هذا الميل أم لا . أما الخاصية الثانية فتدعو إلى تقليد الحركات وجعلها أعمالاً انعكاسية تتسبب إما عن منبهات ميكانيكية ومعها حركة الهواء وتذبذب ذرات التراب أو عن النظر ، إذ يظن البعض أن حركة الأشباح

على شبكة عين الزحاف تولد حركة انعكاسية في أقرب موجود مجاور على نفس الاستقامة ، وهكذا تنتشر الحركة الواحدة بين كل أفراد الجماعة بسرعة فائقة ، هذا إذا فرضنا بأن كل الشروط الباقية كانت متوفرة وذلك كالحرارة مثلا التي تنبه الحشرة فتدفعها إلى العمل .

كيفية تشكل الجماعة :

لا شك أن أكثر أنواع الجراد يسعى لوضع بويضاته بكميات وفيرة في حفرة واحدة ، فبناء على ذلك نجد أن الزحاف الذي يفتس عن هذه البويضات له الغريزة التامة لتشكيل الجماعات سيما وأنه منذ خلقته يحتك بإخوته احتكاكا يكاد يكون اجتماعا طبيعياً . وهكذا يتكاثر عدد الجماعة بالتدريج بعد انقضاء دور الانسلاخ التمهيدى فيتكاثر الزحاف في مناطق صغيرة على هيئة عوثر مبعثرة هنا وهناك حيث تتراعى للناظر كأنها بقع سوداء تلتطخ سطح الأرض . ولما كان له الميل للانجذاب نحو النور والحرارة نراه يسعى دائماً بحركاته الأتوماتيكية إلى تشكيل الجماعات وفي أيام الشتاء القارسة نراه يجتمع في الغالب بين الصخور والأحجار وفي وسط النباتات والأعشاب حيث تكون الحرارة موافقة ومساعدة للحشرة على حماية نفسها ووقايتها من برودة الجو .

حركة الجماعة :

إن حياة الزحاف اليومية بسيطة جداً فهو يقضي معظم أوقاته في النهار تحت أشعة الشمس بشكل جماعات عديدة متفرقة عن بعضها ، وفي الليل يزحف تحت الصخور أو يتسلق الأشجار بصورة زمر من أفراده فيصرف طول ليله هناك دون أن يبسدى حرا كالشدة البرد ويبقى كذلك في سكونه أو سباته فلا يستفيق إلا وقت بزوغ الشمس في صباح اليوم التالي ، وعندئذ يهجر الأشجار ويذهب بجاعاته إلى حيث يجد الحرارة الكافية من نور النهار . وهذا الاندفاع ناتج على

الأرجح كما قلنا آنفاً من حركات انعكاسية تبعثها فيه منبهات الحرارة أو النور أو كليهما معا ؛ فقد دلت التجارب على أن حرارة الأرض تزداد في الصباح أكثر بكثير مما تكون عليه حرارة الأشجار حيث بات الزحاف ليلاً وعلى هذا تنجذب إليها جماعاته فتنزّل بالتدريج من على الشجرة بعيداً أن تسخن ويزول عنها خمودها . أما درجة التسخين فإنها تختلف بالنسبة إلى الأنواع والأطوار فهي في زحاف الجراد الرحال تتراوح بين ١٤ — ١٥ درجة س وذلك عندما يكون في الدور الأول من الاستحالة وتعادل ١٥ — ١٦ درجة س وهو في الدور الثاني وهكذا تتناسب تناسباً طردياً مع ازدياد العمر وكلما زادت الحرارة في شدتها ظهرت في الزحاف رغبة قوية للأكل والشرب . وقد تباينت الآراء عن الوقت الذي تتغذى فيه هذه الجماعات فمنها ما يقول إنه يبدأ قبل النزول من الشجرة ومنها ما يقول بالعكس وليس لدينا في الوقت الحاضر ما يثبت هذا أو ذاك وكل ما توصلنا إلى معرفته هو أن التغذى يتوقف على الحرارة كما يتوقف على رطوبة الجو أيضاً . وهكذا تبدأ الزمر الصغيرة في القفز والانتشار حتى تشغل ساحات واسعة مكونة جماعة واحدة أقل كثافة وتزاحماً مما كانت عليه زمرها ، وحينئذ تستعد هذه الجماعة الكبيرة بصرف النظر عن الجماعات الأخرى إلى الرحيل بصورة غير منتظمة . ولنعلم من الآن أن ليس لهذه الهجرة من هدف مقصود بل إنها مجرد هجرة لا غير . وتلخص حركة هذه الهجرة بما يلي : —

بعد أن تكتسب أجسام الزحاف السخونة الكافية تبدأ بعض أفراد الجماعة الواحدة في الوثب قليلاً فلا يمضي زمن طويل حتى تقلدها الأفراد الأخرى بحركاتها نتيجة أفعال انعكاسية تمارسها زمرة من بين المجموع فتطير وتقود الكل وراءها في اتجاه واحد تعينه الحالات والظروف الخارجية التي نجهاها ونشك في أسبابها وعواملها . وإذا سارت الجماعة في طريقها فلا يعود يوقفها شيء البتة وحركاتها حركة عمياء لا تلتفت أثناءها إلى المصير . ويتوقف شكل الجماعة عند السير على

الصدف أيضاً ، ومن أمثال المؤثرات في ذلك استواء الطريق ودرجة انبساطه واختلاف كثافة الحشائش المارة بها وشدة هبوب الريح وغيرها وهي بلا شك تسلك السبيل الذي تجد فيه المقاومة على أقلها أثناء هذا الزحف الهائل . فزحف الجراد الرخال مثلاً يسير في حرش القصب على هيئة خطوط ضيقة على طول المنعطفات التي رسمتها الماشية وإذا صادف أن تقاطعت جماعتان مختلفتان في اتجاه سيرهما يختطان ويكونان جماعة واحدة تستمر في حركتها حسب اتجاه إحدى الجماعتين الأكثر عدداً ولا يعوق هذا السير عقبة من العقبات ، فالجماعة تتحرك فوق الروابي وعلى الصخور وفي أعلى المستنقعات والخفر حتى بين الثقوب والأحجار ولكن إذا صادفها حائط أملس لا يمكن عبوره تغبر عند ذلك اتجاهها الأول وتسير في جهة ثانية . ويقطع الزحاف المجارى والقنوات سباحة بواسطة الوشب الاعتيادي حتى يصل الضفة الثانية ، ويحصل الوقوف عادة عند ظهور أى اختلاف في درجة الحرارة أو بالأحرى عند ما تهبط شدتها عند الأصيل فتتوقف الجماعة عن الزحف بالتدريج ، ولكن علينا أن لا ننسى أن هذا الوقوف قد يتم وسط النهار أيضاً فليس بعيد أن تزداد الحرارة إلى درجة تسبب الهمود في أجسام الزحاف كما أشرنا إليه آنفاً وحينئذ يأخذ الزحاف طريقه إلى أعلى الأشجار أو بين الأحجار فيلتجىء هناك مدة الظلام . ويقول (نيكولسكى) إن هذا الالتجاء يحصل في المساء من جراء ازدياد درجة حرارة الجو بالنسبة إلى درجة حرارة الأرض وعلى هذا ينتقل الزحاف إلى المنطقة الأولى فيتسلق الأشجار ولكن هناك أيضاً من يقول إنه ناشيء من عامل الانجذاب نحو النور إذ يتسلق الزحاف الأشجار ليحصل على أشعة الشمس الآفلة تحت الأفق وهناك تقل فاعليته بسبب الهمود الذي يعتريه من البرد وبذا يذهب في سبات عميق طول الليل .

هذه هي حياة الزحاف اليومية التي لا تتغير إلا بتغير الظروف الخارجية فإذا كان اليوم بارداً قضى نهاره على الأشجار ساكناً ، كما أنه من المحتمل أن يحصل له

سبات موقت إذا ما انجذبت الشمس بقطع الغيوم وسترّت أشعتها عنه . أما أسباب حركة الجماعات فلها فروض عدة منها : أولاً — تكون هذه الحركة منقاداً لعامل التفتيش عن الطعام غير أن الواقع ينفي ذلك فنزول الزحاف من أعلى الأشجار وتركه أثناء جولانه أحسن المناطق الغذائية لمهاجمة أراض قاحلة صحراوية أو عدم وقوفه عند بعض البقع الغنية التي يصادفها في طريقه لدليل قاطع على أن طلب الغذاء ليس العامل الأساسى فى المهاجرة .

فليس لنا والحالة هذه إلا أن نقبل الفرضية الثانية ، وهى : تأثير درجة الحرارة والحالات الجوية . وهذه توضح لنا أسباب تلك الحركات ، سواء وجد الغذاء أم لم يوجد ، إذ أنها تتحد فى تأثيرها كعامل واحد يزيد أو ينقص من التوتر العصبي « نيرفس تينشن » للجماعة الواحدة ، فيؤدى حتماً إلى حركتها ، كما أن تلون جسم الزحاف ، وخاصة المناطق الظهرية منه بالصبغة السوداء له من الأهمية التي لا تنكر فى امتصاص أشعة الشمس كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وبذا تدفع الحشرة إلى العمل بتغيير طباعها ، وهذا ما يسمى بالتلون السرى (سورمنك كلريشن) .

طبائع الأسراب الطائرة :

إن نمو الأجنحة فى الأنواع التى تشكّل الأسراب يقود إلى بعض التغيرات فى طبائع الحشرات : فهو يخفف من طبيعة التجوال ويجعل الجراد يقضى معظم أوقاته فى النهار على الأشجار دون أن يتأثر أو يجيب إلى منبه الحرارة فضلاً عن كون الزحاف أصبح الآن حشرة كاملة حرة بانتقالها وقد قويت وتصلبت فيها عضلات أجنحتها الملونة . والطيران يحتاج إلى حرارة معينة تتراوح فى الجراد المراكشى بين (٣١ — ٣٣) درجة س أى أكثر بقليل مما تحتاجه جماعات الزحاف المهاجرة . ويبدأ الطيران عادة بأن تأخذ أفراد من الجراد بالتحليق حول أخواتها وتبقى كذلك مدة وهى تحوم بشكل دوائر عريضة وتترّز أزيزاً متوالياً ، وعلى هذا النحو (٨ — ندى الفجر)

تجتمع الأسراب الكبيرة إلى أن يحين الوقت للرحيل والمهاجرة ، وعند ذاك يأخذ السرب اتجاهها معيناً لا يغيره طول مدة الهجرة ، وقد يستمر الجراد على الطيران أثناءها من يوم إلى ثلاثة أيام مع لياليها يقطع السرب فيها مسافات واسعة ويكون على ارتفاع بعيد عن الأرض يكاد لا يرى أحيانا بالعين المجردة ، ومن المحتمل أن يكون لاتجاه الرياح دخل كبير في تعيين جهة السير . هذا ولم نعلم حتى الآن ما هو تأثير العوامل الخارجية على سرعة الطيران أو على علو هذه الأسراب عن الأرض ومن المؤكد أن العوامل الفسيولوجية هي السبب الرئيسى فى المهاجرة ، فنمو الأعضاء التناسلية فى الجراد وما يعقبه من تغيرات داخلية يدفع الحشرات إلى الطيران الذي يسبق السفاد (الجماع) دائما وفى كل الحالات، إذن فالطيران لم يخرج عن كونه (حفلة عرس) لا غيروهاى لا تبطل أو تنتهى إلا إذا أصبحت الظروف الجوية غير موافقة أو أن تكون جميع الجسميات الدهنية فى الحشرة الواحدة قد استهلكت بالتأكسد فيصحبها غالبا تضيق أو تضيق فى الأكياس الهوائية . وعند الوقوف أو الحط يسلك السرب الهيئة الأولى التى قام بها قبل المهاجرة فتأخذ بعض الأفراد بالحوم بصورة دوائر إلى أن تهبط ويكون حينئذ قد حان وضع البيض .

وهناك فروض أخرى تشرح أسباب المهاجرة فمن قائل إنه نقصان فى كمية الغذاء فى مناطق التفريخ وعلى هذا تضطر الأسراب للذهاب فى التفتيش عن مرابع جديدة ؛ غير أن هذه الفرضية لم تجد قبولا ؛ فكثيرا ما تشاهد الأسراب الكبيرة وهى تقصد محلات فقيرة فى الطعام وتفرخ هناك دون أن تلتفت إلى كميات الغذاء الموجودة فيها . ويفضل (روزيكوف) أن السبب هو فاعلية الطفيليات كالقراد والذباب مثلا على هذه الحشرات التى تزعج الجراد وتطرده من محلاته وقد نقض هذه النظرية صاحبها بنفسه إذ قال إن الجراد ينقل كثيرا من هذه الطفيليات إلى مواطنه الجديدة فيأخذ إليها مثلا الذباب الوالد لليرقات وغيرها من بيوض

الحشرات أعداء الجراد . كل ذلك يدعوننا حتماً إلى ترك نظريات وفروض أمثال هذه تقبل بطبيعتها الجدل الطويل والمناقشة الحادة .

الطرق الفنية لمكافحة الجراد

يدعى بعض العلماء أن أضرار الجراد في الزراعة لا يمكن إحصاؤها وتقديرها لكثرتها ولذلك فإنهم لا يؤمنون بأى طريقة تتخذ لمقاومتها إلا إذا كانت تكلف المبالغ الباهظة للقيام بالعمل على أحسن وجوهه ، والواقع أن هذا الرأى بعيد عن الصواب ، لأن الواجب علينا مقاومة هذه الحشرات عدوة الإنسان بطرقٍ فنيةٍ تضمن لنا النجاح في النهاية دون أن تكلفنا المبالغ الطائلة .

١ — طرق المكافحة الآلية (الميكانيكية) وأهمها :

(أ) إتلاف البيض :

إن حرث الأرض وكربها لإتلاف بيض الجراد وهو في قشوره عملية مفيدة جداً ، فهي تعرض قسماً كبيراً من هذا البيض لأشعة الشمس وللهواء الخارجى فتموت الأجنة في داخله أو تأكله الطيور فيبيد معظمه ، وقد لا يفوتنا أن ماتقوم به هذه الطريقة من خدمة لزهيدة جداً ، إذ من الصعب علينا أن نتلف جميع البيض ، وخاصة إذا كانت الأرضى التى احتلتها أسراب الجراد واسعة ومجهولة . هذا عدا كونها تستنزف مصاريف وجهود بليغة تدعوننا إلى هجرها ، ولكن رغم كل ما ذكر عنها نجد لها كثيرة الشيوع فى بضعة أماكن أهمها أسبانيا وبلاد المغرب فى شمال أفريقيا ، وهنا قد يستخدم العمال لجمع البيض بأنفسهم فيتلقونه باليد ويبيعون قشوره بأسعار محدودة يعينها الوزن والقانون .

(ب) إهلاك الزحاف وإبادته :

وهذه طريقة أولية استعملها الإنسان منذ القدم ولم تزل تستعمل فى المالك المتأخرة فى الحضارة والعمران لقلة أجرة العامل فيها . وفى هذه الطريقة لا تريد

الأدوات المستعملة عن شبكة لقنص هذه الحشرات غير الكاملة، وقد نجد في بعض البلاد كهنگاريا مثلا آلات أرقى من هذه بدقتها ونتائج استعمالها فهناك « مصيدة الزحاف » و« آلة قاتلة الزحاف » فالأولى عبارة عن صندوق خشبي مغلق من جميع جهاته ومتصل من الأسفل بلوح عريض من الحديد فإذا ما سحب الصندوق على وجه الأرض يمتك اللوح العريض بالزحاف ويلتقطه واحدا بعد آخر ويقذف به داخل الصندوق خلال فتحة صغيرة في وجهه وتجر هذه الآلة إما بواسطة الرجال أو الخيل حيث يجمع الزحاف بعدئذ في أكياس صغيرة ويرسل طعاما شهييا للفرارخ أو يخفف لأمور أخرى .

أما آلة (قاتلة الزحاف) فهي أشبه بالمصيدة المذكورة آنفا إلا أنها أبسط تركيبا فهي عبارة عن لوح من حديد مزئبق أو من قصدير له في خلفه قارورة مصنوعة من نفس المعدن تحتوى على نوع من الريث يهلك الجندب أو الجراد، غير أن مثل هذه الآلة لا تستعمل عادة إلا لجمع مفردات هذه الحشرات الطائرة هنا وهناك في الساحات الصغيرة لبعض الحدائق إذن فهي قليلة الأهمية ولا يمكن الاعتماد عليها دائما وفي كل الأحوال .

(ح) إحراق الزحاف :

وهذه الطريقة شائعة في أكثر البلدان لإهلاك جماعات الزحاف الصغيرة وأبسط أساليبها هو الإحراق بالنقش وسعف النخيل، وهناك آلة معدة لهذا الغرض يستعملها اليوم أهالى تركستان الروسية وهي عبارة عن مستودع أو صهرج يحتوى على البترول وله أنبوبة من حديد منتهية برأس لولبي يدور بسرعة فائقة يحمله العامل على ظهره فإذا أشعل ذروة اللولب وضغط على البترول برز مخصوص يتبخر الغاز عند اللولب فيبعث بلسان طويل من اللهب يوجه نحو الزحاف فيحرقه، وقد ترك كثيرون استعمال هذه الآلة لخطورتها . وقد يستعمل البعض طريقة (الرشق بالنار) وهي كما يفهم من اسمها طريقة تستلزم رمى السنة النيران إلى أبعاد صغيرة تتجاوز

الـ ٢٥ متراً في الطول و ٣ أمتار في العرض ، وهي طريقة ناجعة إلا أنها تكلف كثيراً أي بما يقرب من ستة أضعاف ما تكلفه المواد السامة ورغم أن ذلك فهي مستعملة في بعض الجهات كسوريا وفلسطين وقد كانت تستعمل في العراق أيضاً .
(د) الخنادق والحواجز :

وهي من أهم الطرق وأكثرها شيوعاً في معظم الأصقاع الغربية والشرقية وبها تصاد اليرقات والزحاف في خنادق ذات جدران عمودية ، وبما أن سائر الجماعات لا يكون إلا في اتجاه واحد فيمكن حينئذ أن تحفر الخنادق وفقاً لذلك الاتجاه وحسب ما تقتضيه الأحوال .

أما إقامة الحواجز فلا تختلف عن طريقة الخنادق بشيء ، وقد استعملت في بادئ أمرها في «قبرص» حيث أقيمت لإبادة الحشرات من هذا النوع عواميد من الخشب على شكل جدار عريض مغطى بصفائح الحديد المزنبق ، ويلزم قبل الشروع بعمل كهذا معرفة الاتجاه الذي تسلكه جماعات الزحاف وقت المساء أي قبل أن يبيت الزحاف ليله وعندئذ يمكن إقامة الحواجز في وجه سيلها الجارف . ويشترط الاعتماد عن الحشرات لثلاث تغير اتجاه سيرها . وأفضل الحواجز ما كانت مستقيمة وعمودية على سطح الأرض وذات طرفين معوجين | ↓ | أي بهذا الشكل تتقدمها خنادق صغيرة متفرقة تغطي فتحاتها صفائح عريضة تمنع خروج ما دخل فيها من الزحاف ، وهكذا يتم صيد هذه الحشرات بسهولة تامة وبعدئذ إما أن تحرق أو تدفن تحت الأرض في تلك الحفرة .

٢ — الطرق الكيميائية :

وهي الطرق التي ترمي إلى استعمال السموم المختلفة لقتل الحشرات بطرق شتى فتستعمل بشكل مساحيق أو محاليل أو غازات أو معاجين ويتوقف تأثير هذه السموم على نوع المادة القاتلة وكميتها ، وهي إما أن تكون ذات تأثير خارجي أو بالعكس حيث يكون تأثيرها عظيماً على الأجهزة الداخلية للحشرة .

(١) المواد القاتلة : ذات التأثير الخارجي

وهي التي تقتل الزحاف بمجرد اللمس وتمتاز ببساطة استعمالها ورخصها فهي تستعمل كل آن وكل حين دون ما تعب أو تكليف وأكثر هذه المواد شيوعا هي الزيوت المعدنية المختلفة مثل البترول النقي (الكيروسين) وبعض مستحلبات الصابون. إن هذه المواد المذكورة ولو كانت رخيصة بحد ذاتها إلا أنها أغلى ثمنًا من مركبات الزرنيخ كما أنها لا تفيد إلا إذا كانت في محاليل مركزة تضر بالنبات والشجر، ولذا كانت الأخيرة أكثر استعمالا. وقد شاعت طريقة استعمال الزيوت في بلاد الأسبان والبرتغال (الأندلس) وفي جنوب أمريكا حيث تعتبر المواد الزرنيخية مواد سامة خطيرة على السكان والحيوانات الأهلية.

(ب) المواد السامة ذات التأثير الداخلي :

ويتم استعمالها أما بتذرية السم على الماء كولات الطبيعية للحشرات أو تقدم بصورة معجون أو طعم يعمل خصيصا لذلك، والوسيلة الأخيرة أفضل من البقية لكونها أكثر اقتصادا وأشد تأثيرا. وأهم المواد المستعملة هي (زرنيخات الصوديوم) و (خضرة باريس). وتعمل هذه المركبات بصورة محاليل مركزة ويخلط فيها قليل الدبس أو العسل لإغراء الجراد.

ويتم رش هذه المحاليل في أوقات معينة تتوقف على أنواع هذه الحشرات وطبائعها فمثلا إذا كانت طبيعتها البقاء في محل واحد دون أن تهاجر فيلزم عندئذ أن يكون الرش على الأشجار والخضر مستمرا طول النهار، وإذا كانت بالعكس رحالة فيجب أن يتم الرش في المساء وليس أثناء النهار حيثما يكون الزحاف متجولا هناك وهناك، ولكن على شرط أن ينجز العمل على يد رجال مدرّبين ومجهزين بالآلات الفنية اللازمة وإلا ازداد الضرر على المنفعة ولما كان الحال كذلك فقد أصبح استعمال هذه الطريقة نادرة جدا.

وأهم ما يستعمل في هذا الباب هو :

١ — المعاجين السامة :

وهذه الوسيلة تشرح خاصية الانجذاب الإيجابي عند هذه الحشرات لبعض المواد الكيميائية وهي أفضل كل الطرق وأهمها . ويتكون المعجون عادة من ثلاثة مخاليط : ١ — الحامل ، ٢ — السم ، ٣ — المادة الجاذبة : فالحامل إما أن يكون قطعاً من الخضروات المزوجة بالمخالييل السامة أو أن تكون مواد عضوية خلاصتها دمن الحيوانات مخلوطة ببعض الأملاح الزرنيخية ، ولكن يفضل على هذه نخالة الحبوب ، وقد استعاض عنها مؤخراً علماء الحشرات في أمريكا بنشارة الخشب ويستحسن استعمال خليط هاتين المادتين لانجذاب الأنواع إليه أكثر مما لو كانت منفردة ، وفي بعض الأماكن يستفاد من حبوب القطن وجذور الشمندر لنفس الغرض ، والأخير أى الشمندر ذو تأثير عظيم وذلك بالنسبة لامتصاصه المواد السامة بما يقارب ثلاثة أضعاف ما تمتصه المواد الأخرى . ومن الخواص الرئيسية للمادة الحاملة هي أن تكون قابلة لامتصاص الماء وحفظه مدة طويلة من الزمن وأن تكون رخيصة وذات قوة لجذب الجراد نحوها وهذه الصفات تجتمع كلها في جذور البنجر كما دلت التجارب على ذلك .

أما من جهة السم فقد شوهد أن مركبات الزرنيخ صالحة جداً لهذا الشأن وقد عرف أخيراً قيمة (الزرنيخ الأبيض) بقوة جاذبيته للحشرات ففاق بذلك الزرنيخ الفج وخضرة باريس وطالما استعملت مخاليط مركبات زرنيخات الصوديوم والزرنيخ الأبيض مع خضرة باريس بنسب مختلفة معينة لفعليتها القوي في الإهلاك والإبادة . أما العامل الجاذب في المعجون فيتكون من الدبس أو العسل أو المواد العطرية المستخرجة من البرتقال والليمون ولم يعرف لحد الآن أهميه هذه المواد الإضافية في التأثير على الحشرات . وأن أفضل مجهزات المعجون ما كان منها معمولاً بواسطة المسكائن الخاصة التي تخطط العناصر جميعها بعضها مع بعض بالتساوي وفي الأخير يضاف إليها الماء هذا إذا كان السم غير قابل للذوبان في الماء أما إذا كان بالعكس

فكل ما يجب عمله هو أن تخرج المواد بمحلولة ثم توزع حسب الأصول وذلك بإعداد هذا الطعم ووضعه في أكراس خاصة يحملها العمال أو الفلاحون لتوزيعها في الأماكن والجهات المقصودة بكميات محدودة لا تزيد على معدل ٢ — ٤٠ كيلو في كل فدان ، وقد يتم التوزيع بواسطة عربة نقل تأخذ الطعم في المساء أو عند الفجر . والمهم في هذه الطريقة بعد كل هذا والذي يؤدي إلى النجاح التام هو ضبط وقت التوزيع لا غير .

إن فوائد هذه الطريقة (طريقة استعمال المعاجين) تتلخص فيما يلي :

١ — رخص العمل والمواد ، ٢ — عدم احتياجها إلى آلات كثيرة ،

٣ — حسن تأثيرها في معظم الأحوال وبساطة تطبيقها .

أما المحذور فيها فهو سهولة وقسوع خطأ أو إهمال قد يجر إلى تسمم بعض الحيوانات الداجنة ، ولكن قد دلت التجارب العديدة التي أجريت في أمريكا وبلاد الروس بأن لا خوف من استعمال هذه المعاجين بشرط أن تراعى فيها الدقة التامة وضبط المقادير المطلوبة من هذه المواد السامة عند تركيبها أما الحوادث والأضرار التي قد تنجم من وراء استعمالها فتكون بالأكثر ناتجة عن إهمال المزارعين أنفسهم الذين لا يعتنون في تنظيف أيديهم قبل تناول الطعام .

٢ — التذرية بواسطة المساحيق السامة :

ويستعمل في ذلك مسحوق زرنیخات الصوديوم وقد دل استعماله بأنه لا يقل أهمية عن بقية المواد ذات التأثير الداخلي ، فقد يقتل الحشرات بتسميم مجساتها فقط فتتموت بعد مرور أربع أو خمس ساعات بعد الإصابة ، ومفعول هذه المساحيق خارجي فلا يؤثر على الأجهزة الهضمية ، وقد زاد استعمال هذه المساحيق في أيامنا الحاضرة وخصوصاً بعد أن قامت الطيارات بقسطها من الخدمة في هذه التذرية . وإخلاصة أن هذه الطريقة مع كونها تحتاج إلى مجهود كبير وخصوصاً عند وجود جماعات من الجراد المتفرق وفي حالة رداءة الطقس وعند هبوب الرياح فضلاً عما

يمكن أن تجلبه من الأخطار للحيوانات الأهلية فإنها تكون على العموم نافعة جداً في المناطق الواسعة التي يكثر فيها فراخ الجراد إلى حد عظيم .

٣ — الغازات السامة :

وأهمها (غازات الكلورين) وقد استعملت في روسيا فأعطت نتائج زهيدة لا يعتد بها فضلاً عن كونها ألحقت بالعمال وسكان الأرياف بعض الأضرار . ولكن شرعوا أخيراً باستعمال مركب « ساينيد السكاليسيوم » المولد لغاز (السايانو) بعد تعرضه لرطوبه الجو إذ يرش على الأرض حيث مساكن الجراد وأفراخه فيأخذ بالتفاعل مع الماء الموجود في التربة أو مع بخاره الموجود في الهواء فينبعث منه الغاز السام الذي يخنق كلا من الزحاف والجراد على السواء حيث يدخل خلال الأجهزة التنفسية خلال مدة لا تتجاوز الساعتين .

٣ — وسائل مكافحة الزراعة :

وقد ذكرنا منها أنفاً إتلاف البيض بالحرارة وقلب التربة حتى تتعرض لنور الشمس ، والواقع أن هناك صلة قوية بين الحالة الزراعية في بلد ما وفاعلية الجراد ، فإن انتشار الزراعة في بعض الأماكن قد يجر إلى إبعاد بعض أنواع الحشرات عنها لكونها أصبحت غير صالحة للتوليد والتفريخ ولم نعلم حتى الآن ماهية العوامل الرئيسية التي تلعب دورها في مثل هذه الظروف .

٤ — الوسائل البيولوجية :

وتتلخص بالاستفادة والانتفاع بالطفيليات وقد جرب « بارتكنسكي » (الذراح) فتألف فائدته العظمى في إبادة كثير من الأنواع غير أن للذراح مناطق مخصوصة يعيش فيها دون أن يتعداها حتى ولو كانت المناطق الموبوءة مجاورة لمنطقة أخرى لا تختلف عنها بعواملها الطبيعية ، إذن فلا يمكن الاعتماد على هذه الطريقة دائماً وخصوصاً بعد أن تأكد لدى الفاحصين أن الذراح عامل يوقف تكاثر

الحشرات عندئذ وهو بعد أن يعمل عمله يتناسل فيزيد عدده وينقلب عدواً يضر بالمرزوعات والحشائش . ومن الطفيليات التي تستخدم لإبادة الجراد هو « الذباب المقرح » للدود المسمى (لارفيورس) ، غير أن الصعوبة التي تعترض هذه الطريقة هو عدم إمكان مكافحة الجراد بهذه الطفيليات مادامنا لا نتمكن من أكثر عددها بالنسبة إلى ما تولده الحشرات نفسها .

٥ - الانتفاع بالطيور :

إن الطيور النافعة والآكلة للجراد معروفة من قديم الزمان ولم يفت بعض الحكومات أهميتها فوضعت قوانين صارمة لصيادتها وحفظها من جور الإنسان الجاهل . إن مهاجمة الجراد بواسطة الطيور أمر يستلزم وقتاً طويلاً واعتناء زائداً وليس في مقدور الإنسان أن يجعل الطيور واسطة رئيسية للدفاع عن نفسه ومرزواته ضد الحشرات وذلك لسكثرة هذه وقلة عدد الطيور النافعة وتفنن الحشرات في طرق توليد فراخها وإعداد جيوش محتشدة منها بوقت قصير .

٦ - الطريقة الميكولوجية أو البحث عن القطريات :

إن تأثير الأمراض العفنية أو القطرية التي تصيب فصيلة الجراد قهلاً منه العدد الكبير أمر يوجب الانتباه إليه ، وقد أجرى العلماء كثيراً من التجارب في جنوب أفريقيا فوجدوا أن هناك نوعاً من النبات يحتوي على (ميوكر) ، وهو نوع من أنواع الفطر ، وعلى (العفن) وهو يتطفل على الجراد ويمرضه فيميته . وهذا النبات يحتاج إلى وسط صناعي موافق يزرع فيه تحت تأثير جو معتدل رطب إلى درجة محدودة ، فإذا حصل ذلك فإن انتشار هذا الداء بين الحشرات أمر محتم . إن كل الشروط المذكورة تقف في أكثر الأوقات عقبة كئوداً أمام المزارعين مما يجعلهم يهملون هذه الطريقة .

٧ — الطريقة البكتيرية :

اكتشف « ده هرل » نوعاً من الباسلس يسمى (كوكوباسلس اكريدورم) من خواصه أنه ينشر نوعاً من الوباء بين الجراد المهاجر ، فأخذ باستعماله فوراً ونجح في مهمته بعض النجاح ، ورأى أن هذا الباسلس إذا أصاب سرباً من الأسراب لا يقف عنده بل يتعداه إلى غيره ، وهكذا يفنى جميع الأسراب الموجودة في منطقة يقارب قطر دائرتها الثلاثين ميلاً في مدة لا تتجاوز الثلاثة أيام ، وقد أخذت بعض الممالك كالسودان وإيطاليا وكندا والقوقاز وتركستان وجزائر القلمين بالعمل بموجب هذه الطريقة ، فكانت النتيجة حسنة للغاية . ولما كان يعيش مع هذا الباسلس أنواع أخرى تماثلها بالمنعول والعدوى ولم يتوصل العلم لغاية الآن إلى التفريق بين هذه الأنواع المختلفة حتى يعرف من بينها العامل الرئيسى في قوة الإبادة اضطر الأكثريه لهجر هذه الطريقة ، والأمل قوى لمعرفة هذا السر ، فإذا تم كانت هذه الطريقة من أدق الطرق في المكافحة .

والخلاصة أن طرق المكافحة عديدة ونجاح أى منها يتوقف على ثلاثة أمور :

١ — يلزم أن تكون القيادة تحت نظارة أخصائيين يعرفون كيف يديرون العمل بالدقة اللازمة .

٢ — يلزم أن يكون العمال مأجورين وليسوا منقادين انقياداً إجبارياً دون أن يمنحوا الاجور اللازمة لقاء أتعابهم .

٣ — يلزم أن تتفاهم الدول بعضها مع بعض في هذا المضمار فتتكاتف في الجهاد وتمهد بذلك الطريق أمامها ، وعندئذ يمكنها أن تزيل كل صعوبة تقف في سبيل سعادة الإنسانية .

ليس بين خدمات الحكومة وأعمالها أمر له المقام الأعلى مثل صيانة الصحة العامة ، فلا شيء يوازئها في الأهمية ، لأن صحة الفرد هي أس النشاط والكفاءة وبدونها يعجز المرء عن أداء واجبه مهما كان بسيطاً ، وصحة المجتمع كصحة الفرد ضرورية للرفاه والنجاح ، وعلى هذا لا يمكن أن يترك أمر الوقاية الصحية للناس يتصرف بها كل منهم كيفما شاء ، إذ فيهم من يدرك ضرورة المحافظة على صحته وصحة عائلته ضد الأمراض ، وفيهم من لا يدرك خطر الإهمال في هذا على نفسه وعلى من جاوره ، وكما نجد البعض ممن يعرف كيف يقاوم الإصابات الخفيفة التي تعتريه فيحافظ على جسمه حسبما تساعده الظروف ضد كثير من العلال والأمراض ؛ كذلك نجد كثيراً ممن لم يحصل على معلومات كافية اصد غائلة مثل هذه الإصابات عنه ، فيتجرع من الآلام ما يرضيه ، ومن العذاب ما يشقيه . ولا يبعد أن تكون الأمور السياسية أو غيرها شاغلاً للإنسان ، فلا يعير بعدها النظافة اهتماماً ، ولا شك أن مثل هؤلاء عند تعرضهم للأمراض يصبحون خطراً لمن حولهم أجمع .

إن ازدحام الملايين من الناس اليوم في المدن الكبيرة وانتشار وسائل النقل وسرعتها بين أنحاء المعمورة مما أدى إلى تقصير المسافات والتقارب بين مختلف الجماهير من سكان الدنيا بعكس ما كانت عليه في العصور السالفة ، كل ذلك حتم التشديد في مراقبة الصحة العامة والمحافظة عليها ، وبذا أصبحت من أوجب واجبات الحكومة وأقدسها .

الوقاية الصحية قديماً وحديثاً :

ليس بين العلوم المعروفة علم زها ونما مدة القرن الماضي كعلم الطب الوقائي . لقد كان الناس قديماً ينظرون إلى الأمراض كعقاب تنزله الآلهة على من أساء إليها

من فرد أو جماعة ، فإن نقشى الوباء في مكان ما هرع سكانه حالاً لأداء بعض الطقوس الدينية ، وأقدموا على نحر الضحايا هنا وهناك في سبيل ترضية الآلهة وطلب الغفران منها . وقد ادّعى الطب حينذاك رجال كان لهم إلمام بالسحر والشعوذة ، فأعلنوا أن في إمكانهم ردع هذه الأمراض وتخفيف وطأتها ، ومع هذا فالأوبئة كانت تحتاج بدون توقف مناطق واسعة وقارات لمدة عشرة قرون أو ما يزيد . أما الحقيقة المرة فإن هؤلاء كانوا يجهلون تماماً أسباب هذه الوافدات وكيفية انتشارها وطرق الوقاية منها . وقد قيل إن (الموت الأسود) الذي طغى على أوروبا في القرن الرابع عشر أهلك ثلث سكان انكلترا كما أباد مئداً عامرة برمتها . وكان لزماً والحالة هذه أن تزول كثير من الخرافات من أفكار الناس حتى تتقدم المعلومات الصحية ويكون لها تأثيرها الحسن ، ولذا فقد أبطأت قروناً إلى أن كشفت عن نفسها للناس فحقت وطأة العلل ، وباستطاعتنا أن نذكر أن الوقاية الصحية لم تصل الدور الذي يمكن أن تسمى به علماً إلا في أيامنا الحالية .

والواقع أن الوقاية الصحية لم تستقر على قاعدة عامية إلا بعد أن اكتشفت نظرية الجراثيم في الأمراض المعدية واعترف بها ، وهذه النظرية البسيطة في قواعدها الأولية هي التي قلبت رأساً على عقب كل ما كان عالقاً في أدمغة الناس من أسباب الأمراض المعدية وطرق الوقاية منها حيث كان في مقدورها أن تقدم لهم التفسير المقبول عن كثير من الأمور التي كانت تعد إلى ذلك الوقت من الأسرار الغامضة .

والعجيب أن العالم صرف عصوراً بعيدة في اكتشاف هذه النظرية ، ومع أن البعض في أيام الأمبراطورية الرومانية اشتبه بوجود علاقة بين المرض والقذارة ، غير أنه لم يستطع أحد أن يكتشف ماهية هذه العلاقة بصورة مرضية إلا بعد مضي ألف وخمسمائة سنة ، فيا طول الزمن الذي كلف العالم أن يتقدم في المعرفة من مرحلة إلى أخرى أعلا منها .

عوامل الأمراض المعدية :

تقرل نظرية الجراثيم بوجود مخلوقات عضوية صغيرة جداً لا تعد ولا تحصى تسكن الهواء والتراب وعلى الأجسام وفيها دعنها بالجراثيم أو الميكروبات ، وهذه الجراثيم الحية دقيقة للغاية بحيث لا ترى بالعين المجردة ، ولدقتها تجتمع آلاف منها على رأس دبوس أو في قطرة من الماء ، ويمكن مشاهدتها بمعونة المكبرات القوية . إن أكثر هذه الميكروبات من نوع البكتريا ، وهى نباتات دنيئة معظمها غير مضر ، والبعض منها يقوم بخدمات نافعة للإنسان وبدونها لا يستطيع عمل جنبه أو خله أو خبزه ، وفيما عدا ذلك فهى سبب التفسخ العضوى من أى نوع كان كتعفن التفاح مثلاً وفساد الزبدة والحليب .

ولهذه الجراثيم — حيث تكون الأحوال ملائمة — قوة للتكاثر مذهشة فى سرعتها ، ومعظم أنواعها يتكاثر بالانقسام البسيط ، وهو ما يعرف بـ (الانشطار) ، أى إن الواحدة منها تنقسم إلى قسمين ، وهذان إلى أربعة وهكذا بالتوالى الهندسى . والانقسام المتعاقب يتم بوضع ساعات ، وهذا هو السبب فى جعل ما يعد اليوم منها على الأصابع ألوفاً وملايين غداً ، وبمعونة الميكروسكوب أو المكبر نستطيع أن نفحص ونشاهد أنواعها المعروفة ، إذ أنها تكتسب أشكالاً متنوعة وميزات خاصة . ومع أن أكثر هذه العضويات غير مضر نجد البعض منها خطراً يهدد الصحة إن استطاع النفوذ داخل الأجسام الحية ، ولهذا دعيت جراثيمه بالميكروبات المرضية أو المعدية .

والجسم الإنسانى يجد ذاته يكوّن البيئة الصالحة لمثل هذه العوامل المرضية ، التى لا يقدر أكثرها أن يعيش خارج الجسم إلا لمدة قصيرة فقط ، والجراثيم المذكورة تجد سبيلها إليه عن طرق شتى أظهرها عن طريق الطعام والشراب الذين يستهلكهما الإنسان ، ثم عن طريق لسع الحشرات الناقلة وهى إن حلت فى أنسجة الجسم الحي تكاثرت فيها بسرعة فائقة فتولد فيها مواداً سامة من شأنها أن ترفع

حرارة الجسم الاعتيادية إلى حالة ندعوها بالحمى، فإن كان الجسم قويا نشيطا تغلب عليها في أكثر الأحيان وأماها لأن التامور (وهو دم الحياة) في الوضع الاعتيادي يمتلك قوة دفاعية هائلة ضد تأثير الجراثيم المرضية أما إذا كان بالعكس ضعيفا فان هذه القوة الدفاعية أو المناعة تقل وتفتقر فتسلط الجراثيم ويكون لها عليه اليد العليا. كيف نصاب بالرشح أو الزكام :

ذكرنا فيما سبق أن هناك طرقا مختلفة تستطيع بها الجراثيم من النفوذ إلى الجسم الحى فتسبب له العلة؛ والزكام يبين لنا إحدى هذه الطرق. وفيما يلي بيانا نشرته إحدى شركات التأمين على الحياة يتضمن كثيرا من الشيء المطلوب معرفته عن الزكام : « قد يظن المصاب بالزكام أنه رشح عادى لا أهمية له ولا خطر منه وعلى هذا لا يعيره التفاتا ولا يأخذ حذره منه فيسعى في إزالته بالطرق الصحية المعروفة ولكن مهلا فإن الرشح العادى قد يؤدى إلى أمراض وبيلة كالانفلونزا والحصبه والحمى القرمزية والسعال الديكى وذلك لأن هذه الأمراض تستهل أيضا بزكام أو التهاب بسيط فى الحنجرة، والزكام يعقبه غالبا ذات الرئة أو يكون مقدمة للإصابة بمرض السل أو غيره وقد ينزل بالإنسان سلسلة من المصائب المؤلمة وحتى لو كان الزكام بسيطا فيجب أن لا يترك بدون معالجة والزكام يستهلك من الدراهم والدنانير أكثر من أى مرض آخر وهو السبب فى تأخير المصاب عن واجباته أوقات طويلة والأدهى من هذا وذاك أن نجد سهولة العدوى فى الزكام قد تؤدى فى النهاية إلى الهلكة . »

إن هناك نوعين من الزكام الإعتيادى (١) الرشح الذى يصاب به الفرد من نفسه دون واسطة (٢) الرشح الذى يصاب به من الغير . والضعيف البنية أو من حصل له التهاب فى اللوزتين أو فى الأنسجة الغدية خلف الأذنين يصاب بأحد هذين النوعين على السواء .

إن جرثومة الزكام المنبعثة فى الهواء من سعال المريض أو عطاسه تدخل إلى جسم سليم إما مع الهواء عن طريق الأنف والحنجرة أو عند إستعمال أو ملامسة (٩ - ندى الفجر)

مالم ينظف من آنية المصاب أو أثاثه والأرجح أنها تنتقل بالمصافحة أيضا .
ولما كان الزكام مرضاً شديداً العدوى وقد يعقبه أو صاب خطرة أو قد يكون
في دوره الحاد مقدمة لمرض عضال أصبح من الحتم عزل المصابين والإعتناء بهم اعتناءً
كافياً على أن يتم السعال والعطاس أثناء ذلك في مناديل من القماش تغلى في الماء
قبل غسلها أو مناديل من الورق تحرق بعد استعمالها أما الآنية فالواجب يقضى عزلها
عما يستعمله الآخرون ويلزم غسلها بالماء الحار قبل الرجوع إليها ثانية .

الأحداث المضاعفة للزكام :

قد يسمى الزكام كما أسلفنا علة من إحدى العلل الناجسة (وهي التي لا تبرأ
بعلاج) كالسل وأمراض القلب والتهاب الجيب في القلب واضطراب الكلية
والتهاب الحنجرة المزمن والالتهابات الأنفية ، ويمكن في الأصل ارجاع كثير من
حالات الصمم إلى الزكام ولهذا كان لزاما مراجعة الطبيب حالاً عند الشعور بأى
وجع في الأذن . والزكام المهمل وخاصة ما كان منه في الأنابيب الرغامية أو القصبات
الرئوية يضعف الأنسجة ويعدّها لاصابات أخرى أهمها ذات الرئة .

الأمراض التي تنقل بواسطة الماء — الحمى التيفوئيدية :

إن السبيل الثانى الذى تسلكه الجراثيم المعدية للنفوذ إلى الجسم الإنسانى هو
الماء وإيضاح ذلك فى طريقة الإصابة بالحمى التيفوئيدية : لقد تنفسى هذا المرض قبل
ستين سنة فى كثير من البلدان فذهبت ضحاياه الوفاء بعد ألوف وكان فيما سنّف يفتك
بالجيوش المتحاربة فيضعفها وظل كذلك بضعة عصور إلى أن استئصلت شأفته
أو كادت من معظم الممالك بفضل ما عرف عن كيفية سيره وطرق عدواه . كذلك هو
شأن العلم فإنه لا يقطع مرحلة ليحياه أخرى إلا بعد آلاف السنين ؛ فالرومانيون مثلاً
مع معرفتهم الحتم على المسكوكات والصكوك فإنهم لم يتوصلوا إلى فن الطباعة أبداً
إلى أن مرت القرون فعرف الإنسان طبع الكتب عن غير طريق الرومان .

أن حمى التيفوئيد لا تنشأ عن سوء التهوية أو التعرض للبرد أو ملامسة الرماد كما يظن البعض إلا أنه يسبب عن جرثومة نشيطة توجد غالبا في المياه الدنسة وقد تصل إلى معدة الإنسان مع الماء أو الحليب أو الأطعمة الملوثة وبوصولها إلى الأمعاء تستقر فيها وتتكاثر فتتهب الأمعاء من جراء سمومها وتظهر بوادر الحمى في المصاب ، وهو مادام كذلك يبقى مصدراً مهماً لبعث عصيات التيفوئيد في فضلاته ، وعلى هذا إذالم تؤخذ الحيلة النامة في الإعتناء بالمجاري البرازية في المستشفيات أو البيوت حيث يسكن المريض تسربت الجراثيم إلى منابع الماء كالبحيرات والأنهار والآبار التي هي البيئة المنعشة لهذه الجراثيم فتلوثها وتكون عاملاً لا تنتشر المرض بين الناس بسرعة عجيبة .

أن الطريقة الأساسية في حصر التيفوئيد وإبادته من ثم تتم بوقاية منابع الماء من التلوث مما في المجارى البرازية وهذا سبب من الأسباب التي دعت الممالك المتقدمة أن تهتم اهتماماً كبيراً بتصريف الفضلات على الطريقة الفنية والاعتناء بمنابع مياه الشرب اعتناء يستنزف أموالاً وجهوداً . هذا ولما كانت أوبئة التيفوئيد نتيجة لجهل بعض الأفراد وإهمالهم اقترح كثيرون في البلاد الراقية وجوب زج هؤلاء الجهلة في السجون عقاباً لهم على ما أفرطوا .

الأمراض التي تنتقل بواسطة الحشرات :

إن الطريقة الثالثة التي تسلكها الجراثيم المرضية للنفوذ الى دم الإنسان هي لسعة الحشرات : — لقد كانت الحمى الصفراء قبل أكثر من خمسين سنة كارثة عظمي حلت في جميع المناطق الحارة ، والمعروف أن مد السكة الحديدية عبر مضيق بناها عام ١٨٨٥ كلف حياة عامل من العمال لكل ربطة في مفاصل قضبان الحديد ، وهو ما حصل فعلاً في جزيرة « كوبا » أيام الحكم الأسباني ، وهكذا كان فتك الحمى الصفراء الذريع بسكان العالم حتى نهض العلم وتسلاح للمقاومة بعد عشرين سنة

من التاريخ المذكور فأجهز عليها أو كاد ، ولما قام الناس في أمريكا الوسطى لخفر قناة بناما لم يخسروا ولا ضحية واحدة بتأثير هذا المرض فكيف كان ذلك يا تري؟ لقد ظهر الفرق بعد اكتشاف الحقيقة من أن جراثيم الحمى الصفراء تنتقل من المصاب إلى السليم بواسطة نوع من البعوض يتكاثر في مياه المستنقعات الراكدة فبادر الناس في الحال إلى تطهير مثل هذه المستنقعات أو ردمها ومحافظة الدور بوضع ستار على المنافذ فكان لكل هذا أثره الفعال في تخفيف وطأة المرض بصورة مذهشة .

وهناك من الأمراض ما يشبه الحمى الصفراء من وجهة طرق العدوى إذ الوسيط فيها حشرات متنوعة : منها مرض الوبالة (الملاريا) الذي ينتقل بواسطة نوع من البعوض يقال له (الأنوفيلس) والحمى النمشية (التيفوس) التي تنتقل جراثيمها عن طريق القمل وكان هذا وباءا معروفا في كثير من الممالك المتأخرة إلا أنه زال تقريبا بعد أن عرفت عمليات إبادة القمل وتطهير الملابس والأشخاص بالطرق الفنية ، أما الطاعون الدملي وهو الموت الأسود الذي نقشي في القرون الوسطى في قارة آسيا وفي مناطق واسعة من أوروبا لمدة طويلة فينتقل بواسطة براغيث الجرذان . وهناك غير هذه من الأمراض التي تنتقل بواسطة الحشرات مما عرف أو لم يعرف لحد الآن ومما لا شك فيه أن الذبابة البيتية تلعب دورا هاما في نقل جراثيم التيفويد من الأقدار والبلايع إلى الماء والأطعمة في البيوت والحازن ولو أريدت كل هذه الحشرات وهي البعوض والقمل والبراغيث والذباب إبادة كلية أو انقرضت من الوجود شأن زحافات العصور الجيولوجية القديمة لكان للناس شأن غير هذا في معاشهم وحياتهم .

الوبالة (الملاريا) :

لقد كان عام ١٨٩٨م هو العام الذي جمعت فيه كل الأدلة التي أدانت بعوض الأنوفيلس في نشره حمى الوبالة بين الناس فأصبح هو المسؤول عن كل

خسائر الانسان في هذا السبيل وهو بعوض المناطق الاستوائية ذو الأجنحة المرقطة . و (الأنوفليس) كلمة يونانية تعني الايذاء أو الهلكة . وهذا البعوض مع كونه يمتلك خرطومًا ذا منخس واحد إلا أنه يضرب به أكثر من ضرر البعوض البقّي المدعو بـ « كيولكس » والذي لخرطومه ستة مناخس بألاف المرات .

وقد أطلق الرومان على هذا المرض اسم (الملاريا) الذي يعني الهواء الفاسد لأنهم اعتقدوا ، حيث كانت الحمى تكتسح الآلاف من الناس مرة واحدة ، مسببة عن الأجرة العننة المتصاعدة من مياه المستنقعات والبرك التي كانت تحيط بمدينة روما والمعروفة آنذ بـ (Campagna) ، وعلى ذلك اعتبر هواء الليل خطرا للصحة ولعل السبب في هذا يرجع إلى أن الناس كانوا ينامون في غرف مفتوحة الشبايك ولا يتخذون الحيطة في محافظة أنفسهم من البعوض إذ قد أثبت العلم فيما بعد أن مياه البرك والمستنقعات محل خصب لتفريخ البعوض أما هواء الليل فليس بمخطر إلا لكونه يمتلىء ببعوض الوبالة الذي يسعى حينذاك طلبا للرزق .

وبعد إجراء تجارب عديدة علم أن البعوض هذا إذا امتص دم شخص مصاب بمرض الوبالة يمتص معه جراثيم الوبالة التي يذهب بعضها ، بعد أن يمر في أطوار خاصة في جسم البعوض ، إلى غدده اللعابية فيستقر فيها وإذا ما حط البعوض (وهو بهذا الدور) على آخر سليم ولسعه بعث بهذه الجراثيم مع لعابه إلى دم الشخص المذكور فينقل إليه طفيلي الملاريا ومن ثم الحمى المعروفة . كل هذا دفع العلماء لأجراء فحوص أخرى توصلوا بها أخيرا إلى أن لسعة بعوض الأنوفليس الحامل للجراثيم هي الواسطة الوحيدة لنقل هذه الجرثومة إلى الانسان ؛ وقام بإحدى هذه التجارب طيبان انكليزيان عام ١٩٠٠م حيث أقاما لهما دلفان في قلب ضواحي روما أي وسط المنطقة الوبية المشار إليها بشكل لا يستطيع البعوض ولوجه ، ولما كان البعوض هو المسئول عن نقل المرض إلى الانسان ولا يفتش عن غذائه إلا ليلا فقد قررا المبيت في الدار يوميا في الساعة السادسة مساء ومع أنهما

لم يتخذوا غير ذلك من الاحتياطات فانهما سلما من الاصابة بحمى الوبالة .
واستطاع غير هذين أن ينقل من روما إلى لندن بعوضا من هذا النوع يحمل في
جسمه طفيل الوبالة الذى حينما عرض له شخص سليم أصابه بدائه فى الحال . وفيما
عدا ذلك فقد قامت هيئات متعددة باستقصاء هذه الحقيقة بعد تجارب أجريت فى
كوبا وبناما وجزر الهاواى أثبتت جميعها أن بهلاك بعوض الانوفليس وإبادة بيضه
وفراخه من جميع المناطق تنقطع حمى الملاريا من العالم بالكلية . ولكن لا يبعد ،
كما يرجحه الكثيرون ، أن يكون هناك فى بعض المناطق من البلاد الحارة حيث
يصعب مكافحة الوبالة بعض الحشرات الأخرى غير البعوض من يتوسط بنقل
جراثيم المرض إلى الانسان .

يمتاز بعوض الانوفليس (أو بعوض المستنقعات كما يدعى أحيانا لكونه
يفضل البرك والمستنقعات الدائمة للتفريخ) عن أنواع البعوض الأخرى من
الفصيلة المعلومة بالأمور الآتية :

١ — يكون جسم البعوضة مائلا على السطح الواقعة عليه ويكون معه زاوية قدرها
٤٥ درجة تقريبا وعند وقوفها يتجه رأسها إلى أسفل وبطنها إلى أعلا بينما
يقف البعوض العادى على السطح المستوى وجسمه موازيا له .
٢ — أجنحة البعوضة مرقطة .

٣ — يوضع البيض بصورة متفرقة على سطح الماء .

٤ — تميل السرفة دائما للبقاء قريبا من سطح الماء التى هى فيه .

أعراض الوبالة :

للوبالة ثلاثة أنواع مختلفة من الطفيليات وأعراضها تتفاوت شدتها حسب
نوعها والإصابة على العموم تمر بأدوار ثلاثة أيضا : دور القشعريرة ، ودور
السخونة ، ودور العرق . فالدور الأول يمتاز بوجع الرأس وارتشاء عام فى الجسم

ثم قشعريرة تستولى عليه عامة يرتجف بها المصاب بشدة بينما ترتفع درجة الحرارة إلى (١٠٢) فهرنهايت أو أكثر ، ويدوم هذا الدور من بضعة دقائق إلى ساعة أو أكثر بقليل حتى يعقبه الدور الثاني حيث يحمرّ الجلد زمنًا مقداره نصف ساعة إلى الثلاث أو أربع ساعات ، وذلك قبل أن يحل الدور الثالث الذي يبدأ فيه العرق أولاً في الجبين والوجه ، وبالتالي يظهر على الجسم كله تدريجياً فيتصبب المريض بالعرق وتزول عنه الحمى وأوجاع الرأس ، فإذا تم ذلك نام ساعة أو ساعتين نومًا عميقًا لا يفيق فيها وبهذا تنقضى الإصابة مؤقتًا ، فالمرض (عداد) بكسر العين أى تعود نوباته بين حين وآخر من يوم إلى أربعة أيام حسب نوع الطفيل إلى أن تتاح الفرصة لتطهير الجهاز الدورى منه بصورة تامة . وقد لا يظهر للعيان دور من هذه الأدوار أو أكثر أو تحصل بعض التغيرات الثانوية ، وعلى كل حال فالمرضى يصاب بفقر دم حاد من جراء عمل الطفيليات في إتلاف كثير من الكريات الحمر في نوبات المرض المتتالية .

المعالجة والوقاية :

يعتبر الكنين العلاج الصادق ضد الوبالة ، فهو يهلك جميع الطفيليات السابجة في الدم إذا أخذ بمجرات متوالية ، وهو دواء واق ومفيد . والمعروف أنه لولاه لما ثبتت القارة الأميركية أمام هذا المرض .

سعة انتشار الأمراض وأسبابها :

لا تأتى الإصابة بالأمراض كلها عن طريق الأشربة والأطعمة الملوثة أو من جراء لسعة الحشرات الحاملة لجراثيمها ، بل أن هناك عدداً غيرها لم تعرف سبل العدوى فيها لغاية الآن ، فمن ذلك (الانفلونزا) وهو المرض الخبيث الذى يصيب المجارى التنفسية ؛ إذ رغم وجود عدة نظريات تفسر سريان هذا المرض من مناطقه إلى أطراف العالم سنة ١٩١٨ فإنه لم تستطع إحداها أن تشرح علة ذلك بكل

قناعة ، وخصوصاً إذا سئل عن كيفية تفشيهِ بين ركاب إحدى البواخر المبحرة وسط اليم بعد أن تركت ميناءها الأول بستة أسابيع كما حدث فعلاً ، وفيما عدا ذلك نجد كثيراً من الأمراض تنشأ — بطرق مباشرة أو غير مباشرة — من نقص في التغذية ، أو سوء التهوية ، أو فقدان النظافة ، أو ضعف الجسم وقلة الاعتناء بالصحة الجسمية عامة . ولا يخفى أن هناك من الأمراض ما يعود منشؤها بصورة جزئية أو بصورة كلية إلى بعض الحالات أو الأعمال ، ولذا سميت بالأمراض الحرفية أو الصناعية كالاسم بالرصاص في معامل الأصباغ أو الأمراض التي تصيب العمال في الانفاق أو في الأماكن الأخرى التي تستخدم الهواء المضغوط . وانتشار السل وهو الوباء الأبيض في العصور الحديثة تعود أسبابه بلا شك إلى تأثير الغبار والتهوية الرديئة . ومما لا ريب فيه أن العلاقات بين الحرف والأمراض لم يعتن بدرسها إلا في السنين الأخيرة . ومن المحتمل أن يخبرنا المستقبل عن عاهات أخرى يعود أصلها إلى تأثير الحياة الصناعية على الإنسان مما لم يفهمها العلم لحد الآن .

صحة العامل والمصانع :

نظراً إلى أن كثيراً من العامل والمصانع في المدن الكبيرة كانت غير مستوفية للشروط الصحية اللازمة ، فقد أخذت معظم الممالك المتقدمة بسن قوانين ووضع أنظمة وتعليمات ترعى فيها صحة العمال في مثل هذه المؤسسات ، حتى أن بعض الصناعات منعت منعاً باتاً لخطورتها ، وذلك مثل عمل الكبريت من الفوسفور السام ، بينما نجد غيرها روقب مراقبة صارمة حفظاً لحياة الناس الذين يزاولونها ، فالقوانين والأنظمة منعت الحرف التي تجلس الأطفال والنساء في غرف ضيقة رديئة التهوية للحصول على الكفاف من العيش وقد ألزمت أرباب المصانع وأصحاب العامل تأسيس العمارات الرحبة والمريجة من جميع الوجوه بحيث تكون مجهزة بوسائل التنوير والتهوية والنظافة وفق الأصول الصحية الكاملة ومع تأمين رقابة الحكومة عليها باستمرار .

الوقاية من الأمراض — الاحتياطات المتخذة من قبل الفرد :

لا تستطيع الحكومات أن تحافظ على المستوى الصحى المطلوب بين الناس بدون تعاون الأهلىن أنفسهم ، وكل ما يمكنها عمله أو القيام به لا يتفق واللازم إلا بعد أن يأخذ أفراد الشعب الصغار والكبار نصيبهم من هذه الخدمة بحيث يتفهمون أولاً ومن ثم يعملون جهد المستطاع كل مايفيد فى الوقاية من الأمراض المعدية ، والنشاط الجسمي هو أعظم هبات الله على الإنسان ذكراً كان أو أنثى ، ولا ينكر أن هذا النشاط هو نتيجة الاعتناء بالصحة الجسمية منذ الصغر وهو بلا شك الحصن المنيع للجسم ضد كثير من العلل والأسقام . استعرض حياة (ثيودور روزفلت) رئيس الولايات المتحدة الأسبق واعتبر بها : فلقد كان هذا كما يذكر عن نفسه فى ترجمة حياته ولدأ نحيلاً ضعيف البنية ، وإذ عرف أنه بحاجة إلى الفوز فى معترك الحياة العملية بادر من فوره للعمل فى تقوية جسمه بأن نظم واجباته اليومية وسعى للتنزه فى الهواء الطلق وممارسة الألعاب المنشطة ، وقام بما توجه عليه القوانين الصحية ضد الأمراض الطفيفة التى تعتريه ، وما أن وصل إلى دور الرجولة إلا وقد كسب لنفسه نشاطاً جسمياً رائعاً أبدل به ذلك الشاب الهزيل إلى رجل صلب العود متين الأخلاق صمد للعراك حتى تسنم كرسى الرئاسة الوثير مرتين .

ولا أظننى بحاجة إلى وضع تعليمات خاصة تستلزم الرعاية والاهتمام بقصد المحافظة على النشاط الجسمى المطلوب وإحراز القوى الدفاعية الصحية ، فالذوق أو حسن الاختيار خير كفيل لقيادة المرء إلى ما يريد من أكثرها .

إن من أعظم الكبائر التى يقتربها الشباب فى حياته هو « التبذير » فى القوى الحيوية والجسمية التى يجب عليه أن يحتفظ بها لأدواره القادمة ، فصحة الفرد فى سن الأربعين وما فوق ، تتوقف بالأكثر إلى تصرفاته التى يقوم بها بين سن ١٥—٢٥ سنة من عمره ، وفخر الشباب قوته ، وباليته اعتبر فنظر إلى المستقبل ومافيه

وإتخذ مما وهب له من الوقت والفكر وسيلة في الاعتناء بهذه القوة في السنين الأولى ليكون قادراً على العمل في الأيام التي يضيع فيها الشباب والقوة معاً .

منع انتشار الأمراض المعدية — الحجر الصحي :

إن أول ما تقوم به السلطات المحلية لمنع سريان الأمراض المعدية في بلادها يتم هو (الحجر الصحي) الذي يعنى منع الأشخاص الحاملين لجراثيم الأمراض المعدية من اختراق حدود المملكة والدخول في أرضها . ولهذا نفذت أنظمة الحجر الصحي في كافة منافذ البلاد وجميع الموانئ البحرية تحت مراقبة سعاة تعيينهم الحكومة الوطنية لحراسة هذه المراكز وإجراء الواجب تجاه العابرين والقادمين من البلدان الأجنبية ، والعادة أن البواخر قبل أن تبحر تزود بشهادة صحية من قبل القنصل المعين من المملكة الزاهبة إليها ، وإذا مارست في إحدى الموانئ الأجنبية ، فأول من يزورها هو مأمور الحجر الصحي الذي يمنع إنزال الركاب إلى البر حتى يتأكد من سلامتهم من الأمراض المعدية ، فإن وجد بينهم من يشك فيهم يحصرهم في محلات خاصة حتى يزول عنهم الخطر ، وهكذا فإن مختلف الحكومات والمدن تحتفظ لنفسها بأساليب خاصة في التفتيش والحجر الصحيين . واللازم عند حدوث إصابة ببعض الأمراض كالسل والجدرى والتيفوئيد والحمى القرمزية وذات الجنب والسعال الديكي والحناق والحصبية والنكاف وغيرها إخبار أقرب الخافر الصحية المحلية حيث تحتم الأنظمة الصحية في هذه الأمراض السريعة العدوى حجز المسكن بالإعلان على أبوابه وعزل المريض أو نقله إلى إحدى المستشفيات القريبة ، فإن زال فيطهر المسكن سريعاً بمراقبة المأمور المختص من قبل دائرة الصحة ، وفي حالات الأوبئة تقوم دوائر الصحة الرئيسية بالإشراف والعمل . أما إذا انتقل الوباء بين أمتين متجاورتين ، فتتعاون السلطات الصحية للطرفين على إزالته ، وإذا تفشى في أكثر من مملكتين ، فعندئذ ينهض القسم الصحي في هيئة الأمم المتحدة بالمهمة ويسرع بمعاوضة هذه الممالك على حصره وإبادته .

التلقيح والتطعيم :

وهما عمليتان استعملتا منذ أكثر من قرن مضى لغرض حماية الأصحاء من الأمراض . أما التلقيح ضد الجدري فعملية يراد بها إيصال المادة الملقحة للدم وتتم عادة بكشط الجلد الخارجى للشخص السليم فى بضعة أماكن متجاورة ووضع قليل من المادة المشار إليها على هذه الجروح . وتستحصل المادة الملقحة من المختبرات الصحية حيث تستخرج من التامور (وهو دم الحياة) للماشية المصابة صناعيا بمرض الجدري . وأما التطعيم فيستعمل اليوم بنطاق واسع ليأطفأ أو يمنع حدوث الإصابة ببعض الأمراض كالخناق والتيفوئيد وذات الجنب وداء الكلب ولقد استعمل الجيوش المتحاربة أثناء الحرب العامة الماضية ضد التيفوئيد، وطريقته هى أن يحقن الدم بكمية معالومة من عصيات التيفوئيد المائنة أو المضعفة جداً بحيث لا تكون كافية لإصابة الشخص بالمرض إلا أنها قادرة على أن تثير فى دمه قوى المناعة فتقف حجرة عثرة فى سبيل كل إصابة قد تحصل فيما بعد . والتلقيح ضد الجدري اجبارى فى كثير من الممالك ولعل ذلك من أهم وسائل المحافظة على الصحة العامة .

مراقبة مصادر الحليب :

لا شك أن الحليب من أهم أغذية الإنسان وهو الغذاء الرئيسى للأطفال حتى إلى أن يبلغوا السن المدرسى وبعده، وفيه أفضل العناصر فى تقوية البنية لضعيف الأجسام، ولا تنكر أهميته للشباب فى قوتهم اليومى . ومع هذا فهو المادة ذات القابلية العظيمة للتلوث والتي قد يؤدى تلوثها إلى نتائج خطيرة أكثر من أى مادة ملوثة غيرها فإن الجراثيم المعدية إن وصلت إلى الحليب فإنها تتكاثر بسرعة مروعة وتصيب الضعاف من الشبان والأطفال بالمرض عن طريق الغذاء .

والحليب يمر قبل أن يصل إلى يد المستهلك فى أيد عديدة قد تكون إحداها

السبب في تلوينه فجلبه من مصادره بغير اعتناء أو حفظه في محلات غير صحية أو وضعه في أوان غير نظيفة أو عدم أخذ الاحتياطات الضرورية عند النقل أو عند التسليم كلها أمور قد تساعد على تلوينه بطريقة ما . وعلى هذا سنت القوانين الصارمة ونظمت التعليمات التي توجب المراقبة عليه والسعى إلى محافظته سالما في منابه وعند نقله حتى يصل إلى يد المستهلك ، وقد يكون أمر المراقبة عسيرا جداً في كثير من الأمكنة وبالأخص في المدن الكبيرة حيث يرد الحليب من الضواحي البعيدة : فمدينة نيويورك مثلاً تحصل يومياً على مليونين (كورتز) أو ما يقارب من خمسمائة ألف كالون من الحليب مما يقرب من ٤٥ ألف حقل منتشرة كلها في الضواحي العديدة لـ ٨ ولايات مختلفة .

ومن السهل إذن تقدير الصعوبة في مراقبة مصادر الحليب في مثل هذه الظروف ومع كل هذا فالمراقبة جارية في معظم الممالك المتقدمة وقد أظهرت هبوطاً في نسبة وفيات الأطفال لأنه قد عرف أن بين نسبة وفيات الأطفال وحالة الحليب صلة متينة بحيث يمكن أن نقول أن نسبة الطرف الأول يتوقف تماماً على الطرف الثاني ولهذا فقد أصبح لمؤسسات توزيع الحليب في المدن الكبيرة قيمة إذ صار في إمكان الناس في هذه المدن المزدهمة بالسكان على الحصول على حليب طاهر بأسعار متهاودة . إننا لا بد أن نعتمد عندما نريد أن تكون وسائل منع الأمراض نافعة على إحصائيات مضبوطة تحتوي على أرقام الولادات والوفيات والإصابات مما يجمع من تقارير رؤساء الصحة والأطباء في المراكز المختلفة في دوائر الصحة العامة . وحتى تكون لهذه التقارير قيمتها يلزم أن تكون دقيقة وسريعة وعندها تستطيع السلطات الصحية أن تحس بكل وباء أول ظهوره وقد تتمكن في الغالب أن تعرف مصدره وأسباب نشوئه فتبدأ في الحال على حصره في أضيق المناطق ، وإذا ما أرسل أحد الأطباء تقريراً عن إصابة واحدة بالتيفوئيد فقد يمكن أن لا يكون لها من الأهمية ما يشغل البال ويوجب العمل إلا أنه إذا قدّم في اليوم تقريراً عن ١٢ إصابة

مثلاً فالواجب يقضى فحص موارد الماء والحليب بأسرع ما يمكن واجراء اللازم في الحال .

مراقبة الأطعمة :

أن بيع الأطعمة الفاسدة أو غير النظيفة يجب أن يمنع بواسطة القوانين والأنظمة الصحية والمعروف مثلاً أن المجلس الأمريكي صادق بالاجماع سنة ١٩٠٦ م على اللائحة القانونية المعروفة بلائحة التعامل وبالأطعمة الخائرة والأدوية الفاسدة وبهذا القانون منع التعامل التجارى بكل هذه المواد غير الصحية وشددت المراقبة على اللحوم في مخازن التجفيف إذ طلب منها أن تحمى على النار بدقة جميع علب الأطعمة والأدوية وإذا كانت المادة المحفوظة صناعية فيجب أن يبين ذلك على رقعة العنوان وكل من جهز مواداً فاسدة أو غير نظيفة ولحوماً مروحة أو محفوظة بصورة مغلوطة تصادر من قبل الحكومة بحسب هذا القانون ويقدم صاحبها للمحاكمة . وعمل المراقبة على هذه المواد وغيرها منوط بأمورى الصحة الذين يقومون بدورات تفتيشية من آن لآخر في محلات بيع الأطعمة وإنتاجها .

أخطار الأدوية :

لقد كان لبيع العقاقير الخدرة كالمورفين والأفيون في السنين الماضية عاقبة وخيمة جداً حيث كان البيع جارياً بلا ضبط ولا تدبير . والأنكى من هذا هو أن من اعتاد استعمال إحدى هذه الخدرات بانتظام سرعان ما يصبح عبداً للعادة فلا يعود يتمكن من القيام بأعماله اليومية إلا بعد أخذ الجرعات التى اعتادها من الخدر وبذا تنحط قواه الجسدية بالتدريج . والمؤسف أن عادة استعمال الخدرات تفشى في كثير من الأوساط وخصوصاً في السنوات الأخيرة وهى بلا شك من أرذل العادات التى منى بها فريق من الناس من مختلف الطبقات . وعلى هذا بدأت الحكومات بصنع كافة أنواع الخدرات وضبط التعامل فيها دولياً

وعليه فلا يمكن اليوم أن تستورد كميات منها أو تباع إلا وفقا لأنظمة صارمة تتطلب مبدئيا تأييدا تحريريا من قبل أحد الأطباء المعروفين بالكفاءة ، ومع كل هذا فكثير من المواد الخدرة يتاجر بها بكميات كبيرة عن طرق غير مشروعة .

منع المشروبات الروحية :

أن العلاقة بين الصحة العامة وتجارة الخمر علاقة لم يتفق عليها الناس اتفاقا يضمن اتخاذ الاجراءات اللازمة لها أو عليها ، ولكن مما لا ريب فيه أن استعمال المشروبات الروحية المسكرة أعف في كثير من الأحيان الفقر وهذا بدوره سبب للمدمن نقصا في التغذية اللازمة فأضعف المناعة وأعد صاحبه للأمراض . والحقيقة أن الإدمان في شرب الكحول يضر بالقوي الجسمية ضررا لا يستطيع لجسم عنده أن يدرأ عنه غائلة الأمراض ، وقد دلت الاحصائيات التي تحتفظ بها المستشفيات في أمريكا أن في منع استعمال المشروبات الروحية أثر جليل من الوجهة الصحية .

تصريف الفضلات :

لا بد لكل مجتمع أن يبعث يوميا بكميات غير قليلة من مختلف الفضلات التي يجب أن تجمع وتصرف بعيدا إلى الخارج بطرق صحية ، هذا إذا كانت المساعي موجهة في الاعتناء بالصحة العامة والحفاظة عليها . إن بعض هذه الفضلات لا يخشي منها على خطر وذلك كالرماد أو بقايا الأوراق وكل أنواع سقط المتاع مثلا وإبعاد مثل هذه المواد يهمل صالح الجمهور أكثر مما يهمل الصحة العامة . وهي إما أن تحرق أو ترمى بعيدا أو تجمع لاستعمالها في دفن الحفر والمستنقعات . أما النوع الثاني من الفضلات فهو القشامة والحثالة التي منها المواد القاضلة في الأسواق والأفران والفنادق والمطاعم والمساكن وإن هذه الحثالات قابلة للتفسخ بسرعة فيلزم أن تجمع بين آن وآخر ، وقد تحرق هذه المواد في بعض الأماكن لترميد المواد العضوية

فيها أو تباع للفلاحين حيث يستفاد منها طعاما لبعض الحيوان ، وفي حالات أخرى يستفاد منها في المعامل حيث تحول لاستخراج بعض الدهون أو الزيوت التجارية منها .
والنوع الثالث من الفضلات وهي أشدها خطرا للإنسان والحيوان هو فضلات البلاليع والمراحيض وهي مع كونها تحتوى على ٩٩ في المائة من الماء إلا أن كميات قليلة منها قد تكون سببا في نشر بعض الأمراض المعدية بين كثير من الناس .
ولا يزال البعض من المدن يتخلص من مثل هذه الفضلات عن طريق تصريفها إلى البحر أو البحيرة أو النهر . إن هذه الطريقة لا تكون صالحة إلا إذا كان التصريف إلى البحر مرتبا بأنابيب تبعد فوهاتنا عن الساحل لمسافات كافية ومع هذا فإن أمواج المد ترفع كثيرا من هذه الفضلات إلى الساحل فتلوثه . أما تصريف الفضلات دون معالجتها إلى الأنهر والجاري الصغيرة فمزعج للناس ويسبب إليهم ولا بد من منعه بقوانين يمكن تنفيذها عمليا وهوما التجأت إليه اليوم كثير من المدن والبلدان .
إن أشهر الطرق العملية الجديدة لتصريف مثل هذه الفضلات تنجز بإيداع جميع هذه المواد في عنابر كبيرة جدا كالأحواض والصهاريج حيث تترسب المواد الصلبة كالوحل في القاع وتنساب السوائل إلى البحر أو النهر أو البحيرة كيفما كان ، وقد يعجل الترسيب أحيانا بمجموعة بعض المواد الكيماوية . ولنعلم أن هذه الطريقة لا تترك المياه خالصة من الخطر ولكنها على كل حال أقل خطرا مما إذا صرفت الفضلات دون معالجة ما . وفي بعض الأمكنة تسحب هذه الفضلات بواسطة المضخات إلى بقعة من الأرض حفرت وملئت بخبث المعادن أو أي مادة ذو مسام تكون كمصفيات واسعة لمثل تلك المواد ، كما أخذ البعض الآخر في استعمال مثل هذه الفضلات في ري الأراضي الزراعية .

ليس في الإمكان ترجيح إحدى هذه الطرق المذكورة على إخوانها من كل الوجوه فالحالات تختلف باختلاف الأمكنة والمجتمعات وكل حالة يجب درسها على حدة إن أريد تطبيقها ، وإذا علمنا أن كل مدينة كبيرة تصرف يوميا ما يقرب من

(٢٠٠) كالون من هذه الفضلات لكل رجل وامرأة وطفل من سكانها وهذا يعنى إنها تكون كميات هائلة سنويا فبمقدورنا عندئذ أن نتصور ضخامة التكاليف والجهود التي يجب أن تستهلك لتأمين تصريفها حسب الأصول وخصوصا وقد علمنا أنها أشد المواد خطراً على الإنسان .

وقاية موارد المياه العامة :

وهذه مسألة أخرى ذات أهمية كبرى تستدعى البحث الطويل في المناطق الريفية وفي القرى الصغيرة يمكن الاستفادة من مياه الآبار والعيون القريبة مباشرة، أما في المدن الصناعية فإن إيصال الماء القراح إليها من أشد الضروريات، والمدن الكبيرة بحاجة إلى معدل (١٠٠) كالون من الماء لكل نسمة من السكان في اليوم الواحد وهذا المقدار بالطبع لا يستهلك كله من قبل الإنسان ذاته بل بعضه ما تذهب به الصناعة والأغراض الصحية على اختلافها : من الميادين العامة والمنزهات واطفاء الحريق وغسل الشوارع والمجارى والمصانع والمغاسل ومحطات القطار وكثير غيرها من المؤسسات، فكل هذه بحاجة إلى مقادير كبيرة من الماء يوميا هذا عدا ما تتطلبه المعدات الصحية في الأوتيلات والمطاعم والخازن والبيوت . والواقع أن كمية الماء المطلوبة لسد حاجة الإنسان نفسه قليلة جدا إذا قيسَت بالنسبة إلى ما تستهلكه هذه الأماكن .

أن أول ما يجب الإهتمام به في تجهيز الماء في المدن هو أن يكون تحت الطلب حتى إلى الأطراف البعيدة وذلك مهما امتدت المدينة وتوسعت أو بعدت عن مصدر الماء فمدينة (Los Angeles) مثلاً تستورد مياهها من جبال (Sierra Nevadas) على بعد (٢٥٠) ميلا من المدينة نفسها، وهذا هو ليس الشرط الوحيد فإن إستعمال الماء في الصناعة يوجب أن يكون نقياً خالصاً من العسرة مهما أمكن فإن كان فيه شيء من العسرة أو كان عكراً فيأزم تصفيته وإزالة عسرته بواسطة المحاليل

الكيمائية، والأهم من هذا وذاك هو وجوب الاحتفاظ به نقياً وغير ملوث في جميع مراكزه على الإطلاق .

إنّ هناك عدة طرق يتوصل بها إلى معرفة ما إذا كان الماء قابلاً للاستعمال وغير مضر أبسطها : التأكد من أن مصدر المياه منابع طبيعية نظيفة غير مشوبة أو أن تكون آتية من آبار عميقة أو من بحيرات جبلية مستواها أعلى من المستوى الذي يحتمل التدنيس أو أن تكون مأخوذة من غمرة (وهي الأجسام الكبيرة من الماء) وخصوصاً إذا أخذت من مسافة بعيدة عن الشاطئ ، لأن قوة تخفيف هذه المياه الواسعة تجعل المياه مأمونة من الأذى ولو تسربت إليها الفضلات . وإذا لم يكن في المستطاع الحصول على ماء نقي من إبعاد قريبة فالطريقة الوحيدة أماناً هي : خزن الماء لمدة طويلة أو الإستفادة من الطرق الكيمائية أو الميكانيكية في هذا الشأن لازالة الشك من عدم صلاحيتها للإستعمال وخزن المياه في الصهاريج وإبقاؤه معرضاً للنور والهواء يجعله مأموناً في الظروف الاعتيادية . ومدة الخزن المطلوبة تتوقف غالباً على نوع الماء المخزون ولا تقل عادة عن ثلاثة أشهر . إن معالجة الماء بالطرق الميكانيكية تدعى بالترشيح وهو في أبسط حالاته يتم بواسطة وضعه في الحبوب أو امرار الماء خلال طبقة من الرمل أو الأحجار المسحوقة لتخليصه من البكتريا المضرّة ، أما الطريقة المعتمدة في الترشيح فهي إستعمال مرشحات الرمل السريعة حيث يمرّ منها الماء الفج بواسطة قوى الضغط . والمعالجة الكيمائية للماء عبارة عن استعمال ماء الكلورين أو المطهرات الكيمائية الأخرى التي من شأنها أن تقتل الميكروبات المضرّة ولا تبدّل طعم الماء ولا يستعمل من هذه المواد إلا كميات ضئيلة جداً بالنسبة إلى كميات الماء المعالج والمعروف إن هذه الطريقة لا يركن إليها إلا عند الضرورة لأنها لاتعد على الدوام من الطرق المرضية لمعالجة الماء .

وجوب تخفيف وطأة الدخان :

إن الهواء النقي هو أيضاً من لزوميات حفظ الصحة العامة والمناطق الريفية

لا تجد صعوبة في تأمين ذلك باستمرار أما المدن الصناعية الكبرى فلا شك أنها تجابه أمراً لا بد من القيام بتخفيف وطأته ، فدخان المعامل يحمل هواءها بما يهدد النظافة وصحة الإنسان . وقد ثبت بالتجربة أن مداخن المعامل تبعث إلى الهواء مقادير هائلة من غاز ثاني أوكسيد الكبريت وهو غاز سام لا يمكن للإنسان أن يعيش فيه مطلقاً أضف إلى ذلك تأثير السخام على أثاث الدور و بضائع الحوانيت ، كل هذا أثار الناس في المدن الكبيرة الصناعية طالين العمل لتخفيف وطأة الدخان أو إعدامه بوسيلة ما فسنت القوانين والأنظمة التي حتمت استعمال آلات خاصة تستنفذ الدخان من مداخن المعامل الكبيرة وكان ارتياح الناس لذلك ظاهراً .

المساكن :

يستطيع أى إنسان بكل سهولة الحكم على حالة الوسط ودرجة رقيه من مشاهدته المساكن بصورة عامة ، فطراز المنازل له علاقة متينة مع كثير من الأشياء ولعل أقربها إليه صحة الإنسان فإن احتشد الناس في مساكن ضيقة ذات غرف صغيرة مظلمة لا يتجدد فيها الهواء ولا ينفذ إليها غير قليل من النور ولا يفصل بعضها عن بعض الا طرق لزبة فلا شك أنها تكون تربة خصبة لمرض السل ، والثابت أن هذا الوباء الأبيض يهلك سنوياً ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص في مساكن مدينة (نيويورك) غير الصحية . والمعروف أن الأطفال الذين يولدون في أمكنة مزدحمة بالسكان وفي بيوت غير فسيحة يشبّون ضعاف العقول والأجسام لأن قواهم الدفاعية ضد الأمراض تتضاءل بهذا الإزدحام الذى لا ينعشه الهواء النقي ولا يصحبه التنظيم الصحى فى كل شىء . والقوانين الصحية التى اهتم بتشريعها العالم المتقدم توجب عند إنشاء الدور التى تسكنها أكثر من عائلتين ترك ثلث الأرض المخصصة كساحة أو حديقة ، يملأها الهواء والنور وأن يقلل من استعمال المواد القابلة للاشتعال مهما أمكن ، ويلزم أن يكون للمنزل ردهات وممرات فسيحة بحيث تكون صالحة صحياً وأن يكون لكل غرفة تسكن شباك أو أكثر . وهناك من القوانين ما يعتبر الدور غير

صحية إن لم تحتو على كذا وكذا من الأقدام المكعبة من الهواء لكل فرد في كل فسحة ، ولا بد لتنفيذ مثل هذه القوانين مراقبة مستمرة من قبل السلطات الصحية في كل بلد حتى تجرى الأمور وفقا للمرغوب بكل دقة .

وفيا عدا ذلك نجد أن بلديات بعض المدن مثل مدينة (لندن) و (جلاسجو) على عاتقها أخذت اشادة بيوت نموذجية صحية على أنقاض دور غير صالحة وأسكنتها للعمال باجرة بسيطة ، أما غيرها فسعى في تجميل الضواحي وترقيتها ليحبب الناس إليها بدلاً من الأماكن المزدحمة فقام بتبليط الأزقة والشوارع في هذه الضواحي وحسن طرق المواصلات فيها واعتنى بالطرق الفنية في تصريف الفضلات منها وجعلها بالماء النقي والغاز والكهرباء حتى يجد الناس فيها الراحة التامة ، وسمح لهم باستملاك الدور التي استأجروها بعد إنقضاء أعوام معدودة . إن هذه النقطة أى تشجيع الاستملاك نقطة جوهرية لا تقتصر في كونها تعود إلى المالك بالمنفعة الصحية أو الإقتصادية ولكنها بالإضافة إلى ذلك تطبع في الأفكار صورة جليلة للوطن والمركز السياسى له ، ويبعث في الناس حب الاستقرار والطمأنينة ، فالرجل الذى يملك عرصة من الأرض ودارا مشادة عليها قلما يفكر في الثورة والقيام بوجه الحكومة إذ يمتلأ وهو في بيته بعاطفة الرقة والحنو ، أما إذا كان يسكن في غرفة من إحدى المنازل يستأجرها ليقع فيها هو وعائلته المسكينة ظلمة الليل فسرعان ما يمتعض ويتخشن من الفقر والبؤس ويندفع في كل فرصة إلى الهياج ضد القوة الحاكمة .

وسائل أخرى لحفظ الصحة :

لقد قام كثير من الحكومات بوسائل أخرى غير التي ذكرت آنفا لصيانة الصحة العامة فمن ذلك إبادة البعوض والذباب البيتي والحشرات الضارة التي تسبب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة موت مئات الآلاف من الناس سنويا ، وفحص طلاب المدارس من الوجهة الصحية وسيلة أخرى ذات أهمية كبرى في هذا الشأن ، وهو أن أجرى بدقة على جميع الطلبة كبيرهم وصغيرهم بين آن وآخر يساعد كثيرا

في تشخيص الأعراض ويسهل المعالجة السريعة ويكون سبباً في صيانة الطلبة من
تقشى أغلب الأوبئة بينهم .

كيف تنفذ التعليمات الصحية :

يتوقف تنفيذ التعليمات والنظم الصحية وتطبيقها وفقاً للامام على جهود مأمورى
الصحة مفتشيها المحليين قبل كل شئ فعلى مثل هؤلاء المبشرين في المراكز المختلفة
والمربوطين بالدوائر الصحية الرئيسية والذين لهم السلطة في الحجر الصحي والتطهير
ومراقبة الأطعمة والحليب وتعقيب الأنظمة الصحية ومنع الأجازات في فتح المسالخ
والمؤسسات الأخرى التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالصحة العامة يتوقف
الشر الأكبر من العمل .

التعليم والصحة العامة :

لا ينكر أن أساس النجاح في الأعمال التي تقتضيها الصحة العامة هو ثقافة
المجتمع وإلمامه بالقواعد والنظم الصحية فكلما كان الناس ميالين للمساورة والمعاونة
برحابة صدر مع السلطات الصحية كانت النتيجة خيراً وحيثما وجدنا العصيان
وعدم إطاعة الأنظمة الصحية تأكد لدينا أن المجتمع جاهل لا يقدر تأثير العمل
العكسى عليه وعلى غيره . والطريقة المثلى في تعليم الجمهور هي التي تتم بواسطة عرض
التصاوير التي تظهر إليه الحالة الصحية في الحوانيت والبيوت كما هي وكما يجب أن
تكون وبيان الفرق بينهما . أما المدارس فلا شك أنها أفضل السبل في تعليم وتربية
كافة الناس ما يراد تعليمهم وتعويدهم إياه من دروس الذوق والصحة والنظام، وتعليم
الأطفال والأولاد القواعد الصحية أسهل بكثير من تعليم الكبار والبالغين لأن
هؤلاء صادف أن اكتسبوا عادات واتجاهات في حياتهم يصعب تغييرها أو تهذيبها
وعلى هذا كان لزاماً على المدارس في كل مملكة تعيين أوقات خاصة وساعات
منظمة لتدريب شببيتها وتعويدها على النظافة والترتيب في الماء كل والمشراب
ووسائل العيش الأخرى وإفهامها كيفية الوقاية من الأمراض المعدية وعلى هذا
يتوقف بالأكثر مستقبل نشاط الأمة وحيويتها .

الغدد في جسم الإنسان

أعمالها - بنيتها - أنواعها

إن من الوظائف المهمة التي تشترك بتأديتها جميع الحجيرات الحية في جسم الحيوان هي وظيفة التغذية ، فكل حجيرة تقوم بأود نفسها مما تحصل عليه من محيطها لتعيش وتحيا . إلا أن هناك نوعاً من الحجيرات ما يقوم إضافة إلى ما ذكر بأحد أمرين : إما توليد أو إبعث بعض المواد الضرورية لوظائف الجسم العامة وعملياتها تدعى بـ (الإفراز) أو أنها تساعد الجسم بإبعاد فضلاته ، وتسمى عملياتها بـ (الإبراز) . إن مثل هذه الحجيرات من كلا النوعين يطلق عليها اسم الحجيرات الغدية أو حجيرات النسيج الخاطي الغدّي وأن تجمع هذه الحجيرات وتكتلها لتكوين جسم محدود لغاية أداء وظيفة الإفراز أو الإبراز يدعى بالغدة .

الغدة الوحيدة الحجيرة :

والغدة يمكن أن تتكون من حجيرة واحدة كما هي الحال في (الحجيرات الكأسية) المنتشرة على سطوح الأغشية المخاطية ، أو كما في الغدد الوحيدة الحجيرة الموجودة في الحيوانات غير الفقارية . ولما كانت هذه الحجيرات تمر عادة بسلسلة من التغيرات عند توليد مادتها الخاصة ، لذا فإن مظهر الحجيرة الخارجى يتوقف في أغلب الأحيان على الدور الذى هي فيه من أدوار الإفراز ، وعلى هذا يمكننا أن نفرّق بين الحجيرة السابتة والحجيرة الفعالة ، أو بين الحجيرة الفارغة والحجيرة المملأة فمثلاً إن الحجيرات التي تبطن الأمعاء وتكوّن أغشيتها المخاطية هي من نوع الحجيرات الاسطوانية . ومن السهل تمييز الحجيرات المخاطية منها عن الكأسية وذلك عند بدأ انصباب إفرازاتها ومشاهدتها ، وللحجيرة السابتة شكل حبيبي ويتلون سايتو بلازمها بصبغة داكنة ، وكلما تتدرج وتصبح فعالة يتغير جزء من الساييتو بلازم ، وتشغل محله مادة أخرى أكثر وضوحاً لا تكتسب تلك الصبغة الداكنة كما كان الحال مع الساييتو بلازم قبلاً ، ولكنها تصبح في الوقت نفسه قابلة لاكتساب صبغة (الهيموتكسلين) بكل سهولة . وتتجمع المادة المخاطية

المفرزة أولاً في ناحية من نواحي الحجيرة وتتكاثر كميتها بالتدريج حتى تشغل فراغ الحجيرة كله إلا بقعة صغيرة منها تقع في طرفها وفيها نجد نواة الحجيرة وحولها قليل من المواد البروتوبلازمية غير المتبدلة .

وفي هذه الحال يكون حجم الحجيرة أكبر بكثير مما كان وهي في دور السكون ، وحيفذاك تنشق من الطرف المقابل لمركز النواة وتنصب محتوياتها إلى الخارج . وهنا تتباين الآراء عن مصير الحجيرة بعد هذا الدور ، فمن قائل أن تاريخ حياتها ينتضى بانتهائه فتحل مكانها حجيرة أخرى من شاكتها تقوم بما قامت به أختها الفانية من واجب الوظيفة وفق الطريقة المذكورة ، ومن قائل إن الحجيرة لامتوت في أغلب الأحيان ، بل تتكون من جديد من بقايا الساييتو بلازم غير المتبدلة والنواة الأصلية ، وتستمر بعملها الإفرازي من جديد . وفي النسيج المخاطي الرصفي قد يبدأ الإفراز عند ما تكون الحجيرة نامية في الطبقات السفلى ويزداد هذا الإفراز بالتدريج كلما كانت الحجيرة أقرب إلى السطح حيثما تنصب موادها المخاطية .

مواد الإفراز وعمليته :

وفي الواقع أن جميع الحجيرات مهما كان نوعها تأخذ من الدم واللحم كل ما تحتاجه من المواد الضرورية التي تتغذى بها وتعطى إلى الدم فضلاتها ، وفي هذا المعنى تصبح للحجيرات بأجمعها قابلية للإفراز والإبراز معاً ، ولكن مما يميز الحجيرات الغدية عن غيرها أنها تعمل بالإضافة إلى ما تقوم به من أفعال التغذية التي تؤمن بها حياتها بعضاً من المواد لا تستهلكها بنفسها ولا تستنفع منها ، بل تدفعها إلى الخارج لاستعمالها في أقسام أخرى من الجسم ، وهذا ما يدعى بالإفراز كإفراز العصير المعدى ، أو تنبذها بعيداً عن الجسم ، لأنها سامة أو مضرّة وهذا ما يسمى بالإبراز كالبول ، فالحجيرة إذن التي تقوم بإحدى هاتين الوظيفتين تستعمل من الدم واللحم المواد الخامية وتمتص أكثرها وتمثلها وتبدلها إلى مادة

إفرازية جديدة ، أو تستخلص منها مادة إفرازية تلفظها بعيداً عن الجسم .
ويطراً على أكثر الحجيرات الغدية تغيرات تصحب الإفراز هي عبارة عن
تطوّرات في قسم من مادة الساييتوبلازم ، فتظهر مثلاً في طرف من أطراف
الحجيرة عدة خيوط أو شعيرات دقيقة تسمى « اركاستوبلازم » أو تتشكل بدلاها
جسيمات صغيرة غير منتظمة تدعى بالنواة الثانوية « برانوكليس » وسميت كذلك
لأنها تختلف بخصائصها في اكتساب الصبغة عن النواة الأصلية للحجيرة ولم يعرف
لحد الآن علاقة هذه الزوائد بالساييتوبلازم أو بالإفراز نفسه .

أما وظيفة النواة في عملية الإفراز فمن المحتمل أن تكون ذات أهمية كبرى
ويرجح أن تكون الحجيرة الفاقدة للنواة عاجزة عن إنتاج إفراز حقيقي . وقد
شاهد أنه في حالة تكون الإفراز من جميع أجزاء الحجيرة كما يحصل ذلك
في الغدد اللبنية تصبح النواة جزءاً من الإفراز نفسه ، كما أنه ثبت في كل الحالات
بأن هجوم الإفراز وانصبابه يصحب بظواهر غريبة في النواة ، فبعضها يتضخم
ويصبح غير منتظم الشكل أو غير كروي وبعضها الآخر يندفع من داخله مواد
نووية تنصب في الساييتوبلازم ويختلط بها ، أو أن النواة تمر بانقسام مباشر
« اميتوتك » وهناك من يرى أن أصل ظهور النواة الثانوية والخيوط الدقيقة
التي ذكرناها آنفاً هو النواة وليس الساييتوبلازم .

بنية الغدة وأنواعها :

تتكوّن معظم الغدد المهمة من أكثر من حجيرة واحدة ، وفي الغالب من
عدد كبير من الحجيرات ، وهذه بدلا من أن تكون في صف واحد على السطح
الخارجي نجدها تحيط تجويفاً صغيراً تنصب فيه إفرازها . وفي أبسط حالات
التجاويف الغدية تكون كل الحجيرات المحيطة بها هي من نوع الحجيرات
الإفرازية ، وهذا يختلف كثيراً عما هو في الغدد الأعقد تركيا ، ففي هذه الحال

تصبح الحجيرات البعيدة فقط عن السطح هي الحجيرات المفرزة . أما بقية الحجيرات القريبة إلى القوة فتكون وظيفتها حمل هذه الإفرازات إلى السطح الخارجى ، ولذا دعى القسم الأخير بالقناة الإفرازية لتفريقها عن الجزء المتقدم ذكره وهو الطبقة المفرزة .

ويغلف الجزئين أغشية من الأنسجة المخاطية ، أما الأنسجة الرابطة فتعقب هذه الأغشية وتتداخل بين أجزاء الغدة الأصلية وتتوقف كميتها ودرجة تداخلها على نوع الغدة .

وهنا إذا كانت المنطقة المفرزة من الغدة أنبوبية الشكل والقناة رفيعة ومستقيمة تكون الغدة من النوع الأنبوبى . أما إذا كانت المنطقة المفرزة متوسعة على شكل كيس ، فعندئذ تكون الغدة من النوع الكيسى وتدعى بالغدة الأنبوبية الكيسية إذا كانت من النوع الوسطى .

وقد يكون للغدة قناة واحدة أو كيس واحد أو بضعة أفنية أو كياس تنتهى كلها بأنبوب رئيسى يصب العصارة رأساً فتدعى بالغدد الأنبوبية البسيطة ، ومثلها الغدد (المخاطية) والغدد (العرقية) و (الدمعية) ، أو قد تكون محتوية على شبكة حشكة من الأفنية المتفرعة تؤدى إلى أنابيب وأكياس جانبية أخرى ، فنسمى عندئذ بالمركبة . وهناك غدد قليلة العدد مثل الدرقية والثيروسموس ليس لها أفنية ، وتدعى بالغدد الصم .

تركيب الغدة:

ان كل الغدد المركبة محاطة بالأنسجة الرابطة التى تكون على الدوام بشكل محفظة خاصة تقع بين الأغشية المخاطية الخارجية وبين الأنسجة الغدية الأصلية ، وتتفرع ضمنها على هيئة فواصل أو حواجز تقسم الكبيرة منها جسم الغدة إلى بطون واضحة يطلق عليها اسم الفصوص وأحدها (فص) أما الحواجز الصغيرة

فتفصل البطن إلى أقسام مكرو سكوبية بحجومها يدعى الواحد منها بالقصيص .
والقصيص عدا كونه جزءاً من الغدة مفصّولاً عن البقية بواسطة هذه الأنسجة
الرابطة فهو يمثل منطقة تتكثّل فيها الأنايب الغدية مع بعض الأقنية الرئيسية
الراجعة إليها . فالأنسجة الغدية إذن تكوّن الطبقة الداخلية للغدة وهى نوع من
الأنسجة الحاطية التى تدعى بالأنسجة الحشوية (برنكا) لتمييزها عن بعض أنواع
الأنسجة الرابطة المسماة بالأنسجة الخلالية (انترستيشيل) . ولا بد لنا بهذه المناسبة
أن نرجع إلى منشأ تكوّن الأنسجة الغدية والأنسجة الرابطة لبيان العلاقة الأصلية
التي تربط هذين النوعين من الأنسجة : تنشأ كل الغدد فى بادئ الأمر بسيطها
ومركبها من انشاءات أو تجمعات من خارج سطح الأنسجة الحاطية إلى الداخل فتكون
بذلك أجوافاً أو أكياساً تنغرز فى الأنسجة الرابطة التى تلى طبقة الأنسجة الحاطية ،
وفى حالة نشوء الغدد المركبة نجد أن الأنبوب المتكوّن من هذه الانشاءات يصبح
الأنبوب الرئيسى للافراز وكلما استمر بالنمو ينقسم ويتفرع ليكون الأقنية الفرعية
كبيرها وصغيرها إلى أن يشكل فى النهاية أقنية الافراز أو أكياسه . وفى أثناء
نمو هذه الأقنية الغدية من جهة نشاهد أن الأنسجة الرابطة من الجهة الثانية
لا تنفك عن النمو أيضاً غير أنها تكون أبطأ بهذا النمو نسبة ولذا نراها تتراجع إلى
الوراء أمام نمو الأقنية الغدية السريع وهو نمو منتظم يبعث بكتل من الحجيرات
تتداخل بين الأنسجة الرابطة ولكل كتلة قنواتها الخاصة .

وهكذا نجد أن القناة الرئيسية التى تشكلت أولاً من التجويف الأصلى تبعث
بفروع عديدة تسمى بالأقنية الفصية كل فرع يؤدى حتماً بعد أن يتشعب للمرة
الثانية إلى أنابيب أخرى هى الأصل فى تأسيس الفص فى كل قناة فصية وبعد أن
تتفرع داخل الفص تكوّن القصيص ، وعلى هذا تبقى بين القصوص المتجاورة
الأجنحة الكبرى من كتل الأنسجة الرابطة أما الصغرى منها فتتداخل بين

فصيص وآخر وأدق هذه الكتل تبين ضمن انحاءات الأقنية والأكياس في
الفصيص الواحد .

والخلاصة أنه بإمكاننا تصنيف الغدد إلى الأقسام التالية :
القسم الأول : الغدد ذات العنق أو ذات القناة ومنها الأنواع الآتية .

١ — الغدد الأنبوبية وهي إما أن تكون :

(أ) بسيطة حيث يكون الأنبوب مستقيماً أو ملتفاً أو متشعباً .

(ب) مركبة .

٢ — الغدد الكيسية وهذه على نوعين أيضاً بسيطة ومركبة .

القسم الثاني : الغدد عديمة القناة (الصم) وهي ما تسمى بذات الإفراز الداخلى
وسنتناول كل نوع على حدة بشيء من التفصيل مع بيان الأمثلة الكافية .

الغدد ذات العنق

١ — الغدد الأنبوبية .

(أ) الغدد الأنبوبية البسيطة : وهي غدد ذات أنابيب بسيطة التركيب تفتح

إلى الخارج ويتصل الغشاء المخاطي الذي يبطنها بالنسيج المخاطي الخارجى الذى
على السطح . وقد تكون كل حجيرات الغدة مفرزة أو يختص الإفراز
بالحجيرات العميقة ، وفي الحالة الأخيرة يستخدم القسم الأعلى من الأنبوب
كقناة لدفع الإفراز إلى الخارج ويمكننا أن نميز في الغدد الرقيقة من هذا
النوع ثلاثة أجزاء بيّنة — الجزء الأول « الفم » وهو فتحة على السطح والجزء
الثانى « العنق » وهو القسم الضيق من الغدة والثالث « القعر » أو البطن وهو
المنطقة المفترزة للغدة .

إن الغدد الأنبوبية البسيطة تقسم إلى بضعة أنواع حسب شكل القعر المذكور :

١ — المستقيمة : حيث تكون القناة على استقامة واحدة غير متشعبة وذلك مثل غدد الأمعاء الغليظة .

٢ — المتلفة : وهنا تكون نهاية القناة مبرومة على نفسها وأوضح مثل على هذا النوع هو غدد العرق في الجلد .

٣ — المتشعبة : حيث تكون نهاية القناة متشعبة والشعب مبطنة بالحجيرات المفرزة التي تصب عصاراتها في القناة الأصلية . إن أبسط هذه الغدد نجد في طرف المعدة القريب إلى القلب وفي الرحم أما أعقدها في الشعب فهي الغدد المخاطية الموجودة في البلعوم والقم والقصبه الهوائية .

(ب) الغدد الأنبوية المركبة .

وهي غدد تحتوى على عدد كبير جدا من الأقبية الفرعية المتشعبة التي تؤدي إلى قناة رئيسية واحدة ، وأكثر الغدد الكبيرة في الجسم هو من هذا النوع وذلك مثل الغدد اللعابية والكبد والكلية والخصية .

٢ — الغدد الكيسية .

(أ) الغدد الكيسية البسيطة : وأبسطها يحتوى على كيس واحد يتصل بالخارج بواسطة عنق ضيق ، والواحدة تشبه المدقة بشكلها ويشاهد مثل هذه الغدد في جلد بعض الحيوانات البرمائية أو الضفادع ولا نجدها في الانسان . أما المتفرعة منها فتمثلها الغدد الدهنية في جلد الانسان وغدد (ميوميوس) الدهنية في الجفن .

(ب) الغدد الكيسية المركبة : وهي نظير الغدد الأنبوية المركبة بهيئتها إلا أنها استعاضت بالأوكياس بدلا عن الأنابيب ، وهي تتكون من جماعات كبيرة العدد من الأوكياس كل جماعة تنتهى بأنبوب واحد وهذه بدورها ترتبط بالقناة الرئيسية على نسق تام ونظام موحد . وأفضل مثل لهذا النوع هو الغدد اللبنية في الثدي ولنعلم أن الرئتين مبنيتان على نفس الأساس لهذا النوع من الغدد .

الغدد الصم وأهمية الهرمونات في حياة الانسان

إن من الوسائل المهمة التي تضمن الحياة بواسطتها ترابط الأعمال المشتركة بين أعضاء جسم الحيوان الراق وسوقها بموجب نظام واحد بقصد تأمين الموافقة بين المخلوق الحي ومحيطه هي بلا شك سهولة الاتصال الكامل بين هذه الأعضاء. ويتم هذا الترابط عادة بواسطتين أساسيتين .

(الأولى) هي الجهاز العصبي و (الثانية) الهرمونات أو إفرازات الغدد الصم . وقد أشرنا فيما سبق بأن هذه الغدد لا تختلف بتركيبها المستولوجي عن بقية الغدد الأخرى إلا بكونها فاقدة للأفنية الرئيسية ولذا أصبحت عصاراتها المتكونة في حويصلاتها الداخلية لا تنصب خارجا كما هو الحال مع الغدد الأنبوية ذات العنق بل تمتص بواسطة الدم أو اللمف رأسا وتسمى مثل هذه العصارات بالإفرازات الداخلية أو الرسول الكيميائي أو الهرمونات أما أعضاؤها فتدعى بالغدد الصم كما أسلفنا. ومما هو جدير بالذكر أن جميع الحجيرات في الجسم تشترك بإنتاج مركبات متنوعة تعرف بالفضلات من شأنها أن تنصب في المجرى الدموي مباشرة ويكون لبعضها التأثير الكبير على مختلف الأعضاء أشبه شيء بما يكون للهرمونات عليها فلثاني أو كسيد الكاربون — وهو من جملة الأمثلة التي توضح هذا التأثير — عمل قوى في تنبيه مركز التنفس في الدماغ ، ولذا فتفريقا بين عمل هذه المركبات من جهة وعمل الهرمونات من جهة ثانية اصطلاح على أن لا يشمل الإفراز الداخلي تأثير الفضلات الناتجة من فعالية الأنسجة والأعضاء بصورة عامة بل تشمل فقط المواد الحاصلة بواسطة الغدد الصم والتي :

١ — تزيد أو تقلل من فعالية الأعضاء الأخرى .

٢ — تسهل أو تعيق الاستحالة الغذائية .

٣ — تؤثر على نمو الجسم .

ولقد تمكن الكيميائيون في أكثر الأحوال من عزل بعض المواد ذات التأثير الفعال في هذه الهرمونات بصورة قوية نوعاً ، وفي الواقع أنهم نجحوا باستخلاص أنواع الهرمونات الصناعية التي تعرف (بالتايروكسين) و (الايينفرين) ولكنهم في الوقت عينه لم يستطيعوا في بعض الأحوال الأخرى من إثبات وجود الهرمون إلا بواسطة تأثيره الخاص وأهم الوسائل التي يعتمدون عليها في هذه الدراسة هي :

١ — استئصال العضو .

٢ — اطعام الغدة أو حقن خلاصتها في :

(١) جسم حيوان صحيح . (ب) جسم حيوان استئصلت منه الغدة نفسها .

٣ — دراسة الاضطرابات الجسمية وغيرها التي تحدث لإنسان مصاب بإحدى العوارض الغدّية والسعي لمداواة المريض من هذه الوجهة أو نقل غدة سليمة إليه من حيوان آخر بدلاً عن غدته .

ومن حسن الحظ أن يكون بمقدورنا نقل الهرمونات من حيوان إلى آخر بسهولة تامة فباستطاعتنا مثلاً أن نتلافى عجز الغدة الدرقية الخفيف من الإفراز وذلك بنقل غدة أخرى في محلها أو استحصال خلاصتها من حيوان آخر كالبقرة والغنم وحقنه في جسم العليل .

أما أنه كيف تحدث هذه الهرمونات تأثيرها فأمر مجهول حتى اليوم ولو أن هناك بعض الخبيرين من يقرن عملها بعمل الخمائر الكيميائية أو (الانزيمات) . ومهما يكن فإن درجة هذا التأثير عالية جداً بحيث أنها تظهر للعيان جلية حتى عند استعمال كميات ضئيلة لا يعتد بها من هذه المواد . ومما يجدر ملاحظته أن هذه الغدد الصمّ تؤثر في أحوال معينة على بعضها البعض فإذا استئصلت الغدة «النخامية» في أفراخ الضفدع مثلاً فإن ذلك يؤدي حتماً إلى نقصان في نمو الغدة «الدرقية» . وقد عرف الشيء الكثير عن هذه الصلات المشتركة معظمها غامض لا يمكن تفسيره إلا ما ندر وسنشير إليه في حينه . وليس ببعيد أن نجد أنواعاً مختلفة من هذه الغدد الصمّ منها

ما يفرز أكثر من هرمون واحد كالغدة « النخامية » ، ومنها ما يشبه غدة أخرى بالهيئة والوظيفة كالغدتين الكظريتين (الادرينالية) ، ومنها ماله مساس كبير مع غدد أخرى ذات افراز خارجي كما هو الحال في غدة البنكرياس .
وسنبحث فيما يلي عن كل غدة من الغدد الصم مفصلاً .

مراكز الهرمونات في جسم الانسان وأفعالها الحيوية

— ١ —

الغدتان الكظريتان — الادرينالية

الكظريتان غدتان صغيرتان من الغدد الصم الرئيسية يميل لونهما إلى الاصفرار — تقعان في أعلى الكليتين وبقر بهما وتركب الغدة الواحدة منهما هستولوجيا من طبقتين بينتين الطبقة الخارجية أو القشرة والطبقة الداخلية وتعرف باللب . وهذه الطبقة (الثانية) تنمو جنينياً من نَس الأنسجة التي تكوّن الجهاز السمبثاوي العصبي أما القشرة فتتولد من الأنسجة التي تنمو منها الأعضاء التناسلية ولكل من هاتين الطبقتين وظائف فسيولوجية خاصة ومن المرجح أن الغدة الكظرية تحصل لكل غرام من وزنها كمية من الدم أعظم مما يستحصله أى عضو في الجسم ما عدا الغدة الدرقية .

تمكن (اديسن) عام ١٨٥٥ من معرفة بعض الأعراض المرضية التي ذكر عنها أنها تنشأ من ضعف أو عجز يصيب هذا النوع من الغدد . وقد عرف مجموع هذه الأعراض بعدئذ بمرض اديسن ، وهو مع كونه يستمر أحياناً زمنياً طويلاً ، من الأمراض المميتة دائماً وفي كل الأحوال . وفي هذا المرض يصاب العليل بضعف عام يعتري جميع العضلات ويتلوّن الجلد بلون البرونز ، وإذا استئصلت هاتان الغدتان من جسم الحيوان كالكلب فسرعان ما يعاجله الموت بظرف عشرة أيام

تقرىبا وتظهر عليه أعراض المرض المشار إليه فتفقد عضلات الأوعية الدموية مرونتها ويصاب قوة توترها وتقل درجة الضغط الدموى ويصاب الجسم بإخفاق وهبوط عام وضعف فى العضلات وفقدان الشهية .

الطبقة البنية فى الغدة الكظرية :

إن قطع هذه الطبقة لا يعقبه الموت كما أن استعمال مادتها الفعالة المسماة بالأدرينين أو (الادرينالين) أو (أينفرين) لا يضمن الحياة لمن تستأصل منه الغدة بكاملها مع أختها .

وأهم ما يلاحظ عند ما تحقن مادة الأينفرين فى جسم حيوان اعتيادى هو حصول تغيرات جليلة فى فعالية كثير من الأعضاء ذات العضلات الملساء ، إذ أنها تريد من فعالية البعض من هذه العضلات فيصيبه التيبج أى الانقباض والانبساط السريعين ، وتقل فعالية البعض الآخر فيعتريه الخمود ، كما أن عضلات الأوعية الدموية المدورة ، وخصوصا ما كان منها فى المنطقة الحشوية تأخذ فى التنبه بدرجة عالية يعقبها ازدياد فى الضغط الدموى الذى لا يلبث أن يفنى سريعا .

أما الأوعية الدموية فى العضلات الإرادية المتصلة بالهيكل العظمى فلا تشارك بهذا الانقباض . ولما كان تأثير الأدرينالين قويا على الأوعية الدموية بصورة عامة أصبحت تستعمل غالبا فى العمليات الجراحية البسيطة فتحقن موضعها فى الأنف أو غيره لإيقاف النزيف الهين ، وكثيراً ما تخطط مع محلول (البروكين) — وهى مادة مخدرة أخف تسما من أملاح الكوكايين — أو مع أدوية أخرى شبيهة بالبروكين ، وذلك للحصول على التخدير الموضعى ، هذا ولكونها تسبب انقباضا فى أكثر الأوعية الدموية أصبحت عاملا قويا فى تطويل أمد التخدير وزيادة شدته . والأدرينالين تحدث — فضلا عما ذكر — تقلصا فى العضلات العاصرة (أو المصرّة) لبوابات المعدة والقولون ، كما أنها تسبب هذا الانقباض عينه فى بعض

أجزاء القناة التناسلية وفي الأنسجة الموسعة (بكسر العين) لحدة العين وتزيد من فعالية الغدد العرقية واللعابية وغدد الدمع . والمادة أيضا تأثير في ارتخاء الجملة العضلية للمعدة والأمعاء وعضلات المثانة والقنصبات الهوائية مما يخفف وطأة الفعالية ويبطئ حركتها ، ولهذا السبب أصبح يستفاد منها في الطب ضد (الربو) ، وهو مرض يتصف بنوبات عسر في التنفس وسعال من جراء انقباض وتقلص شديدين في عضلات الأنابيب الهوائية .

أن جميع الأعضاء المذكورة آنفا والمحكومة غالبا بواسطة مادة الادرينالين تتصل على الاطلاق بالمرکز العصبية السمبثاوية وتكون تحت قيادتها ، غير أنه لما كانت هذه المادة عديمة التأثير على العضلات الملساء غير المتصلة بمرکز الجهاز السمبثاوي مثل : الاوعية الدموية الخاصة بالمشخ والدماع وجميع الاوعية الدموية المتعلقة بقحف الرأس أو الهامة اذن وجب أن يكون تأثيرها محدودا على الأنسجة التي تقع في وجه العضلات فقط ، وكذلك لما كان هذا التأثير مستمر حتى بعد قطع الأعصاب السمبثاوية وبعد أن يكون للأجزاء المحيطة بها زمن كاف للاضمحلال والهلاك لزم عندئذ أن يكون تأثير الأدرينالين مقتصر على مادة أو أنسجة تتوسط بين العصب والعضلة وعلى كل فالمعروف عندنا أن المادة المذكورة تأثيرا من شأنه أن يرفع من فعالية الجهاز السمبثاوي ويزيد من نشاطه .

وقد وجد أن التنبيه الحاصل على أعصاب المنطقة الحشوية يكثر من إفراز مادة الأدرينالين . وأكّد العلامة (كنون) أن بعض الحالات العقلية كالغضب والخوف والقلق يسبب أيضا ازدياد هذه المادة في الدم ولتعيين ذلك جرب العلامة المذكور تأثيرها في عضلات الأمعاء إذ أخذ شقة صغيرة من أمعاء أرنب وربطها بحامل بحيث كان يستطيع أن يصب عليها محلولاً فسيولوجيا من بعض الأملاح الخاصة أو كمية من الدم المراد فحصه من جهة مادة الادرينالين ، وحفظا لبقاء الأنسجة حية مدة التجربة اضطر على أمرار تيار من غاز الأكسيجين خلال المحلول الذي أبقى

بدرجة حرارة معينة هي درجة حرارة الجسم الحى . ولما سجل في النهاية تقلص وانبساط عضلات هذه الشقة من الأمعاء على آلة (الكيموغراف) ثبت لديه أن الدم المستحصل من حيوان هادئ هو عديم التأثير في حركة هذه العضلات بينما كان للدم المأخوذ من جسم حيوان منفعل من جراء خوف أو غضب تأثير كبير في إخماد هذه الحركة أى أنه خفف كثيرا من فعالية التقلص والانبساط للعضلات المذكورة .

أجريت هذه التجربة في وقتها بدقة فائقة حتى أن التأثير كان يظهر جليا بوضع جزء واحد من الأدرينالين إلى (٢٠٠) مليون جزء من المادة المذوبة (بكسر الواو) واستطاع كنون بعدها من إعادة هذه التجربة بنجاح تام على قلب قطعت عنه أعصابه وكانت نسبة المحلول حينذاك (١) إلى ألف وأربعمائة مليون .

ويعود — كنون — فيؤيد أن إطلاق هذه المادة في الدم هو السبب في كثير من التغيرات الفسيولوجية والانفعالات النفسية التي تحصل في جسم الحيوان ومن جملة هذه التأثيرات إفراز العرق (العرق البارد) وانتصاب الشعر في بعض الحيوانات كالقطط وتقلص الأوعية الدموية في أدمة الجلد كما يظهر ذلك عند امتناع اللون في الخوف وتقلص الأوعية الدموية للأحشاء البطنية وتوسع حدقة العين . أما الأوعية الدموية في العضلات الخارجة عن المنطقة البطنية فأنها تتمدد وتكون ساحات لقبول كميات الدم الواردة من تلك المنطقة . وظهر للخبيرين أيضاً أن برودة الجو تسبب ازديادا في إفراز الغدد الكظرية ، ولا شك أن مثل هذه الانفعالات الناتجة من إنصباب الأدرينالين في الدم بأى صورة كانت يكثر من نسبة السكر فيه ويرفع من درجة حرارة الجسم . ويؤكد الباحثون أن الأدرينالين تنشيط بعض العضلات المخططة أكثر من المعتاد فقد وجد (شيفر) و (أوليفر) بعد حقن خلاصة المادة في جسم ضفدع زيادة كبرى في تقلص العضلة التوأمية الساقية (عضلة بطن الساق) المتستأصلة بنسبة ٣٣٪ واستمرت بالارتفاع حتى وصلت إلى ٦٦٪ عما كانت عليه في العضلة الاعتيادية .

ومن هنا يمكننا أن ندرك موافقة الحال مع حقيقة الواقع فيما يحدث للمصاب بمرض (ايسن) أو بمن تستأصل منه الغدتان الكظريتان من ضعف وارتخاء في عضلات جسمه بصورة عامة .

أما (كروبر) فقد عرف أن قابلية الحس للعضلة المنهكة يمكن تجديدها في الأحوال الاعتيادية بظرف ربع ساعة إلى الساعتين وذلك فيما إذا أعطى لها جرعة صغيرة من مادة الادرينالين ، كما يمكن إنعاش الشعور نفسه بزمن لا يزيد عن الخمس دقائق . ولما كان هذا التأثير واضحاً في العضلة المقطوعة فمن المحتمل إذن أن يكون للادرينالين أيضاً تأثير في الأنسجة العضلية في الجسم ولو كان ذلك أقل نسبة مما هو حاصل في الخارج .

استفاد العلامة (كنون) من جميع الحقائق الآفة الذكر فبنى عليها نظريته المسماة بـ (نظرية المباغته) لفعالية الغدد الكظرية وتتلخص هذه النظرية بما يأتي : —

« لا يظهر تأثير الغدد الكظرية على أعضاء الجسم في الأفعال التي سبق ذكرها إلا في الأحوال المستعجلة والمفاجئات غير الاعتيادية كالاختناق (اسفيكسيا) والغضب أو الخوف المريع حيث تبدأ الغدة بصب افرازها بكميات هائلة في الدم مما يستلزم تلك التبدلات الفسيولوجية المعروفة لتساعد الحيوان على مقابلة تلك المفاجئات ودفع أضرارها » .

وهناك بعض البيانات ما يشير إلى أن في النخاع المستطيل مركزاً خاصاً يبعث بأوامره خلال الأعصاب الحسية من مراكز الدماغ العليا إلى هذه الغدد لتأدية ما يلزم وقت الحاجة حسب الأصول .

وقد يتسبب انصباب مادة الادرينالين عن غير هذا الطريق إذ يحصل مثلاً بتأثير بعض الأدوية والعقاقير ومن هذه الوجهة يمكننا القول بالنسبة إلى حياة الإنسان

في العصر الحاضر أن النيكوتين (الدخان) المأخوذ باستمرار هو أظهر كل أنواع هذه الأدوية في التأثير من هذه الناحية .

الطبقة القشرية في الغدة الكظرية :

سبق أن عرفنا أن استئصال الطبقة اللبية لا يفقد الحياة وهذا عكس ما نجده في حالة استئصال الطبقة الخارجية من الغدة فالموت بعد نزعها أكيد والهلاك محتم . وينجم الهلاك — حسب رأى البعض من الإخصائيين — من جراء تجمع الفضلات السامة في جسم الحيوان . فقد استؤصلت هاتان الغدتان من جسم كلب بعملية جراحية وظهر للقائمين بها أن دم الكلب مملوء ببعض المواد السامة أهمها مادة (المستمين) — وهى مادة أمينية تستحصل من المستدين بإبعاد جزئيات ثاى أو أكسيد الكاربون من المركب — التى تصبح حينذاك سامة للحيوان بأكثر من ثلاثين ضعفاً مما هى فى الأصل أى قبل أن نستأصل الغدتين من الجسم . وإذا أطمع الحيوان كمية من المواد الغذائية الغنية بالبروتينات يموت حالاً (لأن هذه المواد هى التى تولد المستمين بعد مرورها بسلسلة من التفاعلات الكيماوية) وبناء على هذا يرجح أن يكون لهذه الغدد عمل ضد تأثيرات السموم .

والعلاقة وثيقة بين الطبقة القشرية للغدة وبين أعضاء التناسل كما يظهر من تضخمها وتوسعها أيام الحمل والرضاعة . وهى تبعث فى صفار الجنسين عندما تنشط من جراء الورم الصفات التناسلية للذكور كالتحساء الاناث وقد يؤدى فيهن إلى ضمور الثدي والرحم .

هذا وقد استخلص (روكوف) و (ستيورت) أخيراً مادة من هذه الطبقة القشرية دعوها بـ (الكورتن) وهى مادة تعين على إطالة حياة الحيوان الذى استؤصلت منه غدته الكظريتان .

(٢)

الغدة الدرقية — الثايرويد

تتكون الغدة الدرقية من فصين يقعان على طرفي وفي الجزء العلوى من القصبة الهوائية في أسفل الحنجرة (أو صندوق الصوت) مباشرة ويربط الفصين ببعضهما لحمة تدعى ببرزخ الغدة الدرقية . والغدة نفسها عضو كثير الأوعية الدموية بدرجة أنها أصبحت تستقبل بالنسبة إلى وزنها في الوحدة الزمنية كمية من الدم تقدر بثلاثة أضعاف ونصف الكمية الذاهبة للدماغ . وهي ترتبط من جهة بالجهاز العصبي السمبثاوى بواسطة ألياف عصبية وتتصل من جهة ثانية اتصالاً وثيقاً بأربع جسيمات صغيرة تدعى بالغدد الدرقية الثانوية (براثايرويد) ولكل من الغدة الدرقية وجاراتها وظائف خاصة أما وظائف الغدة الدرقية نفسها فاثنتان :

١ — ما يعود إلى الشكل والنمو (مورفوجينك) فهي تتحكم بمساعدة بعض الغدد الصم الأخرى بزمام نمو الجسم وتقدمه وخاصة ماله مساس بالجهاز العصبي المركزى .

٢ — ما يعود إلى استحالة الأغذية (ميتابولك) فهي تؤثر عادة في المواد الأزوتية وتساعد على انحلالها وتمثيلها . وفيما يلي شرح هاتين الوظيفتين .

إن استئصال الغدة الدرقية — إذا كانت الغدد الدرقية الثانوية سليمة — غير مميت ولكنه يؤدي وخاصة في صغار الحيوانات إلى تغيرات عمالة في سير وظائف الجسم واستحالة المواد الغذائية بصورة عامة . فقد قطع (فان اسلبرج) هذه الغدة من حمليين عمر كل منهما ثمانية أيام واحتفظ بحمل ثالث صحيح البدن كأمموزج للقياس والمقابلة وبعد مرور سبعة أشهر وجد أن الحمل السليم يزن (٧٧) باونا بينما وجد وزن الآخرين ٢٤ — و ٣٠ باونا ولما عاد فأطعمهما خلاصة الغدة الدرقية توقفت هذه الأعراض ثم تضاءلت وانمحت بعد أيام .

ويصاب الأطفال عادة عند ظهور عجز في الغدة الدرقية بحالة مرضية تسمى القماءة (كويتنزم)، وفيها تقف العظام عن النمو الطولى فيصبح الطفل دميما في قصره لعدة سنين ويبطل نشاط الأعضاء التناسلية ويتساقط الشعر ويزداد نمو الجلد بصورة غير اعتيادية فتتكاثر فيه الأنسجة الرابطة مما يسبب انتفاخ الوجه وتضخم الذراع والساق ويتوقف نمو الدماغ فيسمى المصاب ناقص العقل معتوها وفاتر الهممة . وإذا أطعم الطفل بالغدة الدرقية أو خلاصتها أو حقنت هذه الخلاصة تحت الجلد فسرعان ما تتحسن الوضعية ويأخذ كل من الدماغ والجسم بالنمو الاعتيادى المطلوب . ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن المعالجة يجب أن تستمر ما دام في الغدة الدرقية ضمور يستلزم مداواته وإلا فالواجب إبطالها حالا .

نضوب إفراز الغدة الدرقية (هايبوثايرويدزم) :

أن نضوب إفراز هذه الغدة الصماء في شاب مراقب سواء كان النضوب جزئى أو كلى يسبب مرضا خاصا يدعى بالاستسقاء اللحمى (مكسيديما) . وتتشابه أعراض هذا المرض بما يشاهد في القماءة ولذا فإن أهم ما يلاحظ هو تجمع مادة الميوسين (اللعاب) وزيادة نمو الأنسجة الرابطة تحت الجلد وانتفاخ الجفون والشفاه وتساقط الشعر كما تقل درجة احراق الأغذية لقلة كمية الأوكسجين المستهلكة وزيادة كمية ثانى أوكسيد الكربون ، وعلى هذا تهبط درجة الحرارة الغريزية ويتكاثر خزن الشحوم في الجسم وتنحط القوى الذهنية فيضطرب العقل ويتسافل الذكاء ولكن سرعان ما يشفى المريض وتختفى أعراض الإصابة عند استعمال الغدة الدرقية أو هرمونات المستخلصة منها . وهنا لابد أن نذكر أن تضخم الغدة الدرقية (الجلدة) أو الكويتر لا يستلزم أن يكون في كل الأحوال سببا في ازدياد إفراز الغدة بل قد يكون عاملا قويا في نضوبه كما يمكن أن يكون عديم التأثير فيبقى الإفراز بنسبته الاعتيادية .

وفرة إفراز الغدة الدرقية (هايبيرثايرويدزم):

إن وفرة هرمون هذه الغدة يزيد من نشاط الأعضاء بصورة هائلة إذ يدفع بها إلى العمل المتواصل ويساعد على احتراق المواد الغذائية واستهلاكها وذلك بإنعاشه سلسلة العمليات الكيميائية المختلفة التي تتم داخل الأنسجة الحية وتستهلك أكثر المواد الشحمية المخزونة ، وعلى هذا كان الفرق بين الفرد النشط الهزيل والمكسال البدين هو عبارة عن الفرق بين غدة درقية نشيطة وأخرى أقل نشاطاً . وفي الواقع أن قابلية خزن المواد الشحمية التي تظهر بعد الدور الوسطي من العمر تعزى إلى فتور في فعالية الغدة الدرقية أثناء ذلك الدور ، ومن المحتمل أن يكون مثل هذا الفتور بعد سن الخمسين أو الخمس والأربعين هو السبب في كل التغيرات التي تحدث في دور الكهولة وأظهرها تجمع البشرة وتيبس الجلد والاستعداد لخزن المواد الشحمية والمهبط التدريجي الذي يسبب الضغط الدموي والنمو المتزايد للأنسجة الرابطة في كثير من أعضاء الجسم والنقص البارز في القوى الحيوية . وإذا أطمعت فراخ الضفدع بالغدد الدرقية فإنها تمر في أدوار الاستحالة بسرعة تامة وتصبح ضفادع كاملة ولكنها تصاب ببطء في النمو ونقصان في الوزن وتكون في النهاية ضفادع صغيرة الحجم .

وقد وجد في حويصلات الغدة الدرقية مادة يؤكّد البعض عنها أنها هي عماد مادة الإفراز الداخلي بذاتها واستطاع (بومان) أن يستخلص منها مركباً آزوتياً يحتوي على كميات كبيرة من اليود دعاه (ايدوثايرين) وتمكن (كاندل) بعدئذ من تجزئة هذا المركب والحصول على مادة أخرى غنية باليود أطلق عليها اسم (ثايروكسين) ولما كان لمادة الثايروكسين هذه تأثير كبير في الحيوانات السليمة والحيوانات التي تشكو من علة في الغدد الدرقية أشبه بتأثير خلاصة هذه الغدد عليها لذا فمن المؤكّد أن تكون الثايروكسين هي الجوهر الفعال في الهرمون الخاص . ومما يسرنا

أن يعلن العلامة (هارنكتون) أخيراً تحضيره لمادة الثايروكسين الصناعية التي تملك جميع الخصائص الفسيولوجية للثايروكسين الطبيعي .

ويعيب نضوب إفراز الغدة الدرقية أو ما يسمى غالباً الكويتر البسيط الإناث أكثر مما يعيب الذكور بنسبة ثلاثة إلى واحد، ويحصل في الإناث عادة أثناء سن البلوغ وفي أدوار الرضاعة والحمل . وهذا المرض كثيراً لا ينتشر في بعض الجهات العالمية فقد كان بسويسرا حتى قبل حين من الأمراض الموضعية الشائعة أما في أمريكا فلم يزل مستحكماً في مناطق البحيرات الكبيرة وفي ولايات الجبال الصخرية وولايي أوريكون ووشنطن .

والأكد أن اليود هو أهم العناصر الرئيسية الموجودة في الهرمون الدرقي ولما كانت كميته أقل من المعتاد في جميع الأحوال التي تصحب نضوب الغدة وضمورها إذن فالأرجح أن يكون سبب المرض المعروف بالكويتر البسيط هو نقصان في كمية اليود التي تحويها الأطعمة ومياه الشرب . وللتأكد من صحة هذه النظرية جمعت بعض الإحصائيات المهمة من تجارب أجريت على طالبات مدرسة في ولايتي (أكرون) و (أوهيو) في أمريكا، وتتلخص هذه التجارب بأن أعطي لكل طالبة غرامين من مركب (أيوديد الصوديوم) مرتين في السنة لمدة ثلاث سنوات فكانت النتيجة أن مرضت خمس طالبات من مجموع (٢١٩٠) طالبة بمرض نضوب معين الغدة الدرقية بينما أصيبت (٤٩٥) طالبة من مجموع (٢٣٠٥) لم تحصل ولا واحدة منهن شيئاً من هذا المركب لمدة عيناها .

والحقيقة أن كمية اليود التي يحتاجها الفرد حتى تقوم هذه الغدة بعملها خير قيام لا زالت مجهولة ولكن من المشاهد أن مجموع ما يتكون من الثايروكسين (الذي يتרכب من ٦٥٪ من اليود) في غدة درقية سالمة وزن (٢٥) غراماً لا يزيد عن ١٢ مليغم . واستعمال مليغم واحد من الثايروكسين ينشط التمثيل الغذائي بمقدار ٣٪ ويستمر لمدة ستة أسابيع ، وتناول هذا المقدار أسبوعياً يمنع

تضخم الغدة الدرقية في الكلاب كما أن استعمال أكثر من جزء واحد من اليود في (تريليون) جزء من ماء الشرب — أو ما يساوى من اليود (٧٥٠٠٠٠٠) كالون من الماء — كاف لمنع حصول الكويتر في الإنسان .

والمعروف أن الغدة الدرقية في الأطفال لا تحوى المقدار اللازم من اليود فالواجب إذن تغذية الطفل بالحليب لسد هذا النقص، ومن هذه الوجهة بفضل حليب الأم على حليب البقر، وقد أثبت العلامة (دفينبورت) أن قلة نشاط الغدد الدرقية في الجرذان يسبب عطلا في نمو صغارها .

هذا ويؤكد (بلومر) وغيره أن الغدة الدرقية في مرض الكويتر السام أو الكويتر الجحوظي تفرز افرازا هائلا مما يجعل الفرد عرضة للتهيج العصبي لأسفه الأسباب ، كما يصاب بالأرق الحاد والسهاد الذى لا مثيل له وعند ذاك تتمدد حدة العين وتبحظ مقلتها ، ومن هذا نعلم أن لبعض الحالات النفسية المصحوبة بتهيج وانفعال عصبيين وقلق زائد تأثيرا كبيرا على هذه الغدة مما يستفرضا للافراز الكثير .

(٣)

الغدد الدرقية الثانوية (برثايرويد) أو الغديداة نظيرة الدرقية .

وهذه هى النوع الثالث من الغدد الصم ذات التأثير الكبير فى جسم الانسان وسلوكه وهى إن استؤصلت تؤدى بكثير من الحيوانات إلى الموت ويرجع سبب ذلك إلى أمرين مهمين : —

أولها اضطراب فى استغلال عنصر الكالسيوم ، وثانيهما زيادة حساسية الجهاز العصبى المركزى . وكنتيجة للأمر الأول نجد أن صغار الحيوانات المقطوعة منها هذه الغدد لا تتكلس أسنانها مدة بقائها القصيرة ولا تنمو عظامها وبينما تكثر كمية الكالسيوم فى البول تنقص كميته فى الدم من ١٠ — ١١ مليغم / إلى ٧ مليغم / . ولعل هذا النقصان هو الأصل فى زيادة حساسية الجهاز العصبى ، ومن المحتمل أن يكون

سبب الإرتجاف والرعدة وتقبض العضلات وكل هذه الظواهر التي تعقب قطع هذه الغدد هو قلة الكالسيوم لا غير ، ولهذا السبب يرجح أكثر العلماء أن لهذه الغدد وافراداتها الداخلية أثرا كبيرا في تنظيم استغلال هذا العنصر وتمثيله في البدن وخاصة إذا علمنا أنه من السهل جدا إزالة كل الأعراض الناجمة ليس فقط بواسطة حقن خلاصة الدريقات الثانوية في الدم أو بنقل غدد جديدة محلها تؤخذ من حيوان آخر بل بمساعدة أملاح الكالسيوم أيضا فقد كان بوسع (در كستيت) أن يبقى كلابا قطعت من أجسامها الغدد الدرقية والدريقات الثانوية حية مدة طويلة وذلك بإطعامها كميات كبيرة من الملح المعروف بـ (لاكتيت الكالسيوم) .

وكما إزدادت الحاجة إلى الكالسيوم تتنبه هذه الغدد وتنشط للافراز ، فهي تتضخم مثلا في حالات الكساح والجل وعند تناول الأطعمة الفقيرة من هذا المعدن . وقد جرب العلامة (روس) ١٩٢٨ فوجد أن استئصال هذه الغدد يؤخر في التحام العظام المكسورة بزمان يطول عن المعتاد بأربعة أو خمسة أسابيع .

والمشهور أن لكل من زيت سمك الكدو (الاركوستيروول) عملا كبيرا ضد الكساح وهذا ناشئ — حسب رأى بعض الخبيرين — من وجود قابلية في مثل هذه المواد على تنشيط الدريقات الثانوية حتى أنه بإمكانها — كما أيدت التجارب التي أجراها العلامة (هس) على القردة — أن ترفع نسبة الكالسيوم في الدم حالة عدم وجوده في الأطعمة المأكولة مع المحافظة على هذه النسبة بشرط أن تكون الدريقات غير مقطوعة . واستطاع (كولب) أخيرا من عزل مادة من الغدد المذكورة يحتمل أن تكون هي الهرمون المختص لأنها أثبتت بعد حقنها في أجسام الكلاب زيادة في كمية الكالسيوم وأملاح الفوسفيت التي يحتويها الدم . ولا شك أن مثل هذه الأمور وكثيرا غيرها حمل البعض من العلماء على الاعتقاد بنظرية فعالية الهرمونات فينسب إليها كل التغيرات مهما كان نوعها ، ولكن هناك في الوقت عينه من يرجع السبب في نتائج استئصال هذه الغدد إلى فضلات المواد الأروتية

وتأثيرها التسممي ، وقد أعلن (كوندن) وجماعته أن وجود هذه الفضلات في الأحوال الإعتيادية قليل جداً غير أنها تزداد بصورة هائلة في حالة استئصال الدريقات الثانوية وفي حالات الإصابة بمرض كزاز الأطفال . وهناك من يقول إن لتفسيخ المواد في الأمعاء بواسطة عمل البكتريا تأثيراً قوياً من هذه الناحية وهو ما يفسر أسباب حدوث مثل هذه الرعشات عند تناول الأغذية الآزوتية بمدة أقصر مما لو كانت هذه الأغذية من الخضروات أو الحليب . وأثبت (ايفي) إن هذا الارتعاش لا يحصل إذا سحب استئصال الغدة قطع القولون أيضاً فأيد بذلك النظرية الأخيرة وهكذا أصبح من المعلوم أن للغدد الدرقية الثانوية عملاً مهماً في مقاومة السموم المتولدة في الجسم .

(٢)

الغدة التيموسية (السعترية) :

وهي الغدة الرابعة من الغدد الصم الموجودة في جسم الإنسان وتعرف غالباً بلوزة الصدر . تقع بين القسم الأعلى من عظم القص وغشاء القلب وهي تنمو بصورة مؤقتة وتحيط أثناء ذلك بالقصبة الهوائية فتضم منها منطقة كبيرة قد تسبب في الأطفال عند نموها الزائد صعوبة وضيق في التنفس يؤديان إلى الإختناق في بعض الأحيان . وتبلغ أشدها في السنة الرابعة عشرة والسادسة عشرة حيث تأخذ بعد ذلك في الضمور وتنعدم بالتدريج . ولا يعرف عنها حتى الآن مما يمكن الجزم فيه فالبعض يرى أن هناك ارتباطاً متيناً بين هذه الغدة ونشوء حجيرات الدم البيض والبعض يجد لها التأثير الكبير على نمو الأطفال وصحتهم بصورة عامة ، ولكن من المرجح أن يكون للغدة التيموسية علاقة وثيقة بالغدد التناسلية للذكور لأنها إذا استؤصلت تزيد في نمو الخصيتين كما أن اخفاء الذكر يعيق ضمور هذه الغدة ويساعد على توسعها وطول عمرها .

ولما لم يكن لخلاصة هذه الغدة عند حقنها أى تأثير على أعضاء الجسم المختلفة فمن المحتمل إذن أن لا يكون لها أى نوع من الإفرازات الداخلية المعروفة .

(٥)

الغدة النخامية

وتدعى (هايبوفايسز سربرى) وهى غدة صغيرة الحجم جداً تقع فى أسفل الدماغ فى منخفض عظمى هو العظم الوتدى فى الجمجمة يدعى بالحفرة النخامية أو السرج التركى (سيلا تورسيكا) الموجودة خلف تصالب العصب البصرى (أوبتك كايزما) مباشرة وترتبط بالدماغ بواسطة مربوط قصير من المادة السنجابية يدعى بقمع الدماغ (انفند بيولم) .

وتتكون الغدة النخامية من ثلاثة أجزاء :

- ١ — الجزء الأمامى وهو قسم غدى ينمو من اكتودرم الفم ويشبه الغدة الدرقية.
 - ٢ — الجزء الخلفى الأصغر ويتكون من ألياف وحجيرات الغراء العصبى (نيوروكليا فايبرز) وهى أنسجة تدعم الحجيرات والألياف العصبية الموجودة فى المخ والحبل الشوكى .
 - ٣ — الجزء الوسطى وله تقريباً نفس الخصائص الفسيولوجية للفص الخلفى .
- وللمشهور أن استئصال هذه الغدة ممت ولكن (دندى) و (رشيرت) أثبتا معا أن هذه الغدة ليست ضرورية للحياة .

الفص الأمامى :

أن استئصال هذا الجزء من الغدة له تأثير كبير على صغار الحيوان إذ يتوقف نموها وتضعف فيها الأنسجة العظمية وتنبت لها المجموعة الثانية للأسنان وهى الأسنان الدائمة مع بقاء الأسنان الموقته وتنحط قواها الذهنية وتعطل أعضاؤها التناسلية فلا تنمو إلا قليلا ويقل الاحتراق كثيراً فى كل من الصغار والمراهقين ولذا يزداد تراكم الشحوم فى الجسم . كما أن ضمور هذا الجزء من الغدة يسبب للأطفال قصر القامة وصغر الجسم وتراكم الشحوم مع بقاء الصفات التناسلية للطفولة إلى ما بعد البلوغ وفى بعض الأحيان يحدث الخبل والجنون .

أما وفرة الإفراز المتأثرة بتأثير التضخم وزيادة الفعالية فتسبب في عظام الصغار نمواً هائلاً حتى ليصبح الفرد مارداً أو عملاقاً ، وفي الوقت نفسه يبرز الفك الأسفل إلى الأمام وفي المراهقين الذين تصلبت فيهم الغضاريف تأخذ العظام وخاصة عظام الوجه أوضاعاً وهيئات غير عادية وتجمع هذه الأعراض المذكورة تحت عنوان مرض (أ كروجاليا أو مرض ماري) وبناء على نمو الأنسجة الليفيّة يشخّن الجلد وتنتفخ الأجفان والشفاة ويكثر نمو الشعر على الجلد .

وإذا حققت خلاصة هذا الفصل وهي بمحلول محلي في جسم حيوان صغير تدفع به إلى النمو السريع فقد أصبح وزن فار صغير بعد ٣٣٣ حقنة من هذه الخلاصة ٥٩٦ غراماً بينما كان وزن آخر من نفس الأم لم يطعم بهذه الحقن (٢٤٨) غراماً فقط . ووجد كذلك أن إطعام هذا الجزء من الغدة يزيد من فعالية الأعضاء التناسلية في بعض الحيوانات ومنها الفراخ . وقد أجرى (كلارك) تجارب مهمة على (٣٥) من الفراخ بأن أطعمها أجزاء هذا الفص فكانت النتيجة أن زاد عدد البيض من معدل (١٨) بيضة يومياً قبل الإطعام إلى (٣٣) بيضة بعد الإطعام . وعلى هذا الأساس أعلن (رونك) أن خلاصة هذا الجزء هو من الهرمونات التناسلية الرئيسية وأطلق عليها اسم (برولان) . نستنتج من كل ما تقدم أن الفص الأمامي من الغدة النخامية يتحكم بنمو العظم والأنسجة الرابطة والأعضاء التناسلية والمعروف أنه كان باستطاعة (روبرتس) أن يعزل من هذا الفص هرمونا مساعداً للنمو دعاه (تولين) .

الفص الخلفي :

ليس لاستئصال هذا الجزء من تأثير على الجسم ، وأن حقن خلاصته المسماة (بتوترين) أو (هايبوفايسن) يزيد من فعالية الجملة العضلية المسماة كما أنه يرفع من درجة الضغط الدموي لفعله على الأوعية الدموية والأوعية الشعرية وخاصة في الحى الجرحية (أو الرعشة المسببة عن الجروح) . وفضلاً عن ذلك فإنه يزيد من

فعالية القلب والجملة العضلية للأمعاء (الحركة المعوية) وحركة الرحم ، وتأثيره في الرحم كبير جدا حتى ولو كان في محلول نسبته ١ إلى (٢٠) ترليون جزء .
وقد سبق لنا أن عرفنا أن للأدرينالين تأثيرا شبيها بذلك في كثير من العضلات للمساء ولكن بينما كان فعل الأدرينالين في المادة الموجودة في أطراف الأعصاب السمبثاوية نجد أن البتوترون يفعل مباشرة على الألياف العضلية نفسها . وقد نجح (كام) في الحصول على مادتين رئيسيتين من هذا القصد .

- ١ — الفاهاييوفين — وهي مادة معجلة للولادة ومسهلة لها (او كسيتوسك) .
- ٢ — بيتاهاييوفين — وهي العامل في زيادة الضغط الدموي ، وإضافة إلى ذلك وجد عنصر ثالث من شأنه تنظيم الأبراز البولي وبحقته في جسم إنسان اعتيادي يقلل من كمية البول ، ولكن لم يعرف حتى الآن إذا كان هذا التأثير يصيب البول مباشرة أو يوقع على الماء ودرجة استفادة الأنسجة منه .

— ٦ —

الخصيتان

إن الغدد التناسلية في الذكور عبارة عن مجموعة من أنابيب ملتفة على بعضها تدعى (بالأنابيب البزيرية) يفصل الواحد عن الآخر غشاء سائب من الأنسجة الرابطة في غاية الرقة . وبضمنه كثير من أشباه الحجيرات الخاطية المتعددة الجوانب تدعى بالحجيرات الخللية وتقوم الخصيتان فضلا عن وظيفة توليد البذور التنوية بمهمة استخلاص بعض الإفرازات الداخلية التي عرف عن تأثيرها الكبير في أعضاء الجسم وأفعالها منذ أقدم الأزمنة .

إن تأثير استئصال الخصيتين كما يتوضح ذلك في الحيوانات الأهلية والإنسان كبير جداً ، فهو يمنع في صغار الحيوانات نمو الأعضاء التناسلية الثانوية التي منها

غدة البروستات والحويصلة المنوية ، ويعطل ظهور خصائصها وهى نمو اللحية وشعر العانة وتغير الصوت فى دور المراهقة ، وتبدل من ميزات الهيكل العظمي فتصبح العظام طويلة ورفيعة كما يشاهد اختفاء التغيرات النفسية التى تظهر عادة فى دور المراهقة ويفقد الجسم نشاطه الطبيعى .

أما إذا حصل الاختفاء فى الشباب حيث تكون الأعضاء التناسلية الثانوية قد ظهرت ونمت فلا نجد من التبدلات المهمة ما هو بارز للعيان إذ قد يمكن لبعض من هذه الأعضاء التى ذكرت آنفا أن تمر بأدوار الضمور لدرجة ما يصحب ذلك هبوط فى نسبة احتراق الأغذية مما يؤدى إلى حدوث السمنة .

وإذا نقلت خصية إلى جسم حيوان صغير قطعت منه خصيتاه الأصليتان لوجدنا أن حجيرات الأنابيب البزيرية التى تولد السبلمات أو الحيويينات المنوية يصيبها الضمور عاجلا أو آجلا ، أما الحجيرات الخللية فتبقى سليمة ويعقب كل ذلك نمو الخصائص التناسلية الثانوية . ولاحظ العلامة (لوى) أن إطعام مادة الخصية أو حقن خلاصتها فى جسم ديك مخصى تعطي نفس النتائج تماما . وشاهد أيضا أن ربط الوعاء الناقل يعقبه ضمور فى الأوعية البزيرية كلها ولا يؤثر على سلامة الحجيرات الخللية كما أنه لا يمتد الخصائص الجنسية ولا الرغبة إلى التناسل وجرب (ستيناخ) فنقل مبيضا بعملية جراحية إلى جسم (جرذ) ذكر مخصى فشاهد ظهور جميع الفرائز الجنسية للأنثى ، وعكس الأمر فنقل خصية إلى أنثى قطع عنها مبيضا فظهرت فيها جميع الفرائز الجنسية للذكر .

من كل هذا يتوضح لنا أن الخصيتين تفرزان إفرازاً داخلياً هو السبب فى كل هذه التغيرات الفسيولوجية والنفسية التى نلاحظ ظهورها فى جسم الذكر عند ما يقارب دور المراهقة . وهناك من يدعى أن حقن خلاصة الخصية يزيد فى القوة العضلية ويقلل من الانهالك والتعب كما يبين ذلك من آلة (الأرجوجراف) أو مقياس الحركات وهذا مادفع بجامعة إلى الاعتقاد بأن الشيخوخة أو الهرم تتسبب

عن فتور يصيب الأعضاء التناسلية. أما (كارلستون) فيقول أن ليس هناك بينة تثبت أن الإخصاء يقصر العمر أو يضعف النشاط الذهني والبدني اضعافاً مهماً. هذا وقد سبق أن ذكرنا شيئاً عن العلاقة الموجودة بين الغدد التناسلية وبعض الغدد الأخرى ذات الإفراز الداخلي كالغدد الكظرية والغدة التيموسية والغدة النخامية فعرفنا أنها تتضخم عند الإخصاء وتغير من نسبة إفرازها إلا الغدد الدرقية فإنها تصغر في الحجم وتكاد تنعدم. ونعود الآن فنذكر بهذه المناسبة تلك الصلة الوثيقة مبينين أن الغدد الصمّ في جسم الإنسان عمل مشترك في توليد الرسل الكيميائية التي لها الأثر الكبير في شخصية الإنسان وسلوكه وأخلاقه مما يجعل هذا الاشتراك ضروري لسلامة الصحة وتنظيم أفعال الأعضاء المختلفة، ولذا كان الضرر الذي يلحق بإحدى هاتئ الغدد داعياً لتغيير فعالية كل الغدد الأخرى تقريباً.

— ٧ —

المبيضات

أن للغدد التناسلية في الأنثى زيادة على وظيفتها الأصلية في توليد الحجيرات التناسلية مهمة توليد إفراز داخلي ويتوضح ذلك بما يعقب قطع المبيضين من تغيرات عديدة أهمها ما يلي :

١ — يؤدي استئصال المبيضين في الصغار إلى إيقاف نمو الرحم والغدد اللبنية وفي المراهق إلى ضمور وانحطاط هذه الأعضاء. أما في الفراخ فيقف نمو المبيض الأيمن ويبقى المبيض الأيسر فقط على نشاطه وذلك بعد دور النضوج. وقد قطع (بينويت) من صغار الفراخ المبيض الأيسر فوجد أن هذه الحيوانات لا تظهر عليها الخصائص التناسلية الثانوية للذكور كنمو الريش مثلاً ولكن شاهد أن المبيض الأيمن غير النامي كان قد تغير إلى خصية فعالة وتولدت فيها قناة لمل البزور المتوية إرتبطت بنهاية القناة الهضمية أو الفتحة الخارجية (المخرج).

٢ وينقطع الحيض أيضاً غير أنه يمكن — حسب رأى البعض — إزالة جميع ما يصحب هذا الاستئصال الصناعى من اضطرابات جسمية وعقلية بواسطة استعمال خلاصة المبيض أو بنقل مبيض سالم إلى جسم الأنثى التى قطع منها المبيضان .
٣ — ولما كان من الأكيد — كما حصل فى الذكور الخصية — هبوط نسبة احتراق الأغذية، ذإن يجب أن نتوقع حدوث السمنة فى هذه الحال أيضاً .
٤ — ومن المعلوم أن الحرارة أو الشبق (وهى شراهة النكاح) التى تحصل للإناث كثير من الحيوانات فى أدوار معلومة تتوقف — حسب رأى مارشال — على إفراز المبيض الداخلى ، فقد لوحظ أنه يحقن خلاصة المبيض من حيوان فى هذا الدور فى جسم حيوان آخر غير بالغ أو مقطوع منه المبيضين تبدو عليه هذه الظواهر بأسرع وقت .

وبناء على ما يقوله (فرنك) و (كوستافسن) أن هذا الهرمون التناسلى موجود فى المبيضين وفى الجسم الأصفر من المبيض (كوربوس لوتيوم) وفى المشيمة وهى عضو اتصال الجنين بالرحم وواسطة غذائه .

— ٨ —

الغدة الصنوبرية

وهى غدة صغيرة مخروطية الشكل تقع على الوجه الظهري من الدماغ وفى الطرف الأمامى منه بين الأجسام الرباعية أو الحذبات التوأمية الأربع (كوربورا كوادرى جمين) ، وتمر هذه الغدة فى السن السابعة بسلسلة من التغيرات حتى يصيبها أخيراً الضمور والانحطاط إلى أن يكون البلوغ فلا تبقى كما هى بل تظهر بصورة أنسجة ليفية فقط .

أما وظيفتها فلم تعرف بالضبط ولكنها عند ما تتضخم تسبب سرعة الشباب أو بكور العقل فيكمل نضوج القوى العقلية والتناسلية ، ومن هذا وغيره من البيانات (١٢ — ندى الفجر)

الأخرى استدلل العلماء على أن هرمون الغدة الصنوبرية يتحكم ولا شك بنمو الأعضاء التناسلية في الإنسان .

— ٩ —

الطحال

والطحال أكبر جميع الغدد الصمّ الموجودة في جسم الإنسان ومع ذلك فلم يثبت حتى الآن عما إذا كان يملك ذلك الإفراز الداخلى حقيقة حتى يمكن إدخاله ضمن هذا النوع من الغدد . ونسبت إليه وظائف عدة ليست بذات أهمية حيوية وخاصة وقد عرف أن استئصال الطحال لا يسبب أي اضطراب جسمي أو علة أخرى تضر بالصحة العامة . هذا عدا علمنا أن بعض الأطفال قد يولدون وهم فاقدون لهذه الغدة . والمشهور أن الطحال يقوم بمهمة تفتيت حبيرات الدم الحمر وتوليد مادة الصفراء الموجودة في مرارة الكبد ، أما في الجنين فيقوم هذا العضو بمهمة توليد هذه الحبيرات وهو على الدوام وفي كل الأدوار يبقى معملاً لتوليد كريات الدم البيض المفاوية . ومما يساعده على أداء وظائفه المذكورة هو نقص في تركيب وريداته بحيث جعل للدم المجال الكافي للاتصال بصورة دائمية مع لب الطحال وهي المادة التي تملأ تجاويفه من كل جهاته . وهناك من يرى فيه آلة دفاع ضد إصابة بعض الأمراض البكتيرية فإذا استئصل أصبح الحيوان عاجزاً عن توليد المناعة في جسمه ضد سموم الكزاز (التيتانوس) مثلاً ، هذا فضلاً عما لحبيراته من المقدرة التامة لدفع كثير من المواد السامة التي قد توجد في الدورة الدموية .

ويؤكد (باركر وفت) عدم جواز إشرافه ضمن الغدد الصمّ الأخرى بل إدخاله ضمن أقسام الجهاز الدموي لأنه يعتبر بمساعدة تركيبه الاسفنجي وامتلاكه حويصلاته لكثير من ألياف العضلات الملساء كمخزن للدم ، وهو في الأحوال الاعتيادية قد يخزن تقريباً ربع كمية الدم الموجودة في الجسم ، أما في الأحوال الإضطرابية أو الفجائية

أى عند ابتلاء الإنسان بنزيف دموى و (الأنوكسيا) أو نقصان تهوية الدم والإجهاد العضلى فإن الطحال يدفع بجميع ما يحويه من السكريات الحمر إلى مجرى الدم وحينذاك يصغر حجمه بتقلص عضلاته على جدران الحويصلات إلى نصف أو ثلث حجمه الاعتيادى. وقد يسبب النظر إلى القط أو شمها صغراً فى حجم طحال الكلب وماعدا ذلك فله طحال حركة إنقباض وانبساط متتاليين بمعدل مرة واحدة فى الدقيقة .

— ١٠ —

البنكرياس

وهى غدة يؤثر إفرازها على إستحالة المواد النشوية وتنظيم استغلال السكر من قبل الدم . وإذا استؤصلت من شخص فسرعان ما يصاب بداء البول السكرى البنكرياسى الذى يعقبه الموت لاحتالة بعد مضي بضعة أسابيع وذلك لازدياد كمية السكر فى الدم وعجز الأنسجة عن الإستفادة بصورة منتظمة من سكر العنب (الدكستروز) ويتلخص ذلك بأن ما يأتى الى الدم من المواد النشوية والسكرية التى تستخلص من الطعام ومن المواد البروتينية (الزلايات) تبقى فيه ولا يتم استهلاكها أو تخزينها كما هو المطلوب .

أما السرفيا تقوم به غدة البنكرياس من عمل أثناء هذه التغيرات التى تطرأ على المواد الغذائية فقد اكتشف بواسطة العلامتين (بنتنج) و (بيست) بأن نجاحهما فى الحصول على مادة من البنكرياس دعيت بـ (الانسولين) وعدم وجودها هو الأصل فى زيادة كمية السكر فى الدم ومن ثم الإصابة بداء البول السكرى البنكرياسى ، وأن استعمال هذه المادة لانسان تستأصل منه الغدة وحيوان يشكو من علة فيها ومن مرض البول السكرى يعيد للجسم القوة فى تحويل سكر العنب إلى النشاء الحيوانى أو (الكلايكوجين) ويساعد على إحراقه وهذا يعنى تراكم النشاء الحيوانى فى حجيرات الكبد وتقليل كمية السكر فى الدم وبذا يقطع الداء ويشفى المصاب .

ومن كل ما تقدم نجد أن البنكرياس وظيفتين أساسيتين : فهو يفرز عصير البنكرياس الذي يحمل بواسطة القناة البنكرياسية إلى الأمعاء الدقيقة وهذا هو الإفراز الخارجى ، وإضافة على ذلك فإن هناك فى باطن الغدة كتلا صغيرة من الحجيرات المعروفة باسم جزر (لانكير هانز) لا تتصل بالقناة البنكرياسية ولا تكون العصير البنكرياسى المعروف ولكنها تولد فيها هرمون الأنسولين الذى يندفع مباشرة فى الدورة الدموية ويسوق تأثيراته فى الأعضاء. ومن هذا نعلم أن البنكرياس غدة مركبة شبيهة بالغدد اللعابية تماما .

وهنا لابد أن نذكر أن (ايفى) و (فاريل) تمكنا من نقل جزء من البنكرياس إلى الغدد البنية فعاشت حجيراته وولدت الأنسولين كالاعتاد فنعت تراكم السكر فى الدم . أما العلامة (آبل) فقد فاز سنة ١٩٢٦ لأول مرة من تحضير الأنسولين على شكل بلورات .

القِسْمُ الثَّانِي

اجتماع

هنا النهر صَخَابُ الموج جِيَّاش
الزبد ، ينساب في جوف الوادي
ثم يضل في ظلام البعد
الزيات

من كل واحد من الفكرين المتكاملين في نفسه
 التي جعلت واسطة اتصال الفكر بشيء في الوجود
 وخاصة على تلك التي جعلت واسطة اتصال
 من الفكرين المتكاملين في نفسه ولا تكون
 الفكرين المتكاملين في نفسه من الفكرين المتكاملين في نفسه
 فيكون الفكرين المتكاملين في نفسه من الفكرين المتكاملين في نفسه

في اثبات حقيقة

في الفقه الفقهية والفقهاء الفقهية
 في الفقه الفقهية (أو الفقه الفقهية) في الفقه الفقهية
 على شكل الفقه الفقهية

في الفقه

في الفقه الفقهية
 في الفقه الفقهية
 في الفقه الفقهية
 في الفقه الفقهية

وحي البيت

« تتمركز قوة الأمة في البيت
المنظم العزيز الأركان » .

إن عناية الأبوين بالنسل جليلة القدر حتى بين الحيوانات غير العاقلة، ولكنها تتسامى في العائلة البشرية إلى أجلّ المراتب. وكما لا يخفى أن النوع الإنساني بحاجة شديدة إلى هذه العناية أكثر بكثير مما تتطلبه بقية الحيوانات، لأن دور العجز والاستعانة ذو أمد طويل في الطفل بينما هو عديم أو قصير في فراخ الحيوانات الأخرى. لنرجع البصر إلى الفراشة في مستهل ظهورها من الزيزة نجدتها كاملة النمو وفي مقدورها أن تجهز نفسها بالغذاء والمأوى، والزاحفات معظمها يشبه أبويها في كل شيء سوى ما يتباين به في حجم الجسم، ومن الصعوبة أن نشاهد فيها دوراً هو دور العالقة والركون. أما الضفادع والعلاجم (وهي ضفادع سامة عديمة الذنب) ونظائرها من الحيوانات فتصل إلى دور نموها الكامل بظرف ثلاثة إلى تسعة أشهر، وقليل جداً من الطيور لا يحتاج إلا إلى زمن يتراوح بين ثلاثة إلى أربعة أعوام بينما الأشبال وفراخ النور لا يزيد دورها المذكور عن الخمسة أعوام.

ولدى المقارنة مع الحيوانات غير العاقلة نجد أن الوليد عاجز بالكلية عن أن يقوم بأود نفسه وهو بحاجة إلى المعونة التامة كيف لا ودماغه يكاد يخلو من الذكاء وجسمه تعوزه القوة والنشاط. والمعروف عند الإخصائيين في عناية الأطفال: أن الرضيع من أصعب الحيوانات في العالم من وجهة التنشئة والتربية، وهو كذلك فالوليد يعتمد على أمه لبضعة أشهر في كل أموره ثم يبقى بعدها عاماً أو أكثر قبل أن يستطيع الحبو والنطق، فإذا فطم ودرج فيضل بعدها زمناً ليس بالقصير حتى يتمكن أن يرتدى ثوبه بيده، وهو كطفل لا يميز في الغالب الخطر، وإن وهب معرفته نراه يعجز عن ردئه أو التغلب عليه ومن هنا لا بد أن يجتاز سنوات قبل أن يكون في مقدوره تجهيز نفسه بالغذاء والمأوى والملبس ولكنه إن بلغ الخامسة عشرة أو العشرين من عمره أي إلى أن يمر من دور المراهقة ودور الفتوة نراه يعتمد جزءاً أو كلاً على والديه أو أفراد آخرين لتموينه بمطالبه وحاجياته. إن هذه المدة الطويلة التي تصرف في الركون إلى الغير

تتمير بها العائلة البشرية عن بقية العوائل الحيوانية وتجعل لها أهمية فريدة في بابها .
والطفل يتعلم في مدي هذه السنوات أموراً لا بد من ذكرها :

١ — اللغة :

يتعلم الإنسان وهو وسط عائلته وفي مستهل حياته الكلام بصورة عملية ، ولما كان معظمنا لا يستطيع أن يتذكر الوقت الذي لم نكن فيه قادرين على الكلام نساق إلى الظن بأن اللغة أمر ليس بذي بال ولكن ذلك غير صحيح فلو عزمنا على إتقان إحدى اللغات الأجنبية أو حاولنا مطالعة قصة من القصص الممتعة التي تبحث عن مجازفات بعض العميان أو الصم الذين استطاعوا دراسة لغة ما بطريقة من الطرق فسرعان ما يتبادر إلى ذهننا أهمية هذا التعليم في الحال .

والواقع ونفس الأمر أن أهمية اللغة أو أى واسطة أخرى من شأنها أن تبعث التفاهم بين الأفراد وتسهل تبادل الآراء بينهم لا يمكن أن تقدر أو تقاس بشيء .
لنفرض أن عالماً لا يستطيع سكاكه التفاهم بلغة ما مع بعضهم البعض أفلا يصبح من العسير أن نذلل الناس التعاون في أمر معاشهم في نزولهم وترحالهم ، في قعودهم وقيامهم ، في لهوهم وجدهم . وإذن فما قيمة حياة الإنسان في بيئة كهذه أو عيشة تنقضى وفقاً لمثل هذه الظروف ؟ عجباً أكان للتقدم شأن يذكر ؟ كلا ! لأن كل جيل سوف لا يعثر على ما أنتجته الأجيال المندثرة من عمل وما اكتشفته من علم واختراع ، وهو يضطر والحالة هذه إلى أن يشرع في البناء حيث ابتدأ الجيل الذي مضى قبله ولضاعت الجهود هباءً واندثرت المعالم كأن لم تكن . إذ بدون قوة المبادلة في الآراء يضطر الإنسان إلى أن يعيش — إن استطاع — مستقلاً بنفسه وحينئذ لا يمكن للذهن أن يتصور حياة جماعية بصورة مطلقة لأن التعاون لا يتم بدون التفاهم .

وبعد كل هذا نقول إن اللغة تعلم مبدئياً — إلا ما ندر — تحت ظلال العائلة والطفل بطبيعة الحال قاصر بآدى رأى عن أن يسأل عما يعن له ولا يفهم ما تحدث به أمه بلسانها ، غير أنه بعد تجارب متتالية يكتشف أن الصراخ يجلب

له ما يريد من طعام أو شراب أو مداعبة أو هزة في المهد، ثم يبدأ بالتدريج بالمناداة على أى شكل اتفق حسب ما تدفعه إليه قوة المحاكاة للأصوات التى يسمعها فى البيت من شفاه أمه أو أبيه أو إخوته أو أخواته وهكذا يتسنى زمام اللغة شيئاً فشيئاً وبهذه الطريقة يصبح البيت المعلم الأول الذى قام بأعظم عمل تربوى نحو الطفل وهو هدايته إلى إتقان اللغة وتفهم مقاصدها .

٢ — المعتقدات والذوق :

إن معظم المعتقدات والأذواق التى يكتسبها الإنسان مصدرها العائلة، فإيرغب فيه الأب أو الأم — مع بعض الفروق الطفيفة وبالأخص ما يقتضيه السن التى يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار — يرغب فيه أطفالها بصورة عامة. وإن وجد فى البيت من الوالد والولد من له ميل مستمر فى المطالعة بالكتب والمجلات والصحف فالطفل الناشئ بينهم يتخذ من هذا خصلة أو عادة تجره إلى مثل ذلك بالأكثر ولا شك أن إهتمام الأبوين بالأحاديث السياسية أو الدينية أو الرياضية أو الإجتماعية يعين لمدي بعيد — إلا ماشذ — ميل الأطفال إليه أيضاً لأن تأثير الوالدين الدائم لسنين غير قليلة ومحبة الأطفال لهم وإعجابهم الكبير بهم كل هذا يسهل فى تلك النفوس الطرية انطباع ما يشاهد أو يسمع أو يوحى إليها بأقصر وقت ممكن فتقبل تلك المعتقدات وهذه الأذواق والميول فتندس فيها عن شعور أو بدون شعور فإذا بالأطفال أولاد هذا البيت لا غيره .

٣ — عادة العمل :

إن عادة العمل والرغبة فيه أو عنه تتأثرتان عن البيت فإما أن يكون الطفل بعدها مجذّب ذابّ عن نفسه، وإما كسول معرض عنها فالطفل الذى يدرّب على إنجاز بعض الأشغال الملائمة فيما يتعلق بالبيت تخلق فيه طبعاً من شأنه محبة العمل ينذر أن يفقده الطفل فى مستقبل أيامه. أما الذى يعود على القيام ببعض الأمور أو الواجبات

بنوبات غير منتظمة أو ذاك الذى يقوم بإنجازها بغتة فإنه يملك لنفسه غالباً عادة الكسل التى يصعب الإفلات منها عندما يشب ويقوى .

٤ — رأى تجاه الحكومة :

وفى البيت أيضاً يقتبس الطفل روح المحبة للسلطة أو الكره لها فالولد الذى يتعلم إطاعة الأبوين نادراً ما يخرج عن النظام فى مدرسته أو يقاوم القوانين الاجتماعية فيما بعد وإذن فليس فيه من الشعب والعصيان ما يستدعى زجه فى ظلمات السجون .

٥ — التفريق بين الحق والباطل :

وهذا أيضاً مما نحصل عليه فى حياتنا العائلية الأولى ، وهو لا يقتصر على تفهم المثل العليا كإنكار الذات والأمانة والبسالة والطهارة والإخلاص عن طريق الأوامر والتقصص والأحاديث فقط بل إنه يعطى عن طرق شتى أعمق أثراً لمعرفة النافع والضار إجمالاً حيث تلقن كثير من الأمور وتشرب فى نفوس الأطفال بما تسره اليهم الحياة اليومية التى يعيشها الأب والأم والأخوات والإخوة الكبار وحيثما وجدنا عدداً من الأطفال والأولاد فى البيت الواحد تيسر لهم أن يمتلكوا عادات من شأنها التفريق بين الباطل والحق نتيجة التضحية التى يؤديها الواحد للآخر حفظاً لرعاية الحقوق التى لكل منهم وهى ما تدفعهم إليها الضرورة حتماً .

٦ — الدين :

وهو عقائد أعمق انطبعا من غيرها يتشرب أصولها كل إنسان من عائلته التى يتربى فيها وقد يندر أن نجد زاهدا ورعا صادق النية فيما يملك من دين كان قد نشأ فى بيت لا يفهم من هذه شيئا ، غير أنه ليس بالمستغرب أن يشذ الابن أو البنت عن ما لقنا به من العقائد الدينية أيام الطفولة ولكن مهما كان من ذلك فالتأثير يبقى خفياً وقد تتقلب به الظروف فيجرّ بصاحبه أخيراً إلى حظيرة الإيمان الأولى .

إن الأمور اللطيفة في الحياة يندر أن تقاس بواسطة المعايير المعروفة من شريط المساحة أو كفتي الميزان ، وليس هناك عالم في مقدوره أن يعين ما يصيب الإنسان من بهجة وانتعاش عندما يشم عبير زهرة زكية أو يشاهد جمال غروب الشمس عند الأصيل أو يتطلع إلى هيبية النجوم في صفحة السماء الزرقاء في ليلة طاب نسيمها وصفي جوها ومثل هذا وذاك أضاع الشعراء والكتاب والمصورون جهودهم الفكرية لتصوير أو وصف المعنى الشعري للبيت .

فاليبت تدخل في تكوينه عناصر مادية هي في غاية اللطافة تفوق بلطفها مادة الأحلام ، لأن الرغبة في البيت عاطفية أكثر مما هي عقلية أو تفكيرية . والبيت بقعة من الأرض يتعلق بها الإنسان تعلقا نفسيا وفيها يطمئن وإليها يرغب وله كل الحق أن يأوى إليها لأنها ملكه وليس لأحد معارضته فيها ، وهذه البذرة هي منشأ الشعور الوطني الصادق تجاه بلاده ، وبالأخص في أوقات الخطر الداهم وألدى المسكوث في أرض غريبة . ولم لا يحسب البيت وطن الولادة للمرء ؟ بلى ! وهو باتصاله الوثيق مع الحياة العائلية تتمخض عنه كلمة معنوية سامية تستميل إليها النفس ويفيض بها الشعور . والحياة العائلية ينبوع البيت الأصلي وعينه الصافية وطوقه الزاهي وحول هذا الطوق وعليه تلوذ جميع الذكريات السالفة وفيه تنشأ الصحبة الودية الخالصة والألفة والعطف الذين ليس وراءهما مثيل أقوى وأشد .

على أن هناك وبالأسف بعض العائلات تغلب فيها الجو العكر والصفاء المدنس فسادت فيها الأنانية والنزاع بدلا من الكرم والمحبة ، وهي حالة تدفع بأفراد العائلة أحيانا للبحث عن بيئة أهنأ وأسعد مما هم فيه . ولكن مع هذا وبالرغم من كل هذه الدوافع القهّارة نجد أن ذكريات السوء تنمحي بمرور الزمن ولا يبقى عن البيت في الذهن إلا مطاب وحلى من ذكرى ، وإذا كان الحنين للبيت أكيدا في مثل هذه الظروف الشاذة فليس من الصحيح أن نعتبر وحى البيت مبالغ فيه أو أن ننقص من درجته وإذن فالحياة العائلية هي مركز الحب والهناء .

في البيت تتجلى المثل العليا للمحبة الخالصة بين أفراد العائلة التي يضمها بين جوانحه ، فالأبوان همهما الاعتناء بالأطفال لا يؤخرهما عن هذا شاغل أو واجب وهؤلاء بدورهم يقبلون على هذا العطف إقبالا وترى الأبناء والبنات مغمورين بهذه الرفقة السامية والكل ينظر إلى من حوله كأعز صديق وهبته الطبيعة إليه وأخلصته لنفسه ، وهكذا يصبح البيت بنظر الجميع أسعد وأرق وأجمل بقعة حواها هذا العالم الفسيح .

وقد يظن البعض أنه للحصول على مثل هذا النموذج من البيوت يلزم على المرء أن يمتلك دارا جميلة حوت على جميع أسباب الراحة والرفاء ، ولكن مهلا فالبيت Home لا يعني الدار House ولو أنه يذكر الأول أحيانا بما يراى به الثاني . والمعروف أن كثيرا من الناس يتعلق في بعض أدوار حياته ببعض الأماكن أو الأشياء نظرا إلى اتصالها الوثيق بحوادث أو أشخاص أخلت لهم الذاكرة محلا في نفس صاحبها ، وقد يتطرف به الأمر فيعشق أركان المنزل الذي كان يشغله ، إلا أنه فضلا عن كل هذا الإيلاف الفكري نجد أن البيت والدار كل في رتبة مستقلة تتباين الواحدة عن الأخرى ، فإن صادف أن انتقلت العائلة اضطرابا من دار إلى آخر ، أو من بقعة إلى ثانية انتقل البيت معها أيضا ولو أبقى ذلك في نفوس أفرادها حبا للمنزل المتروك . وميزات المسكن سواء كان قصرا أو كوخا قلما تدخل في اعتباره بيتا أولا فهناك أناس يسكنون الصروح ولا يفهمون ما تعنى كلمة البيت وعلى النقيض نشاهد كثيرا ممن يقبع في كهوف أو أكواخ حقيرة وهم في مرتع خصيب تظللهم أجنحة الرحمة والسلام .

وإليك ما تقوله فتاة في إحدى المدارس الرسمية الأمريكية عن المثل الكامل للبيت الذي تحبه وتختاره دون سواء وقد ضمننت فكرتها هذه في قطعة إنشائية قدمتها إلى المعلمة كواجب أسبوعي :

« لقد كانت ليلة باردة من ليالى شهر (شباط) والريح تعصف بشدة وتولول

بفضب كأنها جبار ينذر الناس بالقناء وهي بهبوبها المزعج تهز الأشجار هزاً عنيفاً
وتجعلها تأنّ وتتأوه من ضرباتها القوية المتوالية .

وقد التجأنا آنئذ في غرفتنا الصغيرة حيث كان الهواء دافئاً وسا كننا واللهيب
يتصاعد من الموقد فيرسل بأضلاله المرتعشة على جدران الغرفة فيمسها مساً ثم يختفي
ليظهر الكرة ممتداً على الركن الثاني ، هنا جلست الأم تخطط ثوباً وكأن صوت
إبرتها الموزون أودع في المكان همساً موسيقياً حبيب للأب الحنون الكرى فأمال
برأسه على وجه الصحيفة التي كان يطالعها وراح يتنفس تنفساً بطيئاً بكل هدوء
وهناك في الزاوية اليسرى جلست شقيقتي تطالع قصة ممتعة عن مجازفات (بولي)
في المدرسة الداخلية وهي لا تنفك تبعث بالحسرة والابتسامة بين آن وآخر كلما
أصاب من القصة سهماً يفرحها أو يحزنها كيفما اتفق . أما أنا فقد وضعت رأسي على
يدي واتكأت على منضدة صغيرة أمامي وعيناي لا تنصرفان عن أسنة اللهيب
المنبثة من الموقد ورحت في عالم من الخيال بديع وذهبت فيه ألتبس لنفسي
المثل الأعلى للبيت .

أقت لنفسي كوخاً صغيراً في لسان اللهيب الراقص ولكنه سرعان ما تهدم
فعدت أنشئ كوخاً ثانياً أجمل وأحب إليّ من الأول غير أنه مال أيضاً ، وهكذا
بنيت وقوضت بيوتاً كثيرة هنا وهناك في أربعة أركان المعنورة ، إلا أنني رجعت
أخيراً واخترت قصراً شامخاً وسط جنة النخيل النضرة على ضفاف الينبوع البارد
العذب ولكنه امتنع على فجأة أثر تلفتي يمنة ويسرة بأطراف الغرفة الدافئة الصغيرة
فما كان مني إلا أن أتبعته بزفرة حارة وحسرة عميقة أبانت لي أن ما ذهبت إليه
ساعية بالخيال وراءه في جهات العالم الواسع يتفق وما كان لدى فعلا في غرفتنا
الصغيرة ، وإذن ما الفرق بين ذاك وهذا الذي ضمنا أنا وأهلي منذ أن خلقنا سوية
تلك حقيقة عرفها قبلي كثير من الناس وقد توصلت إليها آنئذ فأرشدتني إلى أن
المثل الأعلى للبيت الذي أرتاح إليه هو الذي يضمني وهؤلاء قريري العين ولا
أبالي بعدئذ إن كان في الشرق أو في الغرب ، في الشمال أو في الجنوب .

وماذا نعني بالأخطار التي تحيق بالبيت ؟ وما هي ياتري ؟ وما هي أحسن السبل التي تميمتها ؟ إن كل شيء يعيق أو يمنع العائلة عن القيام بواجبها يعد خطراً للبيت وقد يهدد سلامة الأمة والمجتمع وخصوصاً إن استشرى وفشا . وهذه الأخطار قد لا تكون بدرجة تمزق البيت فلا تبقى عليه ولا تذر إلا أن كل أمر من شأنه أن يتدخل بواجبات العائلة يعد خطراً لخير البيت وراحة أهله ويكون سبباً في إقلاق كل من يهمه صالح المجتمع والحياة العائلية . وأشهر هذه الأخطار ما يلي :

١ — المرض أو الوفاة :

وهو الخطر الأول الذي يحيق بالبيت فيسلب هناءه ويزعزع أركانها ، والمرض يكون أبلي إن كان علة مزمنة مصاباً بها أحد الأبوين مثلاً وقد تؤدي إلى وفاته . وأيهما كان المرض أو الوفاة فإن الأولاد يخسرون به الاعتناء والوالدي اللامزم ، فموت الأب مثلاً يترك العائلة غالباً محتاجة لكثير من المرافق الضرورية وعندئذ تضطر الأم إلى ترك الدار لمزاولة بعض الأعمال في إحدى المعامل أو الخازن أو الحوانيت أو الدور . وفي هذا الحين يضل الأولاد دون مشرف أو مرشد وإذئذ لقد زال الضبط واختفت العناية وأخذ الأولاد يتسللون في الطرقات والأزقة والمسالك غير المحمودة يعبثون ويلعبون كيف شاءت أهواؤهم ، ومن ثم يتعرضون للاغراء والأخطار على الدوام وأنئذ يتملكون عادات رديئة تتأصل فيهم ولا يمكن تهذيبها بعدئذ في المدرسة أو غيرها . أما موت الأم المبكر فضياع للبيت لا نستطيع تعويضه وكيفما كان الاعتناء بالأولاد من قبل الآخرين فالمعروف لدى الجميع أن لا أحد يستطيع أن يحل محل الأم .

ولا شك أن المرض أو الوفاة لا يمكن ردعهما دائماً إلا أنه لا ينكر أن وسائل الوقاية الصحية وطرق المعالجة الصحيحة قد تؤدي بالأكثر إلى الشفاء والسلامة

وهناك من سلك مسلكاً آخر وهو التأمين على الحياة لدى إحدى الشركات المعروفة ، وليس غرضه من هذا إلا صيانة العائلة وانتشالها من الفاقة حتى في حالات الوفاة . وذهبت بعض الولايات في الجمهورية الأمريكية إلى أبعد من هذا ، فوضعت قانوناً جليل القدر أريد من تشريعه إبعاد الأرملة عن العمل خارج الدار ودعته بقانون (تقاعد الأمهات) وبه ضمنت للأم المحتاجة المتوفى عنها زوجها استلام مبلغ معين من المال في نهاية كل أسبوع تعيل به أطفالها أو نفسها عند الشيخوخة أو الكبر . ومع هذا فإن إطاعة القوانين الصحية والوقاية من الأمراض الصناعية أو غيرها والترفيه عن حالة العمال وتحسين العمل ، وإلى غير ذلك من أمور وقوانين نافعة ومواقفة للصالح العام تضمن صيانة البيت مدى بعيد وتحفظه ضد الأخطار الناشئة من الأمراض والوفيات .

٢ - عدم استملاك الدور :

وهذا خطر آخر يدهم البيت ويقلقه وملخصه : أن القليل من الناس في المدن الكبيرة من يملك المنازل التي يسكنها ، ومن الصعب ملافاة هذا النقص بطريقة من الطرق ، غير أنه من الحق التساؤل عما إذا كان لزاماً لكل الناس أن يمتلكوا دوراً خاصة بهم يسكنون فيها حتى ولو كان في إمكانهم إرجاع ملكيتها إليهم . فالمشاهد أن معظم العمال في المدن الصناعية ينظر إلى هذا الاستملاك كعقبة في سبيل تقدمه ، إذ كثيراً ما صادف العمال أزمات تخفض فيها الأجور وتعرض عندها شروط غير مناسبة لهذا وذاك يضطرون إلى الانتقال إلى جهة أخرى يحصلون فيها على أجره أعلى وشروط للعمل أوفق وبذا يقع مالك الدار منهم في ورطة قد تؤخره عن الأقدام إلى غيره في أغلب الأحيان ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المنزل الذي لم تتم ملكيته لساكنيه يفقد من بينهم إحدى الروابط القوية التي تضم أعضائه لبعضهم وإذن فحياة البيت ناقصة وهي أضعف مما يجب أن تكون ، هذا والإنسان بطبعه يحن إلى البيت الذي ولد فيه وعاش فيه أبواه وذووه وهو ملك لهم لعدة أجيال .

٣ — العمل خارج الدار :

قلنا سابقاً إن أكثر السكان في المدن الكبيرة لا يمتلكون الدور وهذا نقص بارز يضاف إليه أنهم عادوا فأتخذوا مراكز حرفهم خارجها أيضاً . لقد كان البيت مركز الصناعة حتى قبل قرن ونصف تقريباً ، ففيه كانت المغازل والمناول أشبه بالمهود ولم يكن على الأب وهو المالك في ذلك الحين لزمام وقته إذا طالت به ساعات العمل أو سأم الإستممرار فيه لصعوبته إلا أن يترك منزله أو حانوته حراً ليلهو بعض وقته في الحديقة أو الإصطبل ، وهو بوجوده في الدار حاضر للإسداء النصيحة وتقديم المشورة لأبنائه والإشراف على إدارتهم وتوجيههم للعمل حسبما يريد ، وعلى هذا يتعلم الأولاد والبنات من آبائهم وأمهاتهم الحرفة على أصح وجوها فيزاولونها ويتعرفون طرق التفريق بين الصحيح والخطأ عملياً .

أما اليوم ، وما قد جلب اليوم للناس ؟ ! فيندر وجود ذلك وبالأخص في المدن الكبيرة ، لأن الانقلاب الصناعي طغى على ما أنتجه أو تنتجه الدور واستبدل بها منتجات المؤسسات الكبيرة التي دعيت بالمعامل حيث تستخدم الألوف من الناس لهذا الغرض ، فإذا بالوالد وأبنائه الكبار يتركون الدار عاجلاً أثر تناول الفطور ميممين شطر الطاحونة أو المصنع أو الدائرة ولا يرجعون غالباً إلى مقرهم إلا عند آخر النهار ، أما النساء فقد سلكن ويال للأسف السبيل عينه ورحن لأعمالهن خارج المنزل تاركين شؤونهن لمن يقوم مقامهن مأجوراً . أما تأثير كل هذا على البيت فواضح لدى عينين فبدون اعتناء الأم وأشرف الأب يتسلل الضغار في فرصهم إلى الطرقات والأزقة يقضون فيها أوقاتهم ويلهون مع هذا وذلك ولضيق الوقت لا يكون في مقدور الأبوين أن يخلقا من المنزل ومن يأوى إليه بيتاً معموراً بالصالح معموراً بالهناء . وهكذا نرى العمل خارج الدار قد هدد البيت وسلامته ، وبدون أن تأخذ المدارس والجوامع على عاتقها مهمة العائلة في سابق عهدها لا يمكن

أن يرد للبيت عزه ؛ وسوف يلاقى المجتمع من جراء ذلك صعوبات ومشاكل لاحدها .

٤ - الفقر :

وهو الخطر الرابع الذى يهدد سلامة البيت ويورده حتفه : فالأجور الزهيدة وتناول ما لا يكفى من الأطعمة المغذية والعوارض المنكبة والحوادث الحزنة والضعف الصحى والكسل والتراخى كلها أسباب تلزم كثيراً من الآباء أن لا يقوموا بما هو مفروض عليهم تجاه الأبناء والدخل الشهري الزهيد والأرباح البسيطة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فيبقى الأولاد ناقصي التهذيب والهداية وإذن فالفقر عقبة فى سبيل تقدم العائلة ونشاطها .

٥ - الملاهى التجارية :

كان البيت فيما مضى مركز اللهو والمرح للناس فيه تعقد الاجتماعات وتدعى الولائم أمام الأطفال والشبان فيتهدبون ويتعلمون ويرشدون ويكتسبون أما اليوم وقد أخذ أعضاء العائلة بالحضور فى المنزل فى آخر ساعات النهار نراهم إن لم يكن قد أخذ منهم التعب مأخذاً بحيث يضطرون إلى الاضطجاع بعد تناول العشاء بمدة وجيزة يتطلبون اللهو فى دور السينما والمقاهى أو غيرها بعيداً عن البيت .

٦ - الطلاق :

وهو خطر كثير الأهمية بعيد الأثر ويختلف عما تقدم بكونه نتيجة لبعض الأخطار السالفة الذكر أو كلها معاً ؛ ومع هذا فهو خطر خطير يفصم عروة البيت ويجعله خراباً يبابا . وبينما لا يكون للطلاق أهمية تذكر عند عدم وجود ذرية للطرفين نجده بالعكس إن كان لهم منها شئ قوى الأثر بعيد الغور فى تأخير الأولاد على أنه قد يكون مستحسنًا - وهو الأكيد - فيما إذا لم يكن بين

الطرفين وفاق يجمعهم ويلم شعتهم ، وعلى كل ففي التساهل من هذا وذاك ما يعيق
عن الأقدام على هذا الأمر وقد يزيل من القلوب ما كدرها فيصفو الجو
وتلتئم الوحدة .

إن الأخطار التي تهدد سلامة البيت كثيرة ولكن لتذكر بأن كل ما نقوم
به من تضحية في سبيل تحسين الحال هو ذو قيمة مهما كان وزنها ، فالجتماع يرتكز
على أساسه الوحيد وهو العائلة وهذه بدورها تستند إلى البيت في سلامتها
وهناؤها .

البَيْتُ فِي نَظَرِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ

« البيت الذي يركن إلى العلم فيكتسب منه
ويقتنع بما يكتسب إنما هو جنة الخلد . »

ساعدنا العلم بطرق شتى على تحسين المعيشة ورفع مستواها ولا يزال يكشف لنا ما يعيننا على مجابهة مشاكل الحياة بصورة عامة . وعلم الاجتماع أرشد الناس إلى سبيلين مهمين وهما : طريقة التعاون بين الأفراد والجماعات ثم كيفية تنفيذ هذا التعاون بأفضل الوسائل . ولعل أحوج الأمكنة إلى هذا العلم هو البيت فقيه رجال ونساء وشبان وأطفال كباراً وصغاراً عليهم أن يتدربوا على العيش سوياً بكل راحة واطمئنان ، وإن لم يتخذوا من هذا العلم هادياً لهم فإنهم ولا شك يضل بهم السير ويضطرب أمامهم الطريق ويتجرعوا آلاماً لا حد لها كما هو الواقع في كثير من البيوت ، أما البيت الذى يركن إليه ويكتسب منه وينتفع بما يكتسب فذاك هو جنة الخلد وهو (البيت العلمى) .

ففى مثل هذا البيت يتلقى الطفل تربية صحيحة واعتناء من شأنه أن يقدم الطفل يومياً إلى أفضل ما كان فى أمه جسمياً وعقلياً ونفسياً والطفل مخلوق ضعيف يتوقف مستقبله على طرز الاعتناء الذى يلقاه أيام الطفولة والصغر . والأمهات يحبون أطفالهن بالغريزة ولكنهن يجهلن الاعتناء بهم بالغريزة ، وعلى هذا كان لزاماً أن يدرس فن الاعتناء بالطفل من بحث فيه وتعمق وتفهم كيفية إخماء الطفل صحياً بأحسن الوسائل الفنية الممكنة إذ لا يكفى أن يحصل الطفل من الأم حليبه فقط لأن صحته تتوقف على نوع الحليب الذى يدره جسمها وعلى كمية الحليب الذى يتناولها وعدد النوبات التى تعين إليه أثناء الليل والنهار لتناول تلك الكمية ، وهكذا عرف البيت العلمى بأن الأطفال اليوم هم رجال الغد فى الأمة فسعى سعيه للاعتناء بهم وفقاً لأفضل الطرق .

وفى البيت العلمى تشجّع الألعاب للطفل على اختلاف أنواعها لأنه يعتقد أن الطفل السليم ميال إلى اللعب طبيعياً حتى أن الرضيع إذا لم يربط جسمه ببعض الأربطة التى تعيق حركة أعضائه نراه كثيراً ما يحرك ذراعيه وساقيه فى الهواء ،

وهو بهذا (كما يخبرنا الاختصاصيون) يمارس اللعب لا غير فكتانه يزاول لعبة التنس أو غيرها التي من شأنها تنشيط الدورة الدموية في الجسم وتقوية الحركات التنفسية التي تساعد على إبعاد غاز ثاني أوكسيد الكربون المضر وتناول غاز الأوكسجين النافع . وإن شب الطفل على هذا خاض في اللعب والحركة وامتلك بذلك عادة تكسبه جسما لا تقا قوى المناعة لا تؤثر فيه الطوارئ الخفيفة . والعادة أن الطفلة الصغيرة كثيرا ما تميل إلى إعداد لعبات وتجرب أن تتخذ منها أشخاصا موهومة تعتنى بهم وتقوم بما لديها من وسائل بسيطة في تنظيم إدارة البيت ، أما الطفل فإنه شديد الرغبة في اللعب ببعض الأدوات والآلات التي قد تؤهله فيما بعد لمزاولة إحدى الحرف المفيدة ومن هذا نعلم أن اللعب نافع جدا للطفل والطفلة على السواء .

وفي البيت العلمي ينسدر أن يعاقب الطفل بالضرب أما في غيره فتكون أول الطرق ولعل أوحدها للعقاب هو الضرب . والضرب يعطي في الغالب كعقوبة من قبل الأبوين لما يكون أحدهما غاضبا فينهال بالضرب دون أن يتمهل ليُدرس السبب الذي جر بولده لاقتراف خطيئته فيصف العقاب اللائق بحيث يكون سببا لردع الطفل عن الإتيان بمثل خطيئته في المستقبل . وطالما ضربت الأم طفلها لأنه لا ينفك عن الصراخ كل ليلة فإذا ما مضت بضعة أسابيع تفجرت أذن الطفل عن قرحة تبين للطبيب منها أنه كان يشكو أذاها منذ زمن مضى ، فهل كان من العلم ضرب الطفل في هذا الحال وهو القاصر عن النطق العاجز عن التعبير عما يشكو منه ؟ وإذن قالأم كانت ظالمة بجهلها قاسية بمعاملتها . ولنعرف أن العلم بحد ذاته يمحّص الأسباب والعلل فإن أساء الطفل بتصرفاته فما على الكبار من إخوته وأبويه الذين يفهمون العلم ويقدرّون الموقف إلا السعي في دراسة أسباب هذا التصرف الشأن ! ومن الخطل عند تربية الأطفال أن نمدح الطفل ونضحك لما يبدية من نباهة ! فإذا صادف أن دخل الغرفة طفل وذكر للجالسين بعض ما يضحك أكثر الناس فسرعان ما يقابل عمله هذا بالضحك والتصفيق ثم الإشارة

إلى أنه فطن وذكى ، عند ذاك يرجع الطفل وفي ذهنه خيال بعيد عن نفسه فيكيل لها الوزن بخفة الروح والحدق ، وهكذا يندفع للقيام بمثل ذلك مرات أمام هذا وذاك ليضحك الزائرين فينجع في محاولاته مرة ويفشل أخرى ولكنه يحاول أن يجرب كل شيء ليحصل لنفسه المدح والإطراء إلى أن يصبح ثقیل الظل مقلقا ومضايقا وهو لا يدري فيمليه كل واحد . وليس يبعد على المعلمين أن يشاهدوا أمثال هذا بين التلامذة في المدارس والصفوف المختلفة أما الخطأ فيرجع في الأصل إلى أيام الطفولة حيث صفق له الحاضرون وضحكوا له في بيت غير علمي .

والعلماء أينما كانوا لهم رائد واحد هو الصدق وغاية لاثانية لها هي الحقيقة فإذا كان ذلك فاعرف درجة من لا يكون رائده الصدق في البيت ، فلو فرضنا أن الطفل قد أساء في بعض تصرفاته وذكر له أنهم سيدعون الشرطي لمعاقبته إن لم يرتدع فإنهم يتفوهون بالكذب لأنهم يعرفون تماما أنهم سوف لا يطالبون الشرطي إلى البيت لمثل هذا الأمر ، حتى ولو جربوا ذلك فالأرجح أن الشرطي لا يمثل أمرهم ولا يقدم قيد خطوة . ثم إن الأطفال كثيرا ما يسألون الأمهات عن كيفية ولادة الأطفال في هذا العالم فيجابون بقصص وحكايات ليس لها وجه من الحقيقة . تصوّر طفلا ينشأ في بيئة غير صادقة ثم قدر نصيبه من الصدق والحق إذا شب وترعرع . إن هذا لما يعرض عنه البيت العلمي بالسكينة ، إذ أنه يعتقد بأهمية الصدق وعلى نهجه يعلم الطفل ويدربه والأبوان لا يكلمان إلا بالصحيح من القول وهو لا يسمع من إخوته وأخواته الكبار إلا بما عرفوه من الحق .

واليبس العلمي يتطلع بعيدا إلى المستقبل : وهو يعرف أن يوما سيأتي يخرج فيه طفله إلى المدرسة ثم إلى الحياة العملية لمزاولة بعض المهن والأعمال فيعد العدة لكل ذلك . وهو لا يشك إن تصرفاته في المدرسة وفي العمل تتوقف ولو لمدى معلوم على نوع المعاملة أو التربية التي متى بها في البيت . ومن لا يدري أن الغد هو ابن اليوم ولهذا يصبح لازما علينا أن نستعد في هذا اليوم استعدادا كافيا

لنواجه به الغد خيره وشره . وإذا لم يدرب الطفل في بيته كيف يدوّن حسابات إيراده ومصروفه في سجل خاص مثلا فهو بالأولى أن لا يتفهم ذلك في المدرسة في حينه اللازم ، وبناء على هذا نرى البيت العلمى يهتم بهذا فيمنح الطفل مقدارا معلوما من الدراهم كل أسبوع ثم يهبه مفكرة صغيرة يحرق فيها مقدار مدخوله ومصروفه ويطلب منه تبيان ذلك لوالديه في أوقات معلومة فيأخذان بانتقادهما بطريقة ودية وبهذا يكون الطفل قد احتفظ بحساباته مضبوطة وبدفتره نظيفا فإن خرج من البيت بعد أن يتقدم في السن كان لديه كمية لا بأس بها من المال ويعرف أصح طرق الصرف والإيراد ، وهكذا يتطلع الأبوان للمستقبل البعيد ويعدان طفلهما إعدادا لائقا للأيام المقبلة .

والخلاصة أن الأبوة والأمومة في نظر العلم الحديث مهنة شاقة كالقانون والطب وغيرها ، ونوع التربية التى يتلقاها الأطفال في مملكة ما هى أخطر وأجل من أى عمل آخر يقوم به المربون والمسئولون تجاه تلك الأمة ، وليس هناك أمر أبعد تأثيرا على حياة الأطفال الناشئين من البيت ، والبيت لا يعمره بالجملة إلا الأبوين (ولو كان للأخوة والأخوات بعض اليد فى ذلك) فالأبوان الذكيان الحديثان يدرسان مهنتهما عن المختصين بمطالعة الكتب والمجلات القيمة وهكذا نستطيع أن ندخل العلم فى البيوت ونحييها بحياته ، ولنعرف أن القرن العشرين لا يتطلع إلى تكثير عدد البيوت بل يريد أفضلها وأرقاها .

الأَجْرَامُ وَالْمَجْرُمُونَ

المجتمع بالإجرام ، والويل لهم منه . »

الإجرام عملية القيام بجريمة ضد المجتمع ، ولقد اعتبرت الجرائم فيما سلف كأعمال خصمية يقوم بها أفراد ضد أفراد آخرين فالسارق ليس له طالب غير المالك المسروق الذى لو حده الحق فى استحصال الترضية التى توافقه مع المعتدى .
وبتقدم الإنسان نحو مرقى المدنية نمت فكرة جديدة أدت إلى إشراك المجتمع بالحق الذى احتكره المعتدى عليه فيما مضى فعرف الكل أن الاعتداء الموجه ضد أفراد أو فرد واحد هو بالحقيقة اعتداء ضد المجموع ، وهكذا اندفع أفراد المجتمع إلى العمل سوياً وأخذوا على عواتقهم مسئولية تشريع القوانين لحفظ حقوق الفرد ثم فرضوا العقوبة على من تسول له نفسه لانتهاك حرمة تلك القوانين ، وبهذا أصبحت الجريمة جناية ضد المجموع لأنها تضمنت القيام بعمل لا يسوغه القانون الذى سنّ لمصلحة العموم ولو لم يكن فيه ما يدعو إلى تسميته بالخالفه الأدبية الصريحة وعلى الحاكم تنفيذ القانون مهما كان الحال .

تصنيف الجرائم:

كانت العادة الجارية أن تصنف الجرائم إلى ثلاثة أصناف مختلفة وهى:

١ — المؤامرات وهى محاولات لقلب أنظمة الحكم عن طريق الثورة أو غيره .

٢ — الجنائيات الكبرى وهى جرائم خطيرة ضد أفراد أو ممتلكات كالقتل

والسرقة .

٣ — المخالفات وتشمل كل الجنح البسيطة أو النقض الخفيف للقانون كبيع

الحليب مثلاً بدون أجازة أو مخالفة التعليمات التى توجب صيانة الحدائق العامة .

أما اليوم فقد اتخذت طريقة غير هذه فى تصنيف الجرائم خلاصتها :

١ — الجنائيات التى من شأنها الإخلال بالأمن العام كالمؤامرات والشغب

وكل ما يعيق القائمين بتنفيذ القانون عن أداء واجباتهم .

٢ — الجنايات والجرائم التي من شأنها الإخلال بالصحة العامة أو الآداب العامة كالزواج برجلين أو المقامرة والمتاجرة بالخدرات أو تلويث مياه الشرب العامة .
٣ — الجنايات الموجهة ضد الفرد كالقتل على أنواعه أو الاعتداء قصد القتل أو غيره .

٤ — الجنايات والجرائم ضد الممتلكات كالسطو والسرقة والنصب والخيانة وأمثالها .

إن قائمة الجرائم المذكورة آنفا لا تشمل نقض العقود والظف بالتشر وعدم دفع الديون لأن مثل هذه الأمور لا تعد من الجرائم بل هي جنح شخصية تدعى بالمدنية أو الحقوقية ، وعلى من له الحق أن يرفع قضيته أمام المحاكم التي تقوم عند ذلك مقام الوسيط لإحقاق الحق بين الطرفين .

بواعث الإجرام:

إن بواعث الإجرام كبواعث الفقر منها الشخصية ومنها الاجتماعية : فالإنسان الذي يشذ عن الطريق المستقيم ويقترب شرا لا بد وأن يكون ضعيف العقل أو سافل الأخلاق أو كليهما وذلك لحصوله على عوامل هذا الضعف عن طريق الوراثة ومن ابتلى بهذا فقد اكتسب ما يمنعه عن السير بأمان في مستهل حياته فيشذ ويندفع إلى الإجرام . أما تربية البيت السيئة والعادات التي تكتسب في الحياة المدرسية دون مراقبة ثم كراهية الإقبال على العمل فهي أسباب شخصية لا بد وأن تشجع صاحبها على الإجرام . والفقر يتخذ المقام الأعلى بين الأسباب الاجتماعية للإجرام وبعده قرين السوء ونقص كفاءة الشرطة وضعف الرجال القائمين بمحافظلة الأمن في البلاد .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الإجرام ضد الممتلكات كالسطو والسرقة يقل غالبا حيث يحل الرفاه ويزداد في أوقات الضائقات وتكثر عدد العاطلين .

نظرية العقاب :

يعتبر العقاب لدى الأمم المتأخرة وسيلة للانتقام والثأر أما في الأوساط المتقدمة فإنه يعتبر وسيلة لتحذير الناس عن الإقدام على ارتكاب الجرائم ، وفي كلتا الحالتين كان الشعور السائد هو أن يكون العقاب صارما على قدر الإمكان فالشدة بدلا من أحقية العقاب نفسه كانت الأساس الذي يبنى عليه أمر ردع الناس عن الإقدام على الإجرام . خذ انكلترة مثلا قبل قرن واحد تراها تعتبر الإعدام جزاء السارق ، وتقاصص العاجز عن دفع الديون بالسجن الطويل . إن هذه الشدة في العقاب لم تكن في نهاية الأمر لتفي بالمطلوب فالجرائم قبل قرن من هذا التاريخ كانت أكثر بكثير مما هي عليه الآن .

مر الزمن على هذا فاذا بالفطنة العامة تهدينا إلى نتيجة بينة وهي أن أحقية العقاب لاشدته هي الوسيلة الفضلى لتأمين مراعاة القوانين ، إذ أن الهدف الأصلي من العقاب هو ليس افتقاد سخط الناس على الجاني أو إصلاحه « ولو أن هذا الأمر الأخير يعد غاية غير مباشرة » بل هو ردع الباقين عن القيام بارتكاب أمثال تلك الجرائم وإذن فالعقاب يجب أن لا يكون أكثر مما يمكن من تأمين هذه الغاية . وعلى هذا الأساس لزم تعيين مراتب مختلفة للعقاب يوافق كل منها مقدار تحدى الجناية على سلامة المجموع وطمأنينته فاذا عوقب القاتل المتعمد بعقوبة أشد مما يعاقب بها القاتل غير المتعمد فلا يعنى ذلك أن المقتول في الحالة الأولى قد كابد أكثر مما كابد في الحالة الثانية فهو قد خسر حياته على كل حال وليس للعقاب مهما كانت شدته أى تأثير في إعادة حياته إليه إلا أن الأمر الأول أشد هولا من الأمر الآخر وأكثر مساسا بالمجتمع لسبق الاصرار والتعمد ، ومن هذا نستخلص أن درجة شناعة الجريمة تعظم عند ما تكون الجريمة أكثر خطرا على سلامة المجموع وراحته .

الأحداث المجرمون:

كانت العادة فيما مضى أن يساق الأحداث المجرمون الذين تقل أعمارهم عن (١٨) عاما إلى محاكم الجزاء شأن بقية المجرمين وذلك لأناتهم العقاب اللازم . أما اليوم فقد عزلت قضاياهم وصارت تعرض في كثير من المدن الكبرى أمام محاكم خاصة تدعى بمحاكم الأحداث ، وحيثما لا توجد هذه المحاكم نجدتها تقدم إلى المحاكم الاعتيادية للنظر فيها بجلسات لا تبحث غيرها البتة . والمجرمون الأحداث في القضايا الخطيرة يرسلون عادة إلى المدارس الإصلاحية أو إلى غيرها من المؤسسات التي تهتم بالتعليم المهني ، إما إذا كانت الجريمة من النوع البسيط وخصوصا إذا كان الجاني الحدث حديث العهد بالإجرام فيوضع تحت المراقبة ويراد من هذا النظام التجريبي تأمين إصلاح المجرم بدلا من إلزامه العقاب الذي يستحقه .

السجون :

لقد كانت معاملة المساجين في كثير من البلدان حتى قبل قرن مضى معاملة وحشية لا تقوم على أساس الإنصاف والعدل فالجنة كانوا يحشرون على أنواعهم كبارا وأحداثا في مؤسسات واحدة ، وهم يتلقون من القائمين بحراستهم أنواع العذاب الذي تبرأ منه الإنسانية ويبعثون عادة في غرف صغيرة مرطبة ويعيشون على الأغذية الفقيرة بالمواد الضرورية ولا يزاولون عملا نافعا يقتلون به أوقاتهم المملوءة . وإن غير قليل من السجون في مختلف الممالك لم يزل متبعا هذا المنهج رغم حركة الإصلاح التي نشطت في الثلاثين سنة الأخيرة فبعثت في السجون نظاما جديدا كفل فيها التقدم المحسوس . وهو ماسند كره فيما يلي :

إصلاح السجون :

إن أول من أثار الناس إلى إصلاح السجون هو المحسن الانكليزي المعروف بـ (جون هوارد) الذي كتب في أواخر القرن الثامن عشر تقريرا وصف فيه

الطرق التي يرتأى لها هذا الإصلاح فوضع فيه تصميما جديدا للسجون الحكومية وخصوصا الإصلاحية منها حيث اقترح وجوب الاحتفاظ بالمساجين في غرف منفردة آملا من وراء هذا العزل إصلاح المساجين إصلاحا صحيحا .

والغريب أنه لم يكن هناك ما يشجع على التفريق بين السجون العامة والسجون الإصلاحية ، ولم يجرأ أحد على أن يجهر بأن من الممكن إصلاح السجين خوفا من أن يقدم للناس بدعة لا يرتضونها . وقد تغير الحال بعد هذا تدريجا فأصبح الرأي السائد اليوم هو الإصلاح بدلا من العقاب ، والتهذيب بدلا من الحجز ، والحصول مهما أمكن على المواطنين الصالحين بدلا من المساجين العديدين .

ومن الصعوبة بمكان أن يتصور أحد مقدار العذاب الذي كان يلاقيه السجين في سجنه ، فهو يسكن في غرفة مشيدة بالأسمت المسلح لا يتجدد فيها الهواء إلا قليلا ولا يدخلها النور إلا ماما والسجين يقضى فيها أيامه ولياليه فلا يرى بأم عينيه إنسانا غير الحارس الموكل بمراقبته ومع هذا فلا يجوز له مكالمته والتحدث إليه ، وبذا تحولت السجون فأصبحت دورا للمجاذيب إذ انتشر الجنون بين هؤلاء البؤساء انتشارا فظيعا وقد حاول أولوا الأمر تخفيف ذلك بأن أعطوا للسجين الفريد عملا ينشغل فيه إلا أن هذا الحافز الذهني الجديد لم يمنع من إصابته ورققائه بالجنون بتأثير الوحدة القاتلة .

هذا وغيره وبعد توالى الزمن اهتدى الإنسان بأن الإنسان حيوان اجتماعي يجب أن يفوز بمعاشرة بني جنسه ولو في فترات من يومه فأدى ذلك إلى إنشاء المعامل داخل السجون ليستغل فيها المساجين سويا وفقا لنظام خاص . إن هذا النظام لا يجوز للمساجين بصورة مطلقة تكوين علاقات مع بعضهم البعض فهو يميل إذن إلى الشيء الكثير من الصرامة ولكن رغم هذا نجده قيد التنفيذ في معظم السجون في مختلف أنحاء العالم .

والحقيقة أنه مهما كان النظام صارما فإنه يستحيل تنفيذه بدقة فالمساجين ، لا يخلو

الكثير منهم من فطنة ظاهرة يستخدمونها بمكر في تنظيم الرموز الخفية التي يتفاهمون بها فيما بينهم حتى ولو كانوا تحت إشراف أقوى الحراس .

والسجون الراقية تقدم لمساجينها ذوى السلوك الطيب « وهم الملقَّبون بالموثوق بهم » امتيازات تمكنهم من استعمال الحرية بنطاق واسع دون أن يخيبوا بذلك أمل رؤسائهم بهم إلا ما ندر ، فهم يتركون للعمل في مزارع السجون أو كما تدعى باصطلاحهم بـ « مزارع الكرامة » أو يؤخذون إلى مخيمات السجون حيث يعملون فيها في شق الطرق العامة وتسويتها ، وقد عرف بعض من هذه المخيمات التي يشتغل فيها (١٥٠) سجيناً وكلهم تحت مراقبة عدد من الحراس لا يزيد عن الستة ومع هذا فالنادر منهم من يحاول خيانة الثقة التي يملكها لنفسه لدى رؤسائه . وبهذا تعد أمثال هذه السجون وسائل عملية للتخلص من النظام الحديدي القديم .

هناك في عاصمة لبنان سجن من هذا الطراز يدعى بسجن « الرمل » امتاز بكثير من طرق الإصلاح الحديثة ففيه يعزل الجناة الأحداث عن المجرمين ذوى السوابق بأجنحة خاصة ويعلمون اللغتين العربية والإنجليزية من قبل معلمين أكفاء ، ولكل من هؤلاء وأولئك الحق في أخذ حمام ساخن وبارد في كل أسبوع ويدربون على بعض الأعمال أو الحرف كالخياطة وعمل الأحذية وفي هذين الصنفين يشتغل عدد لا يستهان به من المساجين . وفي السجن تتوفر جميع الوسائل الصحية وهو مؤثث تأثيثاً كافياً وفي بعض أروقته الكثير من وسائل الترف مما يستأنس بها السجناء ذوو الشأن .

ويمكن تلخيص أوجه الإصلاح الرئيسية في السجن بما يلي :

١ — إن أولى النقاط في الأهمية هو تصنيف المساجين وإرسال كل صنف لمؤسسة خاصة بدلا من حشرهم في سجن حكومي واحد ثم مراعاة كل جهة بالشكل الملائم على قدر الإمكان . فالبعض من المساجين جناة أشقياء ليس من السهل إصلاحهم والبعض الآخر أحداث أو معتوهين والبعض منهم يزور السجن لأول

مرة في حياته وفي الإمكان إخراجه إلى العالم بعد انتهاء محكوميته بشكل يؤمل منه أن يصبح فيه مواطناً صالحاً وخصوصاً إذا درب على حرفة مفيدة يكتسب من ورائها بعدئذ .

٢ — مروءة النظام : كانت العادة المتبعة في السجون معاقبة كل من يقدم من المساجين على مخالفة هامة للتعليمات الداخلية عقاباً صارماً وذلك بحجزه في محابس منفردة لأيام أو أسابيع ، أما اليوم فقد ألغيت هذه العقوبات واستبدلت بامتيازات طيبة تمنح لذوى السلوك الحسن ويحرم منها من يكون على النقيض . إن هذا التدبير يقضى بوجوب ترتيب المساجين ترتيباً يتفق وسلوكهم فأصحاب السلوك المرضي يرفعون إلى المراتب المتقدمة ويمنحون مختلف الامتيازات وبذا تركت تلك المحابس المنفردة لكل من لا يمكن تقويمه أو إصلاحه . وقد ذكرنا فيما سبق شيئاً عن تدريب المساجين على بعض الحرف وتعليمهم القراءة والكتابة مدة بقاءهم في السجن وهي أمور تدل ولا شك عن مروءة النظام الحديث في إدارة السجون .

الأحكام غير المعينة ونظام الإطلاق بالتعهد :

ومن أظهر طرق الإصلاح التي تمت في السجون الحديثة هو تنفيذ النظام الخاص بالأحكام غير المحدودة والإطلاق بالتعهد فالطريقة السابقة التي تقضى بالحكم على المسجون لمدة معينة والتي توجب عليه أن يصرف هذه المدة بأجمعها في السجن دون النظر إلى نوع تصرفاته أو سلوكه قد ألغيت برمتها وعوض بها طريقة إعطاء الحكم لمدة غير محدودة كأن تكون مثلاً لا أقل من سنتين ولا أكثر من خمس سنوات فإن إتبع السجين الطريق المستقيم وسلك سلوكاً مرضياً مدة مكوثه في السجن حقق إطلاق سبيله من الحبس عند انقضاء أقصر المديتين . وهذه طريقة حسنة تنتج ثمرها الطيب في كثير من الأحوال وبالأخص فيما يعود إلى الجناة الأحداث الذين يرسلون إلى المدارس الإصلاحية . أما الإطلاق بالتعهد فنظام يراد

منه تشجيع المساجين على السلوك الطيب وابعاث الرغبة فيهم للإصلاح من تلقاء أنفسهم ، وعند ما يكون هذا النظام الأخير قيد التنفيذ فإن لمأمورى السجن الحق فى إطلاق سراح المساجين حتى قبل انتهاء أقصر المدتين من محكوميتهم على شرط أن يقدم كل منهم تعهدا يذكر فيه أنه لا يخل ولا يؤذى المجتمع مرة ثانية فإن صادف أن نقض عهده بعد الإطلاق فيعاد إلى السجن لانتهاء مدة محكوميته وقد وجد بالفعل أن القليل منهم من يتمرد بعد هذا .

نظام المراقبة :

وهو وسيلة أخرى من وسائل الإصلاح فى السجن وقد ثبت بالتجربة أن لهذا النظام اليد الكبرى فى انقاص عدد المساجين إلى حد لا يستهان به .
وخلاصته : إن المحكوم عليه وبالأخص فى القضايا الخالية من السوابق بدلا من أن يؤخذ ويزج فى السجن يوضع تحت المراقبة لمدة معينة من قبل الشرطة أو أحد المأمورين المربوطين بالحكام فتقدم عن سلوكه وهو مطلق السراح التقارير من وقت لآخر فإن كان على ما يرام أعفى عنه وإلا فيعاد للقيود حتى يحصل جزاءه .
وإخلاصة أن عقاب المسجون لجرم ارتكبه كان هو الاعتبار الأقدم فى القصاص وإثبات العدل ، ولكن الزمن حان فاعتبر السجن إنسانا يمكن إصلاحه وإرجاعه إلى حضيرة المواطنين الصالحين .

أغلق عينيك لحظة لتبتعد بحاستك هذه عما حولك من الموجودات فماذا تكون النتيجة؟! إنك تصبح ولا شك في عالم الظلمة فلا تعود ترى وجه النور، ولا يكون في إمكانك أن تكتسب في هذه الفترة عن تلك الموجودات إلا خيالاً ضعيفاً وهذا لأنك تحمل لها في رأسك صورة ذهنية مفقودة لدى الأعمى . والآن أغلق أذنيك قليلاً وتصور صعوبة العيش في الحياة وأنت بهذا السكون الدائم . والواقع أن قضية غلق العينين وسد الأذنين لحين قصير يجعل أمثال هذه التجارب تافهة وغير قادرة على أن تبعث فيك حقيقة ما يعانيه الأعمى أو الأصم في حياته ، ومع ذلك فإن غلق عينيك مثلاً لهذه اللحظة قد لا يزيد فيك الحنان إلى أولئك الذين لا يمكنهم النظر إلى أوجه أحبائهم والتمتع ببهجة السماء الصافية في ليلة مقمرة هادئة ، كما أن سد أذنيك لبضع دقائق قد لا يمنحك أيضاً العطف اللازم إلى من لا يسمع ألحان الموسيقى العذبة أو أن يتعرف إلى بدائع الصوت الإنساني .

أسباب العمى والصمم :

إن من المؤلم جداً أن تكون معظم قضايا العمى والصمم ناتجة في أكثر الأحوال عن أسباب يمكن التخلص منها ، فأضرار الحوادث التي تعتبر العامل الأهم في إصابات العمى هي السبب المباشر لـ $\frac{1}{8}$ مجموع الإصابات الحاصلة . ومن المؤكد أن $\frac{1}{3}$ هذه الحوادث يمكن تلافيه في معظم الأحوال ، فقرحة العين مثلاً سبب من أسباب الإصابة وهو ما يسهل منعه أو تخفيفه بالاعتناء الصحي والمعالجة الطبية ، ومما لا شك فيه أن التفتيش الصحي في المدارس واستعمال النور الكافي في عرف الدراسة والاهتمام بمداواة العيون بصورة منتظمة وزيادة الالتفات إلى ما يصيبها من أمراض طفيفة والاعتناء الشديد بالحفاضة عليها أثناء العمل في المناجم والمعامل ، كل ذلك له التأثير الكبير في تقليل عدد العميان على توالى الزمن إلى ثلث ما هو عليه .

والخلاصة أننا إذا أخذنا جميع الأسباب المعروفة بنظر الاعتبار نجد — كما يؤيد ذلك أحد الأخصائيين — أن ثلثي إصابات العمى تحدث في أمور يمكن التخلص منها بإحدى الوسائل المعروفة .

أما الصمم ؛ فإن (٤٠) في المائة من إصاباته تحدث من أمراض يصاب بها الفرد بعد الولادة بقليل والبقية وهي (٦٠) في المائة ناتجة من أمراض تنشأ أثناء زمن الطفولة أو بعده ، وذلك كالحمى القرمزية والتهاب سحايا الدماغ والأورام الثديية الحلقومية (الادينيود) وأعراض أخرى تحدث عادة في مقتبل العمر أهمها النزلات الشعبية والتقدم في السن . وهنا أيضاً نجد أن الاعتناء الصحي الدقيق في الأوقات المقتضية تساعد كثيراً على منع الإصابة بالصمم في أكثر الحالات . ولما كان الأبوان المصابان بالصمم يولدان أطفالاً صم بنسبة ثلاثين مرة أكثر مما يحصل لغيرهم ، فإن منع تزويجهم من بعضهم عامل آخر له شأنه في تقليل عدد الصم بالتدريج .

نظرة العالم القديم إلى العميان والصم :

لقد أصبح اليوم عدد العميان والصم أكثر مما كان عليه في القرون الماضية وذلك نتيجة الإهمال وضعف المقاومة ، فاليونان والرومان كانوا يأخذون الأعشى أو الأصم من الأطفال إلى إحدى الغابات أو إلى أعلى الجبال ويتركونه طعاماً للوحوش الضارية أو فريسة للبرد والجوع . أما في القرون الوسطى فقد اعتبر أمثال هؤلاء بمصاف المعتوهين ، يخشاهم القوم ويعرضون عنهم ، ويعاملونهم بكل سوء ، وطالما عدت مصيبتهم عقوبة لجريمة ارتكبوها في حياتهم ، وذهبت الأوساط الجاهلة باعتقادها إلى أبعد من ذلك فقالت عنها أنها نفخة الأرواح الخبيثة وعلى هذا كان الناس لا يعيرونهم أى اهتمام ، وأمسيت بليتهم عقبة كأداء في سبيل معاشهم ، فذهبوا يرتقون عن طريق الشحاذة ، وقلما كان يجد البعض منهم إنساناً يهتم بأمره فيتعلم ويتهدب حتى هل النصف الأخير من القرن الثامن عشر ،

فقيض الله لهم من يزو إليهم بعطف ويأخذ بأيديهم إلى العمل الصالح .

المدرسة الأولى للصم :

افتتح القس L'Epée في سنة ١٧٥٥ أول مدرسة للصم في ضواحي باريس بعد أن اهتم بترية يتيمن أصمّين شغل بعدها بترية وثقيف أمثالها في مدرسته الجديدة فكرّس حياته لخدمة عدد من الطلبة ؛ بما كان يبتدعه ويكتشفه من وسائل التعليم والتدريب الخاصة التي يمكن استخدامها في مثل هذه الأحوال ، وألف كتباً عنهم وسعى بكل ما لديه لإفادتهم وتشويقهم . ولقد كان L'Epée يدفع في بداية الأمر مصروفات المدرسة من جيبه الخاص ، ولكن لم يطل به الزمن حتى ربح مشروعه بعض المساعدات من الغير ، وظل على هذا إلى أن ألحقت المدرسة أخيراً بمؤسسات الحكومة العامة .

المدرسة الأولى للعميان :

وعلى أثر افتتاح مدرسة (L'Epée) للصم بزمن غير طويل صادف أن شاهد رجل فرنسي يدعى (هوى Havy) مشهداً من المشاهد في إحدى ضواحي باريس عرضت فيه جماعة من العميان ، فكان هذا المنظر مدعاة لبعث الشفقة في نفسه على أمثال هؤلاء ومال إلى تربيتهم حسب المستطاع ، ولم يمض زمن قصير بعد هذا حتى التقى في الطريق بسائل أعمى من الأولاد فنحه قليلاً من المال وأقنعه بأن يكون إليه تلميذاً ، وبعد جهود جبارة علّم (هوى) الولد القراءة ، وما شعر بنجاحه حتى سعى فأنشأ مدرسة للعميان سنة ١٧٨٤ وهي أول مدرسة من نوعها في تاريخ البشر ، واعتمد في بداية عمله على المنح الخاصة التي كانت تقدم إليه ولكن سرعان ما تعهدتها بعد ذلك الحكومة الفرنسية الوطنية .

ومدارس العميان والصم تهتم بتلقين بعض الدروس الأساسية ، وهي القراءة والكتابة والتاريخ والجغرافية والحساب وتدرّب طلبتها على أصول الصحة بصورة

عملية . ويهتم القائمون بشئون هذين النوعين من المدارس بالتعليم الصناعى على الأخص ، فالعميان يعملون دروساً فى الخياطة والكتابة على الآلة الطابعة والضرب على البيانو ويدربون على صنع المسكans والسلال والأحذية وزراعة الحدائق وتربية الدواجن . وقد أظهر العميان والصم فى كثير من الظروف المقدرة التامة على القيام بأعمال نافعة وإنجازها بصورة صحيحة بعد تخوير ملائم .

التعليم العالى :

فى مدينة (واشنطن) كلية راقية تدعى « كلية كالوديت » هى المؤسسة الوحيدة فى العالم المتخصصة بصورة مطلقة لتعليم الصم تعليماً عالياً . وتعتمد هذه الكلية مالياً على الحكومة الوطنية ، وتفتح أقسامها فى فصول منتظمة لجميع عميان القطر ، وإننا لنجد بين متخرجيها الكثير من المحررين والمعلمين وأصحاب الفن ومتعهدى الطبع والنشر والكيميائيين والزراع والمهندسين المعماريين . ولاتنس أن هناك عدداً غير قليل من الصم والعميان الذين أظهروا تفوقاً بيبناً فى بعض الجامعات المعروفة كجامعة (هارفارد) وغيرها ، والخلاصة أنه يندر أن نجد حرفة لم يشترك فيها أمثال هؤلاء بصورة عملية .

قصة الأنسة (هيلين كيلر) :

ولدت الأنسة «هيلين كيلر» يوم ٢٧ حزيران ١٨٨٠ فى إحدى المدن الواقعة شمال (الباما) ولما بلغت من العمر عاماً ونصف العام أبتليت بمرض خبيث أفقدها بعد الشفاء سمعها وباصرتها وبهذا أصبحت عمياء وبكاء فى آن واحد . وقد سردت قصتها بلسانها فيما بعد فجاءت حديثاً غريباً ممتعاً ومما قالت به :

«لا أتذكر البتة ما حدث لى فى الشهور الأولى بعد شفائى وكل ما علق بذهنى مما كان هو أننى كنت طفلة أعدو وراء والدتى عند قيامها بواجباتها البيتية فأتمسك بأذيالها أو أجلس فى حضنها لالعبه ، وكانت يداى تشعراثنى بكل جسم أوحركة

أتمكن من الانتباه إليها وعن طريقهما أصبحت عارفة بكثير من الأمور وشعرت بعد لأي أنني بحاجة ماسة إلى التفاهم مع الآخرين فصرت أستعمل رموزاً لما أريد فمثلاً إذا هززت رأسي كان ذلك دليلاً على (الرفض) أو إذا نكسته دليلاً على (القبول) ثم إذا جذبت أذيل شخص كان ذلك بمعنى (أقبل) أو إذا دفعته كان بمعنى (أدبر) وإذا طلبت طعاماً صرت أقلد حركة مضغ الطعام، وإذا ما أردت من والدتي أن تقوم بعمل المثلج (الدوندرمة) كنت أمثل حركة الآلة المبردة وارتحف قليلاً مقلدة بهذا تأثير البرد. وهكذا ابتدأت الآنسة (هيلين كيلر) أن تفهم بأنها تختلف عن الآخرين إذ شعرت بأن أمها ورفيقاتها لا يستعملن الرموز عند ما يطلبن شيئاً بل ينطقن بألسنتهن وكانت بعضاً تقف بين شخصين يتحاوران فتمسك بشفاهما المتحركة ومع كونها لم تتمكن أن تفهم شيئاً عن معنى ذلك غير أنها أخذت بالحكاكة وبدأت تقوم أحياناً بحركات جنونية لا تنطوي على قصد، ولقد كانت تصرف بعملها هذا مجهوداً كبيراً للتفاهم مع الغير وهي إذا ما فشلت أجهشت بالبكاء ثم أسرعت إلى أمها تعبة خائرة القوى فلا تستطيع أن تعلم أمها بالخبر. أما حبها لأمها فهو مالا شك بوجوده ولكن المعتقد أن هذا الحب لم يكن بالدرجة التي كان يظهره بقية الأطفال. وقد دلت الظواهر أنها لم تكن تمتلك إلا القليل من الشعور بالخير والشر فقد وجدت يوماً أختها الطفلة نائمة في مهد لعبتها فإذا بها تغضب فتدفعها الغيرة الجاهلة إلى أن ترمى بالطفلة القائمة خارج المهد ولو لم تلقفها السيدة (كيلر) في الحال لأصببت بأذى، أما هيلين فلم تندم على فعلها وأنى لها أن تندم وهي لم تعلم أنها قد اقترفت خطأ كبيراً.

المعلمة تبدأ بتلقينها حروفاً:

كانت تسكن عائلة (كيلر) في ضاحية بعيدة جداً عن أى مدرسة من مدارس العميان أو الصم، ولم يكن أحد من هذه العائلة ينتظر أن يزور مدينتهم معلمه ولع بتعليم أمثال هؤلاء البؤساء لأن هذه المدينة كانت تقع في مكان بعيد عن

طرق النقل والمرور . وما كان بعيد الوقوع في نظرهم قد حدث فعلا بعد زمن فقد وصلت المعلمة (Anné Bensfield Sullivan) وبدأت بتعليم البنت بعد أيام قلائل من وصولها وهكذا وجدنا هيلين تتلقى التعليم اللازم قبل أشهر من بلوغها السن السابعة من عمرها .

اقتادت الآنسة (سليفان) الطفلة هيلين صباح يوم من الأيام إلى غرفتها وقدمت إليها لعبة صغيرة، وبعد أن لعبت بها مدة قصيرة تهجت الآنسة (سليفان) كلمة لعبة ل . ع . ب . ة بمهل على أصابع البنت بضع مرات فهرعت البنت مسرعة إلى أمها وهي تهجي لها حروف الكلمة . نعم أنها لم تكن تعلم أنها تهجي كلمة من الكلمات ولم تكن تعلم أن هناك ما يدعى بكلمات وكل ما كانت تفعله هو تحريك أصابعها وفقا لحروف الكلمة .

وفي الأيام المقبلة التي أعقبت ذلك اليوم أتقنت الطفلة هيلين تهجي كلمات كثيرة مثل : دبوس . برنيطة . فنجان . وقليل من الأفعال مثل اجلس . قف . امشي . ولكنها على كل حال لم تكن تعرف معانيها .

وهكذا استمرت على تهجي الكلمات باللعب على الأصابع حتى مرت عليها أسابيع خمسة اكتشفت بعدها (هيلين) بأن ما تهجاه يعني أمور خاصة وهي تحدث عن هذا قائلة : « ففي يوم من الأيام كنت ألعب مع لعبتي الجديدة إذا بالآنسة (سليفان) تضع اللعبة القديمة في حضني وهي تهجي كلمة لعبة وحاولت كثيرا أن تفهمني أن كلمة لعبة تدل على الاثنتين . وفي أوائل أيام تعليمي كلمتي : ك . و . ز ، م . ا . ع . سعت الآنسة سليفان بكل ما لديها من مقدرة أن تؤكد علي بأن ك . و . ز . يعني (كوز) وكلمة م . ا . ع . يعني (ماء) غير أنها فشلت في مهمتها وبعد حين قدمت إلى برنيطتي فعلمت أنني ذاهبة معها إلى نزهة حيث الشمس الدافئة أن هذه الفكرة التي قد يمكن أن ندعوها بالشعور الصامت — ملأت نفسي غبطة وسرورا . »

الكلمة الأولى التي نطقها هيلين وتأثيرها :

« سرنا في طريقنا إلى الحقل حيث كان الناعور يدور فيسقى الزرع بالماء .
جلسنا قرب الساقية فأخذت معلتي يدي وغطستها تحت سطح الماء فما أن شعرت
ببرودة الماء وحركة جريانه على يدي حتى أخذت معلتي تهيجي كلمة الماء على
يدي الأخرى بكل تودة ثم صارت تسرع في التهيجي وبغته انبثق في ذهني نور
كشف لي بعض الشيء عن سر اللغة فأدركت أن م. ا. م. يعني هذا الشيء البارد
الذي كان يتدفق بين أصابعي وقد أنعشت هذه الكلمة روحي وبعثت في قلبي
الأمل وأطلقت نفسي من سجن مظلم مرير واذن فلقد كان لكل شيء اسم له
في الذهن خيال خاص .

تركت بيت الناعور وأنا راغبة كل الرغبة في التعلم وما عدت أمس أي
جسم من الأجسام إلا وكان يشعروني بهزة خاصة كأنها هزة الحياة . وبهذه
الطريقة استطعت أن أتعلم الكثير من الكلمات يوم رجوعنا إلى البيت لا أتذكر
الآن من بينها إلى القليل كالأم والأخت والأب والمعلمة . تأمل إذن وانظر إذا
كان بإمكانك أن تجد طفلا هو أسعد مما كنت أنا حيث أمسى ليلي في نهاية
اليوم الحافل وأنا فرحة انتظر يوما جديدا يهبل علي لأعمل فيه وأتعلم . وفي صيف
عام ١٨٨٨ لم يكن لي عمل سوى السعي في أن اكتشف بيدي وأتعرف إلى
أسماء الموجودات التي أعثر عليها وهكذا بت ولدي مفتاح كل المعارف وفي نفسي
الرغبة التامة للاستعانة به والاستفادة منه . »

تتعلم القراءة وبعدها بثلاث سنوات تستطيع أن تنطق :

« أما المرحلة الثانية ذات الأثر في تعليمي فهي إتقاني القراءة ، فند أن تمكنت
من تهيجي القليل من الكلمات قدمت لي معلتي لوحات من المقوى مطبوع
عليها بعض الكلمات بحروف بارزة ، وما أسرع ما عرفت بأن كل كلمة بارزة

كانت تدل على شيء من الأشياء ، فاستطعت بواسطة هذه اللوحات من تركيب بعض الجمل القصيرة من تلك الكلمات ، وهكذا مهدت لى الانتقال إلى الكتاب المطبوع ، فصرت أجد فيه لذة التنقيب عن الكلمات التي كنت أعرفها من قبل وأدرس فيه الكلمات الجديدة وبقيت على هذا حتى صرت أتقن القراءة جيداً .
ومرّ يوم من أيام الربيع في عام ١٨٩٠ استطعت فيه أن أتكلّم فكان يوماً مشهوداً مرّ في تاريخ حياتي ، أخذت أصوّت فأضع إحدى يديّ على حنجرتي ، والأخرى أعقب فيها حركات شفقيّ ثم أتقوّه بما قدرت عليه ، هذا وكنت أطرب لكل جسم يثير صوتاً وأتوق إلى أن أشعر بهير القط ونباح الكلب وأرغب في أن أضع يدي على حنجرة كل إنسان متكلم علنيّ أشاركه بما ينطق به .
وهنا وصلت إلينا معلمة أخرى اسمها الآنسة « سارة فولر » فوافقت على تدريبي على التكلم بالطريقة التالية :

كانت تحرك يدي بحقة على وجهها ، وتسعى في أن تشعرني بموضع لسانها وشفتيها عند ما يقوم بإحداث صوت من الأصوات ، فكنت أرغب في تقليد كل حركة تولدها ، وفي ساعة من الزمن مكنتني على أن أتلفظ ستة حروف من حروف الهجاء وهي :

(م . ب . ا . س . ت . ص . ج) واستمرت في تدريسها إياي حتى أكملت (١١) درساً في أيام متفاوتة ، وإني لا أنسى دهشتي وعظيم فرحي حينما نطقت بأول جملة متصلة وهي قولي « الجوّ دافئ » ، ومع اعترافي بأنها كانت جملة مفككة العرى وقد تلفظتها بصعوبة إلا أنها كانت على كل حال رسالة من منطقي إنسان .

ولا بد للطفل من أن يظهر عظيم سروره عندما يتلفظ كلماته الأولى وهكذا كنت أنا حيث أصبحت أناجي بكلامي الأحجار والأشجار والأطيّار والحيوانات الأخرى وكنت أدعو أختي الصغيرة (ملديد) فتسرع إلى مقبلة وتمثل ما أمرها

به والحق أن هزة الفرح كانت تطغى وأنا أعبر عن خواطري بكلمات يشق عليها غالبا أن تنطق بسهولة . »

ومن الواجب أن لا يتسرب إلى الذهن أن هيلين كيلر كانت قادرة على التكلم بصورة حسنة ، خلال هذه المدة الوجيزة فقد تعلمت النطق وهي لا تفهم سوى معاملتها أما بقية الناس فكانوا لا يقدرّون على أن يفهموا منها إلا بضعة من كل إذ كان من الصعب عليها إن تتلفظ بفصاحة لأنها — كما علمت — كانت تعتمد اعتمادا كلياً على أصابعها أولاً وعلى تتبع حركات شفاد المتكلمين ومعالم وجوههم ثانياً وكانت تقضى حيناً غير قصير حتى تستطيع أن توافق صوتها لكلمة أو جملة مما تريد أن تنطق به .

وعلى هذا نشطت قواها الذهنية ونمت سريعاً بعد أن استطاعت أن تنطق وأن تقرأ .

ولما أصبح في مقدورها أن تقرأ بدأت بمطالعة جميع الكتب التي كانت في متناول اليد وصارت مغرمة بها إلى حد بعيد لأن الكتب كما ذكرت هي التي كانت تعرفها بالموجودات التي حولها مما لم يكن في مقدورها مشاهدتها فضلاً عن كونها الرفيق الذي لا يمل أو يسأم وإن أعادت ما فيها مرات ومرات .

ولما بلغت السن العشرين دخلت كلية (راد كلف) فقضت فيها سنوات أربع حتى حصلت على شهادة التخرج . أما هيلين كيلر اليوم فهي عضو فعال في زمرة المفكرات اللاتي يشغلن أمر تنظيم المشاكل الخاصة بالحياة الجديدة .

الفقر من أشكال القضايا التي داهمت الإنسانية منذ أقدم العصور، ولقد سعى العالم فيما مضى لإيجاد علاج يبرىء به هذه العلة التي منى بها المجتمع ولكنه كان الفاشل دواما في محاولاته وتجارييه، ومع هذا فإنه لم يكف عن العمل في هذا السبيل وهو إلى اليوم يواصل سعيه حتى يهتدى إلى ما يشد.

إن في كل عصر وفي كل بلد جماعات من التوسع لا يمكنهم أن يمدوا أنفسهم — جزاء ما اقترفت أيديهم أو أيدي غيرهم من الناس — بما يطلبون من كفاف العيش ليسدوا به رمقهم، وإننا لمثل هذا الفريق من الناس الذي لا تعينه مكاسبه على أن يحتفظ لنفسه بمستوى المعيشة المتوسط أطلقنا كلمة « الفقير » ولكن ليس كل من يدعى الفقر بفقير إلا إذا بدأ عليه ما يظهر التخلف التدريجي في الصحة والنشاط كلما تقدمت عليه الأيام واشتدت عليه وطأة العوز والفاقة . ولا شك أن البعض من هؤلاء يتكفل على الإعانة الفردية أو العامة فإن كان كذلك فيدعى « شحاذاً » أو « سائلاً » . فالتسول إذن حالة اتكالية من قبل من يروم الإحسان من الأفراد أو المؤسسات الخيرية غير أن هناك آلاف كثيرة من الناس تعيش في الفقر ولكنها غير سائلة وهي تكافح على طول الخط فستطيع في النهاية أن تعيش رغم أنها تعيش عيشة مرة وتقاسى آلام الحرمان الشديد ومع هذا لا تجرب أن تمد يدها للتسول والعطاء . وقد قدر عدد الذين يتكفون جزءاً أو كلاً على الإعانات الفردية أو العامة في الولايات المتحدة الأميركية بـ ٥ في المائة والأرجح أن هذا العدد يفوق المعروف بوجود من لا يعلن فقره إذ يستمر في الكفاح دون أن يطلب المعونة من الغير، وبناء على هذا تصبح نسبة الفقراء إلى مجموع السكان بـ ١٠ في المائة تقريباً وهي نسبة لا تنكر أهميتها ولا يزدري بخطرها . ولدى مقارنة هذا العدد بما في الممالك الأخرى نجد أن هذه النسبة تتفق والواقع أيضاً ولربما كانت نسبة المتسولين في الممالك الأوروبية أكثر بكثير مما هي في أمريكا ،

وفي مدينة لندن تخمن نسبة الفقراء بـ ٣٠ في المائة من الناس على أقل تقدير بينما تبلغ هذه النسبة في مدينة نيويورك بـ ٢٥ في المائة مع العلم أن الفقر أكثر انتشاراً وشمولاً في المناطق الصناعية الكثيفة السكان مما هو في المناطق الزراعية .

عوامل الفقر :

عوامل الفقر عديدة ومعقدة وفي الإمكان أن تحصر بصنفين رئيسيين :

- ١ — العوامل التي يمكن إرجاعها إلى الفرد .
 - ٢ — العوامل التي تعود في الأصل إلى البيئة التي يسكن فيها ذلك الفرد .
- وبهذا يمكن تسميتها بالعوامل الشخصية والعوامل الاجتماعية .
- أما العوامل الشخصية فتتلخص بما يأتي :

- ١ — المرض .
- ٢ — الطوارئ الحادثة .
- ٣ — الشيخوخة .
- ٤ — الإنحطاط الأخلاقي أو النفسي .
- ٥ — الحرمان .
- ٦ — الإدمان على المشروبات الروحية .
- ٧ — سوء التدبير .
- ٨ — الجهل .

ولعل المرض أهم هذه العوامل المذكورة إذا اعتبر كعامل مستقل، والإحصائيات التي تحتفظ بها ملاجيء الفقراء الخيرية تؤيد ذلك بكل وضوح فإن ربع مجموع الطلبات التي ترد إلى مثل هذه المؤسسات من الجهات المختلفة للحصول على المساعدات والأجور كلها تشير إلى أن المرض هو السبب الرئيسي المهيء للفقر . والطوارئ الحادثة التي تسلب الإنسان القدرة الوقتية أو الدائمة على القيام بأعمال منتجة كانت أيضاً فيما سبق عاملاً مهماً للفقير غير أنها اليوم أخف وطأة من الأمس وذلك في البلاد التي أدخلت نظم التأمين على حياة العمال . أما الشيخوخة فأمر لا بد من أن يصيب يوماً ما كل إنسان تريد أن تمدد الطبيعة بعمر طويل والواقع أن هناك آلافاً مؤلفة من هؤلاء الشيوخ لا تستعد ليومها هذا ، وهي بمجموعها تكون صنفاً من الناس أتعبه العمل المتواصل في شبابه وخلف أيام مجزه أو بعد وفاته عوائل (١٥ — ندى الفجر)

لا تجد أمامها شروى تغير لأنه لم يستطيع هذا الصنف من الناس أو لم يرغب في وقته في التوفير أو الاقتصاد. وقد أخذت بعض البلدان الأوربية بالاهتمام في شئون أمثال هذه العوائل فأسغفتها عن طريق أمدادها برواتب دعتها برواتب تقاعد العجزة . والحرمان عامل رابع من عوامل الفقر ونعني به وفاة رب العائلة الذي يؤمنها بالمال والعيش وبفقدانه تتحمل نساء وتتيتم أطفال ، وقد خف تأثير ذلك لمدى قصير في بعض الأماكن بالترتيب القاضى بدفع رواتب تقاعدية للأرامل ولمدى أبعد باهتمام البعض ممن يريد أن يحتفظ بصيانة أفراد العائلة ويطمئن على حياتها من بعده وذلك بالتأمين على الحياة لدى إحدى شركات التأمين المعروفة .

أما الانحطاط الأخلاقى أو النفسى (ويدعى بالحوؤل أيضاً) فأمر ذوبال في مشكلة الفقر التى ندرسها . وهو عبارة عن ورائة الضعف العقلى أو الجسمى من الأبوين أو من أسلافهما إلى الأولاد ، فقد ثبت أن الأفراد المصابين بالضعف العقلى يورثون غالباً هذا النقص إلى أطفالهم فينشأ هؤلاء ولديهم داء عقام لا يستطيعون التغلب عليه يصحبهم ماداموا فى قيد الحياة ويكون كحجر عثرة فى سبيل تقدمهم ونجاحهم ، والمقدّر أن نصف من يسكن الملاجئ العامة تقريباً هم من الأفراد الذين لا يملكون المستوى العقلى الاعتيادى . وقد أجريت دراسة دقيقة قبل عدة سنوات على إحدى العائلات المعروفة فى أمريكا لأربعة أجيال وهى الجد الأكبر والجد الأصغر والأبوان والأولاد فوجد أن (٥٠٠) فرد من بين (٧٠٠) فرد على أقل تقدير وهو مجموع أفراد هذه العائلة ابتداء من الجد الأكبر الذى كان مصاباً بالحوؤل أصبحوا كلهم ولو لوقت من الأوقات من المستعطين للخيرات العامة . ومن المناسب أن نذكر هنا أن هذه العائلة كانت قد وهبت من أفرادها عدداً أكثر بكثير من النسبة المعينة إلى مختلف السجون ودور المجازيب . ولا يبعد أن يرث بعض الأطفال فى مثل هذه العائلات شذوذاً جسمى ظاهراً بدلاً من الانحطاط العقلى أو يكتسبون هذا الشذوذ فى أوائل حياتهم كخرس الصم أو العمى أو الكساح ونظير هؤلاء

كثيرون ممن نلتقى بهم في الشوارع العامة أوفى الأزقة يتسولون أو يبيعون بعض الحلى أو لعب الأطفال أو يعزفون على بعض آلات الغناء كوسيلة للشحاذة . هذا وقد دلت التجارب أن الإدمان على المشروبات الروحية من أقوى الأسباب المهيئة للفقر في مختلف العصور غير أن الكحول من العوامل المهمة في قضايا الفقر الذي يمكن أن يضبط أمره ويحكم زمامه من قبل المجتمع نفسه .

أما سوء التدبير والجهل والعادات السيئة والرذيلة فكلها أسباب تتباين بأهميتها ولكنها في الأصل عوامل فعالة تدعو أصحابها للفقر إن لم يكن اليوم فغدا وهي أمور تظهر عادة في الفرد من جراء نقص عقلي أو خلقى أو جسمي متأصل فيه أو مكتسب من محيط فاسد أو بيئة دينية .

أما العوامل الاجتماعية التي تبعث الفقر إلى الوجود فهي عديدة أيضا والبطالة إحدى هذه الأسباب وهي غالبا لا تحدث من الاخطاء الشخصية للعامل بل نتيجة نقص ظاهر في نظمنا الصناعية فتخفيض رواتب العمال وبالأخص النساء والأولاد جرّ إلى الفقر لأن هذا التخفيض يعنى وضع هؤلاء العمال بحالة عجز لا يتمكنون فيها من تجهيز أنفسهم بالغذاء المطلوب وبهذا لا يستطيعون أن يحافظوا على قواهم البدنية الاعتيادية ولا أن يوفروا المبالغ الكافية التي تعينهم أيام المرض والشيخوخة وعلى هذا يصبحون عالة على الملاجئ الخيرية العامة أو الملاجئ الفردية في الحصول على الاعانات في أوقات الشدة والضيق . والغاية من قانون الحد الأدنى للأجور (الذي سنته بعض الممالك المتقدمة) هي حماية المجتمع من الشرور التي تنجم مباشرة أو بصورة غير مباشرة من قلة الأجور .

والمعروف أن أحوال المعيشة غير الصحية والسكنى الرديئة والازدحام كلها أسباب تؤدي لا محالة إلى الفقر، وهي أسباب اجتماعية لأن المجتمع هو الذي يبدعها ويسمح في نمائها فالمعيشة غير الصحية تؤدي إلى المرض والمرض يدعو إلى البطالة

وهذه كلها من منتجات الفقر أيضا حيث يضطر الفقير وفقا لما تستدعيه نظمنا الاجتماعية والاقتصادية إلى الخضوع إليها والاستسلام لها من جراء فقره ، كما أن نقائص نظم التعليم عندنا وأهدافه زادت من الفقر بين الناس أكثر مما تتصور وليس أهمية ذلك بأقل من معرفتنا أن الفقر منتشر انتشارا فظيما في الممالك والأصقاع التي يطغى بها الجهل وتسودها الأمية ، والتعليم الإجبارى من أفضل الوسائل التي استخدمها العلم المتمدن أخيرا لصدد تيار الفقر وكبح جماحه وفي الإمكان إذن أن نقول بعد كل هذا أن أسباب الفقر عديدة لا يمكن إرجاعها برمتها إلى هفوات الإنسان وأخطائه فالمجتمع مسؤول عن بعضها أيضا بصورة عامة .

كيف تعالج مشكلة الفقر : لقد تغير الاتجاه العام فيما يخص مشكلة الفقر تغيرا ظاهرا مدة الخمسين سنة الماضية فقد كان ينظر إلى الفقر قبل هذا لعدة عصور كنتيجة خالصة إلى الجموح الإنسانى المتولد من أعماله الشخصية وعواطفه الثائرة وبهذا قيل أن الفقر يلزم أن يعمّر ما دامت هذه الطبيعة البشرية موجودة ومتأصلة ، ولذا كان من المسلم عند الكل أن الفقراء يجب أن يكونوا في كل وسط وفي كل مجتمع ومن العبث مقاومة الفقر بأية وسيلة تبتدع ؛ وكل ما كان يعمل به الناس تجاه الأمر الواقع هو معاقبة الطيش وسوء التدبير بينما تقدم العطايا للفقراء المستحقين . وجميع الوسائل التي اتخذت من قبل معظم الحكومات والجمعيات في مختلف الممالك الأوروبية والأمريكية حتى السنوات الأخيرة في سبيل إعانة الفقراء كانت كلها مبنية على هذا الاتجاه فالإنسان الذى كان فى مقدوره العمل ولا يقدم عليه كان يعتبر من المتشردين وعلى هذا كان يؤخذ ويودع فى السجن ومن وجد فقيرا لمرض أو علة أو كبر السن أو الازمان أو غير ذلك من الأسباب الشخصية فإنه كان يؤخذ إلى بعض المؤسسات كالمستشفيات أو دور المقعدين والعجزة أو ملاجئ الإحسان أو دور المدمنين أو غيرها ، وكان الناس فى كل مكان يشجعون على تقديم العطايا للفقراء والمعوزين ولم يكن ليخطر على بال أحد حتى الأيام الأخيرة أن يقوم بعمل اجتماعى

منظم لينع نمو الفقر ويوقف انتشاره إلا القليل القريب إلى العدم .
أما اليوم فالاتجاه (وخصوصا اتجاه الطبقة المتنورة) قد تغير أو هو في طريق
التغير ، فمن يدرس مشكلة الفقر بدقة ويتفهم أسبابها وطرق انتعاشها يجد أنها أحرأ
من الأمور التي هي من المستلزمات الضرورية للحياة المتقدمة كأعمالها من الأمور
التي قضى عليها أو كاد كالقرصنة والرق والطاعون الدملي والادمان على شرب
الكحول والحقيقة أن الفقر — شأن هذه — يمكن استئصال شأفته بالرغم من
أن الوسائل المطلوبة للوصول إلى الغاية هي أشق وأعظم .

و بالطبع أن العلل الشخصية للفقر عاملة عملها في كل حين ومكان ، والبشرية
لا يمكن مثلا أن تفلت من الشيوخة مطلقا فهي تصيب كل إنسان تقريبا إن لم
يكن اليوم فقدا ومن الصعوبة أن نأمل مهما كانت الظروف التخلص من الأمراض
والأوجاع والحوادث بصورة قطعية ؛ ولكن أليس من الممكن على المجتمع أن يضعف
بذور هذه الأسباب أو غيرها من الأسباب الاجتماعية كالبطالة مثلا حتى لا تنبت
نباتا حسنا ولا تترعرع لتخلق من الفقر وحشا ضاريا لا نستطيع دفعه أو إبعاده .
تلك هي نظرية هذا الاتجاه الجديد في حل مشكلة الفقر . إن هذا الاتجاه سائر نحو
العمل للوقاية من الفقر وهو لا يرى في الإحسان والعطاء إلا المراوغة والكذب
في التعامل مع هذا الداء ويقول إن ذلك لا يختلف عن السعي في القضاء على
الأمراض الجسدية المعروفة وتخليص الإنسان منها بالعلاج بعد أن طغت وجه الأرض
وأصابت أصقاعها النائية والدانية .

علاجات الفقر المؤقتة :

إن الحل المؤقت الوحيد لمشكلة الفقر هو إزالة الأسباب المذكورة آنفا غير أن
هذا لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهود جبارة ولا بد في نفس الوقت من استعمال
وسائل مختلفة من المسكنات الآنية التي يجب أن تنجز من قبل السلطات والمؤسسات
المختلفة . والمراقبة العامة التي ترمى إلى الاعتناء بالفقراء كعلاج مؤقت تتخذ شكلين

ظاهرين يعرفان بـ (١) المراقبة الداخلية و (٢) المراقبة الخارجية . ويقصد بالمراقبة « الداخلية » الاعتناء بالفقراء من قبل المؤسسات الحكومية والأهلية أو البلدية وفيما مضى كان المتسولون على مختلف أنواعهم يحشدون في ملاجئ الفقراء دون تفريق أما اليوم فقد سعت السياسة العملية إلى إنشاء مؤسسات متنوعة لهم : منها للمرضى ومنها لأصحاب الشذوذ والضعف العقلي ومنها للعجزة والمقعدين ومنها ما يخص الأطفال فقط وفي كثير من الحكومات نجد فيما عدا ذلك مستشفيات خاصة لمثل هذه الأمراض بأدوارها المزمنة ودوراً للأيتام وملاجئ أو مدارس للعميان وغيرها . أما « المراقبة الخارجية » فيقصد بها أسداء المعونة إلى بعض الفقراء وهم في بيوتهم ، فالناس المحتاجون يطلبون من النظار على مثل هذه الأمور الإعانة اللازمة بعد إثبات عوزهم فيحصلون على القوت واللباس والوقود والأدوية التي هم بأمر الحاجة إليها وهذا هو كل ما عمل فيما مضى تديراً لهذه المشكلة إلا أن بعض المدن الكبيرة أزالته بالكلية هذه الطريقة عن عائق الشعب لأنها شعرت بسوء استعمالات خطيرة تنأت من ورائها وبدون أن تكون محكمة الإدارة فأنها تصبح أكبر مشجع للحيلة وتكلف مبالغ طائلة من أموال الشعب العامة وتتجه الرغبة اليوم إلى إلغاء هذا النوع من المراقبة واستبداله بمؤسسات خاصة تشرف على عملها إشرافاً تاماً . وفيما عدا ذلك فإن المراقبة الخارجية تمنح هباتها دون تمييز وهذا يعطي المجال الواسع للتبذير والخداع ، فالكسالى من الناس يسعون كثيراً ليربحوا مكسباً طيباً فيقدمون طلبات إلى مختلف المؤسسات للحصول على الإعانة الكافية وهم بعملهم هذا يفوزون بما يريدون من بضع مؤسسات ولإزالة هذا الخلط تشكلت في بعض المدن الكبيرة الأوروبية والأميركية (جمعيات الإحسان) فأخذت على عاتقها تنظيم العمل تنظيمًا دقيقاً ووسعت دوائرها بحيث أمكنها من ضبط ذلك بسجلات مرتبة وقدمت لموظفيها تعليمات يجرون بموجبها في منح العطايا سواء أكانت فردية أو غير فردية .

العلاجات الدائمة :

حل مشكلة الفقر حلاً دائماً يلزم استعمال وسائل وقائية أشمل وأبعد أثراً مما ذكر سابقاً . إن بعض هذه الوسائل مستعملة فعلاً في الوقت الحاضر من قبل الحكومات المتقدمة وبعضها مقترح وعلى وشك التنفيذ لأنه مؤيد بقوة من قبل الرأي العام في مثل هذه الحكومات ، والوسائل المستعملة الآن هي التأمين ضد المرض والحوادث واستخدام قانون الحد الأدنى للأجور ثم قانون أجور التقاعد للأرامل والعجزة وهذه القوانين أصبح لها عمل كبير في بعض الأقطار الأوروبية ثم التأمين ضد البطالة وهذا وإن كان غير ضامن مجللاً إلا أنه بتعديل نظام الصناعة لا بد وأن يساعد على تخفيف وطأة البطالة الموجودة في الوقت الحاضر . وإن منع تجارة المشروبات الروحية كان له الأثر الفعال في تقليل الفقر كما أن المدارس المهنية للعميان والصم والمقعدين كلها أصبحت دوراً لتدريب هؤلاء التعساء على بعض الأعمال المهنية ما يمكن أن يسهل عليهم العيش بهناء ، وزيادة على ذلك فإن جميع أصحاب الشذوذ في المؤسسات العامة أمكن بكل سهولة إيقاف ازدياد عددهم . وباستطاعتنا أن نمنع الازدحام والمعيشة غير الصحية بواسطة تخطيط المدن الحديثة وسن قوانين إنشاء الدور الراقية . ولكن هل يمكن يا ترى أن ينعدم الفقر بالكلية بتنفيذ كل ما حرر من الوسائل ذاك ما نشك فيه فعلاً غير أنه إذا نفذت تلك الأمور بهصرامة فإن درجة الفقر تنحط انحطاطاً بيننا دون شك والأهم ، من كل هذا يجب أن ندرك دائماً وفي نفس الوقت مدى الخطر الذي ينشأ من تنفيذ القوانين والأنظمة التي من شأنها ترقية حالة الفقراء أكثر من اللزوم لأن ذلك يشغل كاهل الطبقات العاملة ويرهقها ولنعلم أن السعي في تضيق الثغرة بين الأغنياء والفقراء عن طريق جباية الضرائب الاختيارية فاشل ولا يزيد الفقراء في النهاية إلا عناء فوق عنائهم . والمعروف أن علماء الاجتماع يذكرون عادة عن الفقر أنه علة اجتماعية ويؤكدون لنا بأنه كسائر الأمراض يمكن أن يقطع دابره ببعض العلاجات الناجعة . وهذا

صحيح ! غير أن الأمراض لا تستأصل شأفتها بالضرب على رؤوس الأحماء حتى لا يكون لهم إلا ما قل من خير يصيب المرضى وعليه لا يمكن إبادة الفقر بوسائل ترهق الموسرين لا لسبب إلا لكونهم أرفه حالا من الفقراء فالفقير لا يمكن جعله غنياً بطريقة بسيطة وهي جعل الغنى أفقر .

الشذوذ العقلي :

نرى من المناسب جداً أن نذكر حجة موضوع مشكلة الفقر شيئاً موجزاً عن الشذوذ العقلي : أن للشذوذ العقلي أنواعاً ترتب ابتداءً من الضعف العقلي البسيط حتى الجنون أو الاختلال العقلي الشديد ، ولقد أحصى عدد الأشخاص المصابين بالشذوذ العقلي على أنواعه في الولايات المتحدة فكان مجموعهم يقرب من نصف مليون شخص أو شخص في كل (٢٠٠) فرد من سكان البلاد المذكورة ، ولم تجر حتى السنوات الأخيرة أية محاولة للتفريق بين الأفراد المصابين بأنواع الاضطرابات العقلية فكانت تعالج جميعها بنفس الطريقة التي تتم بها معالجة بقية الأنواع ، وكان التدبير المعتاد لهذه الأمراض يتم بجمع أصحابه في دار واسعة للمجاذيب بحيث يؤخذ المصابون بالجنون الشديد ويقيدون بكل تحفظ أما الأشخاص المصابون بآلته الخفيف غير المؤذي فكانوا يمنحون حرية أوسع . إن هذه الطريقة الفجة للتعامل مع هؤلاء التمساء الذين هم بحاجة إلى معالجة طبية أكثر من حاجتهم إلى الحبس أو الحبس قد تركت بصورة مطلقة تقريباً في كل مكان ومعالجة الشذوذ العقلي اليوم تسير وفقاً لطرق عامية حديثة وتشمل هذه الطرق العلمية تشخيص كل قضية على حدة ودراستها دراسة متقنة وإبدال الحبس بالمعالجة الطبية وبنتيجة هذه الطرق أظهرت كثير من القضايا التحسن البين وفي بعض الأحيان الشفاء التام . ويحمل بنا أن نذكر هنا أن بعض أنواع الجنون لا يمكن شفاؤها مطلقاً بطرق المعالجة المعروفة في الوقت الحاضر غير أنه يمكن إنقاص عدد من أصيب بالشذوذ العقلي بصورة مستمرة بأفضل طريقة وأضبطها وهي منع انتقال هذا الشذوذ عن طريق

الوراثة وذلك بالمعالجة الخاصة لهذه الأمراض العقلية فور ظهور الأعراض الأولى لها ،
و بتحریم الإدمان على المشروبات الروحية وإبطال عادة استعمال الخدرات وهما
أمران طالما ساعدا على انتشار الجنون بين من يعتاد أحدهما أو كليهما .

وهناك مسألة أخرى ذات أهمية وهي زواج المعتوهين وأصحاب الشذوذ العقلي :
إن هذا الزواج يجب أن يمنع منعاً باتاً إذ أن عاقبته وخيمة على المجتمع فهو لا يساعد
إلا على املاء دور الفقراء والمجازيب والسجون ، وهناك من يذهب في مذهبه هذا
إلى أبعد من ذلك فيرى وجوب توسيع سلطة الحكومة في ضبط الزواج الذي يتم
حتى بين الاصحاء أيضاً وأن تتخذ جميع الوسائل لتحسين وترفيه هذا الزواج إن
تم بكل صورة ممكنة ، فالزواج بنظر هؤلاء ونظر العالم المتمدن أساس البيت وهو
إذن أساس النظام الإجتماعي وهو المؤسسة ذات الأهمية الكبرى البعيدة الشأن
في إصلاح المجتمع فكيف إذن والحالة هذه أن يترك أمره لهوى الأفراد تتحكم فيه
ميوهم الزائلة ورفقتهم الناشئة عن طريق الصدفة .

والواقع أنه كيفما كان الباعث على الزواج فإنه يمكن أن نقول بحق أن أكثر
ما يجمع الرجل بالمرأة لا يهب شيئاً لصالح المجتمع في حاضره ومستقبله . أمن الصحيح
إذن أن يترك أمر هذه المؤسسة الخطيرة التي يعود نفعها للجنس البشري عامة في
يومه وغده إلى قانون بسيط اعتيادي أو إلى التقاليد أو إلى التصرف الفردي ؟ هل
يمكن ترقية الجنس عن هذا السبيل ؟ وهل هناك أمر يجب الأخذ به هو أبعد
أشراً في إصلاح المجتمع من منع زواج أصحاب الشذوذ العقلي والمعتوهين ؟

أَهْدَافُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ

« ولكنكم عبثا تحاولون أن تجعلوهم مثلكم . لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء ولا تُلد لها الاقامة في منزل الأمس » .

جبران خليل جبران

لا شك أن من السهل جدا تحديد بما يراد بأهداف التربية والتعليم في بلد ما فهي لا تتعدى تدريب الناشئة تدريباً حسناً بحيث يمكنها من المعيشة الصالحة في الحياة . ولكن إزاء هذا الجواب لا نستطيع إلا أن نتطلب المزيد فتتحرى عن معنى ذلك بشيء من التفصيل لفهم معنى المعيشة الصالحة وأسلوب هذا التدريب الذى يمكن أن يوصلنا إلى ما نرمى إليه .

وقبل الخوض فى صلب الموضوع نرى من الضروري جداً أن نذكر شرطاً أساسياً واحداً وهو : وجوب تنظيم المدارس بحيث تتفق جهودها وحاجات الحياة المتجددة ولو حداً بنا ذلك إلى قلب الكثير من مواد المنهج المقرر . فالمدارس القديمة مع مناهجها المحدودة وأساليبها البالية وخريجياتها الفاشلين لا تستطيع أن تدرب الناشئة تدريباً يمكنها من المعيشة الصالحة فى المجتمع الحديث كما يجب ، وعلى هذا يلزم إجراء تبديلات أساسية فى مواد المنهج المدرسى وفى طرق التعليم حتى يصبح فى استطاعة هذه الناشئة أن تخوض معتزلة الحياة العملية بكل فلاح وفقاً للظروف التى تتطلبها . ولكن علينا أن نتفق — قبل البدء بهذا — على أهداف التعليم لأن هذه الأهداف هى بالحقيقة المقياس الوحيد الذى يمكننا أن نزن فيه مقدار التبدلات المقتضية . ولا يوضح ذلك نضرب المثل الآتى : قد يصادف أن يتجادل معلمان مدة طويلة عن أى المدرسين يجب أن يأخذ المسكان الأول فى المنهج المدرسى أهو الألعاب الجبازية أو الرياضة البدنية وهما إذا ما اتفقا فى بادئ الأمر على أن الصحة هى أسمى ما تصبو إليه التربية والتعليم حينئذ يتضح لها بسهولة أن الرياضة البدنية تعنى بالصحة أكثر من أى نوع آخر من الألعاب فإننا عند ذاك نجدنا أقرب إلى الاتفاق منهما إلى الاختلاف .

وإن هذا هو شأن العقلاء الذين يرمون إلى الإصلاح المنتج فهم لا يتسرعون للبحث فى الوسائل الإصلاحية عن موضوع ما إلا ويوضحون فى مستهل عملهم

الأهداف الرئيسية التي يرمون إليها ويسعون في الاتفاق عليها ومن ثم يبحثون في أصل الموضوع فيسردون أوجه الإصلاح التي ينشدونها على ضوء تلك الأهداف التي اتفق عليها ليروا عما إذا كانوا قريبين إليها أو بعيدين عنها فيستكون عندئذ السبيل السوي .

وبعد هذه المقدمة نطرح أمام القارئ الكريم أهداف التربية والتعليم كما يراها أولو الشأن في الموضوع ، ومع أننا سوف لا نطيل في كل منها إلا أنها ولاشك ستطبع في الذهن صورة جلية عن مرامي التربية والتعليم الجليلة والتي نفتقر لأكثرها إلى حد بعيد .

وهذه الأهداف هي مايلي :

١ — الصحة : وهي أول أهداف التربية والتعليم وقد يعد ذلك تطرفاً إن أعطيت إليها هذه المنزلة وخصوصاً من قبل من اعتاد أن يعرف أن أول أهداف التربية هو تعليم الناشئة أصول الكتابة والقراءة ، ولكن إن أريد أن تعيش هذه الناشئة بخير فهذا يكون الأفضل لها أن يعتنى بصحة أجسامها وأن تفهم طرق الوقاية من الأمراض من أن تتعلم حتى القراءة والكتابة . وما الفائدة يا ترى من هذا التعليم إذا كان سيصبح هو نفسه من الأسباب التي ستؤدي بها إلى المرض أو الموت ؟ وما هو جدير بالذكر أن نسبة معدل الوفيات بين الأطفال والناشئين في الشرق الأدنى عالية جداً فلو اهتمت المدارس بهذه الغاية لمبطت هذه النسبة دون شك عما هي عليه إلى حد كبير .

إن اهتمام المدارس بالصحة تتجلى بالطرق الآتية :

١ — إن باستطاعة المدارس أن تعلم أصول الصحة والفلسفة في أى من صفوفها دون النظر إلى درجة هذه الصفوف فالتلامذة يجب أن يلموا بمبادئ هذا العلم فيعرفوا مثلاً أن النظافة شرط رئيسي للصحة وأن الجراثيم تتكاثر في الأقدار والأوساخ ، وعلى المعلمين أن يقوموا صباح كل يوم بالتفتيش عن نظافة طلابهم

وخصوصا نظافة الأوجه والآذان والأظافر ومن المستحسن أجبارهم آتيا على الغسل إن كان لازما حتى يسهلوا عليهم بعد تفهم القواعد من اكتساب عادات صحية حسنة .

٢ — وباستطاعة المدارس أيضا أن تشجع حركة الرياضة البدنية والألعاب المفيدة بين طلبتها وهذا يستلزم بالفعل أن يكون لكل منها ساحة فسيحة تستخدم لهذا الغرض . والواجب بعد هذا أن يخصص وقت معين كل أسبوع على الأقل يقوم فيه الطلاب بإشراف أحد المعلمين ببعض التمارين البدنية العامة ، وعلى إدارة المدرسة كذلك تشجيع السباقات المختلفة تشجيعا كافيا كل يوم بعد الدوام .

٣ — وباستطاعة المدارس كذلك أن تعتنى بين آن وآخر بالفحوص الطبية لطلابها ، وعلى هذا الأساس اعتمدت أكثر الجامعات على إجراء الفحص الطبي لمنسبها في بداية كل سنة وذلك لعزل من يكون مصابا منهم بمرض معدى ومداواته قبل أن يستفحل شره أو يصيب أحدا غير صاحبه . والأجدر بمعلمى القرى (وبالأخص فى المناطق التى ينتشر مرض التراخوما بين سكانها) أن يقوموا صباح كل يوم بصورة جدية ودقيقة بمداوة عيون التلامذة بمحلول كبريتات النحاس بنسبته المعينة ، لأن المعروف عن هذا المرض السارى أنه يستمر وينمو حتى يعمي صاحبه إذا لم يكبت أو يوقف عند حده . إن هذا العمل هو من جملة ما يقوم به معلموا المدارس القروية فى غير هذه البلاد التى تكثرت فيها إصابات هذا المرض الويل .

أليس إذن من المهم أن تستعد المدرسة لمحافظة عيون تلامذتها فى الوقت الذى ترشدهم فيه على كيفية الاستفادة منها أثناء القراءة والكتابة ؟

٢ — قيادة العمليات الأساسية : إن الهدف الثانى من التربية والتعليم الذى كان له المقام الأسى فى الزمن الماضى هو جعل الولد قادرا على قيادة العمليات الأساسية وهى التكلم والقراءة والكتابة وقواعد الحساب . إن هذه العمليات لا تخفى أهميتها

في حياة الناشئة الاجتماعية بحيث يغنيها ذلك عن بيان الأسباب في وجوب تدريسها وتعليمها للصغار وخصوصا وقد اتفق الكل على هذه الغاية بصورة مطلقة . ونحن إذا ما خضنا في البحث عن هذا الهدف نجد أنفسنا أمام عدة مسائل معقدة : — فما هي اللغة التي يجب أن يتعلمها الطفل حتى يتكلم ويكتب ويقرأ وهل يكفي هذا الغرض لغة واحدة أو لغتان أو أكثر من ذلك ففي سوريا مثلا تعتنى بعض المدارس بتدريس خمس لغات لكافة طلبتها على اختلافهم بحيث لا تستطيع أن تدرس فيها عداها من علوم . وحتى إذا تعلم الطفل اللغة العربية بمفردها فكم من الوقت يجب أن يصرف لتعلم اللغة الأدبية التي قلما يستعملها أبناء القرى في حياتهم أو كم من الوقت يجب أن يصرف في تعلم اللغة العامية . ومع أن هذه اللغة الأخيرة لها اعتبار ضئيل بالنسبة للأولى ولكن أليس لها كل الفائدة العملية في المعيشة القروية الصالحة .

وهناك أمر آخر في هذا الموضوع له أهميته الخطيرة : فالمعروف أن كل أمة من الأمم تنفق على مؤسساتها التعليمية مبالغ معلومة من ميزانيتها السنوية فإذا كان الحال كذلك فهل الأصح أن تصرف هذه المبالغ على أساس ١٪ من عدد الأطفال الذين هم في السن المدرسي لمدة عشر سنوات تعليمية أو أن يعطى للأطفال جميعهم دون استثناء سنة تعليمية واحدة ، وقد صادف غالباً أن كانت المبالغ غير كافية لأن تصرف على جميع الأطفال حتى يحصلوا على التعليم الكافي وعندئذ يتحتم علينا أن نلم بطرفي المشكلة ؛ فهل يكون الأفضل حينئذ أن يمنح جميع الأطفال مقدار من التعليم أو يقتصر على البعض منهم لتزويدهم بدرجة كافية من التعليم ؟ ولكن هل ياترى ستقوم هذه الفئة من السكان بواجبها بعد استفادتها من التعليم الكافي تجاه مصلحة المجموع فيصبح أعضاؤها زعماء الوطن الجادين لعمل الخير أو أنهم سوف لا يقتنعون بحياتهم البسيطة فيها جرون إلى المدن الكبيرة ويستخدمون ثقافتهم التعليمية لمنافعهم الذاتية . وحتى إذا قررت تلك الأمة انتخاب عدد قليل من الطلاب

لإدخالهم في مؤسساتها التعليمية فمن هم الطلاب الذين سيشملهم هذا الانتخاب وهل يجب أن يكونوا فقط من أبناء الأغنياء الذين في مقدورهم دفع الأجور المدرسية ولو فرضنا أن الأمة تحيا حياة ديمقراطية بحيث يتساوى في الانتخاب الفقير والغني من سكانها على السواء فإننا مع هذا سوف لا نجد المجالات الكافية في المدارس لجميع المقبولين من الطلاب . وعلى هذا الأساس وجب في النهاية قبول البعض وإبعاد البعض الآخر .

إن فحوص الذكاء جديرة بالاعتبار في هذا الشأن وذلك لغرض انتقاء الطلبة ذوى الاستعداد العقلي المتين والكفاءة الطبيعية وإدخالهم في مؤسسات التعليم المختلفة . ولعل الاسترشاد بالطريقة التي تتم أحيانا في بعض الجهات وهي أخذ الأطفال للتدريب مدة ثم انتخاب الأذكياء منهم بعد انتهائهم لإرسالهم حيث يستطيعون إكمال التحصيل المدرسي هي ذات فائدة جليلة أيضا .

إن كل أمة لا تتبع في سياستها حرية التعليم العام يجب أن تجرى طريقة الانتخاب في قبول التلاميذ إلى مؤسساتها التعليمية على اختلافها بشرط الإشراف عليها من قبل هيئة نزيهة تميل بها إلى حيث تصبح في صالح المجتمع دون سواه .

٣ — الحرفة :

إن الهدف الثالث الذي يصبو إليه التعليم والتربية هو تدريب الناشئة على حرفة يزاوئها كل منهم بعد تخرجه للكسب والمعيشة . إن العمليات الأساسية التي ذكرت آنفا يمكن الانتفاع منها في جميع الحرف على أنواعها غير أنها لا تكفي فابن الفلاح القروى يلزم أن يتعلم بالإضافة إليها شيئا عن أساليب الزراعة الحديثة كما أن ولد التاجر أو الصانع يجب أن يدرَّب في مدرسة تجارية أو صناعية كيفما كان الحال فيتعلم التجارة أو النجارة أو الخياطة أو السباكة أو الميكانيك أو غير ذلك من الصناعات والفنون . أما التعليم العالى وبضمنه الكليات التحضيرية والجامعات

فيأزم أن تكون في متناول اليد للطلبة البارزين الذين يرمون الشخص بإحدى المهن المعروفة كالطب والقانون والإدارة .

إن المدارس الاعتيادية في الشرق الأدنى على اختلاف أنواعها حكومية أو أهلية أو أجنبية تهتم عادة بالعمليات الأساسية مع تدريس القليل من التاريخ والجغرافية ومبادئ العلوم وتعطى بجانب ذلك لمحة مختصرة عن فوائد الحرف . وهنا نقدم وصفاً لابتكارين جديرين بالاعتبار يجرى تطبيقهما في بعض المدارس لنبين كيفية تنفيذ هذا الهدف الحرفي في التعليم :

١ — سعت بعض بلدان الشرق العربي قبل حين في إدخال دروس الزراعة العملية في مناهج المدارس القروية بعد أن وجد أن تسعة أعشار المتخرجين منها يشتغلون بالفلاحة .

ولتنفيذ ذلك بصورة متقنة استحصلت الحكومة على أرض ذات سعة معينة في كل قرية وألحقها كبساتين أو حدائق بالمدرسة التي فيها ثم أخذت — بمساعدة مراقب زراعي خاص — على تدريب أولاد هذه القرى على الأعمال الزراعية التي تلائم حاجات كل منطقة منها ففي إحدى المناطق يدرّب الطلاب على تربية دودة الحرير وفي أخرى تزرع المحضرات وفي ثالثة منها تزرع الحبوب وكافة الأقسام بصورة تدرب عامة تدريباً عملياً على القواعد الرئيسية لعلم الزراعة كطريقة انتخاب البذور وكيفية إجراء عمليات التلقيح وكيفية تناوب المحاصيل أو الغلة وأساليب الري الحديثة . أما معلموا هذه المدارس فيعطى لكل منهم الفرص الكافية لدرس هذه الأبحاث في مدرسة زراعية قبل أن يقوم بتدريب طلابه عليها في المدرسة القروية .

٢ — والمشروع الثاني المستعمل لغرض تنفيذ هذا الهدف التعليمي نجده في مدرسة (صيدا) للبنات التي تشرف عليها الإرسالية الأميركية . فقد اتضح لمعلمات هذه المدرسة أن طالباتهن لا يستطعن الاستفادة في الحياة العملية من دروس (ندى الفجر — م ١٦)

الفيزياء والهندسة والجبر وغيرها من الدروس المعينة في مناهج مدارس البنين التي تستحضر خريجيها للدخول في الكليات ، وذلك لأن كافة متخرجات هذه المدرسة بصورة عامة يتزوجن ويصرفن باقي حياتهن في البيوت كزوجات وأمهات فإذاً وجب أن يكون البيت وأعماله ومستلزماته وحاجاته هو الحرفة الأساسية التي يجب أن يتدرب عليها البنات ، وهكذا قام المعلمات في ترتيب المنهج وفقاً لهذه الحاجات فوزعن البنات في دور مستقلة فأصاب كل دار (١٢) بنتاً ثم عينت وجائب كل دار فصارَت تقوم بعملها الذاتي كالطبخ والتنظيف والخياطة والرياضة وغيرها بحيث تأخذ كل بنت دورها في كل وظيفة من هذه الوظائف .

أما في الصفوف فيتعلمن بالإضافة إلى العمليات الأساسية طرق الطبخ والتغذية وكيفية عمل ميزانية البيت وضبط حساباته وتفصيل الملابس مع الكثير من وسائل تزيين داخلية البيت وغيرها من مباحث البستنة والفلسفة والصحة وسكّجة الطفل . وإننا لنجد في هذه المدرسة مشروعا فذا لتكثيف التعليم النسوى وفقاً لحاجات الأنثى الأساسية في مملكة متقدمة .

٤ — عضوية البيت الصالحة :

ولما كان البيت وحدة الأمة والمجتمع فالواجب على المدرسة أن تتعاون والبيت على تدريب الطفل تدريباً يرشده إلى أن يكون عضواً صالحاً في العائلة ، فكيف تقوم المدرسة بواجبها تجاه هذا الهدف ؟

١ — فالمدرسة تفتح أعين طلابها بتأثير الإدراك الأدبي والعلمي إلى الكثير من المحاسن فيرى كل منهم مثلاً دوراً غير داره فيتخيل منظر المثل الأعلى للدار وتأثير مطالعته في كتب اللغة أو غيرها مما يعثر عليها في ساعات فراغه بين كتب المكتبة قد يصادف التلميذ أثناءها مناظر متنوعة للدور التي تفضل داره وجوه عدة : من حيث الطراز والنسق والجمال وغيرها ، كل ذلك مما يبعث فيه الشعور بإنماء الرغبة لتحسين داره على غرارها .

٢ — والمدرسة تخفق في كثير من الأطفال الجرأة على مشاركة أوليائهم في البيت بما حصلوا عليه من التعليم . ففي الغالب يصل الأطفال إلى بيوتهم فيخبروا والديهم بما تعلموه في المدرسة وليس ببعيد أن يتعلم هؤلاء من أبنائهم أحيانا أموراً يجهلونها وكمثل لذلك نورد مايلي : سعت المدارس المصرية قبل مدة في تعليم طلابها الصغار الحقيقة الآتية وهي : « أن شرب ماء الخنادق والأخاديد مضر بالصحة وإن مياه المضخات هي أفضل وأمن » فتحاملت العامة على هذا بأن قالت أن شرب مياه المضخات يسبب ضعف الحيوية التناسلية . وهنا جاء دور هؤلاء الطلبة فتناقش الولدان والوالدون وأخذوا بمقاومة هذا التحامل الخطيء حتى تغلبوا عليه . وأن يتعلم الطلاب طرق انتشار بعوض الملاريا فإنهم يدفعون عوائلهم بالإرشاد والمعاونة على دفن المستنقعات إن وجدت حول المساكن منعاً لتفريخ البعوض وتكاثره فيها .

٣ — ولا يقتصر تعليم طلاب المدارس على كيفية تحسين معيشتهم البيئية في أحوالهم الحاضرة بل يدفع بكثير منهم إلى أن ينشئوا في مستقبل أيامهم بيوتاً أفضل وذلك عندما يصبحون على رأس عوائل جديدة فعليهم أن يستعدوا على كل حال لمهنة الأبوة أو الأمومة كيفما اتفق وهم إذا ما نالوا حضا من التعليم العالي يجب عليهم أن يدرسوا سلكجة الطفل بحيث يتفهموا مبادئ هذا العلم وأصوله مما يساعدهم على تربية أطفالهم تربية زمامها العلم وقائدها الحب وهي تربية التوجيه الإيجابي وليست تربية الضرب والتخويف .

٥ — العضوية المدنية الصالحة :

إن من واجب كل مدرسة أن تستهدف الغاية السليمة لخلق الإخلاص والحب نحو الوطن في كل تلميذ من تلامذتها وكذلك بث الشعور الحق نحو المسؤولية الاجتماعية . فكيف يتم ذلك ؟ قبل كل شيء يجب أن يكون هناك لغة عامة ونظام مدرسي موحد يسيره مواطنون لا أجانب . ولا شك أن قراءة الأناشيد الوطنية الحماسية ودراسة التاريخ

الوطني وتعشّق عن أبطال المملكة ورجالها المؤسّسين لمجدها التليد كلها عوامل مساعدة لخلق الإخلاص المتين السامي في نفوس الناشئة . وإذا أريد مع هذا إنماء الشعور الحميّ في المسؤولية الاجتماعية فمن الضروري تعليم الأطفال الشئ الكثير عن الحكومة وأعمالها وقضاياها ومشاكلها والمعروف الآن أن دراسة علم الاجتماع يساعد مساعدة كلفة في تنشأة مواطنين من الطلبة أشد رصانة ومتانة في الأخلاق ، غير أن معرفة أصول هذا العلم واكتساب المعلومات الإضافية عن كيفية الانتخابات وطرق جباية الضرائب وما يأمله الناس من موظفي الحكومة تجاه وجائبهم وغيرها من أبحاث هذا العلم كل ذلك غير كاف لإحياء عقلية مواطن إجتماعية ولكنها على كل حال المرحلة الأولى من المعلومات . أما المرحلة الثانية فهي العاطفة والروح وذلك باستفزاز كل ما في الطالب من عاطفة لجلبه إلى حضيرة الإيمان : الإيمان الصادق بمبدأ صحيح لا يعتوره شك ولا اعوجاج يندفع فيه لأخذ دوره فيما بعد للعمل في كل ما يجعل حكومة بلاده أكثر تقدماً وفلاحاً . إن هذا ولا شك هو الشعور الحميّ في المسؤولية الاجتماعية . ولا تأمل أن تجد في الممالك التي يشعر فيها مواطنوها بهذا الشعور أناساً ينتظرون من حكومتهم أن تقوم لهم بعمل كل شئ ، إذ طالما سعوا بالمساهمة في الخدمة فهم مثلاً يشكّون فرقاً كشفية من الأولاد للإشراف على أطفال الشوارع وردعهم من ارتكاب الجرائم التي يساقون من أجلها إلى السجون وبذا يعينون بعملهم هذا رجال الشرطة ودوائر المحاكم أو أنهم يقومون بجمع المبالغ لفتح المدارس وإنشاء المستشفيات أو غيرها من المؤسسات العامة أو مساعدتها إن كانت عاجزة لتسير إلى الأمام في جهودها وذلك بدلا من أن يقبعوا في زوايا الدور أو المقاهي وليس لهم من عمل سوى تحريك الألسنة وإنزال اللوم على الحكومة لأنها قصرت في بعض وجائبها .

٦ — الاستفادة الحقة من أوقات الفراغ :

لا شك أن التقدم الصناعي له أثره المحسوس بتقليل ساعات العمل الإعتيادية

لكل جيل بالنسبة إلى الجيل الذي تقدمه ، فبينما كان العامل فيما سلف يشتغل طول يومه إذا به اليوم يقتصر على معدل ثمانى ساعات فى النهار الواحد ، وهذا ما يطيل بالطبع من أوقات الفراغ . ومما لا جدال فيه أن الفرد يكون عرضة للسوء والضرر إن بقى خاملاً وقد يشقى إن لم يعرف ماذا يعمل ونحن كلما أخذنا باتباع الطريقة الغربية وهى الحصول على أوقات فراغ أكثر أصبحت قضية الاستفادة الحقة منها أكثر أهمية وأشد خطورة . وعلى هذا كان لزاماً على المدارس أن تعود الناشئة على النزهة الكاملة حتى لا تضع أوقات فراغها هباء .

والآن تعال معي أيها القارئ الكريم لأدلك على ماهية هذه النزهة الكاملة فى الشرق الأدنى اليوم فهى لا تتعدى الجلوس فى المقاهى وقتل الوقت فى السهرات والتدخين والمحادثة بما لا طائل تحته واللاهو وهو ما لا يثمر ولا يعود بالنفع على صاحبه .

إن فى مقدور المدارس أن تخلق فى طلبتها الرغبة فى الألعاب والرياضة التى تجعل أوقات فراغ المتخرجين فيها أكثر حيوية مدى حياتهم أو أن تخلق من الأفراد غواة بأن تشجع فيهم الميل لبعض المناظر أو الأعمال أثناء الحياة المدرسية وذلك كجمع الطوابع أو الضرب على إحدى الآلات الموسيقية أو التمثيل أو الحفر على الخشب أو البستنة أو غير ذلك من أنواع التمتع العلمى أو الأدبى أو الفنى . وما الأعمال اللامنهجية التى تحتفظها المدارس والجامعات إلا فرص للطلاب حتى يخوضوها فيخلق لنفسه عادات من شأنها أن تجعله أقوى فى الاستفادة من أوقات فراغه . ولعل أعظم منحة تهبها المدارس لطلابها هى حب المطالعة والمدرسة التى تحي هذه الرغبة فى منتسبيها بحيث يقبلون على مطالعة الكتب القيمة غير المقررة للتدريس بكل سرور ويستمتعون على ذلك بعد تخرجهم فيها هى والله من أعظم المدارس الناجحة فى العالم ، وذلك لأن الفرد الذى يندفع إلى عالم الكتب والتأليف ويكون مسروراً بهذا الإندفاع يقدم لنفسه فرصاً غالية لا تعد ولا تحصى ، فهو ينمو عقلياً كما

طالع ودرش ويوجد لنفسه متبعاً فياضاً للسرور في جميع أوقات فراغه على مدى الحياة ولعله يفوز في النهاية بأشرف أشكال النزهة المعروفة في العالم .

٧ — الخلق الأدبي :
وعلى المدرسة أن لا تستهدف في تربيتها وتعليمها إتمام أدمغة الطلبة وتقف عند حدها هذا بل عليها أن تتغلغل فتربي الأخلاق أيضاً .
ومما لا شك فيه أن ممالك الشرق الأدنى بحاجة قصوى إلى رجال متعلمين للقيادة والزعامة ولكن هي بحاجة أشد إلى رجال ذوي أخلاق أدبية رصينة كالأمانة والإستقامة والنزاهة وإنكار الذات والإنكباب على العمل الجدى النافع ، وهي أخلاق نحن معاصر الشرقين بحاجة إليها كحاجتنا إلى الفطنة والمهارة والمعرفة .
والآن لتري كيف يمكن لمثل هذه الصفات أن تربي بواسطة المدرسة التي تعتقد بضرورة استهداف هذه الغاية الأدبية .

١ — إن بعض المدارس تجرب ذلك بتدريس المعلومات الأخلاقية والدينية ففي مثل هذه الدروس يجب أن تدرس الفروض الأخلاقية وتشرب روحيات الأبطال الأدبية وزعماء الدين في نفوس الطلبة ، ولكن بدون أن تكون شخصية المعلم ممتازة ومؤمنة بما تقول تصبح أمثال هذه الدروس غير نافعة بل خطيرة ولا تكون باعثة للوحى الخلقى المطلوب وإذن فتمسى فاشلة في إثارة نفوس الطلاب إلى الإندفاع إلى العيش الأدبي الجميل .

٢ — وسبيل آخر للوصول إلى هذه الغاية هو الذى يتم عن طريق المحاضرات والمحادثات فى الصفوف وبالأخص فى الدروس الإجتماعية حيث يؤكد المتكلمون باستمرار ولكن من جهات وأطراف مختلفة على الناحية المثلى للحياة الأدبية .
ومع ظننا أن الكثير من ذلك قد لا يوحى المطلوب ولكن لا يستبعد أن يثير فى طالب أو بضعة طلاب ما يجربهم إلى العيش الطيب بشكل من الأشكال .

٣ — إن بعض المدارس وبالأخص إذا كانت ذات أقسام داخلية بحيث

تستطيع مراقبة طلابها مدة ٢٤ ساعة يومياً تعتمد كثيراً في تهذيب العادات على ما تقدمه لهم من دروس عملية، ففي مثل هذه الأقسام يؤكد على السلوك الحسن أثناء الجلوس على المائدة وفي قاعات المحاضرات ومن جراء إنصاف الزميل لزميله في غرف السكنى وإلى غير ذلك مما له علاقة متينة بالآداب والأخلاق.

٤ — على أن المؤثر الأعظم في هذا الشأن والذي يظهر بالأخص في المدارس الرفيعة هو شخصية المعلم، فالمدبر والمعلم هما من أكبر العوامل في دفع الطالب أو عدم دفعه إلى المعيشة الصالحة. ومن الصعوبة بمكان أن تحصل كل مدرسة على معلمين يمكنهم أن يكونوا أبطالا لطلابهم بكل معنى الكلمة. والمرجح أن من أقوى المؤثرات في بناء الأخلاق الرصينة في حياة المدارس اليوم هو الحركة الكشفية إذ لها أبعاد الأثر في نفوس طلاب المدارس من الوجهة التهذيبية والخلقية من أي أمر آخر وما يبرر دعوة هذه الحركة إنها انتشرت في بحر الأربعين سنة الأخيرة منذ أن تأسست في كل ممالك العالم تقريباً ولها ملايين المنتمين من الشبان وتتضمن قوانينها ونظمها وأعمالها بما يعود بأفضل الفوائد على المنتمين إليها من الطلاب من حيث إنماء الأخلاق والمثل العليا في النفوس.

٨ — التفاهم الدولي :

وهذا هو هدف آخر يرمى إليه التعليم ويقصد بذلك إحياء شعور الطلبة الذين سيصبحون فيما بعد مواطنين في مملكة ما من ناحية التفاهم الأممي. ولما كانت جميع الأمم في العالم تعتمد على بعضها البعض ولو لحد ما ولها علاقات متينة فيما بينها لذا فواجب كل أمة تطلب النجاح في سياستها الخارجية العامة أن تتفهم حقيقة غيرها من الأمم وعلاقة بعضها ببعض على شرط أن تتم الوحدة القومية قبل كل هذا، وللوصول إلى هذه الغاية تهتم بعض الكليات بتدريس العلاقات الدولية في أقسامها كما أن المدارس الثانوية تدرس غالباً مباحث التاريخ العام الذي لا يقتصر الكلام فيه عن مملكة واحدة.

ومن المعروف أن لزيارة جماعات الطلبة لبعض الممالك أثره الفعال في تقوية العلاقات الدولية بين الطرفين حيث أن اختلاط الطلبة الجامعيين من مختلف الممالك مع بعضهم البعض وينشئ بينهم صداقة متينة تحيا في بعض الاوقات على طول الزمن وبذا تصبح وسيلة خطيرة للوصول إلى الغاية المنشودة في تقوية العلاقات الدولية أحياناً .

وبالحلخصة من كل هذا الموضوع هي ما يلي :

ليس من الضروري أن تكون الغايات المحدودات التي ذكرت آنفاً هي كل الأهداف المطلوبة من التربية والتعليم أو أفضلها ولكننا ذكرناها بقائمة نموذجية لا نريد بها إلا أن نستفز المطالع إلى التفكير في هذا الموضوع الحيوى ولعل هذه القائمة تبين مستوى عالياً جداً أو أنها تظهر مستوى أعلى بكثير مما يمكن تطبيقه في أى مملكة من ممالك الشرق الأدنى ولكن مما لا جدال فيه أن النظام التعليمى في أى مملكة تصبو للتقدم يرتقى كلما استمرت هي في كفاحها لقبول المثل العليا في المناهج المدرسية ، وعلى كل فالواجب يحتم الإتفاق على أهداف التعليم قبل الأقدام على أى إصلاح منشود في هذه المناهج .

الصَّخَّافَةُ وَالرَّأْيُ الْعِظَامُ

« ما أضعف الإنسان وحيداً وما أقواه
حداً متضامناً » .

ارسطاطاليس

الرأى العام :

لا يخلو حديثنا اليومي من ذكر عبارة « الرأى العام » فنردها عندما نريد تكوين رأى عام لإحدى الشخصيات المعلومة تمهيداً لترشيحه نائباً أو رئيساً لإحدى الجمعيات الوطنية أو الجمعيات الرياضية ، ومع أنا نكثر من استعمال هذه العبارة فى معظم الأحيان إلا أن البعض يجهل معناها الحقيقى الذى وضعت له .

اعتبر فلاسفة الإقتصاد والسياسة الأقدمون الإنسان بأنه ذات عاقلة مساقاة بالإنانية وهو فى الأصل مخلوق تطغيه الإدعاءات والإفتراضات إلى حد بعيد وتتحكم فيه أقوى الدوافع وأشدّها ، والواقع أن علم النفس الحديث (بعد تجارب مستمرة) ساعد على دراسة الجنس البشرى من وجوه أخرى مختلفة وكان عوناً لنا على تأييد ما ذهبنا إليه فى الحكم على هذا المخلوق . ولا ينكر أن نسبة الآراء المستحدثة لما هو مقتبس ومدون زهيدة جداً فالذى يعود إلى نتاجنا الإدراكى من أعمالنا المتنوعة يعد بالنسبة إلى ما أنتجته الأجيال نزر ضئيل فخرى إذن والحالة هذه أن تسائل نفسك كيف توصلت إلى الأمور التى بنيت منها رأيك وأن تعرف الشاهد والسامع والخاص والمتكلم ممن اشترك فى تفهم تلك الأمور : أكان هو الرجل الذى أوصل إليك الخبر أو هو الذى أوصل الخبر إليه أو غيرها ممن بعد عنه هذا وذاك ؟ وأنظر ما سعة المجال الذى منى به عند المشاهدة أو متى أخبرك الخبر بأن انكلكترا عازمة على كذا وكذا ، واسأله أى جزء من بلاد بريطانيا العظمى استطاع مراقبته حتى كان قادراً على أن يلم بذلك الخبر ، ثم حقق عن مكانه حين المراقبة أى انكليزى استطاع مشافهته بالأمر وأى الصحف طالعها وماهى مصادر أخبارها ، نعم فى إمكانك أن تسائل نفسك بكل هذا ولكنى أخبرك من الآن بأنك تعجز عن الإجابة فى أكثر الأحيان وإذن فاعرف أن الشقة بين رأيك والحادثة التى تقرأ عنها بعيدة وبعيدة جداً وقد أردت تذكرك فانتبه .

والحقيقة أن الرأي العام الصادق يلزم أن يكون حكماً عاماً في قضية يعود أمرها لصالح الجمهور بعد تمحيص عقل شامل ، والرأي العام الذي يحسن أن تطبق عليه هذه العبارة في الأوساط الديمقراطية يجب أن يكون عاماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ولعل الأكثرية تسمى غير كافية إلا إذا كانت الأقلية تنجاه هذا الرأي قانعة بمضمونه لا عن خوف وقلق بل عن رضى وطمأنينة وإذا كانت الديمقراطية تامة فخضوع الأقلية لهذا الرأي العام يلزم أن لا يحمل قلوبها أى ضغينة أو حقد . ولا يفوتنا أن الرأي العام لا يقتصر وجوده في الأوساط السياسية والاقتصادية فحسب بل أنه يتغلغل في كل من معتقداتنا الدينية وأعمالنا اليومية . هذا هو تاريخ الأديان شاهد على أن غالب العقائد والمذاهب وراثية يدلى بها الوالد إلى ولده والأم إلى ابنها فيقبلها كل منهما حسب ما تمليه عليه سلطة الأبوين والمعلم . وإذا اختلط كل إنسان نهجاً في معتقداته دون أثر لمؤثر فقد يمكن أن تتضائل الاختلافات بين الأديان وتتقارب حدود بعضها لبعض كما حصل فعلاً في سويسرا بين الكاثوليك والبروتستانت خصوصاً وإن جوهر الأديان واحد والمعبود خالق لا شريك له ، ولكن ألا تظن أن ذلك من الصعوبة بمكان ؟

إن هذه النتائج لا تعود إلى عوامل وراثية في نطفة الإنسان من شأنها أن تجعل الطفل مستعداً لاكتساب عقيدة أسلافه ولكنها اكتسابية محصورة في البيئة ، ونكتفى الآن بمثل محسوس عن الانكشارية التركية تلك القوة العسكرية الهائلة التي اختارها السلاطين العثمانيين لتكون سلاحهم . اختار السلاطين هذه القوة من نخبة ممتازة من الشبان المسيحيين الذين أخذوا صغاراً من بيوت أوليائهم وعندما سبوا اعتنقوا الديانة الإسلامية ومع أنهم ثاروا ضد ملوكهم مرات بنتيجة العسف والظلم لكنهم لم يظهروا أى ميل بالمروق عن الإسلام والارتداد إلى المسيحية دين آبائهم وأجدادهم . والقاعدة العامة في هذه الصدد هي إن معظم الناس في كل ملة يشايع عقيدتها لا على أساس معلوم إلا لسكونه يمت إلى تلك الملة بصلة .

كيف نكون رأى العام :

هناك طرق عدة نستطيع بها خلق رأى عام منها أن نعرض على الجمهور ما يثير عنده الحماس والطموح ، أو نميت فيه ما لا نريد بالحكم الأوتقراطى أو القوة المطلقة ، أو نستخدم ألسنة الخطباء للتنديد بالنقص والشروع بالإرشاد إلى طرق الإصلاح ولكن كل هذه الأساليب لاتعلو على قوة تأثير الصحافة والتأليف فالكتب لها وقع بعيد في توجيه أفكار الجمهور إلى جهة خاصة والمجلات تساعد كثيراً على تنشئة رأى عام حول موضوع معين ، أما الصحف اليومية فبما لها من قوة التغلغل في مختلف الأوساط الإجتماعية تصبح في الواقع الدعامة القوية والركن المعول عليه في هذا المضمار .

أهداف الصحافة :

لا شك إن الهدف الأول الذى ترمى إليه الصحافة هو نشر الأخبار . ولكن أى الأخبار يراد من الصحافة نشرها ؟ يقول الصحفى المشهور « و . ح . بليير » :
الأخبار هى كل ما يهم جمعاً من الناس وأفضلها ما عاد بأعظم الفائدة لأكبر عدد ممكن من الجمهور .

ولكن ما الفائدة التى يتوخاها الجمهور من معرفة الأخبار ؟ لا ريب أن الفائدة منها هي الإطلاع على ما جريات الحوادث فى العالم القريب والبعيد ، فنحن نريد أن نعلم ما تتخذه دوائرنا الرسمية من إجراءات فى سبيل النفع العام ونريد أن نسمع عما يعترض انجازها من عقبات ونود أن نتفهم ما يشغل جيراننا وأصدقائنا من أمور ونطلب أن نعرف كل ماله صلة بحياتنا الإجتماعية وعلينا أن نسمع ذلك فور حدوثه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وإلى هذا نحت الصحافة منذ البداية وعلى هذا السبيل سارت .

يقضى الكاتب أشهراً فى تأليف كتاب واحد ويصرف الناشر أشهراً أخرى حتى ينبجز طبعه بينما يكون فى مقدور إحدى الصحف الكبرى فى العالم أن تذيع الشئ الكثير من مختلف المواضيع العلمية منها أو غير العلمية فى مختلف الأوساط وفى أقصر وقت ممكن وإلى أبعد مدى يعجز كتاب المؤلف عن نياله .

إن الصحافة لا يقتصر عملها على نشر حوادث طواها التاريخ بين دفت الكتب بل على عاتقها واجب أعظم هو التأثير على رأى الجمهور فيما تبحث وتخط وما المقالات الإفتتاحية بقلم المحرر إلا رأى كان قد تفشى وذاع خبره بين العامة وفيه من اللباقة ما يرجو فيه توجيه الأفكار الى جهات خاصة كما أن الحروف الملونة أو البارزة التى تستعمل بين حين وآخر هى فى الواقع إحدى الأساليب المعروفة لألفات نظر الجمهور الى ماتعنى عند مطالعتها، وكثيراً ما كان تفوق المواضيع غير المهمة سببا فى التأثير المطلوب فى رأى الجمهور . وخلاصة القول أن الصحافة قد أصبحت اليوم لا تكتفى بتقديم الأخبار وسرد الحوادث بل أنها خطت خطوة أبعد من ذلك فصارت تتحكم بزمام الناس فتسوقهم بعد تكوين رأي عام لما تريد وإلى حيث تشتهى .

كيف تدار الصحيفة :

إن اللازم على إدارة الصحيفة هو أن تجمع كل ما يمكن الحصول عليه من أخبار وأن تحتفظ بها جديدة حتى يحين وقت إذاعتها، وعليها تنسيقها والاعتناء بلغة كل مقال منها ثم طبعها ونشرها بأقصر وقت ممكن ، وهذا والحق يقال عمل شاق جداً يحتاج إلى المال والرجال . تصوّر وضع مؤسسة جريدة الأوقات النيويوركية فى بنائيتها الجبارة تحتضن آلاف العمال والمستخدمين كل قد اختص بعمل أو كل إليه ويعلم أنه إذا تأخر عن أدائه كما يرام أعاق قسماً عظيماً من زملائه عن واجباتهم . والحقيقة أن الصحافة فى عصرنا الحاضر تعد من الفنون المنظمة التى تستهلك جهوداً غير يسيرة .

إن إدارة الصحيفة ترتكز على ثلاث دعائم من العمل (١) قسم التحرير (٢) قسم الأشغال (٣) القسم الميكانيكى . أما القسم الأول فهو أهم هذه الأقسام الثلاثة وأن القائمين بشؤونه هم الأصل فى تسيير الدفة وتعيين سياسة الصحيفة العامة وإليهم يرجع الفضل فى إيجاد العلاقة بين الصحيفة والجمهور .

في كل دائرة من دوائر الصحف العالمية الكبرى رئيس عام للتحريير يرأس جميع شعب التحريير الأخرى كشعبة مدير التحريير وشعبة رئيس التحريير المحلي ، خدمتاً لصحيفة الأوقات المسماة (انديانا بولس تايمس) The Indianapolis Times والتي هي صحيفة واحدة من مجموعة من الصحف التي تنشر في مختلف ممالك الولايات المتحدة الأميركية تجد أن السياسة العامة لهذه الصحف تقرر في مركز واحد فإذا قرر رئيس التحريير العام أو صاحب هذه الصحف بأجمعها أن يؤيد أحد المرشحين لإحدى وظائف الدولة الكبرى أملى إرادته برقية إلى جميع مديري التحريير في مراكز الصحف الأخرى التابعة إليه بلزوم إعداد ما يقتضى من المقالات ونشرها على صفحات جرائدهم في اليوم التالي ، وعلى هذا يطلب مدير التحريير حالا من مرؤوسيه تحضير المقالات اللازمة وبعد تهيتها ومراجعتها يخصص لها الحل اللائق على صفحات الجريدة فتظهر جميعها في مختلف الأنحاء مؤيدة ومناصرة للشخص المذكور وبعدها تأمل مقدار تأثير مثل هذه الصحيفة على تكوين رأى عام المهمة من المهمات في مدة وجيزة والصحف الصغيرة التي تدار من قبل فرد واحد يكون لها نفس التأثير ولكن بدرجة أضعف وأقل .

وإذا كانت القضية خاصة بنفس المدينة فيقوم بالأمر رئيس التحريير المحلي : ولنفرض أن المسألة تدور حول إنشاء بناية لمدرسة جديدة على أساس جمع التبرعات من قبل الأهلين هنا يقوم مدير قسم التحريير الخاص بأخبار المدارس بالتنقيب عن المدن التي كانت قد أنشأت مثل هذه البناية ويدقق السبل التي اتبعت لجمع المال فيطبق ذلك على الحالة الراهنة ويقدم لرئيسه جميع معلوماته المفيدة للمشروع حيث يضيف إليها المدير ما يشاء ويعدّها للطبع ويكون قد سعى ليحتفظ للصحيفة القوة والحيوية في إثارة حمية الجمهور لإنشاء المدرسة الجديدة وتكوين رأى عام يعاضدها ويساندها . أوردنا فيما ذكرنا مثالا بارزا عما تفعله الصحف العالمية المنظمة التي قامت بأعمالها في حقول فعالة منتجة فهي لا تمس موضوعا من المواضيع إلا على

أساس ما توحيه التجارب السالفة ، والتنظيم فيها على غاية ما يتصوره الإنسان وإن
رئيس التحرير العام يشرف على جميع الشعب بكل دقة وسهولة .
تأثير الصحافة :

أشرنا فيما مضى إلى قوة تأثير الصحافة وهنا نتبسط في شرح ذلك التأثير في
بلاد واسعة يبلغ سكانها الملايين من البشر: لنفرض أن الصحيفة يشارك فيها ما يقرب
من الـ (٥٠٠) ألف نسمة من الناس كما هو الحال فعلا مع أمهات الصحف في
عواصم العالم الكبرى وبالأستطاعة أن نقدر بدون مبالغة أن خمسة أو ستة
أضعاف هذا العدد يقوم بمطالعة الصحيفة المذكورة وعلى هذا الأساس يكون
لدينا جمع من الناس بقدر سكان العراق يطالع الصحيفة يوميا فتصور مقدار التأثير
المنبعث من بين سطور هذه الصحيفة على الناس . إنه لهائل حقا وأنه يسوق الرأي
العام حيث يشاء !

ولا يفوتك أن الصحافة في الحقيقة تخدم جميع مرافق المجتمع ومصلحه فهذه
الصحيفة المسماة : (ديترويت نيوز) The Detroit News التي تصدر في ميشغن
في الولايات المتحدة الأمريكية نشرت في بعض أعدادها في القرن التاسع عشر
الميلادي اقتراحا لمشروع أدى تنفيذه إلى إبدال الجزيرة المدعوة (هوج إيلند)
Hog Island المهمة إلى منتزه يدعى اليوم (بارك بيلي إيل) Belle Isle Park
والذي يضرب المثل بحمالة وحسن تنسيقه في جميع أنحاء المعمورة .

وهذه صحيفة (كنساس ستي ستار The Kansas city Star) بعد بحث طويل
في فن الزراعة قامت به بضع سنوات إستملككت بقعة من الأرض تبلغ مساحتها
(١٨٠٠ فدان) قرب مدينة كنساس وأحالتها إلى مزرعة أتموزجية تساعد في
حل بعض معضلات فن الزراعة . أما صحيفة (برمنكهام نيوز) The Birmingham
news فتقوم سنويا بنفقات خمسة تلاميذ من المتفوقين في الامتحانات لا كمال
الدراسة في إحدى الجامعات الوطنية وهي تمنح خمسمائة دولار في السنة لـ

واحد منهم . وصحيفة (انديانا بولس تايمس) المذكورة سابقا قامت بحملة عنيفة ضد إحدى الجمعيات السريّة الإرهابية تدعى (كوكلكس كلان) Ko Klux Klan فسعت في إبعاد رجالها خارج ولاية أنديانا وزجّت رئيسها في السجن طيلة حياته ولذا نالت أسمى الجوائز الخاصة بأفضل خدمات الصحافة نظرا إلى عملها هذا . وبهذه الروح السامية المتمثلة في أمثال هؤلاء الصحفيين الأمناء تستطيع الصحافة غالبا أن تصبح أعظم قوة فعالة لتكوين رأى عام صالح في المجتمع .
تبويب الأخبار :

و بإعطاء نوع من المواضيع درجة التفوق على مواضيع أخرى تكتب عادة بحروف صغيرة في أركان غير بيّنة من الصحيفة تستطيع هذه أن تخلق جوا ملاما من الرأى العام لبعض المشاريع أو الأعمال ، وهذا ما نلاحظه فعلا في صفحنا اليومية التي تملأ مواضيعها السياسية عامة الصحيفة . لنفرض أنه قد زيد على ما يكتب من مواضيع في الاقتصاد في صحيفة مامن ٣ عقود إلى ٢٥ عقدا أفلا تظن أن ذلك مما يسبب زيادة اهتمام الناس بالاقتصاديات وهكذا الحال إن اتبعنا الأمر في نواحي أخرى من دينية أو عمرانية أو إدارية . إذن فنوع المادة التي تهتم بها الصحيفة لا بد وأن تؤثر في الجمهور وتقوده إليه مرغما .
العقبات في سبيل الصحيفة :

مهما كان للصحيفة من قوة جبّارة وتأثير في الرأى العام فإن أمامها عراقيل قد لا تكون بسيطة في حد ذاتها .

(أولاهها) : عدم عرض الحقائق كما ينبغي . لنفرض أن هناك فرقة تمثيل أجنبية عزمت على القدوم إلى العراق للاشتغال على إحدى المراسح المعروفة في العاصمة فالصحف تنشر خبر قدوم هذه الفرقة وواحدة منها تضيف على خبر القدوم « — وقد بلغنا أن الفرقة القادمة هي أقل من المتوسط ولا تستحق المشاهدة » . لا شك أن هذه الكلمات لا تقع من الجمهور موقعا حسنا وكذلك لا يستحسنها أعضاء الفرقة وقد يجوز أن يكون الخبر صحيحا ولكن من المحتمل أن يكون رأيا

لفرد من الأفراد كان الأجدر بالصحيفة أن تهمل الإشارة إليه وتترى حتى تتأكد بالتجربة من صحة الأمر وعندها تذيب الحقيقة .

(وثانيها) : نشر مواضيع وبيانات غير موثوق بها وهو ما يحدث وبالأسف في أغلب الأحيان إذ طالما نشرت الصحف أخبار صحيحة ومغلوبة حول الجامعة العراقية فيما ذكرته إحدى الصحف بهذه المناسبة (أن الحكومة العراقية دعت الحكومات المجاورة لإرسال ممثلين من قبلها لحضور حفلة الافتتاح) وقد ظهر بعد ذلك أن الحكومة العراقية لم تنشر أى بيان في هذا الشأن ولا دعت أحداً للإشتراك في الاحتفال الموهوم .

(وثالثها) : استعمال الكلمات بمحملها اللائق لتؤدي المعنى المطلوب . فالجهول بالحقيقة يوصف إلينا بالكلمات فيجب أن تعطى هذه الكلمات صورة كاملة أقرب إلى الواقع . واللغة ليست الوسطة التامة لأعطاء المعنى فالكلمات كالعملة تدور من هنا وهناك لتظهر اليوم صورة أنكرتها يوم أمس ويمكن أن نذكر نظرياً فقط أنه إذا جاز أن نعين لكل مطلب اسماً خاصاً لا يتعداه معترفاً به من قبل جميع الناس لأمكن إزالة سوء التفاهم في المراسلات بصورة قطعية ، ونجد ما يقرب من ذلك في العلوم المضبوطة كالرياضيات مثلاً وهذا سبب واحد من الأسباب التي دعت أن تصبح الفحوص والتدقيقات العالمية من أعظم المؤثرات في جميع مناحي الحياة العملية .

والإنسان بطبعه يحكم زمام قليل من الكلمات هي أقل بكثير مما يعن له من آراء يريد التعبير عنها ، وكما يقولون أن اللغة قاموس لصور باهتة فالصحافي الذي يخاطب نصف مليون قارئ معظمهم في القرى النائية والمدن البعيدة من قارات لدنيا عليه أن لا يرجو من عباراته المختصرة أن يحمل إليهم كل المعاني التي يرمى إليها . ورئيس وزارة بريطانيا العظمى الذي يكلم العالم أجمع باللغة الإنكليزية لا يتفوه إلا بمنطقه الخاص ليحمل به معانيه الذاتية إلى من يسمعه أو يقرأه من مختلف الناس وهم بدورهم لا يحيطون من خطابه إلا بما يرون في كلماته من معانيهم وكيفما تصرف بهائنه وحذقه ليصور ما يقول نراه بعد الجهد والنصب أنه يكلم أدمغة غريبة عنه .

وإن ملايين الناس من الذين يترقبون مطالعة خطابه في الصحف لا يمكنهم قراءة كلماته أصلاً، وملايين أخرى إن عرفت كلماته فلا تستطيع أن تفهم معانيها ومن أولئك الذين في مقدورهم أن يقرأوا ويفهموا (ولنفرض أنهم يكونون ثلاثة أرباع هذه الوحدة) ليس لهم وقتاً للمطالعة سوى نصف ساعة يومياً، وهم في هذه الفترة القصيرة لا يحصلون على آراء قيمة من صلب الموضوع إلا إشارة وتلميحاً، ولا نخطيء إذا قلنا أنهم في النهاية يبنون على هذا التلميح نتائج غير مرتبطة أو مقصودة بالنقل أبداً. وبطبيعة الحال نجد أن الآراء التي تكونت بنتيجة الكلمات المؤثرة تصبح القسم الأعظم من المدلولات الرئيسية لآرائنا فكيف بنا والعالم واسع والحالات التي تهمنا فيه معقدة والشئ الذي يصل إلينا ضئيل جداً ولا بد المخيلة أن تطبع على صفحاتها هياكل الآراء.

أما الإعلانات فإنها مبالغ فيها كثيراً إلى درجة أنها تعد كذبا صريحاً، ولكن ما العمل ونحن نعيش في عصر الإعلان؟ فالإعلانات عن أنواع السكاير وعن الأدوية والعقاقير الطبية وعن السينما والراديو وغير ذلك من مئات الأشياء النافعة تعرض عليك يومياً على صفحات الصحيفة وفي التوقييم السنوى وغير ذلك من الإعلانات اليدوية وقد تجدها في الشوارع، فالإعلان فن يهب من يدرك سره أرباحاً طائلة وهو في أحط أشكاله ملفتاً للنظر مرهفاً للسمع محرراً للعواطف ولكن أتدرى أن الصحف لا تعتمد في أرباحها على المشاركة بل إلى الإعلان وهي تتسابق في ذلك لتزيد في مدى انتشار الصحيفة بتخفيض سعر النسخة الواحدة، والواقع أن مدير الصحيفة كلما أمعن في ذلك قل اعتناؤه في محتويات جريدته فلا يهتم بانتقاء أرقى المواضيع وأمتن المقالات وأصح وأضبط الأخبار ويمسي همه الأكبر افتتاح الجمهور وإذن فالقاريء مفتتن مغبون.

وأخيراً فإن أهمية الصحافة في نشر الثقافة من الواجب الاعتراف به وخدمتها في بث المدنية لا تقدر بثمن وبهذا تتطلب من الكتاب والمحررين أن ينفذوا التعصب والأثرة والطمع وعليهم أن يمتسكوا بالإنصاف والعدل.

الوطنية الصاعدة

« خطاب ألقاه باتريك هنري سنة ١٧٧٥ »

في البرلمان الأمريكي قبيل نشوب الحرب

الأمريكية الإنكليزية وكان عاملاً مهماً

في إشعال نار الحرب التي حرّرت الولايات

المتحدة من نير الاستعباد الممقوت . »

سادق :

لا أظن أن هناك أحداً مثلي من يؤمن بوطنية وإخلاص السادة الذين اعتلوا الآن منبر الخطابة في المجلس . غير أن الرجال تتفاوت وجهات أنظارهم في الرأي الواحد ، وعليه فإني اذ أقف لأدلى إليكم بما لا يتفق وما ذكره وأسمعكم غير الذي أسمعوكم إياه فكلى أمل في أن ذلك سوف لا يحمل على محمل الإزدراء أو عدم الاحترام لأشخاصهم . ولقد عزمت على تبيان فكرتي بكل حرية فالوقت لا يسمح لتقديم فروض التبجيل والتعظيم .

سادق : إن المسألة المعروضة أمام مجلسكم الموقر في هذه الآونة هي بلاشك ذات خطر كبير بالنسبة لهذه المملكة ، أما أنا فأعدها بحق موضوع الحرية أو موضوع العبودية ، وبالنسبة إلى خطورتها علينا أن نفسح المجال الواسع لحرية البحث والمناقشة وبهذا يمكننا الوصول إلى الحقيقة الراهنة لنقوم بالمسؤولية الكبرى التي حمّلها إيانا الوطن والمخالق . فهل يجب علىّ بعد هذا أن أكتف عنكم ما عنّي في وقت كهذا بكل إسهاب إذن لعددت نفسي مجرماً أمام الوطن وأتماً أمام الإله الذي أبجله وأقدسّه أكثر من جميع ملوك الأرض .

إن من طبيعة الإنسان — يا حضرة الرئيس — الإنغماس في أوهام الأمل وهذا هو شأننا الآن إذ نعرض كبرياءاً وجهلاً ولا نلتفت إلى الحقيقة المرّة فيينا نزهف بأذاننا إلى سماع أنغام الغادة الجميلة نعرض عن سماع الأنين والزفرات فهل هذا هو شأن الرجال الذين يناضلون لنيل الحرية . عجباً أكنّا معدودين من أولئك الذين وهبهم الله عيوناً وأذاناً ولكنهم لا يبصرون ولا يسمعون تخليصاً لأنفسهم من الأسر !

إما أنا فنفسى ساعية مهما لقيت في سبيل جهادها من عذاب واصب لمعرفة الحقيقة بمخاطفها وأتأمل كوامن النقص وأقف عن كل ذلك مدافعاً .

لى مصباح واحد أهتدى بنوره وذلك هو مصباح الاختبارات ، ولقد علمتني هذه أن لا سبيل إلى الحكم على المستقبل إلا عن طريق الماضي وبتحكيم الماضي أريد أن أعلم حال سياسة الوزارة البريطانية مدة السنوات العشر التي تصرمت ، وعند ذاك فقط يمكن أن نؤيد أو ننكر ما ذهب إليه السادة الكرام من آمال أرادوا بها تعزية أنفسهم والمجلس معا . هل هي تلك الإبتسامة العذبة الكاذبة التي منى بها طلبنا أخيراً؟! لا! لا تثق بها يا سيدي ! فتلك لم تكن إلا أحبولة لإيقاعك فيها وإذن لا تخدع نفسك بتلك القبلية الباردة وأتم فاسألوا أنفسكم هل تتفق تلك التحضيرات الحربية التي غطت مياهنا وطفقت على أراضينا مع ما قوبل به طلبنا المقدس . أترون أن الأساطيل والجيش ضرورية لعمل حي أو إصلاحى؟ إن هو إلا عنادنا في الرفض هو الذي دفع بتلك القوة الجبارة لا كتساب عطفنا ومحبتنا للمرة الثانية .

لا ليست هذه ولا تلك ! إذن علينا أن لا نخدع أنفسنا يا سيدي ، فليست كل هذه التجهيزات الحربية إلا للقهو والإستعباد وهي آخر ما يميل إليه الملوك لحسم المناظرة وإثبات البرهان .

ولأسأل حضرات الأعضاء ما تعنى تلك الاجراءات الحربية إذا لم يكن هدفها هو قهرنا على الخضوع ، هل يمكن للسادة تعيين باعث آخر لها؟ أم هل بريطانيا العظمى عدو في هذه الجهسات من العالم لتحشد ضده كل هذه الأساطيل والجيش؟ كلا يا سيدي ! فليس لها شيء من ذلك قط وأؤكد لك أن الأمر لا يعدونا فقد جاءت لتقيدها بالسلاسل التي صاغتها لنا الوزارة البريطانية منذ زمن بعيد . فما هي استعداداتنا ياترى لمجابهتها؟ هل نسعى في المفاوضات؟ لا أظن ذلك مفيداً يا سيدي فقد سعينا في ذلك الأمر خلال العشر سنين الماضية . وفشلنا اليوم ألدنيا شيء نضيفه إلى ما سبق؟ كلا لا أظن ذلك ! إذ قد بسطنا الموضوع من كل وجهاته الممكنة وعبثاً جنيئاً من الجميع . فهل نعود عندئذ فنلتجئ إلى الالتماس

والتضرع الخيرين؟ وماهى يا ترى العبارات أو النصوص التى سنستعملها منهم والتي لم تفرغ جعبتهم منها حتى الآن؟

إذن التماساً منك يا سيدى دعنا نتيين الحقيقة خالصين ولا نخدع أنفسنا أكثر من هذا بعد أن عملنا كل ما كان فى مقدورنا عمله لإبعاد هذه العاصفة التى ستهب علينا وشيكاً، فقدّمنا مذكرتنا وطلبنا وتوسّلنا وطرحنا أنفسنا أمام العرش متضرعين راجين توسطه لإيقاف أيدي البرلمان والوزارة الظالمة عند حدها، فما رأينا من جانب العرش إلا الاستهانة بمطالبنا والازدياد فى العنف والشدة تجاه احتجاجاتنا والإهمال بتضرعاتنا والإزدياد بنفوسنا والاستحقار بنا مع التهمك اللادع.

إذن فمن العبث أن نعكف بعد كل ذلك على حب الأمل فى السلام وتسوية الحقوق فلا نور للأمل تبعثه كل هذه الحوادث.

وإذا عزمنا على صيانة امتيازاتنا المقدسة التى كنا ولم نزل فى نزاع طويل للحصول عليها! إذا أردنا أن لا نكف بدناءة عن الجهاد الشريف الذى لم نزل مشغولين فيه والذى قد قطعنا له عهداً متيناً على نفوسنا للحصول على هدفنا الجيد! فما علينا إذن إلا أن نقاتل فالقتال هو الذى أدعو إليه يا سيدى — القتال والدعوة إلى السلاح ولا شئ غير هذا للشعب والوطن.

يجنون علينا يا سيدى بقولهم أننا ضعفاء لا يمكننا مجابهة خصم عنيد قوى كهذا فتى إذن سنصبح أقوياء؟

أفى الأسبوع القادم أو فى العام المقبل؟ أ يكون ذلك بعد أن نصبح عزلاً من السلاح ونرى بأعيننا الحراس البريطانيين كل قداحتل نيتاً وأصبح موكلاً بحراسته؟ هل سنجمع القوة بالتردد والحيرة والسكون أم سنكتب أسباب المقاومة الفعالة بالغفلة محتفظين طيف الأمل الباطل؟ إذن لنقف فقد أتى العدو لشد أرجلنا وأيدينا بوثاقه الحديدى الصارم.

نحن لسنا ضعفاء يا سيدى! إذا تمكنا من استعمال ما وهبه الله لنا وما منحتة

الطبيعة فينا من أسباب وقوى، وإذا كان هناك ثلاثة ملايين من الرجال مسلحين يشدون الحرية والاستقلال فليس يبعد أن نرى كل مملكة مثل التي لنا حريزة تجاه أية قوة مهما عظمت يستطيع العدو من تسييرها ضدنا .

وفيما عدا ذلك — فأننا سوف لا نقاتل وحدنا في المعركة بل سيبحث الإله الرب العادل المشرف على مصير كل شعب من شعوب العالم أنصاراً لمساعدتنا في ميادين الحرب .

والمعارك لم تخلق يا سيدي للقوى فقط بل لمتيقظ الجسور والأبني وزيادة على ذلك أننا يا حضرة الرئيس لا نملك حق الانتخاب وعلى ذلك يصعب علينا الانسحاب من الميدان في هذه الآونة المتأخرة فلا تقهر إلا بالخضوع والعبودية إذ أن قيودنا قد صيغت وصليلها يرن الآن في سهول بوسطن ، وإذن فلا مناص من الحرب وأسمعوني من جديد : لا بد من الحرب ومن إشغالها ومن العبث أن نमित الغزائم كما يسعى في ذلك بعض الأعضاء بترديدهم السلام السلام .

وليعلم هؤلاء أن لا سلام هناك وأن الحرب قد شبت فعلا والعاصفة الهابة من الشمال ستسمعنا قرعة الأسلحة وصليل الحديد ودوى المدافع . إذن كفناكم ! فإخواننا ينتظروننا في الميدان . فلماذا تقفون هنا كالأصنام لا تتحركون ؟ ماذا تطلبون أيها السادة — غير الشرف والعز ؟

عجبا أرايتم الحياة ثمينة فاستذوقتها أرواحكم أم شعرتم بعدوبة السلام فاشتيتها نفوسكم لتقنيها بأثمان القيود والاستسلام . ادفع عنا ذلك أيها الرب الرحيم و بعد أن علمتم كل هذا و بعد أن أدركتم الحق لا أعرف أى السبل ستتبعون أما أنا فامنحوني أحد اثنين الحرية أو الموت .

إِمَامٌ يَنَادِي بِالنُّصَيْرِ إِلَى الْجَنَّةِ

«وَالْأَنْبِيَاءُ هُمْ أَشْأَلُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي
فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ، تَنْصِبُهُمْ يَدُ اللَّهِ عَنْ
طَرِيقِ الْحَيَاةِ لَتَنْتَهِيَ فِيهِمْ عَصُورُ
وَتَبْتَدِي بِهِمْ عَصُورُ وَلَيْسَدُوا خَطَا
الْعَقْلُ فِي تَارِيخِهِ.»

الرَّافِعِي

هذا ابن حيدرة !

حيدرة وصي الرسول الأمين .

وأول مؤمن بالدعوة إلى الحق .

وصاحب القلب الملهم .

وذو الإيمان الرصين .

بالبذل العلوية مبدعة الأكوان .

هذا ابن حيدرة الأمام !

كان مثل أبيه وجدّه .

عبقرياً من الأفذاذ .

وفذاً من العباقر .

سار والهدي يحدوه .

برأس يلتهب ذكاء والمعية .

وبنفس طافحة بالصدق والعزيمة .

ولكن لأيّ شيء سار ؟

لقد سار إلى بناء الأمجاد الإنسانية الخالدة .

حتى يضع بيده الكريمة حجراً فوق الأحجار .

بعد أن يضم الناس إليه في صف واحد .

ويشدّهم إلى بعضهم شداً وثيقاً .

ويجمعهم كافة تحت راية العزّ الخافقة .

راية الإسلام الصريح للسعد .

نم يندفع بهم إلى الأمام .

يفتحون الأفطار ويجوبون الأمصار .

وهم يرتلون أنشودة الحق .

الحق في القول والحق في العمل .

تلك الأنشودة الملائكية الخالدة .

هذا ابن حيدرة .

سليل حيدرة العرين .

وذاك رجل ولا كالرجال .

حمل الأمانة فصانها .

ووهب الحكمة فأبانها .

رجل لم يتبدل ولا كان من المفتونين .

أولئك الذين آثروا العصيان والجموح .

وشقوا على الوصيّة عصا الطاعة .

وراحوا يثيرون في الأمة .

النزوات النتنة .

والأثرات الشرهة .

إلى أن وافاهم الأجل غير مأسوف عليهم .

أولئك هم شرادم الأفاكين .

وجماعة الأوباش السفّاكين .

الذين أبوا إلا أن يصرعوها في الميدان .

فكانت جولة الأب مديدة أخاذة .

شدّت على القوم الخناق .

واستبسلت غير حائرة أو وانية .

حتى جاءوه بالكيد والخديعة .

وقضوا عليه بالسّم والديسة .
وما دروا أنهم يَميتون أنفسهم وهم لا يشعرون .
واليوم عثروا على ابنه الهزير .
المعروف بسيد شباب أهل الجنة .
ذاك هو الحسين بن حيدرة .
بلى أنه ابن حيدرة بالذات .
وابن بنت الرسول الكريم .
وقد عرفوه فعلا وتعرفوا إليه .
وسمعوا قوله وأدركوا كلامه .
ووعوا نداءه .
إنه يتادى بالنصير إلى الجنة .
ساعات وساعات .
ثم أيام وأيام .
ثم أعوام وأعوام .
ولا زال يتادى بنا وبهم وبكل نصير إلى الجنة .
النصير في معركة الحق والباطل .
في نضال الخير والشر .
في حرب النور والظلام .
في صراع العلم والجهل .
أنصتوا إليه من ههنا .
أرهفوا بأذانكم مليًا .
تحسّسوا النداء الصريح الهامس .
أيها الناس ! لا بد أنكم سامعون .

كانوا من الطغاة السفلة .
الذين عاشوا في الحرص والطمع .
وتدنّسوا بالشهوة والعار .
وغلبوا بالخزى والهوى .
ثم ماتوا بالفقر والدنى والآثام .
وتلك قد أشبعتهم ما يكفي .
من عذاب بئس وحسرة نائية .
ولقد حاصروه في بقعة ضيقة من الأرض .
وأسرعوا إليه كالذئب الضارية .
وزحفوا نحوه كالأفاعى السامة .
تريد الافتراس والتقطيع .
ثم انهالت عليه كالوحوش عاوية .
وهجمت عن أنياب مكشّرة لاوية .
ومع هذا فقد عجّزت عن نيل ما تريد .
حتى جاءوه بالسكيد والحيلة .
إذ حبسوا عليه وعلى من معه المساء .
وتركوه صريع العطش والظما .
ثم داروا دورتهم وقضوا عليه .
وما درّوا أنهم يعميتون أنفسهم وهم لا يشعرون .
عجباً أينقلب الإنسان إلى مثل هذا الحال !
فيفق في عمر قصير ضئيل .
ليدفع عن نفسه وعن أهله الخير .

ويرد الحق بالباطل .
ويصارع العرفان بالضلال .
ويستأصل السعد بالنحس .
والفوز بالغبن .
وماذا حلّ بالإنسان ليكون كما كان ؟
حقاً أن الإنسان لطفل غرير .
إن أسيت قيادته دفعت به إلى الشر .
ولا نجاة بعد ذلك .
فانخطأ يدفع به إلى الأخطاء .
والأخطاء تقوده إلى الهوّة .
أما الهوّة فظلمة مهلكة .
خالية إلّا من جوف يبتلع عظام الموتى .
وهناك لا يجد الهاوى .
سوى الفاسد والمنتن مما بلى وبيل .
ابن حيدرة الإمام .
داعى الحق الكريم .
ذلك هو دين الأندال .
في كل مصر وزمان .
يناوون دعوة الحق ويتغنون طمسها .
وبذا يجرّون الناس إلى السقطة والخسران .
وقد إبتلى الشرق بأمثالهم على الدوام .
فكان بهم عاثر الحظ كثير الكبوات .
أولئك الأراذل لا يريدون أن يعلوا عن سطح الأرض مبدرياً

قيد أملة .
هم يتمسكون بالتراب والطين .
أما ملكوت الأثير فقد غاب عن أذهانهم .
ولقد دللتهم عليه وأشرت لهم بيدك إليه .
يا ابن حيدرة الإمام .
كما دلّا هم عليه أبوك وجدك من قبل .
ولكن أين السامع الحظوظ ؟
نادى الإمام بالنصير — إلى الجنة .
ولا زال ينادى .
بنا وبهم وبكل نصير قديم أو جديد .
أما هم فقد أعرضوا عنه بصفافة .
هى حماقة الأدمغة الآسنة .
التي لا تطهرها إلا نار الجحيم .
النار المشبوبة الخالدة إلى الأبد .
لقد قال لهم : أيها الناس اسمعوا وعوا .
تلك والله هى الجنة .
ألا ترون قصورها الشاحخة ؟
ألا ترون مدنها العامرة ؟
ألا ترون باحاتها الواسعة ؟
انظروا مليّا إلى يدي .
أليست تطل عماراتها على أنهار عذاب ؟
وعلى مجار صافيات زراب .
تلتوى ثم تلتوى إلى لا نهاية .

ثم تختلط بالأنوار السندسية .

لتعكس على تبرها .

في ذلك الجو الهادي الرقاق .

كل زاه وجميل .

تأملوا ! أليست هي خير من عالمكم هذا .

هذا العالم السافل المملوء صدره بالأعاجيب .

من أعمال الفجرة والأوغاد .

من أنسال بنى الإنسان .

تعالوا أيها الناس إليها واشهدوا خاشعين .

لأن فيها نسمة من جلال الله .

تعالوا إليها واشهدوا راكعين .

لأن فيها روح من ذات الله .

ابن حيدرة الكريم .

لقد نادى الإمام بالنصير — إلى الجنة .

وقال :

أناشدكم الإقدام بقلوب جريئة سليمة .

ما بالكم ! ألا تسمعون الصرخة .

هل أصررتم على البقاء ههنا .

لم كل هذا العناد القاتل ؟

فهلا أجبتم دعوتي وأنصتتم إلى الحق ؟

بلى هكذا تريدون !

فإذن فاللعنة عليكم وعلى من والاكم .

وعلى أنسال وأجيال ستلحق بكم .

سوف لا تجنى بحريرتكم هذه أكثر مما جنيتكم .
ولا تجمع من وراء باطلكم هذا أكثر مما جمعتكم .
وسوف تلقى فى طريقها الشوك والحنظل .
وتعيش بالمرء من الحياة .

ثم تموت كما عاشت بالعبودية والعيش الخفيض .
أما هى فسوف لا تخلف لأجيا لها .
غير الحزن الطويل والقلب اللهيف .

وذاك ضرب من ضروب الآلام .

التي سيعلمها القادمون بعدكم .

وسرعان ما يلحقون بكم إلى الهاوية .

الهاوية السحيقة التي تتدافعون إليها اليوم

وأتم على غير يقين بالله .

الذى خلقكم فسوكم .

وأنشأكم فصيركم كالناس .

لكنكم جهلتم أمره .

وضللتكم عن سبيله .

وتحدتكم حرمانه .

وأتبعتم زيف الشيطان .

فاهبطوا إذن إليها .

واحداً إثر واحد .

وتلك هى مقركم ومأواكم .

ومن ورائكم لعنة الله والملائكة أجمعين .

أَيُّهَا النَّاسُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .
اسْمَعُوا نِدَاءَ الْإِمَامِ .

النداء بالنصير إلى الجنة .
تفلحوا في البداية .

وتقوزوا في النهاية .
وتسعدوا في الدنيا والآخرة فهل أنتم فاعلون .

«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)

«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)

«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)

أَهْمِيَّةُ الْأَعْتِنَاءِ بِالْعَمَلِ

«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)

«فَلْتَحْتَمِلْ كُلَّ حَرَمَانٍ»

طَعَامُنَا الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْاِتِّصَارُ .

«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)
«لَيْسَ بِالْأَعْيُنِ يُشَاهَدُ رَأْيُهُ لِلَّهِ» (لَا يَرَى بَصَرًا) «وَيُحِيطُ بِغَيْبِهِ» (يَعْلَمُ مَا لَا يَرَى)

« الوردة المنفتحة اليوم سوف تذبل غدا » هذا هو قول الشاعر المطرب (شلى) في إحدى منظوماته الرائعة ، وهو في الواقع حكمة ردها دوما الشعراء والأخلاقيون والروائيون والفلاسفة وهم يشيرون بها إلى أن فناء جميع الأحياء في هذا الكون أمر وشيك محتم وعليه فقد نظروا إلى الحياة كمالو كانت حلما من الأحلام . ولكن من الغريب جدا أن نرى قلة تأثير هذه الملاحظات بصورها المبالغية في الرجال العاملين ، إذ أن الغريزة الإنسانية في معظم الناس لا تسلم باعتقاد القائلين بأن الحياة هي حلم زائل وأن ليس في الوجود شيء يستحق العيش لأجله . فقد شعر الناس خلاف ذلك ورأوا أن ما من شيء في الوجود إلا ويمكن جعله حقيقيا وجليلا وذاك بالتضحية الشخصية في سبيل الوطن أو في سبيل المنفعة العامة . لهذا ترانى أميل إلى بعض ما ذكره الفلاسفة في هذا الشأن وذلك كالنصيحة التالية التي سمعتها من والد يلقبها على مسامع ولده وهي :

« لاتنس أن تقدر كل عمل في الحياة مهما كان صغيرا أو كبيرا لأنه مهما كانت أهميته فان انجازه أما أن يكون مغلوطا أو صحيحا » .

ولعل ذلك هو الذى غنى به الطبيعيون الماديون بقولهم إن الإنسان الشرير يجرم حتى بمد أصبعه ، أى أن كل ما يقوم به الشرير من عمل مهما كان زهيدا فهو دنى لا يعتد به .

میزان الرجل الشیاسی

«والشعب يحب رجال السياسة الذين خبرهم
وصقلهم النضال كما يصقل الجلد القديم
والخشب القديم.»

إن من يريد أن يحمل على عاتقه أعظم المسؤوليات وهي قيادة شعب من شعوب العالم في أي جيل من الأجيال عليه أن يخلق قبل كل شيء من نفسه لنفسه وازعاً ضد المنافع الشخصية وأن لا يكون له الصديق والعدو إلا من كان صديقاً أو عدواً للأمة . خذ مثلاً على هذا السياسيين العظمين (بيت) الوالد والولد . فقد كان الأول رئيساً للحكومة البريطانية عدة سنين فمر بها على أيام العسر وأيام الرخاء وكان دوماً الحازم البصير الذي سار بشعبه من نصر إلى نصر ، وقد لاقى من خصومه من اللدد ماجزعه الآلام وزادته الأمراض ضعفاً على ضعف حتى أصابه الشلل ، ومع هذا فقد اندفع بغيرته المعروفة وسار في أواخر أيامه قاصداً — وستمنستر — فجاءها وهو يستند من جهة على عكازه ومن جهة أخرى على كتف ابنه الذي لم يكن بعد قد بلغ العشرين من سنه ليقدّم للمرة الثانية ما ينصح به المملكة في قضية الحرب مع المستعمرات الأمريكية . وعندما نهض أمام المجلس متكلياً خيم السكون الرهيب على القاعة وسكت الحاضرون كأن على رؤوسهم الطير فما كان لسمع صوت الشيخ إلا همسا إلى أن أجهز عليه النصب فسقط ميتاً بدء السكتة قرب منبر الخطابة .

أما الولد فخاز على منصب الرئاسة عند ما بلغ الثالثة والعشرين من عمره واقتفى سيرة أبيه وكان خير خلف له . فقد واصل أعماله ليل نهار وانكب على إنجاز ما يعود لمصالح الأمة انكباً باً أفقده الراحة ومنعه الزواج طيلة حياته وكان من أظهر صفاته اقتصاده وخصوصاً فيما يعمن أموال الخزينة العامة ، ومع أنه كان يتقاضى راتباً يبلغ (٣٠٠) دينار في السنة فقد ترك مورداً آخر يبلغ (٣٠٠٠) دينار سنوياً إلى أحد ضباط الجيش الممتازين الذي فقد بصره في الحرب وبذا احتفظ براتب تقاعده إلى الأمة . وهو الذي قاد الحملات المظفرة بعزم لا ينتهي ضد البطل الإفرنسي « نابليون » وأقام أمامه جبهة قوية من الدول الأخرى لإيقافه عند حده فتمثل بالقائد « هانيبال » القرطاجي الذي أقسم لأبيه أن لا يقيم صلحاً مع الرومان . والمعروف

أن « ويليام بيت » لم يكن يحمل أية كراهية لبونابرت حيث كان يتوقع منه أبدا الهدوء وسلامة النية، إلا أنه بعد اشتداد النزاع بين الطرفين أدرك أصراره فانساق للعمل بجميع ما لديه من حول وصبر ليحفظ سلامة انكلترا حتى إذا أيدت الصحف الهولندية خبر تسليم الجيوش النمساوية في موقعة (أولم) هلع قلبه وصعق في مكانه لساعته .

وبالطبع أن أمثال هذين الرجلين نادر جداً ولا يجب أن نتوقع من كل أحد مثل هذا الانهماك على مصالح الدولة والتضحية بجميع المنافع الذاتية في سبيلها ولكن لا بد للرجل السياسي أن يحوز على هذه الميزة شاء أو أبى وتلك هي أن يجعل من نفسه روحاً يحى بها لأمته مصيراً سامياً في التاريخ .

قال « بسمارك » يوماً « إنه يتمنى أن يلقي حنقه كأرخص متاع الدنيا إن هو لم يرع مصالح الأمة أو أنزل نفسه ولو لحظة واحدة في مصاف أولئك الذين ينقادون بعواظهم ولا يعملون إلا لأجل منافعهم الشخصية » . والحق أن الرجل السياسي يجب أن يكون منكرًا للذات كاظماً أو خالياً من عواطف الإساءة والبغض حتى تحمد في نفسه غرائز الحق والإنتقام .

والميزة الثانية التي على الرجل السياسي أن يتحلّى بها هي أن يكون عملياً مدركاً للواقع ما استطاع . ولا نريد من هذا أن يكون عملياً بما هو مبتذل ورخيص مما يسمى إليه ذوو النفوس الصغيرة الذين يقيسون قيمة الحياة بالإرضاء المادى بل نعى بهذا أن يكون ملماً بشئون الحياة على تباينها واختلافها فيسعى بكل طائفة في الحصول على أسمى وأثمر الآراء التي تؤدي إلى إنعاش البلاد وإتمام مراقفها .

أما الآراء فأنها من نعم الله موجودة في كل مكان . ادخل أى مكتبة شئت تجد أمامك من القضايا والأسباب والنتائج العامة والخاصة ما لا يحصى وهو ما فكره الإنسان من عهد فلاسفة اليونان إلى العصر الحاضر، وقد تعثر على معظمها في عدد قليل من الكتب ولكن الأهم من هذا كله هو أن تنتقى منها ما هو

أكثر ملاءمة لأحوالك ويثبتك التي تعيش فيها ثم عليك أن تجد الحل الموافق الذي يقودك إلى التنفيذ بحيث تصيب الغرض الذي ترمى إليه لئلا يدفعك الخيال إلى ما لا تحب وترضى .

استعرض لحظة حياة «فردريك الثانى» تراها حياة عجيبة مليئة بالفخر . كان هذا الملك قوى الإدراك نافذ البصيرة عارفا بحاجات عصره ومع هذا كان شاعرا أديبا ولقد أدرك أن الأساليب القديمة فى الحكم ماثثة لا محالة وأن السعى فى انعاشها يذهب هباء كالسعى وراء السراب لإطفاء حرارة الظأ ولهذا أحيأ فى بلاده الحرية الفكرية وهى عتق النفوس لأفضل ما تحب وترغب فأذاع فى « نيوشاتل » أن الحكومة لا تتدخل فى الاعتقادات الشخصية وكان ذلك فى عصر خنق الحرية فى فرنسا وأسبانيا فى الأولى كان ظلم (المهكونوت) قائما على قدم وساق وفى الثانية لم تكن قد انقطعت الاحتفالات العلنية لإحراق المراطقة والمنحرفين عن الدين حتى أمام أعين أعضاء العائلة المالكة . كان هذا الملك بعيد النظر فى حقيقة النظم الاجتماعية والسياسية وهو حينما شعر بوجوب إماتة الأساليب القديمة فى الحكم وصف الثورة الإفرنسية بعبارة بليغة وهى قوله : أن الملك هو الخادم الأول للشعب . فاحتفظ له فى التاريخ بإسم لأعظم الملوك العمليين الذين أدركوا الواقع . وقد أصاب « ميرابو » حيث قال بعد وفاته : — لقد تراجع الحكم بعد حياة هذا الملك إلى عهد الطفولة .

ولكن مهلا فانتقاد الآراء غير كاف ليجعل من الرجل سياسيا قديرا فكل رأى مهما كان له قيمته فى الحياة العملية وذلك بالنسبة إلى الرجل الذى يسعى لتنفيذه وتطبيقه . وإن كنت راغبا فى أن تصبح ذلك الرجل العملى الظافر فى السياسة فاعليك إلا أن تنتخب لك بطانة صالحة مشبعة برأيك تحيا به وتموت لأجله وبهذا فقط يميز بين السياسى الحقيقى وبين من اتخذ السياسة حرفة له ولعل الثانى يبلغ ما يريد ولكن بعد أن يجتد لنفسه زملاء سوء عرفوا بالدناءة والخسة يسيرونه

كيف يشاءون فيثيرون حفيظته ضد أفراد ويهبون من يريدون من نعمة أو سلطان بالتملق والتزلف والوشاية وهكذا ينحرف عن جادة الصواب وإذا هو ضال في أكثر ما يعمل . تلك التي نخافها على السياسى وهى الوقوع فى المغالطات المنطقية أو ما تسمى بالسفسطة فيكون أقرب إلى المشعوذين منه إلى السياسيين

ومثل العملى الذى يدرك الواقع كالعالم الذى يعتقد بقناعة تامة أن جميع الذرات خاضعة لقانون الجاذبية فإذا أدرك ذلك كان من السهل عليه تطبيق مثل هذا على الحياة الأدبية والاجتماعية لأن الحقائق مهما كانت ففى وليدة أسباب ونتائج لها علاقتها المتينة بين بعضها البعض وقد صدق من قال أن كل قضية سياسية أو أدبية يمكن تشبيهها بنحط بيانى : كل عنصر فيه يجب أن تراعى فيه الدقة الحسائية . وعلى هذا الأساس يلزم على من يريد قيادة الأمة أن لاينخدع بالظواهر فى انتخاب أولئك النفر الذين يريد أن ينفذ آراءه بواسطتهم لأن الخطأ فى هذا يجرّ ويلا على الأمة بعد اختلال الموازنة ويوقعه فى ورطة قد تكون مهلكة .

وإذا كان السياسى كسائر الناس حراً فيما يتصرف به من ماله ومملكه وغير مقيد فى اختيار من يريده من الناس صديقاً أو صاحباً لنفسه فإنه مقيد كل التقيد فى اختيار من يودع إليه شؤون المملكة وأمورها العامة وإيداع ذلك إلى الأقرباء والأصدقاء دون النظر إلى مصلحة الأمة غدرو وإجحاف لا ترتضيه وإن رضيت به مرغمة فالتاريخ قاضيهامونصفها . وهو إذا اختار الخلصين العاملين فعليه أن لا يخشى بعدها لومة لائم فى إعلان الحقائق ما دامت أعماله وأعمال رفاقه فى الحكم تدل على القوة والعدل .

وبعد هذا كله عليه شرط آخر مهم جداً يلزم تنفيذه بكل حزم ، فالآراء وحدها مهما كانت مشوقة لا تقدر أن تحكم العالم إذن فالسياسى القدير يجب أن يعرف كيف يوحى لبطائنه وزملائه فى تنفيذ تلك الآراء دون أن يصابوا بالتفشل ويعود هو بالخسران . وإليك مثل يملأ العين : « كان (بركليس) ملك أثينا

حكيمًا ليس له ند بين حكماء عصره ، ولم نعث له بين الآثار اليونانية من حكمه
المسطورة إلا النادر . وقد دام حكمه مدة تنيف على الأربعين سنة كان فيها مصدر
وحي وإلهام لقومه بحيث أنه لم يترك طريقاً إلا وسلكه في إثارة ما في نفوس أبناء
شعبه من قوى كامنة للعمل يداً واحدة في إعلاء شأن أثينا وكانت إرادته هي العليا
التي لا تضطرب في الملمات والشدائد . كان يقود أسطوله العظيم بنفسه وقد شوه في
موقعة الأرخبيل على سطح إحدى السفن يبعث الرعب في نفوس البرابرة ، وكان
يقيم في كل سنة مناورات بحرية ليراقب أعمال حلفائه عن كثب وطالما عقد
المؤتمرات للفلاسفة وأصحاب الفن في عمارة Aspasia للبحث في العلوم والفنون . كان
روحا تبعث بالهمة في أصحابه فيندفعون إلى العمل اندفاعاً وقد يأخذك العجب حين
تعلم أنه قد أتم رفع تلك النصب التذكارية العديدة في أنحاء المملكة بمدة وجيزة ،
أما بطانته فقد كانت تتكوّن من Phidias وكان يده اليمنى و Calicrates
الذي شيّد دار البارثنون Parthenon و Metagene الذي أكمل معبد Eleusis
و Mnesicles الذي أتم تشييد عمارة Propylaea .

ولقد شاد على الأرض ماشاد بدقة وترتيب لأنه كان يراقب الجميع بعين حارسة
وروح وثابة ونفس غيورة ، وانظر ما عمل في حادثة سقوط أحد العمال الذين اشتغلوا
في بناية معبد Propylaea أصابه من ورائه ضرر عظيم بدرجة أن قرر الأطباء عنده
أن موته محتم فقد حضر بنفسه وعالج المصاب بالأدوية التي وصفها حتى شفى تماماً .
والخلاصة هي أن الذكاء والفطنة لازمان في السياسة لزومهما في الفن وهما لاشيء
سوى القلب الطافح بالعاطفة السامية والفكر الثاقب الذي تسنده الإرادة القوية
وهذا كاف لأن يسوق السكل للعمل والتضحية . وفي هذا ما يكفي للسياسي أن
يصبح منار عصره وشعلة تستقي الأجيال من نورها ، ولا يبالي بعدها إن وصلتنا
فقرتان أو ثلاث من حكمه الغاليات كما حدث فعلاً مع — بركليس — العظيم .

الحرب كتيبة

«أيتها الحصاة ما يسخر منك الساخر

بأكثر من أن يجلوك على الناس غلبة

جوهرة .»

الرافعي

إن حب القتال غريزة طبيعية في الإنسان ، ولو لم يكن له ما يقاتل من أجله
لتنزاع على الأقوال والأهواء والنساء ولقاتل على النظرة والصدفة وتهديم القائم
وبالأخص ما كان شائخا وهو مما يثلج صدره ويطيب خاطره. ولو أمنت النظر لشعرت أن
نفسك المحاربة تزدري القتال الناشب عن أسباب معقولة وأمور رصينة حتى أن
الجبان ليستغز جراته في مثل هذا النزاع الحق. والواقع أن البهجة التي تتولد في القتال
لا تنبعث إلا إذا كان الإنسان منقادا إليه من تلقاء نفسه ومتطوعا فيه مختارا .
وقد يساق إلى الحرب لا لمكسب يريده بل لنصر يطلبه ولا شك أن لهذا معانيه
الخاصة في نفس المنتصر ، إلا أنه لو لم يكن الحرب وسيلة من وسائل العيش لما وجدناه
غريزة متأصلة في جميع الأجيال فالقليل من الناس عاش على السلب شأن الوحوش
الضارية أو غيره أو اعتاد الرزق من الصناعة كما تفعل النمل والنحل والأبقار آكلة
الحشائش ومع هذا لا يخلو أن يكون النصر مطلوبا على كل حال ولو منيت الجيوش
المنتصرة بالضرر ولهذا قلما يركن الإنسان إلى حياة الدعة نعيم الهدوء .

وكما نجد للبربرية مشيئتها كذلك لا نعجز عن أن نجد لها مبرراتها . فلحرب
مادحون لا ينفكون ينادون بوجوب إشعال نارها وإراقة الدماء في سبيلها بين حين
 وآخر ، وإلّا ضعف القوم وضمحل فيهم الرجولة ! مهلا فإن التجربة تنقض هذا القول
الباطل لأن الحرب هي التي تبدد ثروة الأمة وتشل صناعتها وتهلك شبابها وتميت
فيها عواطفها الإنسانية وتحجب لها الخاطر ولا تترك لها من ينسل الجيل القادم سوى
الخنثى وناقص الخلقة والحرب الضروس أهلية كانت أو خارجية هي التي أعاقت
كثيراً نمو الحياة العقلية في الإنسان مما لا نزال نسمع شكواه وهي التي أفنت عظماء
الأمم غربية كانت أو شرقية حتى أن أبناء الشعوب الحاضرة بدلا من أن يكونوا
سلالة الأبطال وأعيان الأمم السالفة أصبحوا كما تدل عليه الأجسام والنفوس اخلاف
العبيد والأرقاء . والعجيب أنه إذا دام السلام زمنا في ظروف ملائمة تطفئ قوى
الناس حتى تثور بهم فإذا هم مساقون إلى ميادين القتال لحروب طاحنة تميت منهم

الأصلح والأنشط ، فإذا كانت هي الظافرة إدعت المجد العسكري الذى لا يطول عصره حتى يضمحل فى الرخاء والمعارك فتتداعى أركانه وتتهار دعامه . وهكذا تتوالد الإنسانية فى أقطار أخرى ويكون لها من القوة ما يضمن لها الفوز إلا أنها لم تشارك بعد بالحرب . إنك إذا فهمت بأن الحرب هو الفضيلة والإقدام فكأنك تشير بهذا إلى أن الفسق والفجور هما روح الحب .

ولا بد للحيوان من جرأة عمياء تقيه شرور هذا العالم المحفوف بالمخاطر والأهوال وتساعده على الوقوف عند حافة الهاوية دون أن ترتعش أعضاؤه وترتجى أعصابه ، ومثل هذه الجرأة لازمة كنعمة لطيفة للحيوان لا نعمة قاهرة تورثه الإعجاب بالنفس ، فهى من أسمى فضائل الإنسان عند الثبات فى مواقف الخطر والمثابرة فيما يؤدي للنجاح ، ولكنها دنيئة سافلة أن حبيت له المخاطرة فى غير موضعها ومجابهة الشرور دون أن تدفعه إليها ضرورة ماسة . والاستخفاف بالغير والإغضب وحب القسوة قصد اللهو والعبث وغريزة المقامرة كل ذلك من الطباع غير الحمودة فى الإنسان وحب الحرب رذيلة فى الجندى والربان وجريمة أكيدة من قبل رجال السياسة .

إن مادح الحرب يضع نفسه فى أخط مستوى يمكن أن يقف عليه رجال الوطن لطلب العمل والإصلاح ، لأن أعجاد الحرب ملطخة بالدماء هاذية ومقترفة للجرائم . والقتال بحد ذاته هياج وحشى يخطط شر البعض بخير الآخرين وهذا التناقض الذى منى به العالم الأدبى هو أولى خطايا الطبيعة التى بعثت بالشر فى كل مكان ، ومن طلب السعادة بشقاء الآخرين فهو شريك المجرم بجريرته لا محالة .

عجباً للإنسان ومن خلقه ! يشتهى أن يمتلك جهد الأعشى ليغوص فى المخاطر بدون تعقل ، ويطلب سرور الأبله بمواجهة الصدف ، هو يريد البهجة بألم الآخرين ولو كان آثماً ويزيد من فرحه بعذاب نفسه ولو كان جنونا . هذا هو عمل الإنسان وطبعه وتلك هى الأعماق المظلمة لجبله الأوهام التى على الإنسانية أن تنمو فيها وأن تنحيا منها .

القِسْمُ الثَّالِثُ

الفنجد

لا إله إلا الله مستعززون بحال

الفرح لا تظفر الشمس عز الله من

أسماء ما حوز من

على السيرة

المراد أمري

الأربع وقصص

شَيْخُ الْإِسْلَامِ

عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

الفجر

« إذن لأصبحنا مسحورين بجمال
 الفجر ، إذ تظفر الشمس غزالته من
 وراء الجبال وأمسينا مأخوذين بسناء
 الشفق إذ تتوارى جوهرة خلف البحار » .
 اللورد أفيري

الفجر نور الأمل والحب .

عند الفجر تستيقظ الطبيعة من رقادها تغمرها البهجة والنشاط .
وعند الفجر تتضاحك الأزاهير عن ندى الليل لتحكي الشمس .
عند الفجر ينقطع سكون الليل البهيم بإيقاع الطبيعة المطرب .
وفي الفجر يهب النسيم بلطف فيداعب مياه البحر الهادئة ويلاعب أشجار
الرياض النضرة .

ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أولادكن : لكي يشهدوا ثغر الفجر البسام ،
ويفوزوا بقبلة من عنده

عند الفجر أشعر بحيوية فياضة تنبعث من الطبيعة فتزدان بها الجبال والتلول
والغابات والحقول ، وإذا الجمال متباين متعدد ، وإذا النفس مستسامة أمام هذه
العجائب لاروح الكلية التي خلقت هذا الوجود بأسمى وأفضل ما يتصوره العقل .
أيها الفجر عند ما أنهض مبكراً في الصباح أراك مشرقاً على الكون وما
أسرع ما ألاقيك بعد أن تلامسني أشعتك السحرية في عالم روحاني عجيب ! .
يحن إليك أيها الفجر كل متعب بأس أو مريض ، لأن طول الليل يضنيه
والعذاب يؤلمه .

ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أطفالكن : لكي يشهدوا ثغر الفجر البسام
ويفوزوا بقبلة من عنده .

عند الفجر يبصر الفكر بوضوح جلائل الحق الإلهي وتسمع الآذان حفيف
قواه الخفية التي أشادت هذه العوالم بحكمة عالية فتعي الحواس بنشاط غير معهود
معنى القوة العليا التي أشربت كل شيء من روحها فبعثت فيه نسمة الحياة .
ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أطفالكن : لكي يشهدوا ثغر الفجر البسام
ويفوزوا بقبلة من عنده .

عند الفجر تلذلى المطالعة والتفكير والابتهاال ، لأننى آنذاك أسعد بقلب
حساس وفكر وقاد وجسم منتعش ونفس طروبة تنتقل بالخيال إلى أبعد مدى .
إن الطبيعة فى المساء تلتف والحب الدنس فى حماة الخطيئة .
ولسكتها عند الفجر تغتسل بحب نقى وترتفع إلى العلاء طاهرة مطهرة .
ايه ! أيتها الأمهات أيقظن أطفالكن : لكى يشهدوا الفجر ضاحكا
ويفوزوا بقبلة من أشعته الذهبية .

بَعْدَ الْمَوْتِ

بَعْدَ الْمَوْتِ

«عذب نفسك أيها المسكين ! . أما أنا فلا
 يهولني أن أعلم هذا . إنه إنما رجعت لأموت ،
 لأن قلبي كان قد مات ، إنك أنت الذي أوهمتنا
 أنه حلم ، لقد أمكنك أن تخدع منا العقل ، ولكن
 القلب لم يخدع ، لأن قلبي كان قد مات » .
 توفيق الحكيم

القبر هو نهاية الكفاح الإنسانى فيه تتلاشى وتزول جميع هموم الدنيا ،
وفى القبر نقف على ساحل بحر واسع الأطراف ، ليحمل على عبابه سفينة روحنا
الضعيفة إلى اللانهاية : هو بحر غامض لا تستطيع أعيننا الفانية أن تلمحه ،
وليس لخيالنا الإنسانى قوة مهما أتعبنا أنفسنا بين المهد والاحد بإمكانها أن تتصور
ولو قليلا ما يطوى الموت خلف ستاره وما فاسفتنا عن العالم والحياة إلا هذر أشبه
بهذيان الأطفال .

إن بلاطة الضريح هى آخر آثارنا فى الحياة على وجه هذه البسيطة . ارفع
هذه البلاطة وانظر داخل القبر الذى تعافه نفسك فلا ترى فيه إلا بقايا إنسان
طواه الفناء فأمسى كأنه لم يكن . سل عن الفكر والعقل والذكاء وعن الجمال
والقوة والشهرة فلا تسمع جوابا ، ولا ترى لها أثراً فى القبر ، لقد تبددت كلها كما
يتبدد صوت « اليوم » ليلا فى الفضاء وتلاشت النفس كما يتلاشى الدخان بعد
انبعاثه من الموقد .

يأمل الانسان — وأمله طويل — من أن التاريخ سيسجل ذكراه بعد
الموت ويحتفظ بأعماله بين دقات الكتب ، ثم يأمل من أقربائه أنهم سيتحدثون
عنه ليلا ونهاراً وسيقيمون له ما يخلد اسمه : آمال باطلة يتعب الانسان فيها
فكره ولا يعود منها إلا بالخسران والفشل ، كيف لا وقد كان فى حياته يسعى
لنفسه ، ولا يفكر ولا يهتم إلا لها ، فإذا لماذا يهتم الآخرون به بعد مماته ؟
تلك حقيقة جليلة تشير على أن ظل الانسان زائل بعد الموت .

وقد يخطر فى باله فيذهب فى خيال بعيد يسوقه إلى الظن أن الشمس بعده
سوف لا تشرق ، والنجوم سوف لا تطلع ، وأن الأنهار ستنقطع عن الجريان ،
وذلك هو ظن الآثم الخدوع ، وهو الخيال الذى يمتنى صاحبه ليشيد فى الهواء
قصوراً شائحات . إنه إن فكر لعلم أنه فى القبر لا يسمع أصوات رفاقه إن ذكره

أو مدحوه ، وإنهم لا يستطيعون إحياءه أو إيقاظه لسمعوه ما يقولون ، فيرتاح
لقولهم ، ويأنس بحديثهم ، ويرى الطبيعة زاهية كما ودّعها ، وتلك آمال خائبة ،
القابض عليها كالقابض على الريح .

آه ! أيها الطير المرح ؛ إن ساعدني الحظ فسأسرع الخطو لأكون بين
الأحداث رفيقاً لمن رقد فيها ، وبعيداً عن عالم كنت أجهله ويجهلني . سيخفق
قلبي فرحاً ، وينطق لساني بكلمة الوداع الأخيرة ، فأرجع يتيماً كما كنت إلى
مقري ، أما الآن فلامفر من أن أنهى أيامي الباقيات كالمنفى في بلاد غريبة .

الوقت

في الزمان يندفد والنامع

يذهب عمر ونفس ودمع

الزمن

أُمى علمتى الجدَّ وبغضتى للكسل ، وكانت تحدثنى دوماً : بأن الوقت هو الأبدية . . . والناس يضيعون الأبدية بتضييع الوقت — ثم تضيف : « بأن الخير مفقود فى هذا العالم ، ولعل الوقت هو كل الخير فيه ، فعلينا أن لا نضيعه سدى ، ومن يدرى ما ينحى لنا الغد » .

الوقت كلمة مختصرة لاندرك معناها ، فقد جئنا إلى الوجود ونحن نعيش فيه ثم نموت ونعتقد أن كل ذلك لا يتم إلا بالوقت كأن الوقت شىء عظيم جداً مرتفع وواسع وعميق ككرة جبارة عليها يدور العالم وفيها الحياة والموت والأرض ، فيها بحر خضم تسبح فيها المخلوقات من هنا وهناك . أما الواقع يدلنا فهو خلاف ذلك : فما أنجزناه ندعوه الماضى وما نعمل فيه إذن نلقبه بالحاضر ، وما نروم عمله نسماه المستقبل ، فكل ذلك حال فى أنفسنا غير خارج عنها . فالماضى مخزون فى ذاكرتنا ، والحاضر آخذ بعنان انتباهنا ، والمستقبل موجود فى آمالنا .

نحن غرقى بالآمال وحياتنا تنقضى بها فلا نخطئ إن قلنا إن الحياة هى الأمل فنحن نفكر أن وقتنا سيمر وعليه أن يمر وذلك عند ما نريد تنفيذ الأمل ، وكما نرى الآمال متوقفة على الوقت حتى أننا أحياناً نعتقد بكل قناعة بأن الوقت مرتكز علينا بحيث أننا نستطيع تطويله أو تقصيره .

نقسّم الوقت إلى عصور وقرون وسنين ، ونعطى لهذا التقسيم الخيالى أسماء كأنها أشياء ملموسة خارجة عن نطاق وعينا ثم نعتقد بأننا قد قسنا الوقت بكل تأكيد . والواقع أن لاشئ هناك غريب عنا أو عن واعيتنا أو عن كتبنا التى نخط فيها أفكارنا وأوهامنا وكمالاتنا الفارغة ، فالوقت ليس أمر مستقل بذاته ولا حقيقة ولا جوهر ، ولكنه فكرة فى الإنسان وكلمة فى الكتاب ونقش على الحجر .

ولقد علمتني أمي بقولها : « إن الوقت هو الأبدية . . . والإنسان يضعف
الأبدية عن طريق إضاعة الوقت » .

حقيقة جبارة ولعلها بغير أن تعلم أدركت بعقلها البسيط سرّاً لا يصل إليه إلا
العلماء والفلاسفة ، وطالما سأل الزهاد ربهم أن يهبهم العمر الطويل لتستقي قلوبهم
من حكمته أكثر مما كان لها .

لقد رأيت شهباً بيناً بين النابغ والبسيط فقد توصل الطرفان إلى معرفة
الحقيقة حيث أدركها الأول بقوة دماغه وعرفها الثاني بقلبه وحمه ، أما الناس
الوسط فليسوا بشيء .

حَيْثَا يَكُونُ الْمَجْدُ فَتَمُوجُهُ اللَّهِ

الكتاب الذي في يدي

الكتاب الذي في يدي

الكتاب الذي في يدي

حِثْمَاتِكُمُ الْمَجْمَعَةُ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

للكاتب الروسي «ليو تولستوى»

«الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه لأحد
إخوتكم هؤلاء الأصاغر فله فعلتم» .

عاش الإسكافي «مارتن إفاديش» في إحدى المدن الروسية النائية، وكان يسكن في إحدى حجرات الطابق السفلى من دار قديمة تطل منها على الشارع المجاور نافذة صغيرة جداً لم يكن الناظر يستطيع أن يرى منها سوى أقدام المارة. أما «مارتن» فكان في مقدوره أن يميز الناس من نوع الأحذية التي يرتدونها فقد عاش في تلك المنطقة زمناً طويلاً، وله معارف كثيرون يندر أن نجد من بينهم من لم يقدم إليه حذاءه ولو مرة أو مرتين لترقيعه أو تقطيعه أو تجديد نعله، وهكذا كان «مارتن» يتطلع غالباً إلى عمل يده من خلال تلك الكوة الواطئة، وازداد عمل «مارتن» كثيراً بتوالي الأيام بعد أن عرف بالجد والالتقان والحفاظ على الوقت فضلاً عن أنه كان يستعمل من المواد أجودها ولا يسوم فوق الحد المناسب فاشتهر من جراء ذلك بالصدق وحب العمل حتى رغب في معاملته البعيد والقريب واعتمد على قوله المواطن والغريب.

لقد كان «مارتن» رجلاً طيب السريرة صافي النية، وعند ما قارب من الشيخوخة أخذ يفكر كثيراً بنفسه ويتأمل اندفاعاتها ويتفهم حقيقتها، فيسمو بروحه إلى خالقها، ويتقرب بذاته إلى الذات المطلقة. وحيناً كان يشتغل لمعلمه قبل أن ينفرد رزاً بفقد زوجته، فبقى خالياً إلا من طفل صغير يبلغ من العمر ثلاث سنوات، وهو كل ماعاش له من أولاده الذين ماتوا وهم في دور الطفولة. وارتأى «مارتن» أن يرسد طفله هذا إلى أخته في إحدى القرى لتقوم بتربيته، ولكنه شعر بالحزن يدب في نفسه لفراق وحيدته، وصعب عليه أن يرمى بطفله العزيز «كاييتون» وسط عائلة غريبة، ففضل الاحتفاظ به بقربه ولو جرد ذلك إليه الأتعاب والسهر الطويل.

ترك «مارتن» معلمه وسكن بعيداً في منزل حقير مع وحيدته الذي لم يكد يبلغ من العمر ما يستطيع عنده من إعانة والده في عمله وإبعاد الوحشة عن قلبه.

وإماتة الحيرة من نفسه حتى ان طرح مريضاً تنقاسم جسمه اللدن الضعيف نارالحى القوية والأوجاع المؤلمة ، وظل كذلك بضعة أيام لفظ بعدها أنفاسه الأخيرة مبكياً عليه . أخذ « مارتن » جثة الولد وأودعها القبر ، وراح يذرف عليه الدموع الغزار وتمنى لو كان المتوفى هو وليس وحيداً الذى أحبه ، وخصوصاً وهو الذى وهن منه العظم وانحطت فيه القوى ، استولى عليه اليأس وشمله القنوط وكاد يزل بعقيدته ويندفع بتدمره إلى الإلحاد ، وظل كذلك شارد الفكر موزع النفس حتى أدى به مطافه إلى إحدى الكنائس القريبة فانزوى فيها شاكياً متوسلاً .

وفى يوم من الأيام التقى « مارتن » بشيخ جليل من أهالى القرية التى شب فيها وهو فى طريقه من دير (تروتزا) وكان هذا ممن زار الأماكن المقدسة فى الثمانى سنوات الأخيرة ، فحياه « مارتن » وجلس إليه يثبته آلام قلبه وشكواه وهو يقول : أنا لم أعد أشتبهى الحياة أيها القديس ، وصرت لا أسأل ربى عن شىء إلا عن الموت العاجل فقد بقيت ولا أمل لى فى هذا العالم .

قال الشيخ بهدوء : اصغ إلى يا مارتن وأسمعنى فليس لك الحق فى أن تنطق بمثل هذا الكلام . إننا لانستطيع أن ندرك مشيئة الله وإرادته المتعلبة ، وهو إن أراد أن يميت ولدك وأن يقيقك حياً كان هو الأفضل . أما اليأس الذى غرك فالباعث له هو الرغبة فى أن تعيش لنفسك وسعادتك .

قال « مارتن » : وإذن فلاجل أى شىء يجب أن نعيش ؟ .

لله « يا مارتن » ! ... فاه الشيخ بكل اطمئنان ثم استرسل بكلامه وهو يقول : فالله هو الذى وهب لك الحياة ، ولأجله يجب أن تعيش ، وحيثما عرفت أن تعيش لأجله فإنك سوف لا تحزن وستستهن بكل شىء .

سكن « مارتن » فى مكانه وأقبل إلى الناسك يستمع إليه بكل حواسه ، وما أن وقف الشيخ عن الكلام حتى أسرع (مارتن) فقال : ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يعيش لله ؟ .

قال : كيف يمكن أن يعيش الانسان لله ؟ ذلك ماهو مبين في كتيبه المقدسة ، هل تقرأ ؟ وإذن فاقراها ، وهناك ستعرف كيف يريدك الله أن تعيش ، هناك ستجد كل ما تريد .

وقعت كلمات الشيخ في نفس (مارتن) موقع الرضا ، ثم ودع صاحبه وذهب تَوَّأً إلى السوق واقتنى له نسخة ممتازة من الكتاب المقدس .

وعزم أولاً على أن يقرأ في أيام العطل فقط ، ولكنه ما بدأ حتى وجد في نفسه الرغبة التامة لأن يقرأ فيه يومياً وهكذا اندفع فصار ينهمك أحياناً في المطالعة إلى درجة أنه كان ينسى ما حواليه فلا يرفع رأسه عن الكتاب إلا بعد أن ينتهي الزيت من السراج فينطفئ ويبقيه في ظلمة حالكة تضطره إلى الرقاد ، وهو كلما تقدم في عمله توضحت أمام عينيه الأمور حتى ملك الإيمان نفسه وملاً الحق قلبه وعاد طلق الحيا واضح البشر بعيداً عن الهم وخواطر الألم التي كانت تساوره عند ما كان يذكر فقيدته العزيز (كيتون) وكان لا يفتأ يردد في نفسه : « إلهي تعاليت ، لك العز والمجد ، ولك الأمر وإليك المصير » .

ومن ذلك الحين انتقل (مارتن) إلى حياة جديدة تختلف عما اعتاد عليه في ماضى أيامه حينما كان يأنس بقضاء ساعات راحته في أما كن اللهو ، أو يزج بنفسه أحياناً في إحدى الحانات فيكرع الكأس والكأسين من الشراب ولربما ترك خلانه وهو نشوان يذرف بما لا يعرف مما جبل عليه الحقاء ولا يتردد من أن يصرخ في وجوه المارة أو يشتتهم فينفرون منه لما يعرفون مابه . تلك كانت حياته بالأمس وهي حياة بائسة لا تؤدّي إلى الخير على كل حال فجاءت الأحداث وهبأت له أمراً جديداً وإذا به اليوم يركن إلى معيشة هادئة سلمية ، فصار ينهض في الصباح ويجلس إلى عمله حتى ينتهي منه فإذا ولّى النهار وجاء الغسق تناول مصباحه من أعلى الجدار ووضعه على منضدته الصغيرة وهرع إلى كتابه فأحضره من الرف

وأخذ يطالع فيه ، وهو كلما استمر بالقراءة زادت معرفته وأصبح أشد شعوراً
بالاطمئنان والسرور .

وصادف أن تأخر يوماً على غير عادته وهو منهمك في المطالعة فقراً :

« وكل من سألك فاعطه ، وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أتم أيضاً
بهم هكذا » ثم قرأ : « ولماذا تدعونني يا رب يا رب وأتم لاتفعلون ما أقوله ، كل
من يأتي إلى ويسمع كلامي ويعمل به ، أريكم من يشبه إنه يشبه إنساناً بنى بيتاً
وحفر وعمق ووضع الأساس على الصخر ، فلما حدث سيل صدم النهر ذلك البيت فلم
يقدر أن يزغزعه لأنه كان مؤسساً على الصخر . وأما الذي يسمع ولا يعمل فيشبه
إنساناً بنى بيته على الأرض من دون أساس فصدمه النهر فسقط حالاً وكان خراب
البيت عظيماً » .

أبرقت أساريز (مارتن) لهذه الكلمات فنزع عن عينيه نظاراته ووضعها على
الكتاب ، ثم اعتمد برأسه على ساعده وأخذ يفكر فيما قرأ ويوزن حياته بميزان
تلك الكلمات وهو يتمم : « أتراني أنشأت بيتي على الصخر أو على الرمل فإن
كان على الصخر فذاك ما أريده . يلوح لي أن أمر ذلك بسيط للغاية فهو لا يتعدى
ضبط النفس واتباع أوامر الله ووصاياه فإن أغفلت أو أهملت فلا بد من أن أذنب
ولكني سأعمل جهدي وسأنابر ما دمت أشعر بهذه النشوة الساحرة ، فكن
يا رب لي نصيراً وهادياً » .

فكر (مارتن) في كل هذا وكاد يترك لينام ، غير أنه اندفع بالرغم منه إلى
المطالعة فقرأ قصة ابن الأرملة الميت ثم دعوة القريسي الغني للمسيح وحديث
المرأة الخاطئة التي بلت قدميه بالدموع ودهنتهما بالطيب حتى وصل إلى
الفقرة هذه :

« ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان أنتظر هذه المرأة إنى دخلت بيتك وماء
لأجل رجلي لم تعط وأما هي فقد غسلت رجلي بالدموع ومسحتهما بشعر رأسيها ،
(م ٢٠ — ندى الفجر)

قبلة لم تقبلاني وأما هي فمئذ دخلت لم تكف عن تقبيل رجلي ، بزيت لم تدهن رأسي وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلي . »

تأمل (مارتن) في كل ما قرأ فانتزع نظاراته للمرة الثانية ووضعها على كتابه وراح يفكر : إن هذا الفرّيسي يكاد يشبهني ! لقد اقتصر تفكيره بنفسه فأراد لها الراحة والسكسب وجلس يتناول كوب الشاي مهدوء . أما ضيفه ومن كان ضيفه يا ترى ؟ . كان المسيح نفسه هو الضيف ومع هذا فقد أعرض عنه إعراضاً جافاً ولم يبال به بصورة مطلقة ، فيأله من رجل أناني ، ولو جاءني ضيف مثله فـلـ كنت أعمل ؟ أ كنت أسلك سلوكه ؟ أم أنعم وأتلف ؟ ! .

أسند (مارتن) رأسه بذراعيه ، وقبل أن يدرك ذلك أخذته إغفاءة فنام ، وفيما هو نائم سمع صوتاً يناديه باسمه : مارتن مارتن ... انتبه (مارتن) من نومه فرعاً ونادى : من هذا ؟ . ثم قام ونظر حواليه واقترب من الباب فـ وجد أحداً ونادى ثانية وإذا به يسمع همساً يردد بكل وضوح : مارتن مارتن ! انظر غداً إلى الشارع فسأكون هناك بالقرب منك .

أنهض (مارتن) نفسه وفرك عينيه ثم ترك مقعده وعاد لايحي إن كان ماسمعه قد حدث في حلم أم في يقظة ، ولم يطل به الزمن على ذلك حتى أطفأ السراج فنام واستثقل .

برق الصبح فاستيقظ (مارتن) وبعد أن صلى أشعل النار واستحضر له من الطعام (جساء الكرب) و (سخينة الحنطة) وقرب من الموقد إبريق الشاي ثم أخذ مئزره وجلس إلى عمله قريباً من النافذة . . . مرت في ذهنه حوادث الليلة الماضية وذهب يخطر فيها بين الشك واليقين ، مرة يدعوها حلمًا ومرة يحسبها حقيقة واقعة . وعلى هذا جلس إلى النافذة وهو يطل منها إلى الشارع ولا يشتغل إلا قليلاً ، فإذا مرّ به من يرتدى حذاء غريباً طأطأ رأسه وشخص إليه ليتفرسه ، مرّ من أمامه حمال يلبس خفّاً من اللباد ، وفات بعده سقاء ، ثم اقترب من النافذة

جندى قديم من عهد القيصر (نيقولا) وابتدأ يزيح الثلج عن النافذة بواسطة مسحاة كان يحملها في يده ... شاهد (مارتن) حذاءه اللبائى العتيق المرقع بالجلد ، فعرف أنه (ستيبيانش) الشيخ الذي كان قد أحسن إليه جار سرى فأنزله في بيته ليعاون خادمه ... نظر (مارتن) إلى الرجل ثم عاد فأنكب على عمله وهو يضحك من تصوراته ويقول : آزاد بي البله يا ترى حتى صرت آمل أن يصدق حامى ، وإني لا أرى أسمى إلا (ستيبيانش) وهو يزيح الثلج عن النافذة .

وبعد أن شد يارته ما يقارب الإثني عشرة غرزة اقترب إلى النافذة كرة أخرى ومد يبصره إلى الشارع فشاهد (ستيبيانش) واقفاً وقد أسند مسحاته على الجدار يحمي جسمه ويربحه هنيئة ، فالشيخ كان ضعيف القوى ناحل الجسم لا يستطيع أن يؤدي عملاً ولو كان بسيطاً إلا بعد جهد .

قال (مارتن) : هلاً استدعيتك داخل الدار فأسقيته الشاي وأعنته على تدفئة جسمه الناحل ! وما أن خطر له هذا الخاطر إلا ونهض قائماً من فوره بعد أن غرز المتعب في مكانه وتناول إريق الشاي من على النار ووضعه على المنضدة فنقر على النافذة بأصابعه وأوماً إلى (ستيبيانش) بالدخول في البيت بينما أسرع هو لفتح الباب :

— أدخل واصطلى قليلاً بنار الموقد فإنك تكاد تهلك من البرد .

— الحق أن عظامي ترتجف من هذا البرد القارس فشكراً لك .

دخل (ستيبيانش) في الدار وابتدأ ينفذ الثلج عن ملابسه ، وكيلاً يترك على البلاط أثراً ، أخذ ينظف قدميه من الأوساخ ولكنه ما أتم ذلك حتى تمايل وكاد يسقط على الأرض من الإعياء .

— لاتهم بكل هذا فإني معتاد أن أمسح البلاط يومياً ، تعال واجلس هنا وتناول كوباً من الشاي .

ملاً (مارتن) كوبين من الشاي وقدم أحدهما إلى ضيفه وأخذ الثانى بيده

ثم أفرغه في الصحن وأخذ ينفخ فيه لتبريده بينما كان (ستيباش) قد كرع الكوب برمته وصار يشكر لمارتن فضله .

قال : هل لك بكوب آخر ؟ .. ولم ينتظر (مارتن) جواب صاحبه بل راح يملأ له كأساً ثانية وقدمها إليه . أما هو فقد استمر يشرب كوبه الأول وينظر إلى الشارع من آن إلى آخر من خلال النافذة الوحيدة .

قال الضيف : هل تتوقع زيارة أحد في هذه الساعة ؟ .

قال : هل أتوقع زيارة أحد ... آه ! ذاك مالا أستطيع التصريح به ... كلا إنى لا أتوقع قدوم أحد ، ولكن صوتاً سمعته في الليلة الماضية لا أتمكن من نسيانه ولا أقدر أن أبت عما إذا كان أضغاث أحلام . وتفصيل الخبر أنى كنت أقرأ في الكتاب المقدس وأتعرف إلى أخبار المسيح وما لقيه من أتعاب وصرفه من جهود مدة حياته على هذه الأرض ، ولعلك يا صاح سمعت شيئاً عن ذلك . قال : نعم كنت قد سمعت عن ذلك وهو نزيير لا أستطيع الاستزادة منه لأنى أُمى .

— حسناً فاسمع ما أقوله لك : كنت أقرأ عن حياة هذه الشخصية الفذة فوصلت إلى حيث تعلمه وهو ذهابه إلى بيت القريسي الذي لم يرحب به كما يقتضى ، وكلما كنت أقرأ عن ذلك كنت أفكر كيف أن هذا الرجل لم يرحب بهذا السيد الجليل كما يجب وهو من رسم للناس عقيدة خالصة هي الإيمان بالله ، وأقول لو كنت في محل هذا القريسي فما كنت أصنع للترحيب به والقيام بخدمته . وفيما أنا غارق في بحر من الخيال إذ ضرب النعاس على أذنى وانعقد الكرى في جنونى ، فنمت وإذا بى أسمع أحدهم ينادينى ، فاستيقظت وكأنه لم يزل يصفر بأذنى قائلاً : مارتن مارتن ! سأكون عندك غداً ... حدث ذلك مرتين متتاليتين ، ولأفوه لك بالحقيقة أن ذلك قد علق في ذهنى وصرت أو من بأنى سأزار من قبل صاحب الصوت ومع كوفى أخجل أن أصرح بهذا فإنى سوف أبقى في انتظاره على كل حال .

هز (ستيپاناش) رأسه بصمت وكرع بقية ما في الكأس من الشاي وعاد (مارتن) فتناوله مرة أخرى وملاًه ثالثة وقال :

خذ كوباً آخر يا عزيزي . ثم واصل حديثه قائلاً : وقد كنت أفكر كيف عاش على الأرض ولم يزدرباً أحد مع انه قضى عمره وسط عامة الناس . لقد عاش مع البسطاء وانتقى حواريه من أمثالنا العاملين الخالصين وهو القائل : « إن من يريد أن يعلو عليه أن يتواضع ومن يتواضع فإنه لا بد من أن يعلو » . وقال : « طوبى للمساكين بالروح ، للحزاني ، طوبى للودعاء ، طوبى للجيايع والعطاشي ، طوبى للرحماء » .

انصرف (ستيپاناش) عن كوب الشاي وأخذت عيناه تفيضان بالدموع كلما اشتد إصغاءه لحديث صاحبه الذي ما كاد ينتهي منه حتى قال :

— ستيپاناش ... خذ كوباً آخر .

قال : لقد اكتفيت يا عزيزي وسوف لا أنسى فضلك ، ثم دفع اليه الكأس ونهض قائماً وهو يشكر لمارتن حسن صنيعه له .

قال (مارتن) : أهلاً بك وسهلاً ، عد لزيارتى مرة ثانية إن استطعت فإني آنس كثيراً بالضيف .

ودع (مارتن) صاحبه ورجع إلى مكانه فشرب بقية ما في الإبريق من الشاي وأزاح اللوازم جانباً ثم جلس يخيظ شقاً في نعل أحد الأحذية وهو لا يألو تفكيراً بحديث الكتاب المقدس ولا يغفل عن النظر إلى الشارع ينتظار زيارة صاحب الصوت له بكل ما في نفسه من ثقة وإيمان .

مرَّ به جنديان : أحدهما يمتدني نعالاً حكومياً ويلبس الآخر نعالاً من صنع يده ، وفات من أمامه جار له يرتدي حذاء لامعاً ، ومر بعده خباز يحمل طبقاً على رأسه . وأخيراً قدمت امرأة تلبس في أرجلها جواريب صوفية وخفاً من عمل الفلاحين وهي تحمل طفلاً على ذراعيها .

مرت من أمام النافذة واتجهت إلى الجدار فوقفت عنده وأعطت ظهرها للريح وحاولت أن ترد فضل رداها على طفلها فلم تتمكن لأنها كانت ترتدى ألبسة صيفية رثة كألبسة المساكين .

حذجها (مارتن) بنظرة للمرة الثانية من خلال النافذة وقال في نفسه أظنها ضالة تتخطط الطريق ، أو لعلها عابرة سبيل تتلمس القرى والثواء . وبينما هو كذلك إذ سمع نحيب الطفل وصراخه ، وأدرك أن محاولة الأم في تهدئته كانت من غير جدوى فسارع إلى الخارج وناداه بأعلى صوته :

عزيزتى ... عزيزتى ! التفتت المرأة إلى مصدر الصوت فاستولت عليها الدهشة حيناً رأت شيخاً طاعناً في السن يرتدى زوجاً من النظارات القديمة وعلى صدره منزر أبيض يستدعيها ويقول :

- لماذا تقفين هنا مع طفلك والبرد قارس ، ادخلي الدار واحتمى فيه واصطلى بحرارة الموقد ، تقدمى من هنا .

نزلا عتبة الباب وقادها الشيخ إلى مجلسه في غرفته الضيقة وإذ رغبت في تسكين روعها قال :

اجلسي هنا يا عزيزتى قريباً من الموقد وارحمي نفسك واطعمي طفلك .

قالت : ليس لى شىء من اللبن وذلك لأنى جائعة منذ صباح اليوم ثم سكتت وضمت طفلها إلى صدرها .

هزّ (مارتن) رأسه وقام فتناول صحناً وصب فيه من القدر شيئاً من حساء الكرنب ووضع مع كمية كافية من الخبز على المنضدة بعد أن غطاها بقطعة من القماش وقال : تقدمى يا عزيزتى وكلى وأنا سأكفيك مداواة الطفل ولا غرابة فقد كان لى بضعة أولاد وأعلم حق العلم كيفية مداراتهم .

اتجهت المرأة نحو المائدة وبدأت تأكل في حين أخذ (مارتن) الطفل إلى الفراش واهتم بأمره ... قبع (مارتن) بجانب الطفل وراح يصفر له بشفتيه ويصوت

له بأصابعه ، ولكن ذلك لم يجد فتيلاً في صرف الطفل عن البكاء ، وحينئذ أخذ (مارتن) يمد أحد أصابعه باستقامة إلى فم الطفل ويسحبه بسرعة مجرياً ذلك عدة مرات ، وكان يسعى دائماً في أن لا يقبض عليه الطفل بين فكيه ، وذلك لأنه كان مغطى بطبقة من الشمع القائم الذي يستعمله الإسكافيون عادة . أما الطفل فراح يرقب الأصبع وهو يعلو وينخفض وصار يبتسم أولاً ثم يضحك لهذه الحركة ضحكة الفرح الشوان حتى أخذ يقهقه ويداعب (مارتن) بكل اطمئنان في حين كانت الأم جالسة تتناول طعامها وتحدث (مارتن) عن نفسها وعن مكانها الذي غادرته .

قالت : إنني زوجة أحد الجنود الذين أرسلوا إلى إحدى الجهات النائية قبل ثمانية أشهر تقريباً ، ومن ذلك الوقت لم أسمع عنه خبراً . وقد كنت أستخدم في أحد البيوت كطاهية حتى ولد طفلي هذا فرغب أهله عني ولم أزل منذ ثلاثة أشهر وأنا أ كافح عني أجد محلاً أعمل فيه ولو كمرضة ، ولكنني كنت أعود خائبة بحجة واحدة وهي أني نحيفة وشاحبة أكثر من اللازم ، وهكذا بقيت كاسفة البال ملتاعة الفؤاد لا أدري أين أذهب ، ودارت على رحي الفاقة مما اضطرني إلى أن أبيع كل ما كنت أملكه لأجل القوت .

وأخيراً صادف أن التقيت بزوجة أحد التجار وكانت تستخدم إحدى معارف قريتنا فوعدتني بالعمل لديها ، وظننت أن كل شيء قد انتهى غير أنها أعلمتني بعدئذ بأن لا أحضر عندها إلا بعد أسبوع على الأقل .

إن دارها بعيدة وقد خارت مني القوى وهلك طفلي من الجوع : أياه هذه الغرسة الغضة ... ومن حسن الحظ أن تكون فتاة قريتنا قد أشفقت علينا فأسكنتنا بجوارها بدون مقابل وإلا لم أكن لأعلم ما أصنع .
تهبّد (مارتن) نهدة مازجتها قطرات العطف والحنان وسألها : ألا تملكين ملابس غير هذا الطمر ما يمكنك بها أن تردّي عنك شر البرد ؟

قالت : لقد رهنت أمس آخر مطرف أملكه مقابل مبلغ لا يزيد عن خمسة وعشرين فلساً . وهنا قامت المرأة فتناولت طفلها بيديها ثم عادت إلى مكانها ، بينما تقدم (مارتن) إليها بعد أن فنش قليلا في بعض الأمتعة وفي يده (ملءة) بالية كانت معلقة على الجدار .

قال : خذى هذه الملءة إليك وهي وإن كانت بالية إلا أنها خير دثار للطفل . أخذت المرأة الملءة وبعد أن نظرت إلى الشيخ نظرة الإشفاق انفجرت باكياً انحرف (مارتن) عنها وذهب يلتمس بين طيات القراش فأخرج منها حقيبة صغيرة فاحتضنها واعتدل بجلسته ثانية تجاه المرأة البائسة .

قالت : بارك الله فيك يا صاحبي ولا شك عندي أنه هو الذى هدانى إليك كيلا يهلك طفلى من البرد ، لقد كان الجو لطيفا عند ما خرجت سائرة ، ولكن أنظر كيف تغير الحال واشتد البرد والله هو الذى دفعك لتتظر من النافذة فترانى وهو الذى صبّ في قلبك الإشفاق على "أنا المسكينة التعسة" ...

قال : وهو يبتسم : هذا صحيح فهو الذى قادنى إليك ولم يكن للصدفة دخل في ذلك . ثم أخذ يذكر للمرأة حديث حلمه وكيف أنه سمع صوتا دعاه باسمه ووعده بزيارته قريبا .

قالت : ومن يدرى فكل ذلك محتمل الوقوع . ثم نهضت ووضعت الملءة على ظهرها ولقت بها جسمها وطفلها ، ثم انحنت أمام (مارتن) شاكرة إياه مرة أخرى .

قال : خذى هذا في سبيل الله ، ومد إليها يده وفيها مبلغ قدره ٢٥ فلسا لتفك به مطرفها من الرهن ، اجتازت الفسحة ووراءها (مارتن) حتى خرجت من باب الدار ومضت في سبيلها .

رجع (مارتن) إلى مسكنه فتناول غذاءه وجلس إلى عمله ماضيا فيه بكل جدٍ ولكنّه لم ينس أن ينظر إلى النافذة من حين لآخر فإذا سقط عليه خيال أحد

المارة رفع برأسه إليه لينظر من عساه يكون . وما مضى على جلوسه برهة حتى شاهد بائعة تفاح تحط الرجال أمام نافذته تماما وكانت تحمل بيدها سلة كبيرة لم يكن قد بقي فيها من التفاح بعد أن باعت أكثره إلا القليل ، وتحمل على ظهرها كيسا مملوءا ببشارة الخشب تريد نقله إلى بيتها .

والظاهر أن الكيس كان قد ألمها فأرادت تحويله إلى كتفها الآخر ، ولذا جاءت فألقته على الأرض بعد أن وضعت سلتها جانبا وبدأت بتحريك الكيس حتى تتخذ النشارة في داخله وضعا جديدا . وفيما هي تقوم بهذا إذ مر بها أحد الصبيان راكضا وفي رأسه طاقية ممزقة فانتشل من السلة تفاحة وهرول مسرعا وكاد يهرب لولا أن أدركته العجوز فتمكنت من إلقاء القبض عليه من رदन قيصه فبدأ يناضل ليفلت منها ، ولكنها شددت عليه بكلتا يديها ، وحسرت عن رأسه فسكنته من ناصيته بقوة زعق منها الصبي وصرخ صراخا شديداً من الوجع ، وأجبرته على الوقوف .

شاهد (مارتن) كل ذلك فما صبر بل رمى من يده مثقبه وولى ساعيا خارج الدار فاضطرب في سيره وعثر بعتبة الباب مما أدى إلى سقوط نظاراته عن وجهه ، ومع هذا فإنه لم يتوقف بل أسرع إلى الشارع ماضيا ، وكانت المرأة عند وصوله لم تزل ماسكة بالصبي من ناصيته وهي تتوعده بتسليمه إلى مركز الشرطة لإنالته العقوبة اللازمة والصبي يسعى في الإفلات ويحتج على الضرب ويطلب إطلاق سراحه .

جاء (مارتن) ففرق بينهما وأخذ الصبي جانبا وهو يقول موجه كلامه إلى العجوز المسروقة : دعيه يذهب يا جدة في سبيل الله .

قالت : أريد أن أنتقم منه حتى لا ينسى ذلك لعام على الأقل ، وإني أريد أن أسلم الوغد بيد الشرطة .

بدأ (مارتن) يلتمس من العجوز ويرجو منها فك سراحه ، غير أنها لم تنصاع

وحاول الصبي الهروب من القيد لولا أن (مارتن) أوقفه قائلاً :
لقد رأيته بأمر عيني وأنت تسرق التفاحة ، وعلى هذا لا بد من أن تطلب
العفو من الجدة بشرط أن لا تعود إلى مثل ذلك في المستقبل .
صرخ الصبي محتجاً ولكنه لم يتأخر من أن يطلب العفو على عجل .
قال (مارتن) : حسناً والآن خذ لنفسك تفاحة ! .
وتناول (مارتن) تفاحة واحدة وقدمها إلى الصبي وهو يقول : سأعطيك
ثمنها يا جدة .

قالت : إنك تسيء إلى هؤلاء الصبيان الجبناء بما تصنع ، ومن اللازم معاقبتهم
بالسوط ليبقى أثر ذلك عالماً في أذهانهم أياماً على الأقل .
قال : آه يا جدة ! إن هذه طريقتنا ولعلها ترضى الله ولو كان من الواجب
علينا ضربه بالسوط بسبب سرقة تفاحة واحدة فما هو مقدار ما نستحقه من
عقوبة تجاه ذنوبنا وأخطائنا الكثيرة .

وصار (مارتن) يقصّ عليها وعلى الصبي الواقف بجانبهما قصة السيد الشريف
الذي تنازل لخادمه عن دين كبير كان بدمته ، بينما اندفع هذا الخادم بعد ذلك
فمسك بخناق مديونه في الطريق . وكانت المرأة تستمع صاغية إلى حديثه ووقف
الصبي ساكناً .

قال (مارتن) : إلهي علمنا الإشفاق والغفران وإلا سوف لا يغفر لنا ! ألهمنا
الصبر واغفر لنا واعف عنا ، وبالأخص عن أمثال هؤلاء الصغار الذين لا يعلمون .
هزت المرأة رأسها وتهتبت ثم قالت : هذا صحيح ولكن ذلك يضرهم .
قال : وإذن فعلياً نحن الكبار أن نسلك بهم أسلم الطرق .

قالت : وهذا ما أقوله ! لقد كان لي سبعة بنين وبنات لم يبق منهم غير
بنت واحدة أنجبت لي الكثير من الحفدة . وبعد أن ذكرت بعضاً من أخبارها
وأخبار بناتها استطردت فقالت : والآن في حين أنه لم يبق لي من القوة ما أصبر

بها على العمل ترانى أجدر فى السعى وراء إسعاد هؤلاء الخفدة الملاح ، فلا أقرب
من البيت إلا ويتلقانى كلهم صاحكين لاعبين . تلك (آنى) الصغيرة التى
لا تفضل على أحداً وهى دوماً تنادىنى بجدي العزيزة . . . إيه يا جدي العزيزة
كم أحبك ! .

وهكذا استرسلت العجوز فأتمت قصتها . ثم أضافت : وبالطبع لقد كان
مندفعاً إلى عمله هذا بنزوة من الشيطان — مشيرة بذلك إلى الصبي — وليرشده الله .
وعند ما استعدت المرأة لرفع الكيس تقدم الصبي واستأذنها برفعه عنها .
نكست المرأة رأسها دليل الموافقة ، ثم تناولت الكيس وحملت إياه واتجهت
معه فى سبيلها بعد أن ودعت (مارتن) وفاتها أن تسأله عن ثمن التفاحة .

أما (مارتن) فوقف يشيعهما بنظرة وهما يسيران على مهل وكل منهما يحدث
صاحبه ببعض الحديث حتى غابا عن العين .

خرج (مارتن) إلى بيته فأعاد نظاراته على وجهه واختطف مثقبه وراح يستقل
ولما أن شاهد العمال يمرّون فى الطريق ليشعلوا مصابيح الشارع أدرك أن الوقت
حان لإشعال السراج .

وانتهى (مارتن) من عمل حذاء واحد فقلبه وفحصه ليتأكد من متانته ،
ثم قام فجمع أدواته وكنس المكان وبادر إلى كتابه فأحضره من أعلى الرف
ووضع السراج أمامه وتنبهاً للمطالعة حسب عادته .

وقبل أن يشرع فى القراءة تجلت إليه خواطر حلمه الشهى فاندفعت فى
مخيلته ايندفاعاً صرفه عن فتح الكتاب من الموضع المعين وفيما هو كذلك وإذا به
يشعر بوقع أقدام تخطو وراء ظهره وكأنها تقترب إليه على عجل .

فأدار (مارتن) وجهه إلى إحدى زوايا الغرفة وما كانت أشد دهشته عند
ما أبصر جماعة تقف فى الظلام على بعد منه لم يستطع أن يتبينهم ، وفى برهة
نادى أحدهم بصوت عذب قائلاً : مارتن . مارتن .. ألا تعرفنى ؟ .

ذهل (مارتن) وصاح : من أنت ؟ .

أنا يا مارتن ! ... صفر الصوت للمرة الأولى : وإذا باستيانش ينبعث من الظلمة فيبتسم في وجهه . وقبل أن يستطيع (مارتن) مكالمته استحال خياله شعلة وتوارى عن بصره وكأنه لم يكن .

أنا يا مارتن ! . صفر الصوت للمرة الثانية : وإذا بالمرأة تنبعث من الظلمة وعلى ذراعيها طفلها الصغير ، فتبتسم في وجهه ويضحك طفلها ، وقبل أن يستطيع (مارتن) ملاحظتها استحالت وطفلها شعلة وتوارى خيالها عن ناظره وكأنه لم يكن .

أنا يا مارتن ! ... صفر الصوت للمرة الثالثة : وإذا بالعجوز مع الصبي ويده التفاحة ينبعثان من الظلمة ويبتسمان في وجهه ، وقبل أن يستطيع مكالمتهما استحالت والصبي شعلة وتوارى خيالهما عن بصره وكأنه لم يكن .

غمرت (مارتن) نشوة السرور فابتهج لما رأى وراح قرير العين بارد القواد فأدار جسمه ووضع على عينيه نظاراته وابتدأ يقرأ في الكتاب المقدس حينما فتح : « تعالوا يا مباركي الله وأنعموا في الملوكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم لأنى جعت فأطعمتمونى ، عطشت فسقيتمونى ، كنت غريباً فأوَيْتمونى ، عرياناً فكسوتونى » .

ثم قرأ فى وسط الصفحة : « الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه لأحد إخوتكم هؤلاء الأصاغر فله فعلتم » .

وحينئذ أدرك (مارتن) أن الحلم قد صدق وأن صاحب الصوت كان قد زاره وحيّاه .

الحلم واليقظة

« أيها الجمل ما أغراك ، وأنت

أبها العقل الباصر ما أنت إلا جبار . »

جلس الجمل إلى جانب ينبوع ليستحم بالماء الصافي البرود ، وقد نشرت
الأشجار الخضر أظلالها السخينة على ذلك الربع الهادي المنعش ، وهبّ النسيم
على الحقول والمزارع .

فدعا الطيور السابطة في الأوكار إلى تهليلها وتغاريدها المسكرة وهي تمجد
بالجمال وتدلل به .

وداعب مياه الساقية فأخذت أمواجه تتلاطم عن يمين وشمال ، وهي لا تألو
مصوتة معلنة عما هناك من فتنة . ثم مرّ بي فافاض شعوري وأثار حسّي وألهب
إدراكي وأشعل عواطفِي .

ثم أغرى عيني للتمتع بالحلال المحرّم . . . من هذا الجمال الحَيّ الساحر !
الذي أخذ يقترب منزلقاً على سطح الماء في لطف النسيم .

فإذا بعقلي الحكيم يقف حائلاً ويقول : تباً لك أتطلب ما لا يطلبه العذارى .
ايه ! . . فما أغراك يا جمال ، وما أرزئك يا عقل !

ولما أغمض الكرى عيني تحت تلك الخمائل النضرة ، زارتنى خيالات الغرام ،
ودلتني على مشاهد الرؤيا المقدسة فأشبع ناظري ، ولكنها لم تشبع نفسي حيث
كانت خرساء صامتة ، وبذا عجزت عن أن تصف لي ذلك الحسن الطافح
بالحب ، فكنت إذ ذاك كالطفل الضاحك في أحلامه والباكي في صحوه ، ولكني
ما استيقظت حتى وجدتني جالساً .

إلى رفيقي الحليم

ايه ! . . أيها الجمال ما أغراك !

وأنت . . . أيها العقل الباصر

ما أعظمك !

مَرثِيَّةُ الدُّوقِ وَلِنَكْتُون

لشاعر العرش الإنكليزي (تنتون)

نشرت هذه المنظومة على عجل يوم الاحتفال
بجنازة الدوق ولنكتون سنة ١٨٥٢ ثم هذبت مرتين
فظهرت أخيراً بثوب قشيب قطعة نادرة من الشعر
الإنكليزي الرفيع ، فقد خلق الشاعر في منظومته
المذكورة في جو من الخيال لم يتوصل إليه شاعر
آخر ، بحيث نسق منظرها المختلفة من دق
الأجراس وحركات المعارك ومسير الجثمان الخيم
عليه السكون الأبدي تنسيقاً جميلاً يتوافق ورنين
الأغاني التي انبعثت من الأجواق المرتلة في
الكاتدرائية الكبرى في (لندن) آنذاك . وقد
أصبح للعقائيد الشعريّة في القصيدة روح تملأ
وتنخفض حسب التبدلات المثبتة فيها فتوافقها
وتسير معها يدأ بيد . وهي بحق صورة واضحة من
تقدير الأدب للعظماء والقادة

(١)

ادفنوا الدوق العظيم
بنجيب شامل منقطع النظير .
ادفنوا الدوق الفذ . . .
وسط زفرات الأسى المنبعثة من الصدور الحزينة
أسى لايزول بمغيب النجوم وراء الحجب
فلقد كان لايتوانى فى إرسال نجيدات الحرب حتى فى ظلمات الليل .

(٢)

فى أى الأمكنة سنودع هذا الرجل الذى نبكيه ؟
هنا فى بؤرة هدير المجتمع فى (لندن) . .
لتظل أصوات من خدمهم . .
ووقع أقدام من حارب لأجلهم . .
مرددة صدى رنينها قرب عظامه إلى الأبد .

(٣)

سيروا مع الاحتفال ببطىء ونفوسكم مشبعة بالحزن والهم .
فالبلية عالمية كبرى . .
وافسحوا المجال لسيير الموكب الطويل
ليزداد حوله زحام الناس النادين كلما تقدم فى مسيره خطوة واحدة
ودعوا الموسيقى العسكرية تصدح .
فتعلن فناء آخر رجل من عظماء بريطانيا .

(٤)

اندبوه فإنه كان الأخير من أمثاله

من الذين تملسكو مقاليد العظمة
اننا سوف لانراه مرة أخرى بيزته العسكرية
يخطو الشارع مسلماً بيده على معارفه
إذن تعالوا أيها الأصحاب واندبوا الرئيس عالم الأمة الذي أمسى صامتاً
ابكوه فهو رجل الدم الجسور
وهو السياسي الصادق العزيمة المعتدل بأمره
وهو بشخصيته السامية الكل في الكل والحسنة العامة التي ينتفع بها الجميع
إذن نوحوا عليه فقد كان ذا خير عظيم
بعيداً عن الأطماع الأثيمة ..
كان أعظمنا بيننا ولكنه أقلنا ادعاء
فهو جليل في السلم جبار في الحرب
والقائد الأسبق في وقته ..
الذي جُبلَ على أن يحترم شعور الخاص والعالم
ومع كل ذلك .. فهو كما عرف الجبارة
رفيع رغم بساطته ..
سام رغم تواضعه ..
ايه ! ياذا الشعر الأشقر الذي أحبه الناس جميعاً
ايه ! ياذا الصوت الجميل الذي اعتادت البرية أن تستخلص منه فألها
ايه ! ياذا العصب الحديدي الكبير عند اشتداد المضائب
آه .. أيها البرج الشامخ الذي انهيار أخيراً
بعد أن جابه العواصف الهابّة من أربع جهاته طيلة السنوات الغابرة
نعم ! هكذا كان الرجل الذي نبكيه اليوم
وبذهابه تلاشت تلك الروح المضحّية من الوجود

و بفنائه ودّع الكون الرجل المنتصر على قاهر العالم لثلا يرى بعد إلى الأبد .

(٥)

والآن كل شيء قد انقضى ومضى
فارفعي رأسك يا انكلترا إلى العلاء . . واطبّي الرحمة إلى ابنك الراحل من
الواهب العزيز ، وابعثي في الفضاء شكرك مع أصوات الأجراس ورنينها
إلى الواحد الأحد .

ثم عودى لتودعي جثة ولدك في مقرّها الأخير .
هناك تحت الصليب الذهبي . .
العاكس شعاعه على جدران المدينة وعلى مياه النهر
هناك بين الحكماء والشجعان . .
سيأخذ راحته إلى الأبد . .

فليقرع الجرس وليحمل الهواء نفثاته الملتالية
وليرفع الشعب الموقر رأسه شاخصاً . .
إلى تلك العربة الحاملة لجثمان الجبار في سكونه
هو نعش يبعث نور الإخلاص والأعمال المجيدة
من بين غطاءه الأسود الكثيف
وليقرع جرس الموت مرة ثانية . .
ليرسل رناته الشديدة إلى القلوب المتألّمة
فتمتزج مع نفثات التهليل الحزينة . .

وهي بتصاعدها إلى القبة ذات الصليب الذهبي . .
تصطدم بصوت الطلقات النارية فتزيدها شدة
لقد خرجت من أفواه المدافع تعلن حزنها لفراقه
كيف لا ؟! وقد محبته طويلاً في حروبه ومعاركه

واستشهدت أمامه في كثير من الظروف والأحايين
مرددة ضجيجها وأزيزها في أذنيه ..

فتسمعه تباشير النصر والغلبة وحكم القضاء المبرم
عند كل خوضة كان يخوضها في المعارك وميادين القتال
وهو بذلك يهب لبلاده الأمان والموكها النعيم والسودد
وبتلك الصرخات العالية اعتاد إلقاء الدروس الصارمة
للمستبدين العتاة معلناً حقه وخطورة مركزه
ها هي الأصوات المفزعة تردد اسمه العظيم
الذي اكتسبه عن جدارة واستحقاق ..

فقد نظر إلى المدح والذم بعين واحدة ..
لما اتصف به من الأخلاق الكريمة والصفات العالية
إيه !.. ياعروسة الشعر تقدّمي وقبلي اسمه المقدس
واحفظيه بين صفحات قلبك على مدى الأيام
وألهجي به دوماً في صباحك ومساءلك
حتى يسمع الملاء صداه من بين شفاهك
عند ما تنشدن محفوظاتك الموسيقية العذبة .

(٦)

ربما تتساءل أيها (البحار العظيم^(١)) : من هذا القادم الذي جاء يجر

خلفه أذياله كالضيف المبجل

تحييه من فوقه الأعلام خافقة خفقان الحزن لفرقه

وتسمعه الموسيقى حوالياً نغماتها الشجية

(١) يشير بذلك الى قبر البحار نلسون .

فتمشى على دقاتها أرجل العساكر ورجال الدين باكين ناحبين
وبذا يقلقون عليك راحتك .

ذاك ! .. هو قرينك في العظمة ولكنه كان ملك الأرض

كما كنت أنت ملك البحار ..

أنت الذي كنت فريداً بين أعلام بلادك كأكبر رجل بحار عرفته منذ نشوئها

والآن وسط أصوات الطبول الداقة على أوتارها المتنوعة

أتاك علم آخر من أعلام أمتك ..

كأكبر جندي مخلص شهدته منذ توديعك إياها

هو ذاك ! أخوك في العظمة ولكنه كان ملكاً على الأرض

كما اختصت البحار ملكاً عليها

وهو الذي انتصر على أعدائه الذين كانوا أعداءك فحمانا منهم

ورد كيدهم في نحرهم ..

آه ! .. إذن قم ورحب به فيها هو نفسه

ذاك الذي يستحق كل هاته الاعتبار والتبجيلات

ودعه يرقد إلى جنبك وليصبح جارك في آخر ساعاته

لأنه أعظم أبناء انكترا الذين شهد العالم انتصاراته في الحروب

ومع ذلك فإنه لم يخسر ولا جندياً واحداً من جيشه

بل احتفظ بكل فرد تبعه في ميادين القتال .

(٧)

هذه وقفته أمام جيوش (إسى) التي أعلنت العصيان

هناك في بلادها البعيدة ..

وقد صدمها بقوته وجبروته وكانت معه الفئة القليلة

ولسكنها كانت الفائزة المنتصرة ..

جاهد حتى اليوم الثانى حين تقهقر ملياً
بعيداً عن حيطان (لشبونة) .
تلك المدينة ذات التنظيمات الواسعة النطاق والمملوءة بثلاثة أضعاف من الجنود
المرابطين .

غير أن الشمس لم تكد تبزغ من مكنها لترى صباح اليوم التالى
حتى رآته وقد أنشأ أسواراً متعددة

أوقف خلفها جيشه قريباً من الخليج المشرف على المدينة
يتقدم ثانية كالأسد المتحفز بكل ما فيه من قوة وشكيمة
وهو أكثر بسالة من يومه الفائت

فرمى العدو من جهات ضعفه التى أدركها بحذقه وذكائه
وبذا ضرب (فرنسا) ضربة جبارة قاصمة .

بما حشد هناك من جيش ومؤن

ثم أتبعها بزوابع متوالية قاهرة هبت عليها وهدت أركانها
وأفزعت نسرها الأكبر المفترس^(١)

فما كان من هذا إلا أن حلق بعيداً بعيداً

فوق تلك الجبال المرتفعة عابراً سفوح قمم (البرنس) الوعرة

المغطاة بأشجار الصنوبر الكثيفة . .

التى أخذت تسمعه نفير الأبواق . .

وصليل الخيول المطهّمة التى اقتفت أثره

فرنت فى أذنيه كأصوات المدافع وقرقرة الرماح

مرددة صداها بين الوهاد والتلال

مما زاد فى خوفه وشجّعه على التمسك بأذيال الفرار .

(١) يشير بذلك إلى (نابليون)

وهكذا صبت انكلترا على رءوس أعدائها نقمة الفشل والخسران
في وقعة مشهودة كانت عبرة لهم ..
وكان ذاك هو السبب الأكبر ..
الذى استفز النسـر الألد مرة ثانية لينال ما خسره من مطامع
فصرخ صرخة عالية هدت الفضاء ..
ثم نشر جناحيه العريضين على قارة أوروبا
فكانا كالغامة السوداء حجبت عن الأرض نور الشمس
حينذاك افترس ما كان له أن يفترس من عروش وتيجان
إلى أن برز له هذا الرجل من مكـنه
حاملاً بيده مشعل الواجب المتقد
فأفزع ذلك الطائر المحترَّب في ساعات يوم رهيب
الذى شهد إحدى الغارات العجيبة في تاريخ البشر
فجرفت أمامها كل صخرة متينة الأساس قوية الارتكاز
ثم بعثت بزبدها فوق أمواجها المتلاطمة
إلى أبعد ما هناك من مدى ومسافة ..
حتى استفزّت بذلك أبواق (البروسيين) وطبولهم الخشنة
فأخذت في الإيقاع وسط هوائها العبوس الجاف
التي ألفتها مدة طويلة ..
عند ذاك أخذ جناح النسـر في التقلص والانسحاب
فبان من ورائه وميض منير من السماء المنيرة
كشف عن الظلمة الخالصة التي سترت الحق عن العالم مدة من الزمن
وهكذا كان لانكلترا فريدها الذي محت به أعداءها من الوجود وضيق
عليهم الخناق بعد ما كسرتهم شر كسرة .

(٨)

إن هذا الرجل العسكرى الشجاع هو الذى علم البشرية
فى ذلك الميدان ميدان معركة (واترلو) الذى زلزل العالم
كيف وإلى أى حد تحتل القلوب الجسورة عذاب الحروب

(٩)

كان مثلك أيها البحار المجيد — رفيق الحق ، لئن العريكة ، نزيها من الأدران
التي يتصف بها غالباً كل جبان ما كر
ايه !.. يا منقذ الجزيرة ذات الساحل البقى
ايه !.. يا خاضع بحر البلطيق ونهر النيل
ليكن هذا الحادث الجلل باعثاً قوياً لروحك الإلهية
كما كان حب الوطن فيما مضى باعثاً لعواطفك السامية عند تلك الوقائع البحرية
فيبعث فيك الغبطة والنشوة عند حلول عظامه جنب عظامك
وبذلك تظل أصوات الناس وتهليلهم العالية مرددة صدى اسميكما على مدى
الأجيال ؛ تظل كبرهان ساطع لما تحويه بقعتكم من شهرة عالمية
أصوات متعالية من قلوب محبة طوال أعمارها سواء كانت فى الفرح أو فى
الأسى ، فى الأنس وفى الحزن
شاهدة بما كان لقائهم الكبير من منزلة فضلى مقرونة بالاحترام السامى .
بعد ما خط الشرف اسمه على جبين الدهر
ليبقى أبداً شارة الإخلاص والحب الوطنى .

أَسْئَلَةٌ ثَلَاثَةٌ

للقصصى الروسى « ليو تولستوى »

« إن أفضل ما نريد إنجازه

هو عمل الخير »

اشتهر أحد الملوك الأقدمين بحب السطوة والحرص على السلطان ، وكان أشد ما يؤلمه الفشل في بعض محاولاته التي يقدم عليها ، فخطر بباله يوماً أنه لو أدرك أموراً ثلاثة كان الفوز حليفه في جميع ما يريد وما يصبو إليه من تمام العز والمجد لنفسه وبلاده .

ولكن من يدلّه يا ترى على حقيقة هذه الأمور الثلاثة التي سرّته بها نفسه ليحقق بواسطتها مطامعه ويدرك عن طريقها ما أمّل وتاق .

وما أن صح له هذا الخاطر بأدر بإعلان فكرته إلى شعبه وخصّ لمن يأتيه بالجواب الشافي عن أسئلته الثلاثة يأتاوة ثمينة جليلة القدر .

ونادى مناديه : أيها الملاء من يدلّ الملك عن : « أفضل الأوقات للبدء بتنفيذ عمل من الأعمال ؟ وما هو أهم ما يجب عمله ؟ ومن هو أجلّ من يستحق الاستعانة به من الناس في إنجاز ذلك العمل ؟ إن من يستطيع أن يخبر الملك بأحسن الجواب عن هذه الأسئلة الثلاثة فليتقدم وله منه المقام الأعلى والمنزلة الرفيعة . هرع الكثيرون من رجال العلم والعرفان إلى البلاط الملكي لينبثوا الملك بما أراد ويعلموه عما استفتى ، والكل يمتنى نفسه بالحصول على الهدية السنية التي عينها للفائز .

غير أنهم اختلفوا في أجوبتهم ، وتباينوا في تعاليلهم ، فعاد الكل بخفي حنين ذكّر فريق منهم أن على من يريد معرفة أفضل الأوقات للشروع بعمل ما أن يختط لنفسه قبل الإقدام بأيام أو أشهر أو سنوات منهجاً واضحاً لا يحيد عنه وبهذا فقط يستطيع إنجاز ما يطلب في وقته اللازم .

وأجاب فريق آخر أنه يستحيل على المرء أن يتنبأ بأفضل الأوقات لكل عمل قبل الشروع بمزاويلته ، ولكن هذا لا يعني وجوب الاستغراق في الكسل وتمضية الوقت دون الاهتمام بما يحدث له من أمور تتطلب العمل حسب مقتضى الحال .

بينما عرض فريق ثالث أن الإنسان مهما كان فطناً فإنه لا يستطيع أن يعين بالضبط أفضل الوقت الذى يناسب عملاً ما ، ولهذا يصبح لزوماً على الملك تأليف مجلس شورى من رجال العلم والمعرفة يستعين بهم فى تهيئة ما يريد العمل به فى أحسن الفرص ، وردّ آخرون هذا الرأي بقولهم : « قد يعترض المرء أحياناً أمور مستعجلة لا يسمح المجال بعرضها على المجلس المذكور لأخذ الاستشارة المطلوبة ، إذ يقضى الحال العمل بها أو تركها لساعتها ولا تأخذ قرارات مستعجلة وحاسمة ، ففى مثل تلك الظروف يجب على المرء أن يحيط علماً بكل ما جريات الحوادث حتى لا يصيبه النشل فيما يقدم عليه ، وهذا ما لا يدركه إلا السحرة ، إذن فالواجب يضطرننا إلى استشارة هؤلاء إن أريد معرفة أصوب الأوقات لكل مشروع .

واختلف الجمع كذلك فى جوابه عن السؤال الثانى ولكنه انحصر فى أمور لا رابع لها وهى العلم والدين والمهارة الحربية ، وعلى هذا تباين جواب الناس عن السؤال الثالث أيضاً ، فمنهم من فضّل رجال الدين ، ومنهم من قدّم الأطباء ورجال الحكمة ، بينما آخرون ذكروا الضباط ورجال الحرب .

ولما لم يحصل الملك على غايته ولم يعثر على الجواب الذى تطمئن إليه نفسه عزم على أن يستشير فى الأمر ناسكاً من رعيته وهو آخر سهم فى الكنانة .

كان الناسك المذكور من رجال الحكمة والورع يسكن فى مكان سحيق قريباً من إحدى الغابات الكثيفة التى لم يترك جوارها منذ أن استوطن المكان ولم يكن يزوره فى مقامه هذا إلا من عرف فضله من بعض معارفه من عامة الناس . أمر الملك حراسه بالاستعداد لزيارة الناسك الحكيم ، وفى الموعد المضروب للسفر ارتدى ملابس بسيطة أشبه بملابس الفقراء واعتلى صهوة جواده وسار يحفّ به رجال الحرس من كل صوب ، وقبل أن يصل إلى موطن الناسك ترجّل وذهب إليه بمفرده تاركا من كان بصحبته بعيداً عن المكان المقصود بقليل .

كان الناسك حين اقترّب الملك إليه يحرق قطعة من الأرض تقع أمام كوخه

وإذ تلاقى الشخصان حيّا كل منهما الآخر ثم انعكف الناسك على عمله دون تأخير .
لقد كان الناسك كهلاً ضعيف الجسم ، وكان يتنفس بشدة كلما همّ بقلب
كمية من الصعيد بواسطة معوله مما دل على أن العمل قد أضناه وأنه قائم بذلك
منذ بضع ساعات .

شاهد الملك كل هذا فدنا منه وهو يقول : « قصدتك أيها الناسك الحكيم
لتجيبني عن أسئلة ثلاثة أنشد من ورائها فوزاً عظيماً . ألا تدلني يا صاح ؟ ! ولك
من الله الثواب : عن أفضل الأوقات للشروع بعمل ما ، وعن خير الناس ممن يمكن
أن أعتمد عليه ، وعن أفضل القضايا التي يجب أن أعيرها كبير اهتامي » .
أصغى الناسك للقول وبدلاً من أن يجيب السائل عن سؤاله بصق في راحة
يده ليقوى على مسك المعول وعاد إلى ما كان عليه من جديد .

فما كان من الملك إلا أن قال : « لقد تعبت أيها الناسك العزيز فدعني
أشاطرك العمل قليلاً » ؟ .

فقال الناسك : شكراً لك !.. وقدم لزاره المعول وجلس هو على الأرض
يستريح .

اشتغل الملك في الحرث حيناً ثم توقف عن العمل وأعاد أسئلته الثلاثة على
الناسك ورجا الإجابة عليها ، إلا أن هذا نهض متثاقلاً وطلب المعول من الملك
قائلاً : دعني أساعدك فقد عجزت عن العمل كما يبدو لي . أما الملك فأبى واستمر
يحرت زمناً يقرب من الساعتين بان عليه بعدها آثار التعب بكل جلاء .

أخذت الشمس تختفي بالتدريج وراء أشجار الغابة فبعثت بظلمها المديد على
ذلك السهل الواسع ، ولعل هذا الظل المظلم كان السبب في تنبيه الملك من غفلة
أفاق منها فرأى نفسه في عالم موحش لا أنيس فيه إلا الناسك الشيخ فركز
المعول في الأرض وقال : لقد أتيتك أيها الرجل الحكيم طالباً الإجابة عن أسئلتى
ولئن لم تفعل فأخبرني لأعود من حيث أتيت !؟ .

هنا نهض الشيخ منزعجاً كمن فاجأه أمر غريب ، وصوب نظره إلى جهة الغابة وقال للملك : مهلاً ! إني أسمع وقع أقدام بعيدة ! نعم ! ها هو رجل يقصدنا ! ألا تراه ؟ . ثم أشار بيده إلى القادم .

التفت الملك إلى الجهة المشار إليها وإذا به يبصر رجلاً يسعى نحوهما من طرف الغابة وقد مسك جانب بطنه يديه والدم يسيل من بينهما بشدة ، وعند ما وصل إلى المسكان سقط على الأرض مغشياً عليه وهو يئن بضغف يئن .

فأخذ الملك لساعته ينزع عن الرجل ملابسه ليرى موضع الإصابة ، ولما أزاحها عن جسمه وجد قرب الخصر مما يجاور المعدة جرحاً بليغاً ففسله بكل اعتناء ، وإذا كان الدم يتدفق بقوة هائلة جابه صعوبة لاحت لها حتى أوقف النزيف ، ولما تم له ذلك ربط الجرح بمنديله وعصابة كانت للناسك .

ثم ظهر على سياء الجريح علائم الانتعاش والراحة ، وبعد لأى طلب جرعة من الماء فسقاه الملك عساً (بضم العين) من المساء الصافي كان قد احتفظ به الناسك في كوخه .

دنا الأصيل وتضيّفت الشمس ، وبدأ الهواء يهبّ بارداً على ذلك السهل المتراعى الأطراف والاثنان وقوف بخدمة الرجل الجريح ، حتى إذا ما خشيا عليه سوء العاقبة حملاه داخل السكوخ وطرحاه على الفراش . استقر المصاب في مكانه فاستلقى بكل هدوء وأغض عينيه واستغرق في سبات عميق . أما الملك الذى أعياه المشى وأضناه التعب فإنه اضطجع قرب المدخل وهجم بكل طمأنينة ، ولعله لم يشعر بمثلها في كل تلك الليالى القصيرة من الصيف .

وعند الفجر استيقظ الملك من رقاذه ونظر حواليه فعرف بعد لأى مقامه وتذكر حوادث الأمس ، فأدار بوجهه ليبصر الجريح المطروح فإذا به يحرق إليه بعينين براقتين ملؤها السرور والحب ، وهو يقول : العفو ياسيدى ! . . .

فأجاب الملك : من أنت وما معنى طلبك العفو مني ؟ . إني لا أعرفك أيها الرجل حتى تقول ما قلت . فرد الجريح قائلاً : نعم لقد صدقت أنت لا تعرفني ولكني أعرفك تمام المعرفة ، أنا ذاك العدو اللدود لك الذي أقسم لينتقم منك لنفسه ، لأنك أمرت بإعدام أخيه وحجزت على جميع أمواله وممتلكاته . وقد بلغني أنك قاصد هذا الناسك في يومك الفائت فجئت مترصداً أطلب اغتيالك لدى عودتك لأشفي منك غليلي . ولما انقضى اليوم ولم تعد وثبت من كميني مفتشاً عنك فصادفني رجال حرسك الذين عرفوني وضر بوني فأصابوا مني مقتللاً قبل أن أتمكن من الفرار سالماً ، ولقد جئت للناسك ملتجئاً ولولا تضييدك لجرحي واعتناؤك بي لأحيط بي ولصفرت وطائي

رغبت في قتلك فوهبت لي الحياة .. آه ! . ما أكرمك ! ولو أنك لم تعرفني بادئ ذي بدء . سأكون إليك أيها الملك الجليل — إن أردت — خادماً أميناً ، وسأقدم أولادى لخدمتك أيضاً . إذن فالففو ياسيدى !

تهلل وجه الملك فرحاً بهذه الصدفة التي أتاحت له أن يربح فيها من عدوه صديقاً حميماً يمثل هذه السهولة ووعدته بإرجاع كل ما اغتصب منه من مال وعقار . خرج الملك من عنده لمواجهة الناسك ؛ راغباً في أن يسمع منه قبل الرحيل جواب أسئلته ، اقترب إليه فوجده منهمكاً في غرس بعض البذور في التربة التي حرثت أمس ، جلس قبائله وقال له : أطلب منك أيها الناسك لآخر مرة أن تجيب عن أسئلتى أيها الرجل الحكيم لأننى مودّع إياك عن قريب . عجباً ! . قال الناسك : ألم تع الجواب بعد وقد أجبت عما تريد بكل تفصيل . فقال الملك . كيف ذاك وماذا تعنى ؟

قال الناسك مهلاً ! . . ألم تشاهد بأم عينك لولا عطفك على ضعفي ومواساتك إياي أمس للقيت حتفك بيد ذاك الجريح لدى عودتك ولنسدمت على عدم مكوثك معي ، إذن فإن أفضل الأوقات كان عندما بدأت تحرث هذه التربة معي

وكنت أنا أفضل الناس إليك ، وعملك الخير لى كان أحسن أعمالك ، وعند ما لحق بنا الجريح كان أفضل الأوقات وقت اعتنائك به ، لأنك لولا تضيمدك لجرحه لمات قبل أن يصطالح الأمر بينكما وكان هو خير الناس إليك ، وماقت نحوه من خدمة كان أحسن الأعمال التى شرعت بها .

تذكر أيها الزائر الكريم أن الساعة التى أنت فيها هى أفضل الأوقات لديك ، لأنها الزمن الوحيد الذى تمتلك فيه القدرة على العمل ، فالماضى فات والمستقبل مجهول ، وأفضل الرجال إليك هو من كان بين يديك لأنه لا يعرف سواك ولا يشكو إلا إليك . أما أفضل ما تريد إنجازه فهو عمل الخير .. وذلك هو الغرض الأصلى الذى أرسل الإنسان من أجله إلى هذه الحياة !

فيأياها الرجل اعمل الخير ما استطعت إليه سبيلا . . .

الرسول الطائر

لورد تنسون

طر إليها واملك قلبها لي ، وقل لها ، قل
لها إني تابعك .

آه — أيها السنونو الحلق في الفضاء الواسع الميم شطر الجنوب
عج في طريقك وقف مغرداً — على ركن السطح المموه بالذهب
وقل لها — قل لها — ما بحتك لك من عواطف جيّاشة .

بح — أيها السنونو — بذلك السر الذي تعرفه وقل لها —
إن طقس الجنوب منير ولكنه شديد ومتقلب
غير أن جو الشمال حالك ، ولكنه عليل وجميل .

آه — أيها السنونو — كم تود نفسي متابعتك
فأقف مطلاً على نافذة غرفتها لأصفر وأزمر
وأردد أصوات عشرين مليوناً من الحمين

آه — لو كنت مثلك فأرافقك داخل غرفتها
حتى تلقيني بين أحضانها فأظل أترجح في المهد الأبيض الناصع قريباً من
ثديها .

وإذ ذاك أسمع ترديد دقات قلبها النابض

حتى أنام نومتي الأبدية .

سلها — لماذا تتوانى عن إلباس فؤادها رداء الحب
قبلاً يتلاشى كما تتلاشى ذرات الرماد في الهواء الفسيح
قل لها ارتدى الثوب حينما تتزين أشجار الغاب
بالحلل السندسية الجميلة .

خبرها — أيها السنونو — أن رفاقك قد سبقوك في الطيران
وأنتك تطرب للطبيعة في الجنوب
ولسكنك تركت عشك في الشمال .

قل لها — ما أقصر الحياة وما أطول زمن الحب .
وخبرها — بأن أيام الصحو في الشمال أثناء الصيف قصيرة جداً
بينما يبقى بدر الجمال في الجنوب مضيئاً
طيلة تلك الليالى الهادئة .

آه — أيها السنونو -- المجتاز تلك الحقول والغابات الذهبية
طر إليها — مزمرأً — بصفيرك الزنان ، ومستعطفاً بأجنحتك المصفقة
واملك قلبها لى
وقل لها — قل لها — إني تابعك .

أَسِرْ حَدُون

ملك آشور

للقصصى الروسى (ليوتولستوى)

وقد جئتُك فأعلمتُك أن الشر الذى
تريد أن تصيب به الغير تصيب به
نفسك أيضاً لأنه الحياة واحدة فى
الكل وما حياتك إلا جزءاً من هذا
الكل .

غزا ملك أشور المسمى (أسرحدون) ديار الملك (لايلي) ففضى على جيوشه
وفتك بقواده ومثل بأمرائه وترك حصونه وقراه خرابا يبابا وضرب على شعبه
أفسى أنواع الذل والهوان واقتاد جلهم أسارى إلى مملكة أشور الجبارة ثم أودع
ملكها (لايلي) ظلمة السجن .

واضطجع أسرحدون ليلة على فراشه يقتدح زناد فكره للوصول إلى أفضع
أساليب الإعدام التي يستطيع تطبيقها على الملك السجين ولقد حاول أن يفصل في
ذلك برأى غير أنه لم يتبين الأثر رغم الجهد الذي صرفه حتى استحال تفكيره
إلى حيرة وسهوم .

وهو كذلك إذ طرق سمعه وقع أقدام تقترب من سريره فالتفت إلى جهة الصوت
وإذا به أمام شيخ هرم ذى شبة مسترسلة ينظر إليه بعينين هادئتين وأخذ يحاوره :

— أنت الذى تريد أن تبطش بالملك (لايلي) ؟

— نعم ولكننى لم أهتد لحد الآن إلى أمثل الطرق للبطش به .

— ولكنك أنت (لايلي) بعينه .

— هذا غير صحيح فـ (لايلي) هو (لايلي) أما أنا فأنا .

— أنت و (لايلي) نفس واحدة وما هو إلا الظن الذى يوهك بأنك

لست بـ (لايلي) وأن (لايلي) هو غيرك .

— ماذا تعنى من كل هذا ؟ أنا هنا طريح فراشى الوثير وحولى عبيد مطيعون

من رجال ونساء وسوف آنس مع رفاق غدا كما فعلت بالأمس بينا (لايلي) سجين
قابع كالطير فى سجنه وسأمثل به صباح الغد فينازع فى العذاب حتى يهلك وعندئذ
أمرق جثته شر ممزق وأرمى بأوصالها إلى السكلاب طعاما .

— ولكن أنت لا تستطيع أن تسلبه حياته أبدا .

— كيف كان الحال إذن مع الـ (١٤) ألف محارب الذين سحقتهم فى الحرب

سحقا فأبقيت من جثثهم رابية عالية من الأشلاء ، وأنا الآن حيّ أرزق ، أما هم فقد ماتوا واندثروا ، ألا يكون ذلك برهاناً على أنى أستطيع أن أسلب بعض الناس حياتهم .

— وهل لك أن تثبت أنهم قد ماتوا وأنهم اليوم ليسوا في الوجود .
— ألا يكفيك أنى لم أعد أراهم بعد ذاك وفيما عدا هذا فإنهم نالوا العذاب الأليم . أما أنا فلا ، وهكذا كان نصيبهم الويل وكان من حظى النعيم .
— إن هذا هو ما يترأى لك وما تصوره إليك مخيلتك . أما الحقيقة فهي أنك قد عذبت نفسك ولم تعذبهم .

— ما هذا يا صاح إنى لم أفهم ما ترمي إليه .

— وهل تريد أن تفهم .

— نعم أريد ذاك .

— إذن تعال معى واقرب من هذا الحوض .

وأشار بيده إلى حوض غير بعيد مملوء بالماء .

فنهض الملك من مكانه واقرب من الحوض .

— انزع عنك ملابسك وخض في الماء .

فامتثل (أسرحدون) ما أمره به الرجل العجوز الذى أخذ الآن يملأ جرة بالماء ويقول : وحالاً أبشر بصب هذا الماء على جسمك عليك أن تغطس رأسك في ماء الحوض إلى أن أنتهى .

ثم رفع الرجل العجوز الجرة فوق رأس الملك فأخفى هذا رأسه حتى غاص في الماء . استقر به الحال هنيهة شعر أثناءها بأنه لم يعد ذلك الملك المعروف بـ (أسرحدون) بل أصبح شخصا آخر . أحس بنفسه أنه ذلك الشخص الآخر الذى توهمه وهو جالس على فراش وثير قريبا من امرأة حسناء فاتنة . إنه لم يكن قد رآها قبلا ولكنه عرفها أنها زوجته . نهضت الحسناء من مكانها وصارت تقول :

زوجى العزيز (لايلي) إنك تعب ولاشك من أعمالك بالأمس وقد نمت أكثر من المعتاد، وكنت أراقبك وأنت نائم فلم أكن أستطيع إيقاظك . واعلم أن الأمراء والقادة فى انتظارك الآن فى الصالة الكبرى فالبس ثيابك واخرج لمقابلتهم .

لقد فهم (أسرحدون) من حديثه مع زوجته بأنه كان (لايلي) واستغرب إذ لم يكن يعرف ذلك من قبل . وبادر مسرعاً فى ارتداء ملابسه ثم توجه إلى الصالة الكبرى حيث كان فى انتظاره كبار رجال الدولة

وعند دخوله قام الكل يحيمونه ركوعاً إلى الأرض ثم نهضوا وجلسوا أمامه بعد أن أشار إليهم . وهنا بدأ أكبر الأمراء سناً بالكلام فقال : « إنه لم يعد فى الإمكان بعد يا صاحب الجلالة السكوت على ما يقوم به الملك الشرير (أسرحدون) ضد المملكة والتغاضى عن مكره واحتمال إهاناته المتعددة وعلينا أن نعلن الحرب ضده لنوقفه عند حده . وبعد محاورة قصيرة أبان الملك (لايلي) أنه لا يوافق على فكرة إعلان الحرب ، بل يفضل إرسال سفراء من قبله إلى الملك (أسرحدون) لتقديم الاحتجاج اللازم .

وعلى هذا انفض الاجتماع وأخذ الملك على الفور بتعيين تمثلى هذه البعثة التى تقرر إيفادها فجاءت نخبة من رجاله الممتازين الذين يعتمد عليهم فى الملمات فأمرهم بالسفر بعد ما أوضح لهم ما يجب بيانه فى حضرة المليك المعتدى .

وبعد أن أتم كل ذلك أعد (لايلي) — الذى هو فى الحقيقة الملك أسرحدون — العدة للخروج إلى الصيد فكان موقفاً فيما ذهب لأجله إذ اصطاد بنفسه اثنين من اليخامير ورجع بهما إلى القصر مسروراً وحضر المائدة مع رفقائه ثم شاهد حفلة راقصة رقصت فيها الكثيرات من حسان الجوارى .

وفى اليوم الثانى حضر البلاط ونظر فى شؤون رعيته وحاكم المجرمين وأقر — كعادته — جميع القضايا التى قدمت إليه . وعند الانتهاء من واجباته ركب

إلى الصيد فوفى فيه أيضا إذ أصاب لبؤة مسنة واصطاد شبلها وعند رجوعه إلى القصر حضر مائدة الطعام مع رفاقه واشترك في حفلة الرقص ثم عاد فصرف ليلته مع زوجته الحبيبة .

وهكذا قضى أيامه ولياليه لبضعة أسابيع موزعا وقته بين تأدية واجباته المالكية ولهوه وهو ينتظر عودة سفرائه الذين بعثوا إلى الملك (أسرحدون) ولم يمض شهر واحد على هذا الحال حتى عاد السفراء إليه فإذا هم قد جدعت أنوفهم وقطعت آذانهم وهم يحملون أمرا من الملك أسرحدون إلى الملك (لايلي) يقضي عليه بدفع جزية باهظة من الذهب والفضة وأخشاب السرو والحضور بنفسه إلى بلاط الملك (أسرحدون) لتقديم الولاء والطاعة لسلطانته وإلا فسوف يطبق عليه ما أجراء على رجال بعثته .

وهنا قامت قيامة الملك (لايلي) الذى هو أسرحدون فعقد اجتماعا خطيرا من أمرائه ووزرائه وكبار رجال حكومته للمشاورة وإياهم بما يجب العمل به فى هذا الشأن فأجمع الكل على ضرورة إعلان الحرب حالا ضد الملك (أسرحدون) حتى لا يفاجئوا بهجومه فوافق الملك على هذا وشرع بالنفير العام فحشد الجنود ونصب نفسه رئيسا أعلى للجيش ثم أعد العدة للحملة العسكرية اللازمة .

استمرت الحملة فى سيرها سبعة أيام كان يقوم الملك فيها كل يوم خطيبا فى جنوده يحثهم ويشجعهم على الإقدام ويثير فى نفوسهم الحمية للصمود أمام العدو الظالم . وفى اليوم الثامن وصلت الحملة إلى حيث ترابط قوة الملك (أسرحدون) بجوار واد عريض يجرى فيه نهر عظيم . ابتدأت الحرب وشرت عن ساقها فإذا هى حرب ضروس لا تبقى ولا تذر وقد أبدى جيش (لايلي) فى أولها من الشجاعة الظاهرة والعزيمة الصادقة ما أطمعهم فى الفوز غير أن جيش العدو أخذ يندفع من أعلى الجبال كأسراب النمل ويهرع من كل مكان وينسل من كل صقع وهو يلاحق جيش (لايلي) ويطوقه من جميع جهاته فنارت النخوة فى نفس هذا

الملك وأسرع بمرتبته إلى وسط المعركة مشجعاً ومجاهداً وماذا يعمل والعدو ينهال ألوفا مؤلفة على أنصاره القلائل فكانت معركة فاصلة انجلت أخيراً عن أسر الملك (لايلي) بعد أن أثنى جسده بالجراح الدامية .

ساروا به تسعة أيام وهو مربوط بأغلاله وحوله الحرس من محاربى الملك (أسرحدون) حتى إذا أسفر صباح اليوم العاشر وصل السكل إلى (نينوى) فراح المقاتلون إلى أهليهم فرحين يزفون إليهم النصر المبين والظفر العظيم . أما (لايلي) فأودع في سجنه ليقاسى من آلام الجراح والجوع والخيبة أشدها وأوجعها ، حينذاك شعر بضعفه وعلم أنه لم يعد يستطيع أن ينتقم من أعدائه حتى مقابل ما يتجرعه من مرارة العذاب في محبسه المنفرد وكل ما كان في مقدوره عمله هو أن يتجلد وينتظر ساعة إعدامه محتسباً صابراً حتى لا يدخل في نفوس القوم سروراً مما كان يقاسيه من ذل وانكسار . وظل في سجنه عشرين يوماً شاهد فيها الكثير من أقربائه ورفاقه وهم يقادون إلى الموت وسمع بأذنيه أنين المعذنين الذين كانوا ينحرون أحياناً بعد ما تقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف أو تسليخ جلودهم وهم أحياء . نظر إلى كل هذا بعينه ولكنه أعمل جهده لإبعاد آثار الجزع والخوف والشفقة عن نفسه ولقد رأى زوجته الحبيبة موثقة ومساقة من قبل اثنين من الخصييان السود إلى الملك — أسرحدون — فلم يضطرب لكل هذا لئلا يحقر ويهان أكثر مما هو فيه . وجاء يوم وإذا بالحارس الذى وكل لمراقبته يبادره بكلام يثير في نفسه الكوامن ويمثل إليه ذكريات الماضى العزيز الذى أضاعه فهب من مكانه كالجنون يريد فك عقاله بتكسير قضبان الحديد لباب السجن . وعند ما خاب عاد يريد الانتحار ، فضرب برأسه على هذه القضبان الصلدة حتى فقد قواه وأن أنه اليأس ، وسقط بعدها مغشياً على الأرض . وأخيراً فتح باب السجن وأقبل عليه جالداً ، فربط يديه إلى ظهره بشدة ، ثم ساقاه إلى محل الإعدام . نظر (لايلي) إلى المسكان وإذا به ساحة كأرض المجازر مشبعة بالدم ،

وفي وسطها ركيذة حادة لا يزال يقطر منها الدم ، حيث مرقت عليها قبل حين جثة لأحد رفاقه البواسل فجرداه عن ملابسه ومسكاه من ساقيه النحيفتين ورفعاه ، وكادا ينصبانه على الركيذة القائمة .

انمات قلب (لايلي) من الفزع ، وعرف أن هذا هو الموت ، وأن هذا هو الهلاك ولم يبق في نفسه غير هذا الخاطر المرعب الذي أنساه بأنه صمم على أن يلاق الحوادث بجلد وصبر إلى النهاية ، فتنهد وأخذ يصلى في طلب الرحمة ، ولكن ما من مجيب .

فصاح وقال : إن هذا غير ممكن وهو بلا شك حلم لا أصدق حقيقته وأعمل جهده للنهوض فأفلح بعد لأى وإذا به لا (أسرحدون) ولا (لايلي) بل كان حيواناً من أنواع الحيوان ، فأخذته الدهشة من هذا التحويل وتملكه العجب من أنه لم يكن يعلم بهذا من قبل .

لقد أصبح حيواناً يرعى في أحد الوديان يلتهم الأعشاب والحشائش ويبعد بذيله الذباب عن جسده الضخم وبقربه جحش أسمر اللون طويل الساق مخطط الظهر وهنارفس الجحش وأخذ يدور ويعدو مسرعاً إلى أن وصل إلى (أسرحدون) فاقترب منه ومد بفيه إلى موضع بطنه يبحث بكل لطف عن حلقة الثدى حتى وجدها فحركها بخفة وأخذ يزق منها اللبن زقاً . عند ذاك عرف (أسرحدون) أنه حمارة وهو أم هذا الجحش الذي أتاه جائعاً وأخذ يزق من ثديه اللبن فلم يعجب من هذا الأمر بل شعر بهزة الفرح تتملكه وهو بقرب جحشه الصغير المحبوب وهو بوقته هذه أحس بجسم خاطف يمر به فيصيب جسمه ويؤله فيفر مسرعاً إلى القطيع الذى شرد منه أولاً أما الجحش فأسرع يعدو كذلك إلى جنبه وكادا يصلان إلى القطيع لولا أن أتاهما سهم آخر يئز في الهواء ويصيب عنق الجحش فيدميه ويسقطه على الأرض فما استطاع (أسرحدون) أن يترك ولده بل وقف إلى جنبه

يحرسه و ينتظر قيامه وقد نهض الجحش قائماً على أرجله الطويلة الرفيعة وهو يتأيل ويرتجف إلا أنه سقط ثانية فمر به حيوان يمشى على ساقين وهو الإنسان فاحتز رأسه وأجهز عليه .

إن هذا لا يمكن أن يكون إذ لا أزال غارقاً في هذا الحلم النكر وإني لست بالحمار ولا (لايلي) ولكنني (أسرحدون) ملك أشور وصرخ صرخة يحاول بها النهوض والتملص من هذه الرؤيا الخبيثة وإذا به يرفع رأسه من الحوض ويشاهد الرجل العجوز لم يزل واقفاً بجانبه وهو يصب على جسده بقايا الماء في الجرة .

آه .. ما أهول ما قاسيت وما أطول المدة التي قضيتها في هذا الحلم المزعج . فأجاب الشيخ : « إنك لم تقض سوى فترة قصيرة من الزمن فقد غطست رأسك تحت سطح الماء وعدت فرفعته ، وهأنذا لم أنته بعد من صب الماء على رأسك . والآن أخبرني هل عرفت حقيقة ما كنت أرمى إليه .

فلم يجب (أسرحدون) على هذا السؤال واكتفى بأن التفت إلى الرجل التفاتة المنذهل . أما الشيخ العجوز فواصل كلامه قائلاً :

وهل عرفت أن (لايلي) لم يكن إلا أنت وأن الحمار بين الذين أجهزت عليهم لم يكونوا إلا أنت وليس ذلك فقط ، بل إن الحيوانات التي اصطدتها ونحرتها وأكلت لحومها ولائلك لم تكن أيضاً إلا أنت .

إنك فكرت أن الحياة مستقرة فيك فقط ، وقد جئتك فأبعدت عن عينيك غشاوة الوهم ، فأعلمتك أن الشر الذي تريد أن تصيب به غيرك تصيب به نفسك أيضاً ، لأن الحياة واحدة في الكل وماحياتك إلا جزءاً من هذا الكل ، وبهذا الجزء من الحياة الذي يعود إليك تستطيع أن تنعش الحياة أو تميته ، تزيد فيها أو تنقص منها .

ففي إمكانك أن تسعد الحياة في نفسك بإتلاف الحواجز التي تفصل حياتك عن حياة الغير ، واعتبار الآخرين كنفسك فتحبهم كحبك لها ، وبهذا تزيد

في حياتك. وإنك لتشقى حياتك إذا اعتبرتها الوحيدة وسعيت في تعظيمها وطمعت في إجلالها على حساب الغير وبهذا تنقص من حياتك .

أما أنك تريد أن تهلك حياة الآخرين ، فهذا خارج عن نطاق قوتك فحياة من أبدتهم قتلا وشنقا انمحت من أمام عينيك ، ولكنها لن تبید وقد ظننت أنك تطيل حياتك وتقصّر من حياتهم ، ولكنك لن تستطيع لأن الحياة بحقيقتها لا تتقيد بمكان أو زمان ، وأن حياة اللحظة وحياة آلاف السنين وحياتك وحياة كل ما يرى وكل ما لا يرى في هذا العالم هي على حد سواء ، وإذن فالقضاء على الحياة أو تبديلها غير ممكن ، لأن الحياة هي الشيء الوحيد في هذا الكون ، وهي كل الأمر ، وكل شيء عداها ليس بشيء .

وهنا توقف الشيخ عن الكلام وأخذ يختفي عن باصرة الملك بالتدريج حتى زال شبحه عن العين بالكلية .

استيقظ الملك صباح الغد مبكراً ، فسار إلى مكتبه ، وأوعز حالا بإطلاق سراح الملك (لايلي) وجميع المساجين من حاشيته وشعبه ، وألغى حكم الإعدام الذي قرره آنئذ بحقهم .

وفي اليوم الثالث دعى ابنه — أشور بانيبال — وقلده زمام الحكم ونصبه ملكا على مملكة أشور الجبارة . أما هو فقد هام على وجهه ، ومضى في الفلوات يعلن ندامته وينشد من ربه الغفران ، وطالما حط رحاله في المدن العامرة والقرى النائية وهو يعظ الناس بما تعلمه : « وهو أن الحياة في مخلوقات الله واحدة ، وأن من يسعى في إيذاء الغير لا يكسب لنفسه إلا الويل .

وصف تايضة ومثل راقية الهيار والدة

شاة ولعة ملة

بالبه كمال زينة لعل راحة شفتك رقا

والله شاة افعال وبيدة شاة لجة شاة اكارا اريد

البيد فقه لعل بيدها ان كا

والتيه كما راقية ومذات ولفظ لذة معة

في كمال شاة فان لا ن

بيدها كمال بيدها

اللقاء عِنْدَ غِيَابِ الْمُحِبِّينَ

لهم ان في قسمة ان بيدها كمال بيدها ان كا

اندره

ان كا شاة لعل كا لعل شاة لعل بيدها كا

بيدها راقية ومذات في ذلة العيال راقية شاة لعل لعل لعل لعل لعل

نالا يمشي

وصف راقية ومذات لعل لعل ان ان لعل راقية

بيدها كمال بيدها كمال بيدها

لعل لعل لعل لعل لعل لعل لعل لعل لعل لعل

راقية لعل لعل لعل لعل لعل لعل

لعل لعل لعل لعل لعل لعل لعل لعل

تعالى أيها الفراق واسمع دخيلة نفسى
تجاه قساوتك

التي شنتت شمل العاشقين والأحباب
غير أنى لا أكثرت فرجاؤك خائب ورائد أملك ضال
لأن القلوب الصادقة بحبها

تسعد دائماً باللقاء وتأنس بطول الاجتماع .

فمن كان له ملاك كملاكي

لا يستصعب اكتساب

بهجة الحب واللقاء الهنيء

عند البعد ، عند الفارقة ، حتى عند الموت

لأن القلوب الصادقة بحبها والنفوس الممتزجة بأرواحها

لا تحسب لوجودك حساباً ولا لمقامك مركزاً .

وإذا ما حضرت بيننا وقطعت حبل الوصال فما أسرع ما أشعر بحس غريب

يشير إلى —

بأنى أتمكن أن أخلوها فى سكون نفسى

حيث لا رقيب ولا حسيب

فى زاوية من زوايا فكرى حيث احتضنها وأقبلها

وحيث نجد الكفاية والغنى

وبذا أتمتع بها روحاً وأفقدتها جسماً .

الله يعلم الحق ولكنه ينتظر

للكاتب الروسي (ليو تولستوى)

إن الحياة أرقاس تذهب

«الماضى»

عاش في مدينة (فلاديمر) تاجر يُدعي — إيفان ديمترش اكرزينوف — وهو شاب عصب ، صبور الوجه ، ظريف المعشر ، ميّال إلى المرح ، مغرم بالغناء . وكان يملك بالإضافة إلى داره الأنيقة حانوتين يدير فيهما أعماله التجارية . ولقد اعتاد هو منذ نشأته على احتساء الشراب فكان مبدّرا مسرفا وخصوصا إن وجد المال الوفير . غير أنه بعد أن تزوّج اعتدل عن إسرافه فعاد لا يشرب إلّا لما .

وفي صيف أحد الأعوام عزم الرجل على السفر لزيارة المعرض التجاري الشهير في (نازني) فلما حان موعد الرحيل قام إلى أهله مودّعا إلّا أنه بُوغت بما لم يكن في الحسبان . فقد وقفت زوجته في سبيله طالبة إليه أن يعدل اليوم عما نوى كيما يهدأ بالها من رؤيا رأتها مريعة مفرعة .

قال : إنك تحشين ولا شك من وصولي إلى المعرض لئلا أندفع منه إلى لهوى القديم .

قالت : لا أدري مم أخاف ، وكل ما في نفسي هو رؤياي المربعة — فلقد رأيتك تعود ولكن بعد أن شاب منك الرأس وملأت مفريك لمة بيضاء كالثلج .

أجابها مبتسما — هذه بشرى بالفوز أ كيدة لأنني سأفوز بتصفية جميع بضائعي ثم أرجع إليك من المعرض بأحمال من الهدايا الثمينة فانتظريني . وهكذا ودّعها ولم يصطبر بل غادر المكان على عجل .

وصادف أن التقى عند منتصف الطريق بأحد معارفه التجّار فاتفقا على أن ينزلا سوياً في فندق يبيّنان فيه . ثم جلسا ليلتهما يتعلّلان ويتسامران وافترقا للنوم في غرفتين متجاورتين .

وكان من عادة (اكرزينوف) أن ينهض من فراشة مبكّرا وزاد في نشاطه رغبته الملحة في السفر عند أول الفجر طالما كان النسيم عليلا باردا . ولذا وجدناه

يستيقظ في المزيغ الأخير من الليل وينادى سائقه ليشده له الخيل ويركب به إلى حيث يريد .

أما هو فقد يم إلى كوخ خافي كان يسكن فيه صاحب الفندق ودفع الأجور اللازمة ، ثم عرج إلى محله ليستأنف الرحلة .

وبعد أن قطع ما يقرب من خمسة وعشرين ميلاً من موضع الفندق أوعز بالوقوف قليلاً لإطعام الخيل ، وأمر بإعداد الشاي ، بينما راح هو يتلهى في ركن من الأركان بالضرب على القيثارة شادياً مغنياً .

وهو كذلك إذ سمع صوت نقالة تجرها خيول ثلاثة تجلجل أجرامها وهي تمنع في السير إلى حيث كان ، حتى إذا وصلت بقربه قفز منها ضابط شرطة واثنان من الأفراد .

تقدم إليه الضابط وسأله : من أنت ومن أين أتيت ؟
فأجابه (أكرزينوف) بكل تفصيل ثم ناوله قدحا من الشاي تأدياً . غير أن الضابط أبي أن يشرب بعنجهية واستطرد مستفهماً بجدة :

— أين قضيت ليلتك أمس ؟ هل كنت وحيداً أو مع تاجر آخر ؟ هل شاهدت التاجر صباح اليوم ؟ لم غادرت الفندق قبل الفجر ؟

استولت الدهشة على (أكرزينوف) لهذا السكيل من الأسئلة ، ومع أنه كان يجهل سر توجيهها إليه إلا أنه راح يجيب عنها بكل صراحة ، ولا يخفى عن الضابط شيئاً عن كل ما كان ، ثم أعقب ذلك بقوله : لم تسألني بجدة كأني أحد السراق أو اللصوص ، ما أنا إلا مسافر لبعض الشئون التي تهمني ولا حاجة لتوجيه كل هذه الأسئلة .

قال : رويدك ، أنا ضابط الشرطة في هذه المنطقة ولم أقم بالقاء تلك الأسئلة عليك عبثاً كما تظن ، وذلك لأن التاجر الذي قضيت السهرة معه أمس وجد مذبحاً صباح اليوم . ومن اللازم أن تفتش أمتعتك .

وهنا أمر أفراد الشرطة بإخراج الأمتعة العائدة له وتفتيشها ، ولم يفت طويل وقت على ذلك حتى عثر الضابط فجأة على مدية كانت مرسوسة في طرف غرارته فصرخ في الحال ، وهذه المدية لمن تعود ؟

وجم (أكرزينوف) من هذه المباشرة ، وخصوصاً وأن المدية التي أخرجت من غرارته كانت ملطخة بالدم ، فارتاع وحال لونه وتبدلت ملامح وجهه وصار يرتجف .

فصاح به الضابط منتهراً : ومن أين جاء الدم على هذه المدية .
حاول (أكرزينوف) أن يجيب ولكنه أرّج عليه ولم يجر جواباً ، ولكنه بعد جهد وتأمل جرّ لسانه إلى الكلام جرّاً فقال متلعثماً :
— لا أعلم ، إن هذه المدية ليست لى .

قال : لقد وجد التاجر مذبحاً صباح اليوم في فراشه وأنت لاغيرك المتهم الوحيد بارتكاب هذه الجريمة ، فالمسكن كان مقفلاً من الداخل ، ولم يكن بجواره من أحد إلاك ، ثم إن هذه المدية الملوخة بالدم عثرنا عليها في غرارتك ، كما أن شحوب وجهك واضطرابك ليلتان قطعاً إدانتك ، وما عليك الآن إلا أن تخبرني كيف قتلتته وما هو مقدار المال الذي سرقته من عنده .
اندفع (أكرزينوف) يقسم بأنه لم يفعل ذلك ، إذ أنه لم يلتق بالتاجر بعد أن افترقا للنوم ، وهو لا يحمل من خالص حلاله إلا (٨٠٠) دينار . أما المدية فليست له .

وما وصل إلى هنا حتى خفت صوته وامتقع لونه وارتعدت فرائضه خوفاً وهلعاً ، كما لو كان هو الجاني . وحينئذ أوعز ضابط الشرطة أفراداً بشد وثاقه ونقله إلى العربة ، فلم يتمالك (أكرزينوف) إلا أن أجش بالبكاء وأخذ يعنف نفسه ويلومها على عدم انصياعه لكلام زوجته ، ولكن ماذا يجدى البكاء في هذا الحال ، فقد اقتيد إلى أقرب مركز حيث أودع في السجن رهن التحقيق ،

وحجزت أمواله ونقوده وشرعت دوائر الشرطة تتجسس عن سلوكه وأخلاقه في (فلاديمر) فقبل عنه إنه رجل طيب ولكنه وجد في أيامه الأخيرة من حياته في المدينة يعود إلى سابق عهده من اللهو والطرب ومعاورة بنت الحان .
وحان موعد المحاكمة فسبق إليها متهمًا بقتل تاجر من (رايزان) وسرقة نقوده التي قدرت بألفي دينار .

وقع الخبر على أهله وقوع الصاعقة فبعث في نفس زوجته اليأس وأصبحت حياتها كليلة لا فجر لها . وحارت في صحة ما قيل عن الموضوع ، حتى جاء يوم جمعت فيه أطفالها وحملت رضيعها وقصدت البلدة التي سجن فيها زوجها .
والتقت به بعد إلحاح وتوسل ، وإذا به في ملابس السجناء يرسف في القيود بين السراق والمجرمين .

فبهتت وسقطت مغشيا عليها ، وبقيت على ذلك حينًا طويلا ، ولما عاد إليها رشدها جمعت أطفالها وجلست إليه يحفون مترعة تحدثه وتسأله عما كان وتتلقى منه جوابا عن كل ما كان .

قالت : وماذا نستطيع أن نعله الآن ؟
قال : إن علينا أن نطلب إلى القيصر ألا يترك في السجن بريئا يموت .
قالت : سبقتك إلى هذا وأسرت قبل حين بتقديم طلب إلى القيصر بهذا المضمون ، ولكنه مع الأسف لم يقبل .
فأطرق الرجل إلى الأرض صامتا مذهولا .

وأردفت تقول : لم تكن رؤياى باطلة ، تلك الرؤيا التي رأيتك فيها بشعر الأشمط المُنْبَرِّ . أتذكرها آتئذ يوم أن رحلت إليك متوسلة ألا تشرع بالسفر فيه ولكنك أبيت .

ومرت بأصابعها على رأسه ثم همست في أذنه قائلة :
— (فنيا — فنيا) أصدقني ، ألم ترتكب أنت هذه الجريمة ؟

فرفع رأسه وصاح بها : حتى أنت ، أواه ، حتى أنت تشكّين بي !
ثم ضم وجهه في راحتيه وأجهش بالبكاء .

ودخل الحارس يعلن لهم بأن أمد الزيارة قد انتهت وعلى المرأة أن تترك حالا .
فنهض (أ كز ينوف) يودع أهله وأطفاله ويتقبل من زوجه بطرف مغرورق
قابلة ذابت على جبينه السكابي ، فكانت إليه خير رمز لذلك الوداع الحار .
بقى وحيداً بعد أن غادر أهله المكان فأصبح خليقاً أن يسفح الدمع ويصعد الزفرة
تلو الزفرة يغالب فيهما آلامه وأحزانه ، وأن يعيد في ذاكرته خيالات ما سلف
من أيامه . واسترسل كثيراً حتى تذكر حديث زوجه الأخير فصار يتمتم مردداً :
أواه ! حتى زوجتي تشكّ بي ، مالي ، وما ذا عسى أن أقول : ألا يظهر بأن الله
هو الوحيد الذي يعلم الحقيقة بلي ، وإذن فما أحرانا أن نفزع إليه شاكين ، وأن
نتضرع إليه متوسلين .

وهكذا حل اليأس في قلب الرجل وفقد كل رجاء فلم يقدم أى طلب آخر
للعفو عنه بل راح يدعو ربه راجياً منه الرحمة والفرج القريب .
وصدر الحكم على (أ كز ينوف) بالجلد والنفي مع الأشغال الشاقة في منطقة
المناجم في سيبيريا . وعليه فقد مشقوه بالسوط ، وسيق بعد أن اندملت جروح
التي أصابته من أثر العقاب بصحبة زمرة من المجرمين إلى منفاه .
ومكث (أ كز ينوف) ستة وعشرين سنة بين المجرمين في تلك الأرجاء
النائية ضاعت فيها آماله ، وتسربت من بين يديه أحلامه . كما تسرب العصفير ،
وجلل لحيته ورأسه الشيب ، حتى أمسى شعره ملة بيضاء كالثلج بياضا أو أشد ،
وخمد نشاطه . وتغضن جبينه ، وتقوس ظهره ، وارتعشت يده ، وانقبضت نفسه ،
وأصبح شيخاً متهدماً يظلل الحزن الهادئ الوديع بجناحيه وهو يمشی الهويناً
ويتكلف الابتسام نادراً ، ولا يتكلم إلا قليلا ، ومع ذلك فقد كان دؤوباً
على الدعاء والصلاة .

وتعلم في السجن خياطة الأحذية ، فكسب من وراء حرفته هذه قليلا من المال ، تمكن به أن يشتري نسخة من كتاب « حياة القديسين » ، فعمر هذا الكتاب قلبه بالإيمان ، وعمر نفسه بالحبة ، إذ صار أليفه الذي لا يمل ، يطالع فيه في أوقات فراغه طالما هلّ النور الكافي للقراءة في باحات السجن وغرفته . أما في أيام الآحاد فقد كان يسعى لتلاوة بعض الرسائل في الكنيسة ، ويقف مرتلا بين زمرة المرتلين ، لأنه كان يحتفظ حتى ذلك الوقت بعدوبة صوته .

وقد أحتبت إدارة السجن هذا الرجل لوداعته ، بينما ذهب رفاقه المساجين يحترمونته تعظيما لشخصيته ودمائته ، حتى صاروا يلقبونه بالقديس . أما هوف كان وسيطهم لدى السلطة المختصة ينتدبونه ، كلما عنّ لهم مطلب يريدون إيصاله إليها وكذلك فقد كان عوناً لهم في حل خلافاتهم ومنازعاتهم التي كان يحكم فيها بينهم بالعدل والرضى .

وبالطبع ظل طيلة تلك المدة وهو لا يعلم شيئا عن أهله ، ولا يعرف عن مصيرهم ويجهل عما إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة ؛ أم كانوا قد اخترمتهم شعوب . ودارت الأعوام على هذا حتى بزغ في الجو حدث جديد .

فلقد صادف أن جاء إلى السجن في يوم من الأيام فوج جديد من السجناء وإذا حل المساء التف الجميع حولهم يستنبئونهم بشوق عن أسباب نفيهم ، ويتعرفون إلى أما كنهم وبلدانهم .

وكان (أكرزينوف) يجلس مع الجالسين في أحد الأطراف القصية جلسته الاعتيادية كسير القواد ، مطرقا برأسه ، وهو يستمع إلى ما يدور بين القوم من حديث .

وامتاز رجل بين القادمين ، غيلم جلف ، قوى البدن ، طويل القامة ، ذو لحية بيضاء ، يناهز الستين من العمر . وقد راح يجلس متوسطا العشير ويحدثهم بصوته الجهورى عن أسباب نفيه ويقول :

أيها الرفاق ! اسمعوني ، لقد قبض على متبهما بسرقة حصار من إحدى مركبات الجليد . وقد كنت أخذته لأصل على ظهره إلى بيتي عاجلا وأعيده بعد ذلك إلى صاحبه الذي كان لي صديقا حميا .

ولقد أخبرتهم بهذا فأبوا تصديق وعاندوا عناد الخيث بإدانتى كسارق ، ولكن كيف ومتى قت بتلك السرقة ، إنهم عجزوا عن تبليان ذلك ، غير أنى لا أخفى عليكم أننى فيما مضى كنت قد اقترفت خطأ أستحق أن أقاصص عليه وأساق بيد العدالة بسببه إلى هذا المكان منذ ذلك الحين ، ولكنهم لم يعثروا على . أما اليوم فقد حكم على بالنفى لغير ما ذنب .

ثم عقد بين حاجبيه وصرخ :

— آه ! لا أفترى عليكم ، لقد كنت قبلا فى هذا المنفى وأفلت منه بعد قليل .

سأله أحد الحاضرين : ولكنك من أى بلد !

قال : من (فلاديمر) وأهلى من تلك المدينة . أما اسمى فهو (ما كار) وقد يدعونى (زومتش) .

وهنا رفع (أ كزینوف) رأسه وقال : هل لك أن تعلمنى يازومنيش إن كنت تدري خبراً عن أسرة التاجر (أ كزینوف) فى هذا البلد ، هل لازالوا أحياء .

قال : بلى أعرفهم ، ومعرفتى بهم أكيدة ، فهم أصحاب ثروة وجاه ، ملهم نما وزرعهم زكا ، ولو أن أباهم فى سبيريا سجين كحالنا وسط المجرمين ، ولكن ألا تخبرنى يا أبة كيف وصلت أنت إلى هذا المكان !

وإذ لم يشأ القديس أن يصرح بشئ عن سوء حظه تنهد وقال :

— الآثام يابنى هى التى جرت بى إلى السجن مدة ستة وعشرين عاماً

قال : ولكن ماهى تلك الآثام يا أبة .

قال : ما كان تدبيرى ولكن تدبير القدر ، ولا بأس إذ لا ألوأ أحداً ولا أمتجنى على أحد فقد أكون مستحقا لكل هذا العقاب . ثم سكوت ولم يزد .

بينما راحت البقية تحدث القادم الجديد عن كل ما يخص قضية (أ. كز ينوف) وشرحت له كيف أن أحدهم قتل تاجرا ووضع المديّة في متاعه فأخذ ظلما بجريرته . تطلع (ماكار) في وجه الرجل وضرب على ركبته مندهشا وقال — إن هذا لأمر عجيب ، عجيب حقا ، وما عمرك يا أبة .

تطاوالت الأعناق بلهفة والكل يريد أن يستفهم عن سرّ هذا الاستغراب وتهافتت الأسئلة إلى المحدث ليحجب عما إذا كان قد شاهد أ. كز ينوف قبل هذا الحين . وبقي الرجل صامتا ثم صاح — بلى إنه لأمر عجيب أن نلتقى هنا أيها الرفاق . فتساءل (أ. كز ينوف) حينئذ عما إذا كان الرجل يعرف القاتل الحقيقي وهم يسأل صاحبه — أأعلمك يا زومنيش كنت قد سمعت بالقضية أو كنت تعرفني من قبل .

قال — كيف أستطيع أن أسمع بذلك والعالم مغمور بالإشاعات والأقاويل وعلى كل فقد مضت حقبة من الزمن طويلة أنستني خبرها الآن . قال — هلا تعرف القاتل بالذات .

فأجاب (ماكار) وهو يضحك — إن القاتل لا يتعدّى أن يكون ذلك الذي وجدت المديّة في متاعه . ثم أردف يقول — وإذا كان وضعها أحد غيره فالسارق كما يقول المثل لا يعتبر سارقا إلا إذا ألقى القبض عليه . والآل خبرني يا صاح كيف يستطيع أحد أن يدرس المديّة في غرارته وهي تحت رأسك ألا يستوجب ذلك حتما إيقاظك في الحال .

سمع ذلك (أ. كز ينوف) فزال من نفسه الشك وتيقن من أن الرجل هو القاتل ، فقام لتوّه وتولى عنه والأسى يملا نفسه وهو يغالب دمة توشك أن تنحدر من عينيه .

سجى الليل بظلامه وأشباحه فأرق (أ. كز ينوف) أرقا شديدا بحيث لم تعلق سنة النوم بمعاقد أجنانه ولا بعض الحين إذ أحسّ على غير عادته بقلق أثار

في ذهنه كثيرا من الوسوس وهبت عليه بلابله وخطرات ذهنه هاجمة .
تمثلت له زوجه كما لو كانت هي بالذات يوم ودّعها مسافرا إلى المعرض .
ها هي ذى حاضرة أمامه بقامتها ووجهها وهاته عيونها شاخصة إليه تحدّثه مبتسمة .
ثم مثل أمامه أولاده وهم أطفال كما لو كانوا آتئذ . أحدهما مشتمل بشملة
والآخر مائل على صدر أمه .

وراح يستعرض بعض الصور من أيام فتوته يوم كان غارقا في بهجة الحياة
ومسراتها تذكّر كيف كان يجلس إلى القيثارة لاعبا على أوتاره . وتلك هي سقيفة
الخان التي سيق منها إلى السجن ساعة كان يلاعب في ركنها أنغام القيثارة
ويرافق شدوها

آه — كم كان حرّا خاليا من كل هم يساور الإنسان . ولقد تخيل الموضع
الذي جلد فيه وشاهد الجلاد والناس من حوله ورأى السلاسل والقيود ثم كافة
الحكموم عليهم بالأشغال الشاقة مدة ستة وعشرين عاما انصرفت — فانصرمت
بها عمره وأيام صباه وشبابه . هذا التفكير بعث في نفسه اليأس وجرّ إلى قلبه
التعاسة المرّة بحيث عاد وهو على استعداد تام للانتحار .

فنهض من مكانه صاحبا لاعنا وهو يتمتم — أهذا كله من جرّاء عمل
وغد من الأوغاد أو غول من الأشرار .

ونبض نابض الغضب في قلبه وغلا مرجل الغيظ في صدره على (زومنيش)
وحقق وصار يهدّد بالانتقام حتى ولو ذهبت روحه ضحية في سبيله . وهكذا بقي
طول الليل أسير أوهامه وهواجسه ولم تهدأ تأثرته بالرغم من كثرة صلاته ودعائه .
وفي النهار تجنّب الاقتراب من (ماكار) وتقصد أن لا يلتفت إليه .
فات عليه أسبوعان وهو في هذا الحال المرير لا تقرّ عينه بنوم ولا تسكن
نفسه إلى راحة وهو يري كأشد الناس بؤسا وأعظمهم وحشة وعاد أخيرا لا يفهم
ما يعمل .

وفي ليلة من الليالى بينما كان يتمشى فى ساحة السجن لفت نظره أمر غريب وهو انقلاب التربة فى زاوية تقع تحت السقف الذى ينام فوقه السجناء ، فترث يتأمل سرها ، وإذا برأس (ماكار) يندفع من خلالها إلى الخارج ، ويسفر عن وجهه المغبر فجأة ويتطلع إلى وجه (أكرزىنوف) وجلاً . أما هذا فقد حاول أن يتابع سيره دون أن ينظر إليه وإلى ما يعمل ، غير أن عدوه عاجله فقبض على يده وأخذ يخبره بأنه قد حفر ثقباً تحت الجدار وتخلص من التراب بحيلة وهى أنه كان يملأ حذاءه الطويل منه ويفرغه خارجاً على قارعة الطريق كل يوم أثناء سوق السجناء إلى العمل بعيداً عن السجن .

ثم تابع يقول : حذار أيها الشيخ أن تفه بشيء عن هذا فأسعى فى تخليصك أنت أيضاً ، ولئن حاولت فضح حالى أهلكونى ولكنى سأقتلك أولاً . ارتعدت فرائص (أكرزىنوف) من أثر الغضب الذى تملكه عندما أبصر بعينه وجه الخبيث وظهر ذلك على محياه ، وبنفضة اقتلع ذراعه من يده ساخطاً وهو يقول :

— ليست لى أية رغبة فى الهروب ولا أريدك أن تقتلنى ، فاسكت أيها الأخرق ولا تزدد ، فقد قتلتنى منذ أمد بعيد ، وما أنا الآن بعد تلك الرمية الصامية إلا تمثال مات من زمن . أما أن أخبر عنك فسيان عندى إن فعلت وإن لم أفعل فذاك بيد الله ومشيئته .

وصادف فى اليوم التالى أن ملح خفير من الحرس ، بينما كان المحكومون يساقون إلى العمل ، رجلاً من المساجين يفرغ تراباً من حذاء له على قارعة الطريق ، فاهتم الحرس بالخبر وشرعوا بتفتيش الأركان ، ولم يمض طويل وقت حتى عثروا على النفق . ولهذا جمع مدير السجن كافة السجناء وصار يستجوبهم علّه يتعرف إلى الجانى .

غير أن الكل أنكر ذلك حتى أولئك الذين كانوا يعلمون الحقيقة لم يجرؤوا

على الوشاية بما كار زومنيش لئلا ينتقم منهم فيقاصصهم بالموت .
وأخيراً التفت إلى (أ كز ينوف) الشيخ الصادق وقال :
إنك أيها الشيخ غير متهم عندنا فأخبرني لوجه الله عن الذي حفر هذا
الخرق .

كان يقف «ما كار زومنيش» في ذلك الحين كما يقف البرى الذي لا يهيمه
الأمر وهو ينظر إلى المدير ولا يلتفت إلى (أ كز ينوف) إلا خلسة .
أما (أ كز ينوف) فقد ارتجفت شفتاه ، وارتعشت يداه ، وساده الصمت
لمدة طويلة ، ثم غرق في بحر من الهواجس والأفكار وصارت نفسه تملئ عليه :
لِمَ تسعى في الذود عن هادم حياتك ، انفض يدك منه ليدفع جزاء ما تحمלתه
من آلام ، ولكن مهلاً لأن فعلت وأخبرت قتله ، ولعلك كنت نائياً عن الحق
في هذا الاتهام وما يدريك ، وإذن فما الذي ستجنيه من وراء ذلك .

ناداه المدير مرة أخرى بعد ذلك التأمل الطويل قائلاً :
حسناً أيها الشيخ ، هلم وأخبرنا عن الحقيقة ، من كان يحفر الأرض تحت
الجدار ؟

واختلس (أ كز ينوف) نظرة إلى وجه ما كار ثم قال : لا أستطيع وشرفك
أن أصرح لك بذلك . إن إرادة الله لا تسمح لي بالنطق ، وها أنا ذا بين يديك
فاعمل بي ما تشاء .

لقد ذهبت محاولات المدير سدى في إخضاع الشيخ للإفصاح عن الحقيقة ،
وعليه اضطر تجاه هذه الخيبة أن يترك الأمر ولو إلى حين .
وفي تلك الليلة عند ما كان القديس متمدداً على سريره والنعاس يراوده
سمع صرير نعل لإنسان يقترب منه وهو يتلصص بهدوء في الغرفة ويتقدم راكعاً
هذاء السرير .

رمقه في الظلمة فإذا به (ما كار زومنيش) بذاته ، فابتدره قائلاً :

وماذا تطلب أكثر من هذا ، لِمَ جئت إلى الساعة .
ولما لم يسمع جواباً اعتدل (أ كزینوف) في فراشه وقال :
ماذا تريد ؟ إليك عنى وإلناديت الحارس !
فانحنى ما كار إلى صدر الشيخ وهمس في أذنه : إيفان ديمترش اعف عنى .
قال : ولأى شىء ؟
أجاب : أنا لاغيرى قاتل التاجر الذى أخفى المديّة في غرارته وقد قصدت
آنئذ أن أقتلك معه ، ولكنى سمعت صوتاً في الخارج اضطررنى إلى أن أسارع
وأهرب من النافذة .
استولى الصمت على الشيخ ، ولم يعد يعرف ما يقول . أما ما كار فقد
نهض يغلق باب الكوة ثم عاد وأقعى تجاه صاحبه وهو يقول :
إيفان ديمترش ، اعف عنى . . . ، أعف عنى لوجه الله ولحبته وسأعترف بأنى
أنا القاتل حتى يطلقوا سراحك وترجع إلى وطنك .

قال الشيخ : رويدك ! إن من السهل عليك أن تتكلم الآن ، ولكن
هل لك أن تفكر بما عانيت في سبيلك كل هذه الأعوام الستة والعشرين ، فإن
أمضى اليوم بعد كل هذا ؟ أين أولى وجهي بعد هذه المدة وقد أصبحت رجلاً
هزيراً يكسونى الضنى فرعاً لقدم . أما زوجتى فقد ماتت ونسبى أولادى وليس
لى من وجهة أولى إليها . لقد سؤل لك الشيطان أمراً فصبر جميل والله المستعان
على ما تصفون .

كان الشيخ يتكلم وكأنما كان يزيد من آلام (ماكار) ويضاعف من
عذاباته ، فظل في مكانه لا يبرحه وهو يضرب الأرض برأسه ويقول اعف عنى
حتى علا صوته عن المعتاد ، ولقد جلدوني بالسياط فلم أتعذب كما أتعذب الآن
لخالك ، ويكفينى ما رأيت من شفقتك على . رحماك اعف عنى لوجه الله .
أواه ! ما أشقانى من إنسان . ثم انكب على وجهه منتحباً .

فما كان من (أكرزينوف) إلا أن أخذته العبرة، وصار ييكي لبكائه أيضا
ثم قال :

لعل أكثر منك معصية فليغفر الله لك ويعفو عنك .
وزاد به الحنين إلى الوطن وتاقت نفسه ليراه قبل أن يأتي أجله وتخرمه
المنون ، وذلك بالرغم مما كان يشعر به من عدم الرغبة في ترك السجن ، فاندفع
ييكي بكاء الثا كل المسكين وينتحب ما شاء له أن ينتحب .
ولقد اعترف (ماكارزومنيش) بجريمته وانتهى الحال بأن صدر أمر العفو
عن البريء ، ولكن بعد فوات الأوان ، لأن الشيخ ايفان ديمترش أكرزينوف
كان عندئذ قد أسلم الروح ومات .

منجى الداعي المحب

لہذا یہ کہ شایعہ فساد کے لئے یہ رائے کہ شادی نہ کرے

س. مارلو

تعال معي وكن حبيبي

فإذا ما أتيت سنلتقي والمسرات

حيثما التلال والوديان والمزارع والأغوار

وكل ما في الطبيعة من جمال يقف خاضعاً لجبنا .

سنجلس هناك على الصخور المساء

فترى الرعاة يطعمون الماشية في المروج

وأمامنا النهر المنساب في طريقه

يسمعنا ألحانه البلبلية الشجية .

وهناك تحت ظل السديانة سأعمل لك فراشاً من الورد

وأجمع لك الباقات الشذية الرائحة

وأزين رأسك بأكليل من الأزهار الملونة وألبسك حلة منها

مزدانة بأوراق الآس الخضر

وسأهبك جلباباً من الصوف

نستحصله من أغنامنا اللطيفة السارحة حولنا

ليقيك من البرد وهو بخطوطه الأرجوانية

وأزراره الذهبية سيزيد من نور جمالك

وسأحوك لك حزاماً من القش ومن براعم نبات اللباب

وأحليه بأزرار الجمان والعنبر

فإذا ما حركت هذه البهجة عواطفك

إذن تعال معي وكن حبيبي

وستقدم لنا الأطعمة كل يوم

بصحون من فضة

توضع على منضدة من العاج الأبيض
لا يأكل عليها إلا الآلهة .

وهناك سيرقص أولاد الرعاة ويغنون أغنيتهم البدوية

فتسمعها صباح كل يوم من أيام نيسان

فإذا طربت لهذه البهجة وتحركت عواطفك

إذن تعال معي وكن حبيبي .

فارس في السماء

مكتبة الأسير (مكتبة)

في حين شاهد النظم ورؤية الأسير

الحسام تفتتت كرام وورودها

رغبتك كما ولما نبت في شدة ربه

فقط كما لا يملك له

فقال مني وكن حبيبي

فإذا ما أتيت سلقني وأفكرت في حبيبي أن يفتن ذلك كما أرى حبيبي

حبيبي التلال والوديان والواديح والأعالي والأتربة والوديان والوديان

وكل ما في الطبيعة من حمارك حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي

سبحانك على الصخر الطماء

فأرى الزمان يطمون النسيم في العروج

وأعانا النهر للساب في ضربه

يسمنا الحالة السبية الشجيرة

وعندك نحن نلج السعادة ساعل لك فرشا من الورود

وأجمع نبت الحياة الشابة الزمان

وأزهر نبتك بأشجار من الأزهار الملوحة وألصاك حبيبي

مودة أوراق الأساطير

وسامحك جدينا من الصوف

نستعبد من أعيننا الطليقة الباردة حرمنا

يقالنا من الورد وهو يطارقه الأرحام

وأزواره القهية سيرة من نور حبيبي

وسامحك لك سرنا من القش ومن دهر نبت العشب

وأحلي بأزوار الحان وأحلي

فإذا ما حركت هذه البهجة حواسك

إذا نمت مني وكن حبيبي

وستعبر لنا الأظلمة كل يوم

صحبون من دقة

(بعضها زائد - ٣٦)

فارس في السماء

للكاتب الأمريكي (امبروز بيرس)

إن حضور المشاهد العظام وروية الأخطار
الجسام تعلمنا بغير كلام وتريننا بدون
التزام .

في أمسية وضّاحة من أماسي الخريف لعام ١٨٦١ كان أحد أفراد الجنود ممتداً وسط حرش من الغار يقع بجوار إحدى الطرق في فرجينيا الغربية كان هذا الجندي منبطحاً على الأرض بكل هيئته وقدماه مستندتان على أطراف أصابعهما أما رأسه فكان يتكئ على راحة يده اليسرى بينما انبسط اليمنى على الثرى لتقبض على بندقيته أو تكاد . ولو لم يكن في امتداد أطرافه انتظام ولصندوق العتاد المربوط في ظهر نطاقه حركة موزونة بينة لعدّ حينئذ من الأموات فلقد كان الجندي نائماً في ساعة الواجب ولو شوهد كذلك لأردى قتيلاً في الحال وفق القانون جزاء جريمته .

يقع حرش الغار حيث امتد هذا الجندي المجرم في رأس شعب ملتو ، بعد أن يعلو صوب الجنوب في مرتقى شديد الانحدار ينعطف فوراً باتجاه الغرب ويتوغل بعيداً حتى ينتهي إلى القمة على ارتفاع ستمائة قدم بالتقريب . ومن هناك يدور كرة أخرى نحو الجنوب ويستمر بالهبوط متعرّجاً إلى أن يفنى وسط الغاب الكثيف ويتلاشى .

وفي منعطف تلك الزاوية الثانية من هذا الشعب النائي يرى المشاهد صخرة منبسطة عاتية ناتئة من الأخدود صوب الشمال وهي تشرف على كافة ذلك الوادي السحيق . إن هذه الصخرة بوضعها المذكور كانت تغطي نفقاً من الجبل شامخاً بحيث أنه لو أسقط من رأسه حجر خرق باستقامة إلى الدرك من علو ألف قدم أو يزيد ليرتطم بعدها برووس أشجار الصنوبر المحتشدة . أما الرأس الذي امتد الجندي بجواره فقد كان بروزاً آخر انفس هذا السور ولو استيقظ الرجل لأطل من عنده على منظر فريد لا يشمل فقط المنعطف القصير من الطريق وتلك الكندة الناتئة ولكنه يتضمن جميع ما يلبس ذلك النصف المتدلى من ارتفاع هائل يرد المتأمل فيه منقوف الوجه شاحب اللون .

لقد كانت تلك المناطق بأجمعها مكسوة بالأشجار فيما عدا بقعة صغيرة في بطن الوادى من الجهة الشمالية تتراءى إجمالاً كفناء الدار ولكنها كانت بالحقيقة تزيد بالمساحة على بضعة أفدنة . وكان يغشى هذه الفسحة مرج طبيعى زاهي الخضرة ينساب في وسطه غدير لا يكاد يرى من طرف الوادى إلا قليلا وحوله ترتقى سلاسل من الأسوار الجبلية المشمخرة شبيهة بما وصفنا آنفاً . والواقع أن الوادى في هذا الموضع اتخذ شكلا مغلقاً رهيباً يقف عنده المرء حائراً في كيفية نفوذ هذا الشعب المتنوي من خلاله وذلك الغدير الذى ينساب في بطنه فيشق المرج على عمق ألفى قدم إلى نصفين ظاهرين .

وليس من صقع مهما كان شديد الوعورة إلا واتخذته الإنسان مسرحاً لحروبه فهنا في بطن هذا الفخ العسكرى الممتاز الذى إذا ملك مخارجه خمسون رجلاً استطاعوا بمعونة مراكرهم إخضاع جيش لجب وقهره على الاستسلام . هنا رابط متخفياً خمسة ألوية من جيش المشاة المتحالف . لقد سارت هذه الألوية طيلة الأمس وفى الليل وحطت الآن في هذا المكان استجماماً للراحة وتقاسمت أن تواصل السير في الطريق من جديد عندما يسدل الظلام ستاره فيتسلق أفرادها الجبل إلى حيث ينام خفيهم الخائن . ثم ينحدرون إلى الجهة الأخرى من السفح ويتسللون فينقضوا على معسكر العدو في منتصف الليل . وكان رائدهم المباغتة لأن الطريق كانت تؤدي بهم إلى مؤخرة العدو وهم في حالة الفشل لا شك يصبحون في موقف حرج للغاية ولذلك فقد وطنوا النفس على استعمال الحيلة والحذر بكل ما أوتوا من قوة لئلا تلفت أنظار العدو حركة ما مخالفة قد تنبعث عن طريق الصدفة .

إن الخفير النائم في حرش الغار هو شاب فرجينى يدعى (كارتل دروز) وهو الابن الوحيد لأبوين موسرين ولهذا فقد نشأ في أحضان النعمة والعيش الرغيد المليء بالثروة والثقافة مما أهله للسيادة على تلك الربوع الجبلية من فرجينيا الغربية .

أما بيته فلم يكن يبعد غير بضعة أميال عن كمينه الحالى . وصادف أن حضر
الفتى فى صبيحة يوم من الأيام لتناول الفطور وإذا به يخاطب أباه بهدوء وبنبرة
حزينة قائلاً :

أبى لقد وصل إلى (كرافتون) لواء متحالف ، وسأذهب لألتحق به .
رفع الوالد رأسه المهيب فخدق بابنه وأجاب : اذهب يابنى حيث شئت ومهما
يحدث فلا تقم إلا بما تعتقد أنه واجبك ، وهما هي فرجينيا التى خفتها عليها أن
تسير الآن بدونك . ومع هذا فإن عشنا بعد أن يخمد أوار هذه الحرب سنعود
فنتكلم بتفصيل أكثر عن هذا الموضوع .

إن أمك — كما أنبأك الطبيب — فى حالة جد خطيرة ولو أطالت لما عاشت
بيننا أكثر من بضعة أسابيع وعلى كل فهو وقت ثمين والأفضل بنا أن لانزعجها .
انحنى الفتى بإجلال أمام أبيه مودعاً ورد الوالد على التحية بلطف وديع
سائراً وراء ابتسامته قلبه الجريح ونفسه الكسيرة .

ترك الشاب بيت طفولته وتوجه إلى أتباعه وقادته كجندى مطيع يحدوه
الإقدام والإيمان ليؤدى بدافع الوجدان والجراة والإخلاص قربانا لوجه الوطن .
فانتخب فور وصوله لما له من صفات سامية وعلم بأحوال البلاد وجغرافيتها
حارساً يقوم بمهمة خطيرة فى أقصى مقدمة الجيش ، غير أن الإعياء كان أقوى من
العزيمة ، وبذا استسلم الفتى لسلطان النوم ، ولكن مهلاً ، فمن يدرى أو من
يستطيع أن يذكر لنا أى ملاك رحيم ، أو أى شيطان رحيم كان قد زاره فى الحلم
ليوقظه من سنيته الأثيمة ، فمما كان السكون مخمياً فى تلك الظهيرة المتأخرة أهاب
به طيف على النهوض بلفظة عذبة لم يسبق أن نطق بها لسان أو تفتق عنها ذهن
إنسان ، وإذا بالجندى يرفع رأسه على مهل متمسكاً بندقيته بحركة غريزية وهو
يتطلع إلى سيقان الغار السكيفة وإلى الأفق البعيد .

وفى الحال سرت فى نفسه هزة سرور وانتعاش ، فقد وقع بصره على منظر

فنى أخاذ ، إذ رأى أمامه وعلى قاعدة هائلة من قمة السور فى الطرف الأقصى من الصخرة الناتئة شمال فارس هائل الحجم ينتصب فى لوحة الأفق الأزرق بهيئة جريئة وكأنه إله من آلهة الإغريق محفور من الحجر الصلد ، وكانت تعلو سيماؤه سمررة تتفق ولون الأفق المحيط ، ويشوب كسوته وعدة حربه ظل تختلف شدته هنا وهناك وبالعكس لم يكن على الجواد أى أثر لبقعة مضيئة بصورة مطلقة . أما السلاح فقد كان يتدلى على حنو السرج والفارس يقبض عليه يمينه ، بينما كانت شماله تمسك بزمام الفرس وهى لا تسكاد ترى .

والواقع أن مخطط الصورة كان مجسماً فى عرض الأفق إلى حد بعيد ، فقد كان فى أعالي ذلك النفنف العالى كهيكل قدّ بحد سيف صارم . وانظر فهاهو وجهه الراكب يزور قليلاً صوب اليسار فتبان على المخطط حدود الصدغ والذقن بكل جلاء . وتأمل تجده يحول ببصره فى أعماق الوادى بوقفة عسكرية متزنة ، ولعل شدة حذره من عدو قريب زاده وهو على صهوة جواده الأدكن بسطة فى الحجم وهولاً فى الموقف وجبروتاً فى القصد .

سرى فى (دروز) إحساس غريب لاحد له ، وذهب فى بحار الوهم فحسب أنه قد نام حتى نهاية الحرب ، وها هو الآن أمام قطعة ممتازة من قطع الفن شيدت على ظهر تلك الربوة المتعالية لتخليد أعمال البطولة التى كان منها مفلساً ، ولكن سرعان ما تبدد عنه هذا الشعور عند ما اختطفت عيناه حركة خفيفة للصورة الواقفة أمامه ، إذ انسحب الجواد إلى الوراء يسيراً منحرفاً عن الحافة إلا أنه لم يغير من موضع أطرافه أو من جلسة الفارس شىء .

نفذ (دروز) عنه ثياب الوهم بقوة عجيبة وراح يحلل خطورة الموقف ويذهب به كل مذهب وإذا به يسرع فيقرب أخمص البندقية إلى وجنته ويحرك بحفة ويحذر سبطاتها إلى الأمام من بين الأدغال ثم يملأ الحجرة ويصوب إلى الصدر فى نقطة تصيب من الرجل مقتلاً .

وهكذا لم يبق عليه إلا أن يضغط على الزناد وعندها ينال ما يبتغى .
وهنا وفي تمام هذه اللحظة أدار الفارس وجهه صوب عدوه (دروز) وكأنه
تقصد فنظر إليه عن علم ورغب في تفريع ذلك الجفان الجرىء الحنون .
ولم كل هذا ؟ هل إن إزهاق عدو في الحرب أمر خطير إلى هذا الحد
— عدو استطاع من مباغثة سريهم حياته وحياة رفاقه — عدو رهيب أمسى
بمدها أشد خطراً من كل جيشه بعديده ؟

استعظم (كارتر) الأمر وتهيب الموقف ، فازداد شحوباً واضطراباً ، وراحت
مفاصله تصطك وأطرافه ترتجف وخارت قواه ولم يعد يرى من الفارس والجواد
إلا أشباحاً سوداء تعلو وتنخفض ثم تدور به متقلبة في دوائر متسعة وسط
جسيم ملتهب .
وتراخت يدها فانخل منها سلاحه ، ثم مال رأسه رويداً رويداً وسقط على
أوراق الشجر وهو لا يعي .

هذا الرجل الجريء والجندى الباسل كان يقترب من دور إغواء شديدة
بتأثير انفعال عاطفي فوق العادة .

لم يمر على هذا الحال طويل وقت حتى دبّ الشعور في الرجل ثانية فأنهض
رأسه من على الأرض وبادرتوا إلى انتشارل بنديقته وراح ينشد بسبابته زنادها .
لقد أصبح الآن في وضع اعتيادي يملك فيه جميع حواسه وأعصابه . نعم
— لم يكن يأمل يوماً ما في أن يسمح له القدر في القضاء على هذا العدو الشاخص
ولكنه ذا إن أطلق عليه النار فسوف يرميه ولا شك فوق خيّم جنوده جثة
بلا حراك . وما كان واجب الجندى ياترى ؟ لقد كان جليلاً وهو قتل العدو بلا سابق
إنذار أو تأخير وكان عليه أن يمكث في مكانه كالصلى الصامت حتى يتسنى له أن
يوصله إلى حتفه عاجلاً . ولكن مهلاً ! ألا يمكن أن يكون قد تسرب إليه الوهم
والخداع بتأثير الطبيعة الساحرة وإن ما يراه ليس إلا سراباً وخيلاً ، وذلك

هو الأمل العربى فى النجاة من المأزق . آه ! لو يستطيع أن يركب بخفة ويعود من حيث أتى .

فكر (دروز) فى أن خير ما يعمله لإبعاد هذا التردد المضنى هو أن يركز انتباهه للموضوع ، وهنا كانت منه التفاتة إلى أسفل ، إلى أعماق الوادى فأخذ ينظر وكأنما كان ينظر من السطح إلى الغور خلال بحر شفاف . وفى الوادى أبصر خطاً متموجاً من أشباح الرجال والحيول وهى ترحف آمنة وسط المرج الأخضر فقد شئت إرادة قائد أحق بأن يسمح للقيف من جنوده فى التقدم إلى الغدير للسقى وفاته بأن جمعهم كان فى عراء تحيط به مئات من القمم المشرفة .

أعاد (دروز) نظره إلى الفارس المنتصب فى السماء ولاحظ أنه كان لم يزل يصوب إليه بندقيته غير أنه أضحي الآن يستهدف الجواد لا الرجل . وهو كذلك وإذا بهاتف خفى يعيد عليه مافاه به أبوه ساعة الوداع — « ومهما يحدث فلا تقم إلا بما تعتقد أنه واجبك . عند ذلك شمل (كارتر) جو هادىء واطمئنان غريب فسكنت أعصابه وأصبحت كأعصاب طفل نائم وانطبقت أسنانه وارتخت عضلاته وبات تنفسه إلى حين توقفه عند الرمي منتظاً وبطيئاً وتغلب الواجب وقتئذ وسمت الروح على المادة فنادت « — ليدم السلام ، وهنا أطلق (كارتر) النار فرمى وأصمى .

وقد صادف فى تلك اللحظة أن خرج أحد ضباط القوة المتحالفة من كناس الجنود فى الوادى لغرض الاستطلاع وهو لا ينتفى فى سفره مكاناً معيناً فمر صدفة بطريق ضيق ظن أنه يوصله إلى ما يرمى إليه . وكان هذا الطريق يقع عند أقدام الجبل وعلى بعد بضعة مئات من الأمتار من ذلك السور الهائل الذى وصفناه آنفاً . وبينما كان الضابط يسير وهو يلاحظ ما حوله وإذا به يفاجأ بمحدث مذهل . لقد رأى فارساً يمتطى صهوة جواده وهو يجر من أعلى الجو إلى أعماق الوادى . كان الراكب يجلس على السرج بزيه العسكرى مستقيماً ثابتاً ويقبض على زمام

الجواد بقوة وكأنه يريد بذلك أن يمنع الحيوان من الاندفاع السريع في هذا الغوص . وقد بدأ الفارس عارى الرأس وشعره الطويل يتموج في الهواء خففاً كالريش ، ويمناه لا تسكاد ترى لأنها كانت مستترة وراء ناصية الجواد المبعثرة والغريب في الأمر أن جسم الحيوان كان في مستوى واحد كما لو كانت أطرافه بأجمعها متوازنة وقوة مقاومة جاذبية الأرض ، أما جريه فقد كان أشبه بعدو حيوان متوحش ومع ذلك فإنه لم يطل به الزمن حتى أوقف أطرافه فجأة ثم أخذ يصحبها إلى الأمام انصباباً كالخط بعد القفز . ولكن لم يكن ذلك إلا هفيفاً .

وجم الضابط وارتاع من شكل هذا الفارس النازل من السماء وتصوّره ملاك الوحي الحديد فصعق ثم خارت قواه بتأثير الصدمة وغلب عليه الغشيان فارتقى على الأرض مغمى عليه وفيما هو كذلك إذ طرق سمعه صوت تحطيم شديد ينبعث من بين الأشجار — صوت ما كاد يعلو إلا وتلاشى دون أن يعقب صدى أو جلجلة ، وهكذا ساد السكون في تلك البقاع من جديد .

نهض الضابط من مكانه وهو يرتعش هلعاً ولعل الجرح الذى أصاب قصبة ساقه بتأثير السقوط أعاد للرجل وعيه المفقود . نسل الضابط من مكانه وهرع مبتعداً عن النفث حيث توقع أن يعثر على السقيطة ولكنه باء بالفشل . فعاد أدراجه إلى مخيم العراء وهو يحمد الله على أنه قام بتعقيب الطريق المجاور لحضيض الجبل ولو سلك غيره لكان هدفاً لذلك الفارس الساقط وللكان الساعة أثراً بعد عين .

كان هذا الضابط حكيماً إذ أدرك بثاقب رأيه أن لا فائدة من التحدث عما شاهد ورأى فأنظر رغم صحته سيقابل بالرد وعدم التصديق ، ولذا فقد أقسم على ملازمة الصمت . وحينما سأله القائد عما إذا كان قد حصل بنتيجة استطلاعه على شيء يهم الحملة أجاب :

نعم يا سيدى — لقد عرفت أن ليس هناك من سبيل يؤدي إلى هذا الوادى من الجهة الجنوبية .

ابتسم القائد ولم يجب بشيء فقد كان على علم بهذا الخبر . .
أما (كارتر) الجندي ، فبعد أن أطلق النار وأعاد حشو البندقية تابع خفارته
بكل دقة . ومضت فترة من الزمن جاء على أثرها العريف وهو يتقدم زاحفاً
بين الأدغال . ومع أن (كارتر) كان قد شعر بحركته إلا أنه لم يغير من امتداده
أو هدوئه وبقى على حاله شاخصاً إلى الأمام .

وهنا همس العريف في أذن الجندي قائلاً :

هل أطلقت النار يا (كارتر) ؟

نعم .

وعلى أي شيء ؟

على جواد كان واقفاً على تلك الصخرة أو بجوارها وأنت ترى أنه لم يعد في
محلّه . لقد سقط من أعلى السور إلى بطن الوادي .

لم يكن على وجه الجندي رغم شحوبه من أثر لانفعال آخر . وعندما أتم
جوابه سكن إلى صمته من جديد وبقى ينظر إلى الأمام .

ولما لم يفهم العريف شيئاً من الجواب بادر (كارتر) ثانية وهو يهمس :
لا يجديك التكلم بالألغاز وأنا أمرك أن تقدم لي كشافاً بالحدث فوراً . فهل
كان على الجواد من أحد !

نعم

ومن هو !

أبي .

انتفض العريف من مكانه ناهضاً وهو يصرخ — الله !

عند ما أخلو بنفسى متتبعاً أساطير الأولين
متصفحاً المنشور في الحسان وأبطال الحب
الذين طواهم الثرى تحت أطباقه .
آنس كثيراً بما أقرأه من الأغاني المنظومة في وصف الجمال وتصوير
الأفتدة المفتونة .

حينذاك وأنا أمام تلك الصور البهية للجمال الأقدس
الذى يحتضن الأيدى والأقدام والشفاه والعيون والحوارب
أشعر بأن كل ما سطرته الأقلام الخالدة
لم يكن إلا وصفاً للجمال الذى ترتدينه .

فدعهم لم يكن إلا نبوءة صادقة لهذا العصر الذى حواك
ومقدمة لتصوير مالك من مواهب
لأنهم نظروا حقاً ولكن بعيون إلهية
ولو أنهم لم يملكوا القوة الكافية للإشاد بمحاسنك

فما يملكه عصرنا هو العيون الناضرة المسحورة
وليس الألسن التى تستطيع النطق بسحر الأحداق .

سَائِلَةٌ (لوكارنو)

للكاتب الألماني (هافريش فون كلايت)

وعبثا حاولت تخليص المسكين من
عذاب النار . لقد رأى بأم عينيه
نهاية حياته وهو على أشد ما يكون
من القزع .

لقد كان قصرًا منيفًا واسع الأرجاء عديد المناظر كثير الحداثق يقع في سفح من سفوح جبال الألب الشاهقة المطلة على القسم الشمالى من إيطاليا وهو لا يبعد عن ضواحي مدينة (لوكارنو) الجميلة إلا مسافة قصيرة تقطع مشيًا على الأقدام . إن هذا القصر هو ملك لأحد الأمراء المعروفين بالبأس والصلوة ، وقد كان في أيام عزه كالقلعة الجبارة وسط تلك الجنائن الغناء . أما اليوم فالقادم عليه من الناحية الجنوبية لقرية (سنت كوثارد) لا يشاهد منه سوى الأنقاض والخرائب وأكوام الرماد .

وصادف أن وصلت في يوم من الأيام إلى الباب امرأة عجوز غليظة تستعطي أهلها ، فرحبت بها سيدة القصر وأشفقت عليها وكستها وقدمت لها ملجأ في أحد أركان غرفه العالية الفسيحة ، استلقت فيه العجوز على فراش مريح كان قد أعد لها من خزم القش .

عاد الأمير من الصيد فأنسل إلى هذه الغرفة التي اعتاد أن يحفظ فيها بنادقه وبعض لوازمه الأخرى ، وإذا به يشاهد تلك المرأة مضطجعة في مكانها تلهو بعلتها ، ناداها بغضب ثم أمرها بالتنحى عن الركن والإيواء إلى خلف الموقد ... وهى ما كادت تنهض حتى قبض عليها فألقاها على سطح البلاط الناعم وحطم عمودها الفقرى . لقد كان الوجع شديدًا ومؤلمًا إلى درجة أنها لم تستطع إلا بعد جهد أن تقود نفسها وهى فى دور النزاع الأخرس ، فتجاوزت الغرفة إلى جهة الموقد حيث سقطت غرقى بأنيبها المفزع ... وهناك أسلمت الروح .

مرت بضعة سنوات أضع فيها الأمير بسبب القحط والحروب معظم ثروته وعول بعدها على أن يبيع مقاطعاته وأملاكه وأخيرًا قصره المذكور . وفى يوم من الأيام حضر لديه أحد أعيان (فلورنسا) يبدى له كل الرغبة فى شراء قصره الجميل بعد أن سمع عنه ما سمع ، فما كان من الأمير إلا أن طلب

من زوجه استحضار كل مامن شأنه أن يريح ضيفه الكريم حباً منه في الحصول على نتيجة مرضية لمباحثاته . وأشار عليها بإعداد الغرفة المنوه عنها إليه . ولقد كانت حينئذ ملأى بالأناث الطريف الأنيق .

وفي منتصف الليل وعلى حين غرة باغتهما الضيف في غرفتهما وهو مذهول ممتع اللون ، فأدخل إلى قلبيهما الرعب والوجل ، أكد لهما هذا بنهيب عظيم بأن غرفته مسكونة بمخلوق غير منظور ، ولكنه كان يصوت وهو كما لو كان شخصاً مستلقياً على فراش من قش في أحد أركان الغرفة ، وإذا به ينهض بعد لأى ويخطو خطوات بطيئة وضعيفة ولكنها مسموعة ، فاجتاز الغرفة إلى وراء الموقد حيث سقط عنده منظر حراً وهو يئن ويتوجع .

ومع أن الأمير دعر من فوره لهذا الخبر إلا أنه لا يدرى السبب الذى حدا به إلى أن يجابه الضيف ببهمة تهكية غريبة ممزوجة بطرب عجيب وهو يقول له : سأقوم معك حالا لأصحبك بقية الليل فى غرفتك المسكونة . أبى الضيف قبول هذا الاقتراح وطلب السماح له بالمكوث فى غرفة أخرى يقضى فيها الهزيع الأخير من تلك الليلة . وهكذا كان .. وما بدا الفجر حتى قام فأمر بإحضار خيوله دون تأخير ثم ودّع أصحاب القصر وانصرف فى سبيله ناجياً .

بعث هذا الحادث أثراً سيئاً فى نفس الأمير لأنه أبعد عنه بضعة أفراد كانوا فى عداد الراغبين فى الشراء . وكذلك سرى الخبر بين خدم القصر همساً وعلى شكل غريب فعزم الأمير على تكذيبه وقطع دابر الإشاعات المنتشرة وذلك بأن عوّل على استقصاء الحقيقة بنفسه فأوعز بنقل سريره إلى الغرفة المسحورة وراح يرقب الحال يقظاً حتى منتصف الليل . وما كادت الساعة تدق الثانية عشرة حتى خامره القزع إذ بدأ يحس بذلك الصوت المبهم وهو كما لو كان صادراً من مخلوق ينهض من على القش فيجتاز الغرفة وينطرح وراء الموقد غارقاً فى أنينه وتأوهاتة . انبج الصبح فذهب تَوّاً إلى زوجه يعلمها حقيقة الخبر . دخل عليها فنظر

حواليه بنظرات مضطربة وقلب واجف وأعصاب متهيجة وبعد أن أحكم غلق الباب ورائه أخبرها بما اكتشف . وهنا فزعت الأميرة فرعا لم تصب بمثله في حياتها ولكنها تمالكته نفسها فطلبت منه أن يقوم وإياها بتجربة هادئة قبل أن ينتشر الخبر ويشيع . اصطحب الطرفان خادما أميناً وجلسوا في الغرفة يستمعون . هاهي الأصوات الخفية تطرق آذانهم جميعاً من جديد فبعثت فيهم الذعر المميت أضاعت الأميرة رشدها فصرخت وأعولت ولم يستطع الرجل أن يعيدها إلى سكونها وهما في حضرة الخادم ويبعد عنها الرجل الذي اتبها من هذا الحادث المفاجيء الذي قد يوقظ إليه الآخرين إلا أن يؤكد لهما ضرورة التخلص من القصر على أى حال وفي أقرب فرصة ممكنة .

وجاءت ليلة اليوم الثالث وهما على أشد ما يكون لإدراك سبب هذا القلق الممض الذي استولى عليهما ، وأخيراً صمما على إعادة التجربة . ارتقى الاثنان بقلوب واجفة درجات السلم وهما في طريقهما إلى غرفة الضيوف وما وصلاهما حتى وجدا عند الباب كلب الحراسة واقفاً وكان آنئذ خارج عقاله فرغب الطرفان بلا سبب معقول وبدون شعور على الأرجح في أن يكون برقتهما مخلوق حي آخر . حانت الساعة الحادية عشرة وكل منهما جالس على سريره ، الأميرة بكامل لباسها والأمير مجهز بمديّة ومسدس تناولها من خزانة كمنت بجوارهما ، وفي ناحية منهما منصدة عليها شمعتان تبعثان بنورها الضئيل في تلك الغرفة المظلمة وفيما هما يتنادمان ويتجادلان ملّ الكلب وقوفه فانطرح وسط الغرفة وأمال برأسه بين أذرعهما وهما في اللحظة حتى غلبته سنة الكرى فنام .

وبعد حين بدأت الساعة تؤذن منتصف الليل وإذا بالصوت الخفيف يظهر من وكره وإذا بذلك المخلوق الشبحي ينهض من ساعته عند ركن الغرفة وهو يرتكز على مسانده ويتقدم تاركاً مكانه . . . هاهي خشخشة القش تحت أرجله تعلن قيامه . وهما هو يخطو بضعف إلى الأمام . . . وهما ولما يخطو بعد الخطوة

الثانية استفاق الكلب وأرهف أذنيه إلى ناحية الصوت ثم نهض منتصباً وهو ينبسح ويعوى وكأن شخصاً كان يدفع به إلى الوراء فيترجع باستقامة واضحة إلى الوراء . . إلى الوراء . . نحو الموقد . . الموقد . وقف شعر الأميرة من هول هذا المنظر المفزع فولّت هاربة من الغرفة دون أن تلوى على شيء . أما الأمير فسحب مديته ووقف صارخاً في وجه الشيخ . . من هذا . وعيناً كان ينتظر جواباً لسؤاله . اندفعت الأميرة كالجنونة إلى حيث أمرت بإحضار العربة لتقلّها إلى المدينة حالا وما كادت تجمع بعض أمتعتها وتحملها إلى الخارج حتى التفتت وإذا بها تشاهد ألسنة اللهب . . اللهب المتصاعد يلتهم جوانب القصر وتندفع ألسنته بقوة في جميع أركانه فالأمير وقد غلبه الذعر وأعياه النصب حمل في يده إحدى الشمعتين فمس بنارها دون أن يعي إطاراً لبعض التصاوير الزيتية المعلقة على الجدران فاشتعل من أطرافه ، أرسلت الأميرة بعض الناس إلى الداخل وعيناً حاولت تخليص المسكين من عذاب النار ، لقد رأى بأم عينه نهاية حياته وهو على أشد ما يكون من حال مفزعة .

لقد جمع أتباعه عظامه البيضاء وهي لا تزال إلى الآن في ذلك الركن من تلك الغرفة التي أمر فيها يوماً ماتلك السائلة . . سائلة (لوكارنو) بالخروج منها .

لا أستطيع تشبيهك بيوم الصيف
لأنك أشد اتقاداً وأقوى حرارة
نعم — إن رياح الصيف عندما تهب تحرك أعطاف الورود الجميلة
فتنشر روح نيسان في الحدائق والرياح
غير أن أيام الصيف قصيرة المدى ، وسريعة الفناء .
تشرق عين السماء أحياناً فتبعث أشعتها القاسية الحارة
ولكن طالما أخفتها الغيوم المظلمة فلا تعود هيئتها ذهبية ساطعة
وكثيراً ما نخط من قدر الجميل إذا قارناه بالأجمل عن طريق الصدفة
وحسب تبدلات السنن الطبيعية المتباعدة .
هذا صيفك الأبدى الجبار إنه لا يذبل ولا يفنى
فهو متسع باتساع هوائك الذى يضيق عنه البر
والبحر والسهل والمدر
ولو أنه انحصر فى نقطة صغيرة منيرة تلمع بين طيات فؤادى
وهو لا يفقد عرش الحسن الذى تملكه
ولا يمكن للموت أن يتفاخر بأخذه إياك تحت ظله
ما دامت من عين الخلود وفى الخلود تعيش
وما دام هناك شمس بازغة وعين فى الوجود ناظرة
فسيظل لك هذا
وهو الذى سينميك من روحه الطاهرة الخالدة ..

بم عيش الناس

للكاتب الروسي (ليو تولستوى)

رويداً ! أيها الناس لقد خاب
ظنكم فى القول بأنكم تعيشون بتدبيركم
إنكم لا تعيشون إلا بالحبة .

عاش الإسكاف سمان كما يعيش غيره من الفقراء لا يملك أرضاً ولا مأوى ،
فسكن هو وعائلته أحد أكواخ الفلاحين تلك الأكواخ المبنوثة على سفح ذلك
الريف النائي . وكان يحصل على رزقه بقرق جبينه ويصرف للقوت كل ما يكسبه
في يومه من مال وذلك لرخص العمل وغلاء الخبز .

لقد كان لدى الرجل وزوجه دثار هدم من القرو يتقيان به زمهرير الشتاء
القارس ، فضت الأشهر تباعاً من العام الثاني وهو يجهد باقتصاد مبلغ زهيد لم يزد
آنثذ عن ستة دراهم لو أضافه إلى دين له بذمة بعض الزبائن من سكان القرية
لبلغ ستة عشر درهماً وعشرين فلساً ولا استطاع عندها من تحقيق أمله وهو استبدال
ذلك الطمر البالي بما هو خير .

وفي صبيحة يوم من الأيام استعد الرجل للخروج فاشتمل فوق شعاره بشملة
امراته المصنوعة من المباد الصيني وارتدى فوقها معطفه الخاص وراح يقطع لنفسه
عصاً يتوكأ عليها ، ثم انسل بعد الفطور في السبيل المؤدية إلى القرية ، وكله أمل
من أنه سيعود بالقرو إلى بيته جذلان منتصراً .

هبط القرية وعرج في الحال إلى مسكن أحد الرفاق فلم يجده فيه إلا أن
امراته وعدت بدفع المبلغ في الأسبوع القادم .

فدار قاصداً صاحبه الآخر . أما هذا فقد هش له وبش ثم أقسم بأنه لا يملك
مما بذمته سوى عشرين فلساً ، وهامى ذى يقدمها عن طيبة خاطر .

سقط في يد الرجل فتلبذ واحتار غير أنه تمالك بعد لأى واستجمع عزمه على
شراء القرو بالدين .

قال له البائع : ادفع الثمن وفي إمكانك عندئذ أن تنتخب نوع القرو الذى
تريده فنحن أعلم بمصاعب جمع الديون .

وهكذا لم يحصل الرجل بعد كل ذلك الغناء إلا على عشرين فلسا وعلى زوج من حذاء اللباد قدمه أحد الفلاحين طالبا إليه تفعيله بالجلد .

هنا شعر سمعان بالخيبة تطفئ عليه ، فخرج على حانة يحتسى فيها قليلا من (الفودكا) بقيمة عشرين فلسا ثم خرج عائداً إلى مقره الحفير .

وما الفرق بين الذهاب والإياب ! لقد عاد بخفي حنين ولكن لماذا ! ألم يحس في الصباح بقشعريرة البرد ، بينما هو الآن يسير بعد أن جرع (الفودكا) وقد دبّت في جسمه نشوة مريحة بعثت فيه الدفء ولو لم يحصل على الفرو .

دلف الشيخ إلى الأمام وهو يضرب بيد عكازه على الأرض الباردة ويهز بالأخرى زوج الحذاء اللبادي ، دلف بلا توقف وهو يحدث نفسه :

لاضير علىّ فقد دفنت ولو لم أحصل على الفرو ، ارتشفت قطرة تمشت في جميع أوصالي وعروقي ، أنا لست بحاجة إلى الفرو ولا لزوم لكل هذا القلق : ولتكن شيمتي عدم المبالاة ، لا يهمني شيء وباستطاعتي أن أعيش بدون فرو ، لا حاجة لي بها . أما زوجتي ! زوجتي ! فسوف تغتاط وتتبرم بلاشك ، هذا أكيد نعم أليس من الخطأ أن يكبد الإنسان طول يومه ثم لا يتسلم أجره في النهاية ، ذاك هو الواقع .

مهلا ! إن لم تدفع ما عليك فسا وجعلك ضربا ، ولا خير فيّ إن لم أفعل . كيف ذلك ؟ لقد دفع لي عشرين فلسا فقط ، وما تراني فاعل بها أشرب بها ، إن ذلك هو كل ما أستطيعه . أهو معسر حقاً كما يدعي ؟ ليكن كذلك ولكن ما قولك عني ! لك بيت وماشية وكل شيء ، أما أنا فلا أملك إلا قوت يومي . يدر عليك الحاصل من أرضك ، بينما أجدني بحاجة إلى شراء كل حبة وأكون مرغما في كل حال على صرف ستة دراهم للخبز في كل أسبوع ، ومع هذا فقد أحضر إلى البيت والخبز نافذ فأضطر لدفع ثلاثة دراهم أخرى . وإذن أد ما عليك ولا تتهمني باللغو الفارغ .

وفي هذا الحين كان سمعان يقترب رويداً رويداً من ساحة المعبد القائم
بجوار منعطف الطريق ، فتطلع وإذا به يرى شبحاً أبيض منتصباً خلف جدران
المعبد كانت الشمس في الأصيل فلم يستطع رغم الإمعان تمييز ما يرى .
لم يكن في الموضع قبل هذا حجر أبيض ، أعله ثور ، لا إنه لا يشبه الثور ،
فالرأس رأس إنسان . إنه أبيض ناصع وما يعمل الإنسان في هذه الأمسية وفي هذا
المكان .

اقترب قليلاً فاتضح له معالم الشبح ، وما كان أشد استغرابه إذ تبينه
إنساناً عارياً لا يدري أحى هو أم ميت منثن بجلسته دون حراك نحو المعبد ، وجم
وارتاع فؤاده ظناً منه أنها جثة قتيل رُمى بها في العراء وتوقع الخطب والمكره
إن هو وصل إليها أو داناها .

استأنف السير عابراً من أمام واجهة المعبد قصداً منه في مواراة الصورة عن
ناظره ، وكان كلما خطا إلى الأمام التفت إلى الوراء تطمينا لنفسه ، وفي إحدى
لفتاته بصر بالشبح يتململ ويراقب مسيره ، فازداد رعباً وأمعن في إبطائه ،
ومع ذلك فقد تردد فيما إذا كان الأفضل له النكوص أو المثابرة على الجري ،
وصار يتمتم هامساً :

إن عدت إليه فإني متوقع شراً ومن يعلم من يكون الرجل ، هل جاء إلى
هذا الموضع لخير ما ؟ كلا ! إن اقتربت إليه فقد ينقض عليّ ويخنقني ، وإذن فأين
المهرب وكيف النجاة ؟ وإذا لم يكن ذلك فما ترائي صانعاً بعريان سيصبح حتماً
عبثاً عليّ فأنا في حالة لا أقدر معها على أن أخلع عليه بردى ، ربي إنك ملاذى
وعوني في هذا الخطر الداهم .

وبينما هو كذلك وقد ابتعد كثيراً عن المعبد إذا به يقف في مكانه فجأة
إجابة لصوت الضمير وتعنيفه :

— ماذا أنت عامل يا سمعان ، لعل الرجل ضال يتخبط الطريق أو لعله عابر

سبيل يتلمس القرى والثواء ، ما بالك تنسل مذعوراً ، فهل كنت من أصحاب
الثروة حتى تخشى سطوة اللصوص ؟ آه منك يا سمعان ما أجبتك .
وعلى هذا عاد سمعان القهقري وتقدم نحو الرجل .

(٢)

اقترب منه فوجد شاباً عارياً في مقتبل العمر صبيح الوجه حسن القوام وهو
يرتجف من البرد وعلى جسمه آثار الرضوض ودلائل الإعياء ، فلما دنا منه تحرك
الرجل بضعف كمن يستفيق من غفوة أو غشيان فأدار وجهه ونظر إلى القادم
نظرة إشفاق وتوسل ، لقد كانت تلك النظرة كافية لإثارة كل ما في النفس من
عوامل الخنو والرحمة ، وفي الحال رمى سمعان بالحذاء اللبدي على الأرض وشرع
ينزع عنه معطفه وهو يقول :

— إليك به فالوقت قصير لا يسمح لنا بالكلام .

وعندئذ أخذ بذراعه وساعده على النهوض فاستوقف سمعان ما في الرجل من
وضاعة ونقاوة ورشاقة. ألبسه المعطف وشدّ على وسطه النطاق بعد أن لقه على جسمه
لقا قويا وكسا قدمه بالحذاء اللبدي ثم حاول أن يعيره قبّعة الممزقة غير أنه سرعان
ما شعر بلذعة البرد في شواته فأعادها إلى رأسه مرة أخرى وخصوصاً بعد أن لاحظ
شعر الرجل الطويل الأجدع ، وإذ انتهى أنشد يقول :

— والآن أنصح لك يارفيقي بالتحرك لتنشط وتسخن ولندع ضرورياتنا

الأخرى حينها ، هل تقوى على المشي ؟

اعتدل الرجل ونظر بعطف إلى من بذل له المعروف وأراد الكلام فامتنع عليه .
فقال سمعان : إن البرد قارس ومن العيب الإبطاء في المسكوث ، لنرحل إلى
البيت وإذا كنت تشعر بضعف فهاك عصاتي وتوكأ عليها . ها تقدم واخطو .
ابتدأ الرجل يتهادى فخطا بسهولة دون تلسكأ ، وهما يسيران سأله سمعان :

— ومن أين أنت يا رجل ؟

قال : أنا لست من هذه الديار .

فقال سمعان : أدركت ذلك لمعرفتي بأقوام هذه المناطق ، ولكن كيف

تسنى لك الوصول حتى جئت فوقفت عند جدران المعبد .

قال : لا أستطيع أن أصرح بالحقيقة .

فاسترسل سمعان سائلا : فهل ظلمك أو أساء إليك أحد في معاملته .

قال : كلا ، غير أن ربي قاصصني .

قال : هذا صحيح فسيحان مالك الملك . لا بأس عليك يا صاحبي . أعلم

أنك لازلت الآن بحاجة إلى مأوى وزاد ، فأين تريد أن تقصد ؟

— هذا ما أدعه لرأيك .

احترار سمعان من موقف الرجل فهو على ما يظهر إنسان خلق يتكلم بدمانة

ومع أنه قد أخفى حقيقته إلا أنه من المرجح غريب عن المتشردين ، ولكن من

يدري ما سيحدث في الغد .

— حسناً ! تفضل معي إلى البيت وأدفعُ نفسك فيه حيناً على الأقل .

اتجه الاثنان في طريقهما إلى المسكن وكل يمشي إلى جنب صاحبه ، وعصفت

الرياح واشتد أزيزها فأطارت من رأس سمعان نشوته ، وحينذاك ابتداء يشعر بقساوة

البرد ، غير أنه اندفع متمالكا وهو يجهد بتنفسه ويلف على صدره شملة اللباد ، وقد

تتنازعت الخواطر ؛ هناك سنستهل الحديث عن القرو ، نزلت القرية لشرائه فرجعت

خاليا حتى من معطفي ، واصطحبت فوق ذلك معي رجلا عاريا أقوده إليها .

ستغضب (م تريونا) بلا شك .

تذكر سمعان امرأته فكشفه الحزن ، ورائت على نفسه الكآبة ، والتفت

إلى صاحبه عابسا ، وإذا به يستعيد في مخيلته نظرة الرجل إليه قرب المعبد فزال

عبوسه وانسأقت إلى قلبه موجة راوية من الفرح والسرور .

(٣)

وفي ذلك اليوم أعدت (مترينا) كل شيء على عجل — احتطبت واستنقت الماء وأطعمت أولادها وأكلت غذاءها ثم جلست مفكرة — لا زال لدينا كسرة كبيرة من الخبز فإذا كان سمعان قد تناول طعامه في القرية فسوف لا يحتاج إلى مزيد . زارت الكسرة بضع مرات وارتأت في النتيجة تأجيل العجن إلى صباح الغد وخصوصا وهي لا تملك إلا خبزة واحدة من العجين ولا مناص لها من تدبيرها حتى تكفيهم بقية أيام الأسبوع . رمت بالخبز جانبها وجلست إلى ثوب زوجها ترقعه ، وبينما هي تعمل زارها خياله وهو قادم إليها بالذئار الجديد . فانتعشت وأخذت تحدث نفسها — هذا إذا لم يحاول البائع غشه ، زوجي سمعان ! بسيط القلب ومن السهولة خداعه أما هو فبعيد جدا من أن يخدع أحدا . إن الستة عشر درهما مبلغ ذو قيمة فعليه أن يحصل به على فرو ممتاز لا أن يكون من النوع السقيم المصبوغ . كم قاسينا من عناء مرير في الشتاء المنصرم حينما كنا نفتقر لذئار دافئ . ليس في طاقتي النزول إلى النهر أو الذهاب إلى جهة ما فقد ألبست سمعان كل ما تملك . ماذا ! أراه قد تأخر عن الحىء وقد طلع منا في ساعة مبكرة . كلا ! لا زال من الوقت ما يكفي لرجوعه ، وأمنيتي الوحيدة هي أن لا يوسوس له الشيطان فيرتاد الحانة لتعاطى المدام .

وبينما هي مشغولة بهواجسها طرق سمعها وقع خطى عند المدخل فغرزت إبرتها في عملها حالا وقفرت مهرولة في الممر لتري من في الباب . هنالك شاهدت سمعان زوجها وبرفقته رجل غريب حاسر الرأس يحتذى خفا من البباد .

قرأت (مترينا) في ملامح زوجها الجذل والانشراح فغرزت ذلك لتأثير الراح وإذا لا حظت أنه لا يرتدى معطفه ولا يحمل بيده طردا جمدت في مكانها وعلاها الخجل لأنها أيقنت أنه بذل المال للشراب عنه وعن رجل طالح اقتاده أخيرا إلى البيت .

دخل الكوخ فتعقبتهما وحدقت في الغريب فوجدته شابا حقيراً لا يستر جسده شعار ، ولا يكسو رأسه دثار ، وقد ارتدى معطف زوجها وانتحى جانبا لا يتحرك ولا ينظر إلى ما حوله ، فظنت أنه يتخاثر من الوجل ، ولهذا بقيت في مكانها صامئة ترقب ما يبدو منها .

نزع سمعان قبعته عن رأسه وأخذ مكانه على المقعد دون ا كتراث ثم ناداها هلا طبخت لنا بعض الطعام .

عبست المرأة وتمتت بكلمات غير مفهومة ، وظلت واقفة بجوار الموقد تنظر إلى هذا مرة وإلى ذاك أخرى ، وكانت تهز يدها ساخرة .

أدرك سمعان حالها فتجاهل وقبض على يد صاحبه : اجلس يا رفيق ريثما يأتينا العشاء ، ثم مال إليها يقول : هاتى لنا الطعام يا ماريونا .

وعندها لم تستطع المرأة أن تكتم حنقها ، فصاحت به وصوتها يتهدج : لقد طبخت لغيرك لا لك أنت أيها الفاقد لرشده .

ذهبت لأمر فعدت إلى بصحبة متشرد عريان ، ليس لدى زاد للدمنين من أمثالكم .

قال : على رسلك ؛ لا تحركى لسانك بلا رحمة ولا حجة . والأخرى بك أن تفقهى قبل كل شئ حقيقة الرجل .

قالت : كلا ! أخبرني أولا عن مصير المبلغ الذى أخذته .

فقام توا إلى جيبه وسحب منه الدراهم ثم رعى بها إلى زوجه وهو يقول : إن تريفونوف لم يسامنى ما عليه ، ولسكنه وعدنى بالدفع وشيكا .

اختلطت (ماريونا) المال بلمحة وأسفت لخيبة الأمل وفقد الرجاء من شراء الفرو وقالت متأففة :

ليس لك لدى طعام اليوم ، إنك غير قادر ولا شك على أن تطعم جميع المدمنين العارين في العالم .

قال : كفى يا متریونا اسكنی عنك وعليك أولاً أن تصغى إلى ما يقوله الرجل .
قالت : حكمة بالغة سأسمعها وأعيها من لسان أحق سكير . لقد كنت مصيبة
فى تمنعنى عن الزواج منك ، أنت أيها الرجل المدمن ، أنسيت أن القماش الذى
وهبتنى إياه أمى قد بعته من أجل الخمرة والآن تصرّفت بضمن القرو ، أليس ذلك
أيضاً من أجل الخمرة الملعونة .

حاول سمعان توضيح مراده لبيان ما خفى عنها فلم تسمح له بالكلام بينما
راحت هى مستغرقة باللغو فأهضبت فى القول وزاد حتى آل بها أن تتحدث عن
أمر حصلت قبل عشرة أعوام .

وأخيراً انقضت على سمعان تجرّ بتلايبه طالبة إليه أن يعطيها رداءها :
هوكل ما أملك وحرام عليك أن تلبسه . ردّه إلى أيها الكلب الأجرّب
وعساك هالك عن قريب .

وقبل أن يتم سمعان نزع قبضت (متریونا) على كمه وخطفته بشدة فانفرز
تدريزه فما بالت ، ثم أخذته ورمته به على رأسها وولّت إلى الباب ، عنت
الخروج من البيت إلا انها تمهلت مترددة إذ رغبت أولاً فى أن تهدى من روعها
وتستمع بعده عن حقيقة الرجل نزيلهم الجديد .

(٤)

قالت : إذا كان رجلاً صالحاً فلم كان عارياً ، وإذا كان كما تدعى فأخبرنى
أين عثرت عليه ؟

قال : هذا ما أحاول بيانه ، عند مرورى بالمعبد شاهدته يقبع بالقرب من
جداره الخلفى وهو عريان يرتجف من البرد ، فرأيت من المروءة إسعافه تخفيفاً
لما يقاسيه من آلام الزمهرير . لقد هدانى الله إليه لانتشاله وإلا لقضى نحبه .
ما كان على أن أعمل غير ذلك ، إذ لاندري ما كان سيجل به . اقتربت منه

وكسوته وقده إلى البيت . لا تقضي يا مريونا فتلك خطيئة كبرى وتذكري من
أننا سنموت يوماً ما .

زمت المرأة شفتيها مشمزة وحدثت في الرجل وهي منقبضة متحاملة . بينما
كان هو يجلس على طرف المقعد صامتاً واجماً دون كلام ولا إيماء وقد طوى
يديه على ركبتيه وأخى رأسه إلى صدره ، كان مطبق الأجنان مقطب الجبين
كأنه يشكو من صداع . وأردف سمعان يقول : — مريونا أليس في قلبك
حب لله .

بقيت المرأة ساكنة تحدج بالغريب فلما وعت ما يقوله سمعان هداً ثأرها
فلانت ثم لانت وبينما هي تحسب نفسها غاضبة نافرة إذا بها تتحول فجأة إلى
مشفقة حزينة فرجعت من الباب متباطئة تحضر لها المائدة ، حطت على
الخوان كأساسكبت فيه شيئاً من شراب (الفاس) وجاءت بكسرة الخبز الأخيرة
وصفت الملاعق والسكين ثم قالت بهدوء : تقدّما وكلا فهذا هو العشاء .

قرّب سمعان رفيقه إلى المائدة وابتدأ يثرد الخبز في المرق ثم طفق الإثنين
يأكلان . أما هي فقد جلست عند إحدى زوايا المائدة تمعن النظر في الغريب
وسرعان ما شاهدته يرفع إليها رأسه ويتسم لها بوجه مشرق بشوش .

سألته عند الفراغ من الأكل : ومن أين أنت يا رجل ؟

قال : أنا لست من هذه الجهات .

قالت : محبباً وكيف إذن صادف أن جئت على الطريق ؟

قال : لا أقدر على التصريح بالحقيقة .

قالت : هل سرقك أحد ؟

— كلا ! يكنى أن أذكر أن ربي عاقبني .

— وكنت هناك ملقى وأنت عريان ؟

قال : نعم عريان وبردان فرأني سمعان وأشفق على فألبسني معطيه وقادني

إلى هذا المكان . وأنت أطعمتني وأسقيتني وحنوت عليّ فانتظري من ربي أحسن الجزاء .

وإذ حان وقت النوم قامت المرأة فجاءت للرجل بسرّوال وقيص قديمين يلبسهما وخيرته السبات في الخدع أو على سطح الموقد فاخترار الأول . أما هي فقد تناولت المعطف وأطفأت الشمعة ثم ذهبت إلى حجرة الموقد تنشد النوم بجوار زوجها . ولكن النوم خاضع عينيها وانصرف عنها لأن طيف الزائر الجديد لا زال عالقا في ذهنها . تذكّرت نفاد الخبز والقميص والسروال اللذين أعارتهما للرجل وتخيلت ابتسامته الرضيّة وتذكّرت حوادث أمسها واحدا بعد آخر حتى أقلقتها الهواجس فنادت : سمعان .

قال : نعم .

قالت : لقد أكلتم آخر كسرة من الخبز وفاتني أن أعجن فمأ نحن عاملون غدا ، أيمن لنا أن نستقرض من جارتنا (مارتا) بعض الخبز .

قال : إن أصبحنا أحياء فسنجد أماننا ما نفتات به .

صمتت المرأة هنيهة ثم تابعت تقول : يظهر عليه أنه رجل طيّب ولكن لا أدري سبب امتناعه عن ذكر هويّته .

أجاب : لا بد وأن يكون لامتناعه حجج معقولة نجعلها .

قالت : سمعان .

قال : نعم .

قالت : ما بالنا نهب ولا نوهب .

هنا أدار سمعان ظهره ولم يجر جوابا ثم اشتغله النوم .

(٥)

استيقظ سمعان في الصباح التالي فوجد أطفاله لا زالوا نائمين وقد تركت أمهم البيت قاصدة جارتها لاستقراض مقدار من الخبز . أما الرجل فقد سبقه في النهوض وراح على المقعد جالسا يرنو إلى سماءه وفي وجهه صفاء أبين عليه مما كان بالأمس . ابتدره سمعان بعد أن حيّاه — حسنا يارفيقي مادام البطن بحاجة إلى الخبز ومادام الجسم بحاجة إلى الثوب فعلى الإنسان أن يعمل ليعيش . فأخبرني بالصنعة التي تجيدها .

قال : لم أزالو عملا بالمرة .

استغرب سمعان جوابه فاستطرد يقول : إن من يريد أن يتعلم بإمكانه أن يتعلم كل ما يريد .

قال : لا بأس ، سأكد كما يكدر سائر الناس .

قال : ما اسمك .

قال : ميخائيل .

قال : إذن فاسمعي يا ميخائيل . إذا كنت لا ترغب أن نتحدثنا عن نفسك فذاك ما يعنينا ولكنتك ملزم في أن تحصل على مكسب . إن أطعني بما أشير به عليك فساقدم لك طعاما وملاذا .

قال : جزاك الله خيرا . أشرب بما أعمل فيها أنذا على استعداد لما تقول .

وعندئذ تناول سمعان غزلا وشده حول إبهامه ثم صار يبرمه ويقول : انظر إنه عمل بسيط أليس كذلك ؟ ظل ميخائيل يراقبه حتى إذا انتهى أخذ في تقليده إلى أن أتقن البرم ، وبعد ذلك درّبه سمعان على كيفية تشميع الخيط فأجادها . ثم علمه أصول خياطة الجلد وهي ما أتقنها أيضا ، وفي خلال ثلاثة أيام كان ميخائيل يزاول مهنته الجديدة بجوار صاحبه بكل مهارة كما لو كان قد قضى عمره فيها ،

كان يشتغل بعزيمة لا تعرف الكسل ولا الملل فإذا أتم واجبه جلس صامتاً يبحث في سمائه ، كان وديعاً يكتفى بالقليل من الزاد ويتكلم عند الضرورة ولقد عرف عنه بأنه لم يخرج إلى الطريق إلا نادراً ولم يمزح أو يضحك أو يتسم إلا مرة واحدة ابتسم فيها لمثريونا حينما قدمت لهما العشاء في تلك الأمسية الأولى .

(٦)

انقضى عام على ميخائيل وهو يساكن مدربه سمعان ويشتغل معه . ولقد ذاع صيته وحمل القاصي والداني ذكره في القول بأن ما من أحد يستطيع أن يبارى ميخائيل عامل سمعان بجودة ما يصنع من أحذية . وعلى هذا قصد الناس سمعان من جميع الأطراف في تلك المنطقة لشراء الأحذية فحسن معاشه ودرت عليه الدنيا .

ففي يوم من أيام الشتاء الباردة بينما كان الإثنين في عملهما سرت بالكوخ عربية تجرها جياد ثلاثة على إحدى مركبات الجليد وفي أعناقهما الأجراس ، فوقفت عنده ، وحال وقوفها قفز منها غلام ظريف وبادر إلى فتح بابها مستقبلاً سيده النبيل ، فنزل منها هذا متدثراً بفروه الفاخر ، وخطا متهادياً نحو الكوخ ، وإذا شاهد الأهل ذلك أسرع (مثريونا) إلى الباب تفتحه على مصراعيه ، دخل الشريف ، ولما قارب المجاز أحنى رأسه لئلا يمس السقف ومشى حتى وصل إلى غرفة العمل .

نهض إليه سمعان وحياه وهو يحدق فيه بدهشة لأنه لم يكن قد شاهد مثله ، فلقد كان هو وعامله ميخائيل نحيفين هزيلين وكذلك (مثريونا) التي كانت نحيلة رقيقة كالعظم . أما هذا الرجل فكان وكأنه من سكان عالم ثان ، بديناً أحمر الوجه غليظ الرقة أشبه برقبة الثور ، وبدخوله كاد يملأ طرف الغرفة لضخامته وقد وقف يحماق جملة كما لو كان قد في قالب من حديد .

نفخ الشريف في فضاء الغرفة ونزع عنه رداءه ثم جلس على المقعد وقال :
من منكم صاحب العمل .

قال سمعان وهو يتقدم : هأنذا يا صاحب العزة .

عندها نادى الرجل غلامه : أى (فيدكا) ناولنى الجلد .

فأسرع الغلام إلى العربة وعاد إلى سيده بطرد مقفل ناوله إياه بعد فتحه
فأخرج النبيل منه قطعة من الجلد وعرضها لسمعان — انتبه إلى — هل ترى
هذا الجلد ؟

— نعم يا سيدى .

— ولكن أتعلم ما نوعه ؟

نجس سمعان الجلد بيده وأجاب : نعم إنه جلد طيب .

— ماذا ؟ أيها الأخرق ! . ألم ترمثله في حياتك . إنه ممتاز حقاً وهو من

الجلود الألمانية وقد كلفنى مالا يقل عن أربعين درهماً .

وجل سمعان وقال : كيف أستطيع وأنا في مكانى هذا أن أشاهد أمثال

هذه الجلود .

— هذا صحيح ! والآن أخبرنى هل في إمكانك أن تصنع منه حذاء مقبولا

أرتديه ؟

— نعم يا صاحب العزة .

— أتقول نعم ! تذكّر ثمن الجلد واعلم لمن تصنع الحذاء ، أريده متيناً لا يبلى

ولا يتغير شكله لمدة سنة كاملة ، فإذا كنت قادراً على صنعه بهذه الصورة فهناك

الجلد وفصله وإلا فأعلمنى ، والسجن من ورائك إن لم يتم صنع الحذاء وفقاً

للشرطين السابقين . أما إذا كان كما أريد فسامحك أجرة نقدية لا تقل عن

عشرين درهماً . ذعر سمعان من التحذير ولم يعد يعرف ما يقول ، فالتفت إلى

ميخائيل ووكزه بكوعه واستفهم هامساً ، فأشار له هذا برأسه إشارة القبول .

واستعد سمعان لأخذ القياس ، فتناول ورقة طولها (١٧) أنجا وسواها ومسح يديه بأذيال مئزره لئلا تتسخ منها ملابس الرجل ثم انحنى على القدم ، فقاس النعل وظهر القدم عرضاً وطولاً ووصل أخيراً إلى مدار الساق . عندها وجد أن الساق كانت أثخن من دعامة ، وأن الورقة قصيرة لاتفي بالمرام ، فبادر تَوّاً إلى وصلة يلحقها بها واستأنف عمله .

— انتبه جيداً لئلا يضيق الحذاء بقدمي . قال النبيل ذلك وأجال بنظره في الغرفة فأبصر ميخائيل .
— ومن لك هذا .

قال سمعان وهو يلتفت إلى وراء — هو عاملي وهو الذي سيقوم بخياطة الحذاء .

وما سمع الرجل ذلك حتى ذهب مذكراً العامل بمطاليبه ومؤكداً عليه شروطه إلا أن ميخائيل كان معرضاً عنه ، إذ قد أشاح بوجهه إلى الزاوية التي جلس حيالها النبيل وانصرف يتطلع إليها وإذا بحياه يضيء فجأة ويبتسم .
اتهره الشريف : علام تكسر أيها الأحق . أما كان الأفضل أن تستمع إلينا ليكون الحذاء جاهزاً في الوقت المطلوب .
أجاب : نعم سيكون جاهزاً في الوقت المعين .

ونفض الرجل من مجلسه وكله فخر وخيلاء . وفي أثناء خروجه فاته أن يثنى رأسه ، فصدم السقف ، ولذا راح يدعك قنته ويولول ساباً ، ثم لم تمر لحظات حتى شوهدت العربية تجري به مسرعة في طريقها إلى الأمام .
قال سمعان : ها كم مثلاً من الرجال لاتهلكه مطرقة ، لقد ضرب رأسه السقف فما شعر بالألم .

فأجابته (متريونا) : لم لا يكون قويا وهو يعيش كما يشتهي . إن الموت نفسه لا يجروؤ في اعتقادي أن يضرب مثل هذه الصخرة العاتية .

(٧)

قال سمعان : والآن يا ميخائيل لقد أخذنا العمل فعلينا بالاهتمام لئلا يصيبنا ما نكره ، إن الجلد ثمين والرجل حاد المزاج فالخذار من الخطأ ، تقدم نحوى إن بصرك أحد ويدك أخف فهناك القياس والجلد واشرع بتفصيله . أما أنا فسنأهني لك خياطة الوجه .

صدع ميخائيل بالأمر فاستلم الجلد ونشره على الطاولة وثناه طيتين ، ثم تناول المقطع وبدأ يقص . كانت (مترىونا) فى هذا الوقت واقفة بجواره تراقبه فاستولى عليها العجب مما يصنع ، وهى التى اعتادت بالمشاهدة معرفة تفصيل الأحذية . إنه الآن يقصّ الجلد بهيئة مستديرة خلافاً للعادة ، أعله يتبع أصولاً خاصة بتفصيل أحذية النبلاء . هو أدري منى ولا شك ، وإنى لأرى فى الاعتراض كبير فائدة وليس من المستبعد أن يعتبر تدخله فى شئونه تطفلاً .

فرغ ميخائيل من التفصيل وبدأ بالخياطة ولكن لا من الطرفين كما تحييط الأحذية عادة بل من طرف واحد كما تحييط الأخفاف . زادت حيرة المرأة ولما نزل راغبة عن التدخل أما هو فقد ثابر على عمله حتى الظهر وحينما نهض سمعان للغذاء وقع بصره صدفة على الخلف . تأوّه بادية ذى بدء وصار يتمم هامساً : كيف ذلك ؟ أيقترف ميخائيل مثل هذا الخطأ الفظيع وقد قضى معي طوال عام مديد . ألم يطلب منا القيام بعمل حذاء متقن له حواش وأطراف . وما ترانى أقلب ييدى الساعة . حقاً إنه خف بنعال واحد ، لقد أتلف الجلد دون ريب فماذا سأقول للرجل وكيف أستطيع تعويضه بجلد آخر من نوعه .

وهنا صاح سمعان مستنكراً : ميخائيل ويلك ماذا عملت ! لقد قضيت على لا محالة ما بالك ! ألم تع وصية الرجل .

وهكذا انهال سمعان باللوم على عامله وزاده تعنيفاً وتقريعاً . وهم فى ذلك سمعوا المرأة تقول :

صه ! إننى أسمع طرقاً على الباب . عجباً من يكون هذا الطارق .
أدار السكل وجوههم نحو الشباك وحدقوا مجفلين : إنه فارس ملهوف جاء
إليهم مسرعاً وهو ينقر حلقة الباب . فبادروا إلى الفتح وإذا بهم أمام غلام
السيد النبيل .

قال : نهاركم سعيد .

فأجاب سمعان : نهارك سعيد . ما الخبر .

قال : بعثتنى سيدتى لأمر يخص الخداء .

قال : ما به .

قال : لأن سيدى لم يعد بحاجة إليه . فقد مات .

قال : ماذا تقول ؟ هل هذا ممكن ؟

قال : لم يعش ليصل حياً إلى القصر . إنه مات بعد أن فارقكم وهو فى العربة .
فأما وصلنا أسرع الخدم لاستقباله غير أنهم فوجئوا به متصلباً كالخشب مما شق
عليهم سحبه ثم تقلب بأيديهم كالغرارة . وعلى هذا بعثتنى سيدتى قائلة :
إن سيدى لم يعد بحاجة إلى الخداء لأنه مات وعليكم القيام بعمل خف للجثمان
يدلاً منه . وأوعزت إلى بالانتظار ريثما يتم .

صعق سمعان وزوجه للخبر فوقفا واجمين . أما ميخائيل فقد تناول الخف
ومسحه بمنزله ولف بقايا الجلد بخيط ثم سلم السكل للغلام الذى أخذه وراح يمتطى
جواده شاكراً مودعاً .

(٨)

مضت ستة أعوام وميخائيل لا زال يساكن صاحبه سمعان بنفس ما عرف
عنه من أطوار . لم يكن يرتاد مكاناً غير بيته ولا يتكلم إلا عند الضرورة .
وما ابتسم فى هذه المدة إلا مرتين : الأولى عندما أحضرت (ماريونا) له العشاء

في أول يومه ، والأخرى عندما كان النبيل في الكوخ وهو يوصي له على حذاء متين . فارتاح سمعان لهذه الخصال وازداد لعامله حباً حتى أصبح يخشى فراقه وعليه فقد كبت فضوله في التساؤل عن حقيقته لئلا يخفو أو يعتزل .

وجاء يوم اجتمع فيه لعيف العائلة ، كان ميخائيل وسمعان دائبين في عملهما وكان الأولاد يلعبون حول المقاعد ويترا كضون متطلعين من هذه النافذة إلى الأخرى أما (ماريو) فقد ذهبت واضعة في الفرن برمة الطعام الحديدية . مرت لحظات على هذا المشهد الممتع وإذا بأحد الأولاد يسرع متجهاً نحو ميخائيل فينحني على كتفه ويطل على الطريق من خلال النافذة المجاورة ويصيح . انظروا يا عم ! تلك سيدة مع صبيتين أظنهم قادمون إلينا . انظر إن الصبية الثانية عرجاء ، أليس كذلك . اتجه ميخائيل إلى حيث أشار الصبي . اتجه بلهفة حادة أثارت في نفس سمعان كل الدهشة والاستغراب لأنه يرى من عامله اليوم ما لم يأنس مثيله طيلة هذه السنوات فقد راح يلتصق بالنافذة ويتفرس محملاً بالقادمين . ترى ما شأنه بهم ؟ التفت سمعان بدوره إلى الطريق فإذا بسيدة ظريفة تقود صبيتين ترتديان من الثياب أفخرها وهما متشابهتان غير أن إحداها كانت تضلع في مشيها إلى جهة الشمال مما يدل على أنها كسيحة بساقها اليسرى . إنهم حقاً يقتربون من البيت . وهاهي قد وصلت فرفعت مزلاج الباب ودخلت تتبع الطفلين .

— نهاركم سعيد أيها الأخيار .

فأجابها سمعان — تفضلي . ماذا تأمرين .

جلست المرأة أمام الطاولة وقالت مشيرة إلى الصبيتين الواقفتين بقربها كالوجلتين . هل لي أن أحصل لهاتين على أحذية جلدية خاصة بموسم الربيع . قال : لم يصادف مطلقاً أن قنا بعمل أحذية صغيرة قبل هذا ولكننا مع ذلك مستعدون لإجابة الطلب . إن عاملي ميخائيل هو الماهر بهذا النوع من الأحذية ولما التفت إليه وجدته لا زال يحرق بالصبيتين كأحد المعارف . نعم إنهما جميلتان

وظريفتان ، غير أن ذلك لا يستدعى كل هذا الاهتمام ، وإذا لم يفهم للأمر أنثى
تعليلاً أو تفسيراً أعرض مضطراً واسترسل في الحديث مع المرأة حتى حسم الأجرة
وأحضر القياس ، فاحتضنت المرأة صبيتها العرجاء وطلبت منه أن يأخذ القياسين
عليها فيعمل حذاء واحداً للرجل الكسيحة وثلاثة للقدم الأخرى ، وذلك لأن
الصبيتين توأمان .

قال سمعان : يا لها من طفلة جميلة . ماذا حدث لها حتى أصيبت بساقها فهل
ولدت وهي على هذه الحال .

قالت : كلا ! أمها حطمت ساقها .

فانبرت (ماريو) متدخلة وقد تملكها الدهشة : ألسنت أنت أمها إذن ؟ .

قالت : لا يا عزيزي ، إنني غريبة عنهما وقد تبنيتهما .

قالت : أصحيح ما تقولين ؟ . ولكني أراك ولوعة بهما إلى حد بعيد .

قالت : كيف لا أكون مغرمة بهما وقد أرضعتهما بشدي هذين . رزقت
طفلاً أماته الله قبل سنوات لم أكن أحبه كحي لهما تين .

قالت : وإذن فمن تكن أمهما ؟

(٩)

استعدت المرأة لسرد كامل قصتها — لقد توفي أبواهما منذ ستة أعوام في
أسبوع واحد فقضى الأب نحبه يوم الثلاثاء بينما ماتت الأم يوم الجمعة التالي . إن
هذين اليتيمين ولدا بعد وفاة الأب بثلاثة أيام وعندها ودعت الأم دنيها . كنت
أعيش وزوجي كزارعين في القرية وكانت حظيرتنا بجوار مسكنهم . أما أبوها
فقد كان رجلاً وحيداً يمتن صناعة قطع الأخشاب في الغاب فصادف يوماً أن
سقطت عليه شجرة هائلة بعجت بطنه فحمله رفاهه إلى البيت ولكنهم لم يقاربوه
إلا ولفظ الرجل أنفاسه الأخيرة . في ذلك الأسبوع عينه أحسست الأم بدنو الطلق
وجاءها المخاض فولدت هذين التوأمين وهي بعيدة عن كل أحد . مسكنة تلك

الأم فقد كانت وحيدة كما كان زوجها إذ لم يكن لها من صغير أو كبير يساكنها فولدت وحيدة وماتت وحيدة . جئتها صباح اليوم التالى أزورها فرأيتها مائة متيِّسة وقد انقلبت على هذه الطفلة وسحقت بانقلابها ساقها . واجتمع أهل القرية فحملوها وغسلوها وواروها التراب ثم حاروا بما يصنعون باليتيمات . أما أنا فقد كنت المرأة الوحيدة فى تلك القرية التى تحتضن طفلا فى ذلك الحين إذ كنت أضع طفلى البكر ولما يمض على ولادته ثمانية أسابيع . قالوا : مارى ! هلم واحفظى بالطفلين إلى أن ندير أمرهما . فامتثلت طائعة فأرضعت هذه فى البداية دون الكسيحة ظنا منى أن الثانية سوف لا تعيش ولكنى سرعان ما ثبت لرشدي إذ شعرت بأننى أقسو على بريئة دون ما سبب فبادرت إلى إرضاعها مع أختها . وأنا آنئذ شابة قوية أتناول من الطعام أجوده وبذا وهبى ربي لبنا وافرأ إلى درجة أنه كان يطفح أحيانا ويسيل . فكنت أضع اثنين فى آن واحد وأدع الآخر ينتظر دوره وهكذا كنت أناوب الثلاثة إلى أن جاء أمر الله (ولا مرد له) فشب هذان وعلق بابنى حمامه ولما يبلغ السنتين من عمره . إنفا فى يسر والحمد للمنع فزوجى عامل فى طاحونة الحبوب وأجوره طيبة ومع هذا ورغم كل المحاولات والحنين لم نرزق بعد ذاك بطفل . وإذن فكيف لا أولع بهذين وهما بهجتى فى الحياة . إننى أنا نفسى أمهما الرءوم . وفى الحال ضمت المرأة الصبية الكسيحة إلى صدرها وأخذت ترصها رصا بينما راحت تمسح عن عيون الأخرى دموعها السائلة وتربت على كنفها .

تأوهت (ماريو نا) للحديث الشجن وقالت : صدق المثل — يستطيع الإنسان أن يعيش بلا أم أو أب ولكنه غير قادر على أن يعيش بلا رب . ثم أخذوا يتذاكرون فما رأوا إلا والكوخ يسطع بنور زاه كنور الصيف ينبعث من الزاوية التى جلس عندها ميخائيل فالتفتوا إليه فإذا به متربع يصابل يديه على ركبتيه وهو يرنو إلى سمائه ويتنسم .

(١٠)

وما انصرفت المرأة مع الطفلين حتى همّ ميخائيل قائماً فنزع عن صدره المنزر
وانحنى لسمعان وأهله ثم قال : أحبّاي ، لقد غفر لي ربي خطيئتي وإني مودّعكم
فاعفوا عني واقراء مني السلام . بهت سمعان للنداء فهض إلى الرجل ليرى بالخبر
وإذا به أمام وجه يشع بالنور ويشرق بالضياء — ميخائيل . . ماذا . . ميخائيل . .
إنك ولا شك لست من الناس في شيء ، إني أراك بحال جديد ، ويقىني أنتي
أضعف من أن أقوى على ردّك أو أصل إلى حقيقتك ، إن كل ما أبتغيه يا ميخائيل
هو أمر واحد فهل لك أن تكشف لي قبل الفراق عن سرّه وترينيني — لقد
صحبتك إلى بيتي أثر لقائنا الأول وأنت مكفهر عابس فلما أحضرت زوجي لك
العشاء راق وجهك وابتسمت . وحينما قصدنا النبيل يوصي لنفسه على حذاء ميتين
ذكت ملاحك وابتسمت . والآن إذ أتمت المرأة قصتها عن حياة الصبيتين أشرق
وجهك كفلق الصبح وابتسمت . أخبرني يا ميخائيل لم ينير وجهك بهذا الشكل
البديع ولم ابتسمت في المرات الثلاث ؟ هلم بربك فما أنا صابر بعدك على جهله .
قال : علّة ذلك رضا الله عليّ وغفرانه لمعصيتي . لقد أمرني أن أتعلم حقائق
ثلاث أستقصيتها بعد عناء وجهد فناء كل في وقته ونلت الساعة على ما أروم .
قال : — وما سبب العقوبة يا ميخائيل وهلاّ علمتني تلك الحقائق الثلاث
وأرشدتني .

قال : لقد كنت ملاكاً فعاقبني ربي إذ عصيته ، بعثني لأحضر إليه روح
امرأة فهبطت الأرض وجبّتها فوجدتها مريضة ممدّدة في فراشها وهي تعاني آلام
الوحدة والحرمان ، وبقرها توأمان ولدتهما قبل فترة من الزمن ، كانا إلى جنبها
يتحركان بوهن ولضعفها لم تستطع أن ترفعهما إلى صدرها لإرضاعهما ، شاهدتني
فأدركت ما جئت إليه فبككت متضرّعة متوسّلة — أي ملاك الرب الرحيم ! لقد

دفن أبوها منذ أيام هالكاً بحادث مشؤوم إذ سقطت عليه شجرة في الغاب لم يلبث بعدها حتى مات . أما أنا فكما ترائى لا أم لى ولا أخت ولا قريب ممن يعين ويعول هذين الطفلين . لا تمتنى دعنى أَرْضعهما حتى يدرجا لأن الأطفال لا يقدرّون على الحياة بلا أم أو أب . أصغيت إليها ورفعت أحدهما إلى ثديها بينما رحّت أضع الآخر في ذراعها . ثم عدت إلى سمائى وناجيت : إى ربى جل جلالك ! إننى لم أجروّ على إحضار الروح إليك ، فالأم مريضة وقد هلك زوجها منذ أيام وجاءت منه بعد أن فارق الدنيا بتوأمين وعلى هذا طلبت منى إمهالها حتى يدرجا ، فالأطفال — كما تدعى — لا يستطيعون الحياة بلا أم أو أب .

عندئذ أجابنى ربى : اذهب بما أمرتك به ولا تعصنى ، واعلم أنك سوف لا تعود إلى سمائك ولا تقبل توبتك إلا بعد أن تستقصى حقائق ثلاث تجهلها :

تعلّم ما يمكن فى الإنسان ، وتعلّم ما لم يوهب له ، وتعلّم بم يعيش الناس .

عدت إلى الأرض ثانية وأدبت ماعلى ، ولما انتزعت الروح سقط الرضيعان من على صدرها وانقلبت جثتها على أحدهما فسحقت ساقه . أما أنا فقد حاولت أن أطير بالروح من على هضبة عالية تشرف على القرية ، ولكن ريحا عاصفة ردتنى عما أنشد حتى خارت قواى وذبل جناحى فسقطت على الأرض كالإنسان . إذ ذاك حللت عالماً جديداً بخلق جديد ، بينما كانت الروح ترتفع بمفردها فى طريقها إلى مشاها الأخير .

(١١)

طاش السرور بسمعان وأهله حينما علما حقيقة من لاذ بهم فسالت من عيونهم دموع الفرح والرغبة وظلا صامتين يرهفان إلى صوت الملاك العذب : — لقد أصبحت وحيدا فى العراء أفاسى آلام البرد والجوع ولم أكن لأعرف حاجات البشر أو أشعر بشعورهم حتى أصبحت إنسانا ومع هذا فلا زلت أجهل

التدبير . وأنا كذلك وإذا بى الملح عن بعد معبدا شيد لله فى القفر فيمته آملا أن أجد عنده المأوى والقوت وإذ دنوت منه وجدته مقفلا لا أستطيع النفوذ إليه فسقط فى يدى ورحت أقبع خلف جدرانه اتقاء الريح . حل المساء على عجل فلم أحتمل شدة العذاب لأن البرد أخذ يلحّ بعنف . ولكننى فوجئت برجل يغذّ السير فى منعطف الطريق يحمل بيده زوجا من الخذاء اللبأدى . نظرت إليه من بعيد فأبصرت برؤياه لأول مرة منذ أن صرت بشرا وجه الإنسان غير الخالد — فراعنى منظره وأغضيت عنه . كان الرجل يحدث نفسه مغمما وسمعته يشكو من زمهرير الشتاء ومن تكاليف العيش لنفسه ولأهله فأغرقتى قوله فى بحر من الخيبة لا قرار له وأشفقت على نفسى من الهلاك كيف لا وإنى أمام إنسان لا يفكر قط إلّا بالتوب والخبز وأنا كما تعلمون . وهو حينما رآنى . عبس وتولى فزعا وكف عنى يد المعونة وبذا أمسى مرعبا بأبشع مما كان . هنا كاد اليأس يقضى علىّ لولا أن عدل الرجل عن عزمه بغتة فرجع إلىّ يريد إسعافى ومساعدتى . ولما اقترب حدّقت فيه فلم أعرف فيه الرجل الأول لقد كان ذلك قبيح الوجه يحوم حوله الموت أما هذا فقد كان نضر الوجه تنعشه نسمة الإله . وبادرتوا إلى إكسائى بأقصى ما يستطيع ثم قادنى إلى بيته . وبينما كنا نهم الدخول تلقننا زوجة غاضبة نائرة فكانت بذلك أفضع شكلا وأروع منظرا من الرجل العابس . وإذا كانت تتكلم شممت رائحة الموت تنبعث من فمها متصاعدة كال دخان فأوقفت تنفسى لأتقى بخر الموت المتن الذى انتشر حولها . وكان ما كان مما أسكن نائرها وأثلج فؤادها فقامت إلى الطعام تعدّه إلينا ولما أحضرته وأشفقت علىّ كان الموت قد تلاشى منها ودبت فيها الحياة من جديد فنظرت إليها وإذا بى أرى الله كامنا فيها . فى تلك الساعة تكشّفت لى الحقيقة الأولى التى وجّهنى ربى لاستقصائها فعلمت : — أن ما يمكن فى النفس البشرية هو (المحبة) وفرحت لأن الله وعدنى فصدق وعده وعلمنى ما أجمل فكانت ابتسامتى الأولى .

وتصرمت أيام وإذا بسيد جليل يزورنا يوصي له على حذاء متين لا يبلى مدة عام وفاته وهو يتكلم بخيلاء وغرور أن يرى كما كنت أرى دون غيرى رفيق ملاك الموت منتصبا وراءه فأدركت أنه مقبل على إزهاق روحه عند الغروب وحينئذ عجبت من طمع الإنسان الذى يجهد ويأخذ أهفته لعام بينما يجهل مستقبله القريب فى تلك الساعة أيضا تكشفت لى الحقيقة الثانية التى وجهنى ربى لاستقصائها فعلمت — أن ما لم يوهب للإنسان هو المعرفة لتقدير ما يحتاجه وفرحت أولا برؤية صاحبي ولأن الله وعدنى فصدق وعلمنى ما أجهل فكانت ابتسامتى الثانية . وبقيت صابرا أنتظر معرفة الدرس الأخير حتى إذا انقضت ستة أعوام قصدتنا امرأة مع صيبتين فعرفت بهما تينك اليتيمتين . وعندما قصت المرأة قصتهما تذكرت قول الأم وهى تتضرع إلى أن أبقى عليها لأن الأطفال لا يستطيعون العيش بلا أم أو أب فما كان منى آنئذ إلا أن أصغيت إليها وصدقتهما . أما اليوم فأماى طفلها وقد شبا على أحسن حال بتأثير عاطفة الحنان فى قلب امرأة أخرى غريبة عنهما . وإذا رأيتها تمنحهما من الحب والرفق ما كان يملأ قلب الأم الرحب الرقيق نظرت وإذا بى أرى الله كامنا فيها . وفى تلك الساعة أيضا تكشفت لى الحقيقة الثالثة التى وجهنى ربى لاستقصائها فعلمت — بم يعيش الناس وفرحت لأن الله وعدنى فصدق وعلمنى ما كنت أجهله وقد غفر لى فكانت ابتسامتى الثالثة .

(١٢)

ورأى سمعان وأهله الأمر العظيم — لقد تعري ميخائيل من أثوابه وأحاطت به هالة من نور ساطع حجبته عن الأعين بينما ظل صوته الملائكى مسترسلا :
(تعلمت أن الناس يعيشون بالحب والبر وليس بالأناية والحرص) .

فتلك الأم لم توهب المعرفة لتقدير ما يحتاجه أطفالها للحياة وذلك النبيل لم يوهب المعرفة لتقدير ما يحتاجه لنفسه كما أن أى إنسان آخر لم يوهب المعرفة لما

سيحتاج إليه في مسائه القريب إلى حذاء يرتديه أو إلى خف يربط بجثمانه .
ولقد عشت حياً كإنسان لا بعناتي أو بتديري بل بتأثير المحبة التي أفاضها
على قلبي رجل وامرأة ، وعاش اليتيم وترعرع واشتد ساعدهما لا بعناية الأم أو عطف
الأب ولكن بتأثير المحبة التي أودعها الله في قلب امرأة غريبة ، وكذلك الناس
طراً فإنهم لا يميون بتديريهم ولكن بتأثير (المحبة) التي تفيض في قلوب الناس .
كنت على علم بأن الله وهب الحياة للناس وأمرهم بأن يعيشوا في دنياهم .
أما اليوم فقد ازددت على ذلك علماً وهو أن الله لم يطلب من الناس أن يعيشوا
فردى متفرقين بحيث يظنون جاهلين حاجة كل منهم لنفسه ، بل أرادهم أن
يعيشوا متضامنين بحيث يكون كل منهم على علم بحاجة المجموع .

رويداً ! أيها الناس ، لقد أضاء الصبح وخاب ظنكم في القول بأنكم
تعيشون بتديركم ، إنكم لا تعيشون إلا بالمحبة ، فمن ملكها منكم كان مع الله
وكان الله معه ، لأن الله هو المحبة .

وعندها بدأ الملاك يسبح الله وينشد للمكوتة بإيقاع مؤثر اهتز له فناء البيت
ثم انكشف السقف عن كوة مرق منها إلى السماء لسان من الالهيب ، فخر
سمعان وأهله على الأرض ساجدين . ولما رجع سمعان إلى نفسه لم يجد حوله
غير أهله وأولاده والكوخ قائماً كما كان منسجماً البناء متماسك الأركان ،
تجواب حوله أصداء ذلك الصوت العذب وهو يقول « المحبة » .

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

الأَرْجُوزَةُ الْغَزَلِيَّةُ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

شَكْسِيرُ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

رَبِّهِمْ بِبَيْتِهِمْ بِبَيْتِهِمْ

الشيب الموقر والشباب الطائش

عدوان لا يجتمعان

فالشباب مملوء بالأفراح

والشيب مملوء بالرزانة

الشباب كفجر الربيع

والشيب كطقس الشتاء

الشباب له بسالة الصيف

والشيب عرى الشتاء

الشباب مملوء بالأفراح والأرواح . أما الشيب فمملوء بالأتراح وقصر النفس

الشباب رشيق بحركته والشيب أغرج بمشيته

الشباب حار وقوي والشيب بارد وضعيف

الشباب نافر ، أما الشيب فأليف

فأنا أبغضك يا شيب وأعبدك يا شباب

آه ! حبي ، فإن حبي حديث السن

وابتعد عني أيها الشيب فإنني أسخر منك

آه ! تعال أيها الراعي المحبوب وأسرع نحوي

لأنني أراك قد أطلت البقاء بعيداً .

كِسْرَةُ الرِّغِيفِ

للكاتب الرومى (ايوتولستوى)

وهو حينما شرع يحول نعم الله عليه
إلى (خمرة) ثارت في نفسه نزوات
المجود فضل عن سبيل الحق .

في صبيحة يوم صافى الأديم خرج فلاح إلى الحقل للحرثة وهو يحمل معه
فطوره الذي لم يزد يومئذ على كسرة من الخبز . ولما أن وصل إلى المكان انتزع
معطفه ولف فيه زاده ثم أخفاه تحت لثة من الأعشاب وراح تَوَّأ إلى عمله بنفس
مطمئنة قانعة .

ومضت فترة من الزمن أحسَّ الفلاح بعدها بالجوع وأدرك دابته النصب
فاضطر إلى إيقافها وإطلاق سراحها للرعى والراحة . أما هو فقد قام بتثبيت الحراث
في موضعه واتجه صوب الحُبَّاء يريد أن يتزوَّد بكسرة الرغيف يملأ بها طاوى بطنه .
تناول المعطف وتلمَّسه بيده فلم يجد ما كان ينشد فبهت في الحال ووقف
هنالك مشدوها . أخذ يقلب المعطف ذات اليمين وذات الشمال وينفضه المرة بعد
المرة ولكنه لم ير بغيته . واندفع يفتش في المكان بكل دقة وهو يحاول العثور
على كسرة الخبز ولكنه عاد خائباً وذهبت جهوده أدراج الرياح .

وانتابته حيرة شديدة إذ لم يستطع تفسير ما وجد على وجه مقنع وهو في حال
من الدهشة واقف يتمتم — حقاً إن هذا لغريب إنى لم أشاهد أحداً يقترب من
الحقل وإلا لأبصرته يقيناً . ومع هذا فلا بد أن يكون قد امتدت إلى قطعة الخبز
يد مجهولة لإنسان أو حيوان .

وقد أصاب ظنه لأن اليد الأثيمة التي حرمتها من كسرة الرغيف لم تكن
إلا يد (الشيطان) فقد تسلل هذا إلى الحقل والفلاح يلهو بعمله وجاء إلى موضع
الزاد فسرقة ثم أسرع مختفياً وراء الأدغال قابعا يتلصص وهو يسترق السمع إلى
المسكين لسمع ما يفوه به بعد أن يستولى عليه الغضب والتأفف من سب وشتم
لإبليس اللعين فيروح ضاحكاً ساخراً لهذا الإنسان الذي أخرجه من دائرة
العقل والرضى .

ولقد خاب ظنه فيه لأن الرجل كان أكثر دعة واطمئناناً مما تصوّر فهو بالرغم

من شدة أسفه على افتقاده لفظوره لم يتبرّم بل صبر محتسبا وأخذ يقول : وما حيلتي فيما وقع . لا شك أن ضياعي لها سوف لا يؤدى بى إلى الهلاك . ولا بد أن يكون الجانى بأمس الحاجة إلى الطعام فليأكل خبزى هنيئاً مريئاً .

ونفض من فوره إلى بئر قريية فى الحقل يستقى منها جرعة من الماء استراح بعدها لمدة قليلة ثم عاد إلى دابته يشدّ عليها عدتها وكرّ إلى العمل ثانية وهو يكلف جسمه الضعيف مالا يطيق .

وحزّ فى نفس الشيطان أن يفشل فذلت أخادعه وجرّض بريقه لأنه لم يستطع أن يقود هذا الآدمى إلى الخطيئة . فتولّى مستخدماً إلى سيده (إبليس) يعرض عليه الحال ويسترشده الحل .

وجاءه يشرح إليه بأسباب كل ما جرى ويذكر فشله فى جرّ الفلاح إلى الإثم والغواية ، فغضب إبليس من قوله وصاح فى وجهه :

إذا كان الرجل قد استفاد منك فذاك لأنك أخطأت التدبير ولم تقلح فى توريطة بالحيلة ، وما من شك أننا سنفقد الزمام إن وجّه الفلاحون وأبناءؤهم على هذه الشاكلة . أما الآن فيجب أن لا تترك القضية على وضعها وعليك تدبير الأمر فى الحال . ذد عنك الجهل واردد عما استولى عليك من غفلة وعد إلى الرجل مرة أخرى وتصرف بما يليق ، وسأمهلك سنوات ثلاث أريد أن تأتبنى بعدها بما يرضينى وإلا دفعتنى إلى تعميدك فى الماء المقدس .

ارتعد (الشيطان) خوفاً من هذا الزجر والتهديد ، فخرّ إلى الأرض متثاقلاً وهو يفكر فى الأسلوب الذى ينتهجه ليفتدى به جريته . وأخيراً وبعد جهد طويل توصل إلى الحل المقنع .

فقد راح يتقمص بهيئة أحد العمال الفقراء وتقدم إلى صاحبه وهو يعرض عليه خدماته بكل خشوع واحترام . وكيف لا يفرح بالعون الجديد وقد اشتد به مساعدته على العمل النافع المجدى .

ففي العام الأول من التعاقب بخدمة الفلاح أشار عليه بنصيحة كان لها الأثر
الحسوس في النتيجة وهي أن يستهل زراعة القمح في ذلك الموسم في أرض مستنقع
وما كان من الرجل إلا أن أصغى إليه لعله أنه عون صادق الود لمخلص في النصيحة
وإذا بالعام يقبل جديباً محرقاً قضى على أكثر المحاصيل العائدة لبقية الفلاحين
في تلك البقاع . أما حاصل الرجل فقله كان على العكس نامياً نمواً مفرطاً حتى
امتلات منه السنابل بالحبّ الكثيف الريان وبذا أعطى أكله ضعفين بدرجة
أن فاض المنتوج عن الحاجة إليه طول العام بكميات هائلة .

وفي العام المقبل أشار عليه بنصيحة أخرى وهي أن يبدأ بزراعة الحنطة
في موسمها الجديد هذا على ظهور التلال المرتفعة أى بعكس ما قام به في السنة
المنصرمة ، وما كان من الرجل إلا أن يفعل ، وإذا بالصيف يحل مرطباً ندياً فأتلف
محاصيل بقية الحقول بنتيجة التعفن الذي أصاب كافة المزروعات من جراء تلك
الرطوبة الزائدة ، وبذا نقصت الغلة كثيراً بناء على قلة ما جادت به السنابل من
حبوب

أما صاحبنا الفلاح فقد كان يتمتع بحاصل من النوع الممتاز درّ عليه من الخير
ما لم يعهده من قبل بحيث عاد وهو لا يعلم ما يفعل به .
وهنا وفي وسط هذه الحيرة المقلقة تقدم العامل الى سيده بمشورة مبتكرة .
قال له : أشّر علىّ .

قال : تعال أدلك على شيء خطير تفيد منه ، ابدأ من الآن بهرس الحنطة
الزائدة واستقطر من الهريس الكحول على النهج الذي أدر بك عليه ، وسترى
مبلغ الأرباح فيما بعد .
قال : حسناً سأفعل .

وهكذا انصاع الرجل إلى القول للمرة الثالثة دون أن يدرك خطورة العمل
الذي سيقدم عليه ، أو يتفهم حقيقة الشر الكامن فيه ليحذر الفتنة ويتجنب

الفتك والإصابة ، فانساق بضغفه المعهود وبفعل الطمع والغواية إلى صنع الهريس واستخلاص المشروب المسكر ، وإذا به يحصل على نوع قوى من « الجمعة » اللذيذة استطابها كثيراً فصار يشربها ويقدم منها ما يحلو له إلى الأهل والرفاق . وعرج (الشیطان) على سيده (إبليس) مفتخراً بالنتيجة التي توصل إليها ، إذ قد استطاع أخيراً الإيقاع بصاحبه وتوريطه عن طيب خاطر بالسقوط في مهاوى الإثم وحماة الرذيلة .

وافترنغر (إبليس) من الخبر وضحك ما شاء له أن يضحك وأبدى للشيطان شوقه لمشاهدة ذلك بنفسه حتى يرى مبلغ صدقه ويتعرف عياناً إلى الوضع الراهن وحلّ كلاهما في دار الفلاح المسكين وتحقياً في إحدى زوايا المكان وهما يتمتعان بمنظر شهى من مناظر الخبث الذي نشره والسم الذي نثاه .

فقد كان الفلاح يتوسط جمعاً من الضيوف من زملائه الفلاحين الأثرياء ورفاقه المقربين الوجهاء ، وكان قد عقد لهم في ذلك اليوم مجلس شراب عامر هو وزوجه التي كانت للحاضرين الساقى الأنيس والخود الطريف .

وحدث ما كان يجب أن يحدث ، فبينما كانت تحاول المرأة أن تسقى بعض الضيوف ؛ عثرت بالخوان وأراقت على أرض المكان كأساً طافحة .

إن هذه الهفوة جعلت من الفلاح رجلاً غاضباً ثائراً حنقاً وبدأ يعنف المرأة بكلام جاف غليظ ويقول : ألا تلتفتين أيتها العاجزة ! ما أقدرك ، هل ظننت أنه ماء الخندق حتى تريق منه على البلاط دون مبالاة مثل هذه الكمية الزائدة .

فوكز الشيطان سيده (إبليس) منبهاً وقال : تأمل ! إن هذا هو الرجل الذي لم يغضب يوم أن فقد كسرة الرغيف وهو جائع طاوى .

واستمر الفلاح في عدله لزوجته حتى أقالها من منصبها وشرع يقدم هو بنفسه الكؤوس للضيوف . وفي تلك اللحظة دخل على الجمع متطفلاً فلاح فقير ، حياً الجالسين واتخذ له مقعداً بجانبهم ، فرآهم يشربون من خمرتهم المنعشة ، وإذن

فكيف لا يتوق إلى رشف بعض القطرات منها على يبل بهار يقه الناشف وهو العائد من عمل يومه المضنى تعباً قليلاً . وعبثاً حاول أن ينال ما يبتغى من أمل موهوم ، فقد انتظر طويلاً وهو ينظر إليهم مستعظفاً حتى سال لعابه من فمه . وأخيراً انتبه إليه رب المنزل فالتفت إليه صارخاً بجفاء وكبرياء ظاهرين — ما لنا ولك — ليس في الإمكان أن نقدم الشراب لكل طارق متطفل .
وشعر (إبليس) في هذه الآونة بنشوة الظفر لهذه البادرة الخشنة من حفر واله الخفيرة وأطاحوه فيها .

فعاجله (الشیطان) بقهقهة ماكرة خفية وقال : تمهل يا سيدى قليلاً فسترى ما يطر بك أكثر من هذا .

وعبّ الفلاحون الأثرياء ما شاءوا من كؤوسهم المترعة وإذا بهم بعد قليل نشاوى يتجاذبون الأحاديث الطلية والمجاملات الزائفة بكلام لين معسول ، ثم انتقلوا بعد لآى إلى التليفق والمداهنة بكلمات تافهة يتعثر بها الذوق وتطفو على وجهها السماجة والإفك والافتراء .

كان (إبليس) ينصت إليهم بجميع جوارحه وهو يثنى على تابعه ويقول : هذه الخمرة اللعينة إن لعبت برءوسهم بحيث تجعلهم يتبادلون المدالسة والخداع ، فإنهم سيصبحون حتماً في قبضتى .

قال : تريث وانظر إلى ما سياتى ، دعهم يكرعون الكأس الثانية . إنهم الآن نشاوى وهم أشبه بالثعالب تهز أذنانها وتدور حول بعضها ، فإن شربوا هذه الكؤوس الساغية عما قليل فستراهم أشبه بالذئاب المفترسة الجاحمة .

وصدق (الشیطان) فى قولته ، إذ ما اندفع الفلاحون الأثرياء يكرعون ثانى كؤوسهم من تلك « الجمعة » اللذيذة حتى عبثت بعقولهم وأصبحوا (ثمالى) فاحشوشن كلامهم وغلظت أقوالهم وصار كل منهم يعوي فى وجه صاحبه ويكيل له الذم والقذف .

عجباً ! كيف انقضى عاجلاً ذلك الدور من التزلف والتمليق الذى خاضوه حتى إذا ما فات وولى انطلق الشر الحبيس واندفع الجمع إلى المشاجرة والملاطمة .
أما رب المنزل فقد كان في ذلك النزاع الزعيم المحفوظ إذ قد نال النصيب الأوفر من الضرب واللكم المريرين ما كان قد استحق بهما تلك الزعامة الفاضحة .
وفرح (إبليس) بمحالمهم كثيراً وقال لصاحبه : إن هذا لمنظر فريد تستحق عليه الإنعام من الدرجة الأولى .

فأجابه صاحبه على الفور : رويديك ! إن الأدهى من ذلك ستراه فيما بعد ،
انتظر حتى يملأوا من تلك « الجمعة » كأسهم الثالثة ، إنهم الآن أشبه بالذئاب الهائجة ، فإذا ملأوا أجوافهم منها فسينقلبون إلى خنازير . وعندئذ سترى بأمر عينيك ذلك التلاشى الروحي الذى غمرتهم فيه من يوم أن ابتكرت لهم هذه الجمعة .

وصدق (الشیطان) فيما قال : إذ ما كاد الرفاق يجتمعون كؤوسهم للمرة الثالثة حتى أمسى كل منهم سكران طافحاً وانقلبوا بمجموعهم إلى بهائم ثائرة ، أو وحوش ضارية وصاروا يصرخون ويزمجرون لا يدرك أحدهم ما يعمل ولا يصغى إلى ما يقال .

وبدأت الجماعة فى تلك الآونة فى التفكك والانحلال وشرعوا يتسللون إلى الطريق العام فرادى وثنى وهم يترنحون ذات اليمين وذات الشمال . وقد كان رب المنزل أسرعهم عدواً ولكنه ما تجاوز بعيداً حتى سقط فى وحلة كانت على قارعة الطريق فانكب فيها على وجهه وتلوّث بالطين من مفرقه إلى أخمص قدمه وانطرح فيها ممدداً يئنّ ويشخر كالخنزير الهالك .

وارتاح (إبليس) لهذا المشهد الحزن والتفت إلى شيطانه قائلاً — حسناً — لقد أصبت باكتشافك لهذا الشراب الممتاز فأصلحت بعملك هذا جريرتك السابقة . ولكن تعال وخبرنى كيف استطعت أن تهيب هذا الشراب كما هو —

أهلك مزجت فيه في باديء الأمر شيئاً من دم الثعلب بحيث صار يبعث في نفوس هؤلاء الأدميين المكر والنفاق ولهلك أضفت إليه فيما بعد شيئاً من دم الذئب الذي أثار فيهم الكامن من غرائز النفس الشريرة وولد فيهم قساوة القلب وجهود العاطفة وأحالمهم إلى حيوانات ضارية كالذئاب . ولهلك أتممت اكتشافك بأن أضفت إليه مقداراً من دم الخنزير مما كان له المفعول في مسخهم إلى خنازير .

قال : كلا . إن كل ذلك لم يكن . وموجز ما اتخذته من تدبير هو — إكثار دخل الفلاح من الجبوب بحيث فاضت عن حاجته . إن دماء الوحوش كائنة دوماً في جسم هذا المخلوق وهي تمثل ماله من غرائز وشهوات تبقى فيه محجورة مقيدة طالما كان يملك من طعامه ما يسدّ به حاجته وهو ما كان عليه الفلاح عندما لم يبد تدمراً أو تبرماً من كسرة الرغيف الصغيرة . ولكنه ما إن وجد لديه ما يزيد حتى راح يبتدع الأساليب تلو الأساليب للارتفاع بالزائد وقد أرشدته بالفعل إلى تلك المنفعة فكانت (الجمرة) . وهو حينما شرع يحوّل نعم الله عليه إلى كحول للاستئناس والتمتع والركض وراء الملمات ظهرت عليه غرائز الثعالب والذئاب والخنازير — وتخبّط في أزمة نفسية دفعت به إلى الجشع والخلاعة والفساد وهتّت من كيانه وكيان عائلته وثارَت في نفسه نزوات الجحود فضل عن سبيل الله إلى ما شاء الله . وهو لو بقى على هذا الإيمان دوماً لاستحال بحق إلى وحش ضار ولقاسى من العذاب المتصل والألم المقيم ما يربو بكثير على لذته وأنسه .

وهنا أثنى (إبليس) على (شيطانه) الثناء الجميل العاطر وغفر له خطيئته السالفة وقرّبه إليه ورفع من منزلته لديه بحيث جاءت في أعلى منازل الشرف عند هذه المخلوقات الخبيثة اللعينة عدوة بني الإنسان .

الآبَاءُ الزَّائِرُونَ

هنالك أدرکوا أن کل ما ینشدونه

هو الخلوص فی عبادة الرب .

... وصارت الأمواج تتلاطم على جوانب السفينة الوحيدة في ذلك البحر
الخصم وتنقض بشدة على صخور الشاطئ الناتئة .
وأخذت أغصان الأشجار المتعالية في الغابات تجابه العواصف الغضوب
المصوتة .

وألبس الليل الحالك الماء والتلال الرملية ثوبا قاتماً ، تلك التلال التي امتلأت
بالوحوش الكاسرة ، وهي تدب دبيبا وتسرح في الظلمة دون منافس . وقد
حامت حولها أشباح الخوف والهلع .

في ذلك الوقت كانت هناك فئة من بنى الإنسان ملتجئة عند شاطئ انكلترا
الجديد الموحش ، ذلك الشاطئ الصخري المتعرج ، مرسلة أصواتها الكثيرة
في ذلك الفضاء الواسع المدهم .

إنهم لم يأتوا كالفاتح القاهر ، بل جاءوا بقلوب صادقة وأفئدة طاهرة ،
لا بنقرات الطبول الرنانة ، ولا على نغمات الأبواق الموسيقية ، كما أنه لم يكن
محيطهم كجنى الخائف الذليل .

بل تقدموا وهم يشقون ذلك الجو الكثيب ويهزون معمعان تلك البادية
الجرداء بترائيلهم الدينية ، وهتافاتهم القوية ؛ وزفراتهم الحارة .
غنوا وسط الزوابع الشديدة ، فرددت النجوم المتألقة والبحر البعيد ذو المياه
الزرقاء صدى تلك الأنغام .

ودقت أكناف الغاب المظلمة الجلجلة دقات الحرية والسلام .
وحلق نسر المحيط من مكانه فوق الأمواج المزبدة ، مبدلاً بصغيره المزعج
سكون الجو الهادئ إلى ضوضاء دأمة .

وهيمن في الغاب أشجار البلوط الهزاة المترنحة . وتلك كانت خلاصة
عبارات الترحاب التي تقبلتها نفوسهم . هناك بين أولئك الزائرين كان الرجال

يجلسون بشعورهم البيض وملاحمهم المكفهرة ، فلماذا تركوا أوطانهم وجاءوا إلى هنا ؛ أالذبول أم للهلاك .

هناك كانت أعين الأم الجريئة تضاء بنور حبها الصادق العميق .

هناك كانت القلوب متجهة نحو العلا بهدى الحب والحنان ، فإذا كانوا يطلبون من بعيد وهم على تلك الحال . أجواهر بهية يريدون استخراجها من مناجم غنية ؟ أم الثروة من البحار أم الغنائم من الحرب .

لا ! إنهم كانوا يطلبون حرم الإيمان الطاهر من الأرض المقدسة ، هنالك أدركوا أن كل ما ينشدونه هو الخلوص في عبادة الرب .

مَلِكُ الْبَحَارِ الْمَهْجُورِ

م . أرفؤلد

تعالى — يا أمنا واشفقي لخالنا

فكل شيء بعدك يحول اللذة

ألمًا والهناء جحيمًا .

تعالوا يا أولادى الأعزاء ولنسكن بعيدين ، ولنذهب
تحت المياه الوثابة فى البحر العميق
فها أنى أسمع أصوات أتباعى تنادىنى قرب الخليج
وأشعر بالرياح القارسة تهب من على الساحل
لتثير مكامن البحر بالأمواج المزبدة المالحة التى تنخفض تارة وتعلو أخرى
وأرى الخيول البيض تركض فى ميادينها وتتدافع بطرب ونشوة
إذن لنسكن بعيدين يا أولادى الأعزاء ، ولنسلك هذا الطريق ، هذا الطريق

نادوها إليكم قبل أن ترحلوا
نادوها مرة أخرى
بصوت يذكركها بكم قائلين : مرغريت ... مرغريت
فإن أصوات الأطفال لا يألّفها غير قلب الأم
نادوا مرة ثالثة علّها تسمع صراخكم ، فتشفق لأناتكم المرددة مع زفراتكم
الحارة ، وإنى لوائق من أنها ستجيب طلبكم وترجع إلى مقرها
إذن نادوها مرة أخرى وارجعوا بعيدا ، سالكين هذا الطريق ، هذا الطريق

تعالى يا أمنا وأشفقى لحالنا
فكل شىء بعدك يحوّل فينا اللذة ألمًا
والهناء جحيمًا
تعالى ، فقد أخذت الخيول البيض تصهل فرحًا واعتباطًا
آه ... مرغريت ... مرغريت
تعالوا يا أولادى ولنبتعد ؛ دون أن تصرخوا كرة أخرى .

بل تزودوا من المدينة الناصعة وكنيستها الصغيرة القائمة على الساحل الرملي
نظرة وداعية

لأنها سوف لا تأتي إليكم ولو بقيتم صارخين طيلة اليوم
وتقدموا من ههنا... لنبتعد عن ظلال المنازل التي تكظم النفس وتظلم العين.

أولادى الصغار « ألم يكن ذلك بالأمس ». .
حينما كنا نستمع إلى أصوات الأجراس الفضية اللطيفة تدق من على الخليج
تلك الدقات التي رددت صداها الضعيف في أعماق البحار
وكنا نحن إذ ذاك في المغارات الهادئة — البعيدة عن أمواج الشاطئ ورماله
حيث كنا والرياح الساكنة

والأضواء الشحيحة المنعكسة أشعتها هنا وهناك
وكانت النباتات المائية تتمايل على ضفاف المجرى
والحيوانات البحرية المفترسة تتراكم في مرابعها الواسعة طلباً للقوت
والحيتان تتلوى وتسعى بين طيات المياه المالحة الدافئة
وكان الحوت العظيم يسعى في بحار العالم بعيون لا تعرف الغمض
ففتى إذن سمعنا رنين تلك الأجراس وموسيقيتها
ألم يكن ذلك يا أولادى بالأمس — نعم كان ذلك بالأمس .

ألم يكن ذلك بالأمس يا أولادى الأحباء
نادوها مرة أخرى
أجل .. لقد ذهبت عنا بالأمس فتركت لنا القلق نهراً وخلفت لنا الأرق ليلاً
ولم نعد نراها جالسة على العرش الأصفر الذهبي في قلب البحر
نحيطها نحن وابنتها الصغيرة تلعب على ركبتيها الجميلتين

كانت جالسة ذلك اليوم كهاتها — وقد بدت كالحورية الحسنة
فمشطت شعرها اللامع وازينت وظهرت كالبدن السابح وسط السماء
ولكنها سرعان ما أجفلت وتململت عن مجلسها وأخذت تدنى أذنها
من أمواج البحر مصغية إلى رنين ذلك الجرس البعيد القارع قرعاته العالية
وما سمعت الصوت إلا وتنفست سريعا

باعثة تلك النهضة العميقة التي سوف لا أنساها مدى الحياة
شاخصة بعينها إلى الأعلى — مرسله أسهمها القوية بين طيات المياه الكثيفة
ثم قالت : ها أن الأجراس تعلن قرب عيد الفصح في العالم
وسيجتمع الناس في الكنيسة القائمة على الشاطئ لتأدية الفرائض
إذن يلزم على أن أذهب اليوم إلى الصلاة بصحبة أقربائي وأهلي
لأنى أخشى أن أهلك إذا تناسيت أو تماهلت
وبقيت بقربك هنا في هذه العزلة

أحببتها بعد أن ركعت بجانبها
اذهبي يا فؤادى المحبوب — شاقة طريقك بين الأمواج
وأدى صلاتك ثم تعالى راجعة إلى هذا الكهف البحرى الجميل
فابتسمت عن ثغرها الوضاح ثم ضحكت ولكنها لم تفه بكلمة
بل أخذت سبيلها وارتفعت خارجة من ظلام البحر إلى نور الأرض
آه

يا أولادى الأعزاء ، ألم يكن ذلك بالأمس نعم كان ذلك بالأمس .

أولادى الأعزاء

أنا لا أدري كم لبثنا على هذه الحال

هل لبثنا طويلا يا أطفال تلك الغادة

لقد أخذ البحر يشتد في هياجه ، وبدأ الصغار ينوحون وييكون
آه ... ما أطول صلاتهم ، وما أشد خشوعهم
تلك والله محنة ابتلينا بها فكيف الخلاص منها
إذن لقد حان الوقت للذهاب إلى الخليج ونرى ماذا جرى
تعالوا يا أولادى ولنسر في ذلك الطريق المكسو بالأعشاب
ذات البراعم المتفتحة المحيطة بتلك المدينة البيضاء
ولنمش في الطريق الضيق المطلى بالقار
حتى نصل إلى تلك الكنيسة القائمة على سفح التل والمطلّة على مياه البحر
قفوا هنا يا أولادى الأعزاء
وانظروا ... إلى الجماعات الغفيرة الناشدة تراتيلها في صلاتها
قفوا عن بعد لئلا يراكم أحد
ولا تبالوا بالهواء القارس
الهاب من جهة الشمال والمطر الغزير المنساب كالسيول
تسلقوا هذه القبور وهذه التلّوات الصخرية
واقترّبوا من شباك الممشى للكنيسة
انظروا ... ها هي جالسه قرب ذلك العمود الرخامى خاشعة في عبادتها
تعالى يا مرغريت ... تعالى سريعاً فنحن في انتظارك
تعالى يا معبودتى ولا تجرحي فؤادى الحزين بطول غيابك
فهلا سمعت زجرجة الأمواج ونواح الصغار
ولكن آه ... هي لا تجيب ولا تنظر إلينا بنظراتها المشفقة
لأن عيونها شاخصة في كتابها المقدس
مرددة ما يمليه القس في صلاته وتسبيحه
وقد أقفلوا الرّجاج حتى يكونوا منفردين في مشاعرهم الروحية

آه... لنكن بعيدين يا أعزائي
ولا تنادوها مرة أخرى
بل عودوا بصمتكم يبلغكم الحزن والألم .

هناك ، هناك في أعماق البحر
كانت تجلس بقرب دولابها المصوت
ناشدة أغاني الغبطة والجمال
فيأفرحتاه... ما أحلى ما كانت تتغنى به وما أعذبه
كانت تساقط الماء على نغم الغناء
كأنها موافقة موسيقية ذات ألحان سحرية
غنت تلك القصيدة التي تصف فيها عواطفها الطروب فتقول :
ما أجمل الشارع الباعث لأغاني الأفتدة
وما أسعد الطفل بلعبته
وأقدس الرجل بخشوعه الروحاني
وأحلى توقيعات الأجراس المصوتة
وما أعظم بنايات العبادة وأحلى مجلسي هذا أمام دولاب المغزل
والشمس ترسل على أشعتها البهية المنعكسة على صفحات الماء
هكذا كانت تغنى بفرح ، و بصوت ممزوج بالخلابة المعذبة
وبنشوة الفرح النفساني
ولكن ما أسرع ما تبدل كل ذلك
إذ سقط المسكوك فجأة من يدها ووقف الدولار عن دورانه
فقامت إلى الشباك ومدت بنظرها إلى الرمال البعيدة — رمال البحر العميق
بعينين محمقتين

وبعثت حالا تلك الحسرة العميقة من قلب طافح بالغم
مقرونة بدمعة غشت عينيها عن النور
ونهدة عميقة من قلب تلك الحورية المعبودة ذات الشعر المتموج اللامع .

تعالوا بعيداً ... أيها الأطفال الأعزاء
بعيدا عن هذه الأمكنة الظلمة
فالرياح أخذت في هبوبها مأخذا عظيما
وأخذت المدينة تنير نفسها بأنوارها الصناعية الكاذبة
إلى أن تذهب في سباتها العميق
وهى ... هى أمكم ستسمع عصفات الريح
وأزيز الأمواج المضطربة
حينما نركب عليها تاركيين أرض الأطلان
وراحلين الى أرض الآلى والمرجان
وستصغى إلى أشودتنا الجديدة :
هناك فى تلك البقعة تسكن المخلوقة الجميلة
التي لبست نفسها لباس الغدر والخيانة
فخدعت ملك البحار وهجرته تاركة إياه وحيداً يبتلع السأم ويناجى التعاسة .

وعند ما ينتصف الليل
ويهب النسيم العليل آتياً من المروج الخضر
ويرسل القمر أشعته البيضاء الفضية من الأعلى فتتكسر فى مدها الساكن .
هناك حيث الصخور الشم المظلة من جهة الجنوب

التي تبعث بظلمها الظليل على الرمال البعيدة
في تلك الساعة من الليل سنسير كل يوم على الشواطئ الرملية .
الطويلة المكسوة بالحشائش الخضراء
ناظرين إلى المدينة البيضاء إلى كنيسها الصغيرة في سفح التل
ونشده :

هناك يسكن محبوبنا الوحيد
ذو القلب القاسي
الذي خدع ملك البحار
فهجره وأطفاله وتركهم وحيدين يتلعون السأم
ويناجون التعاسة .

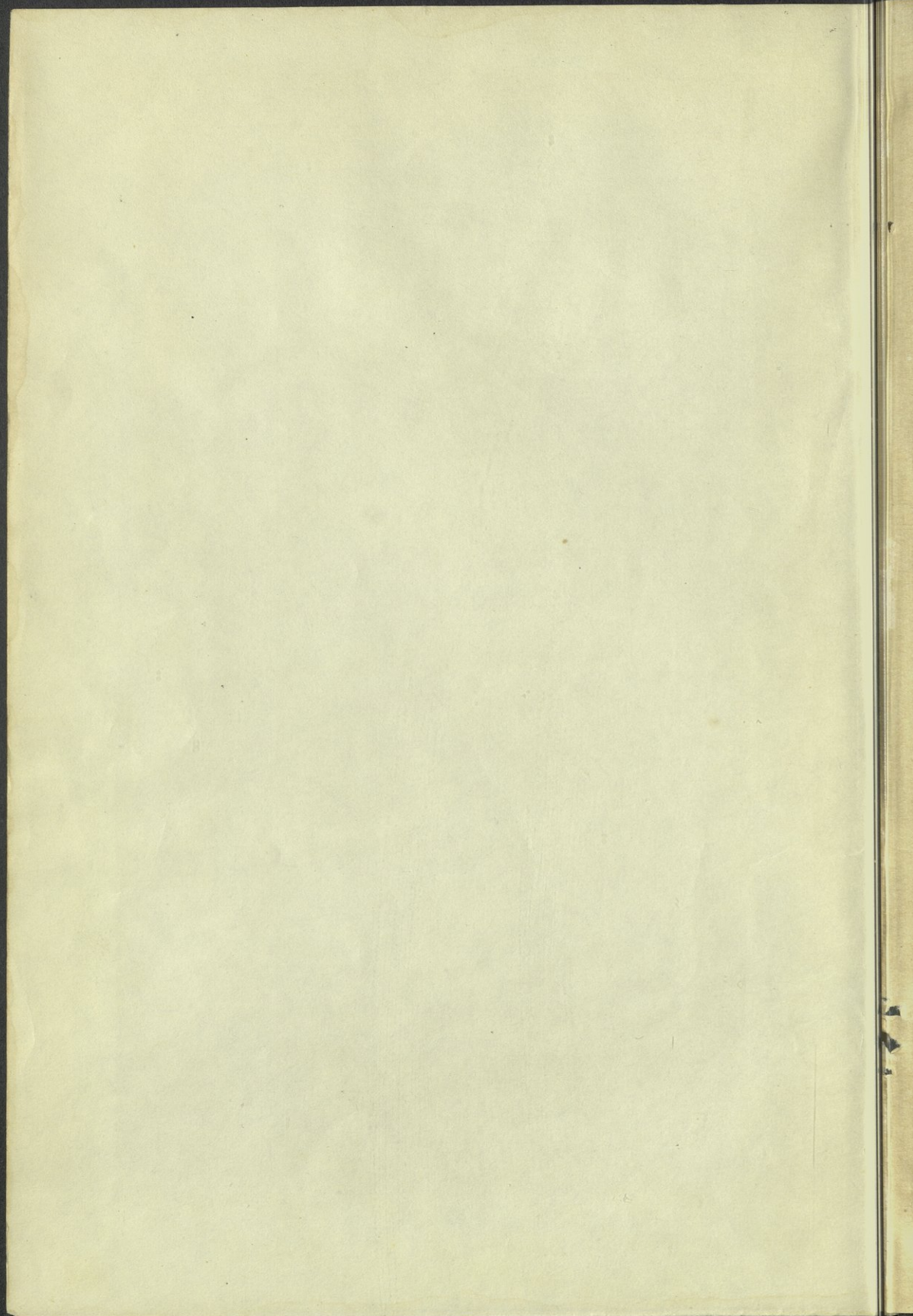
مكتبة المثنى

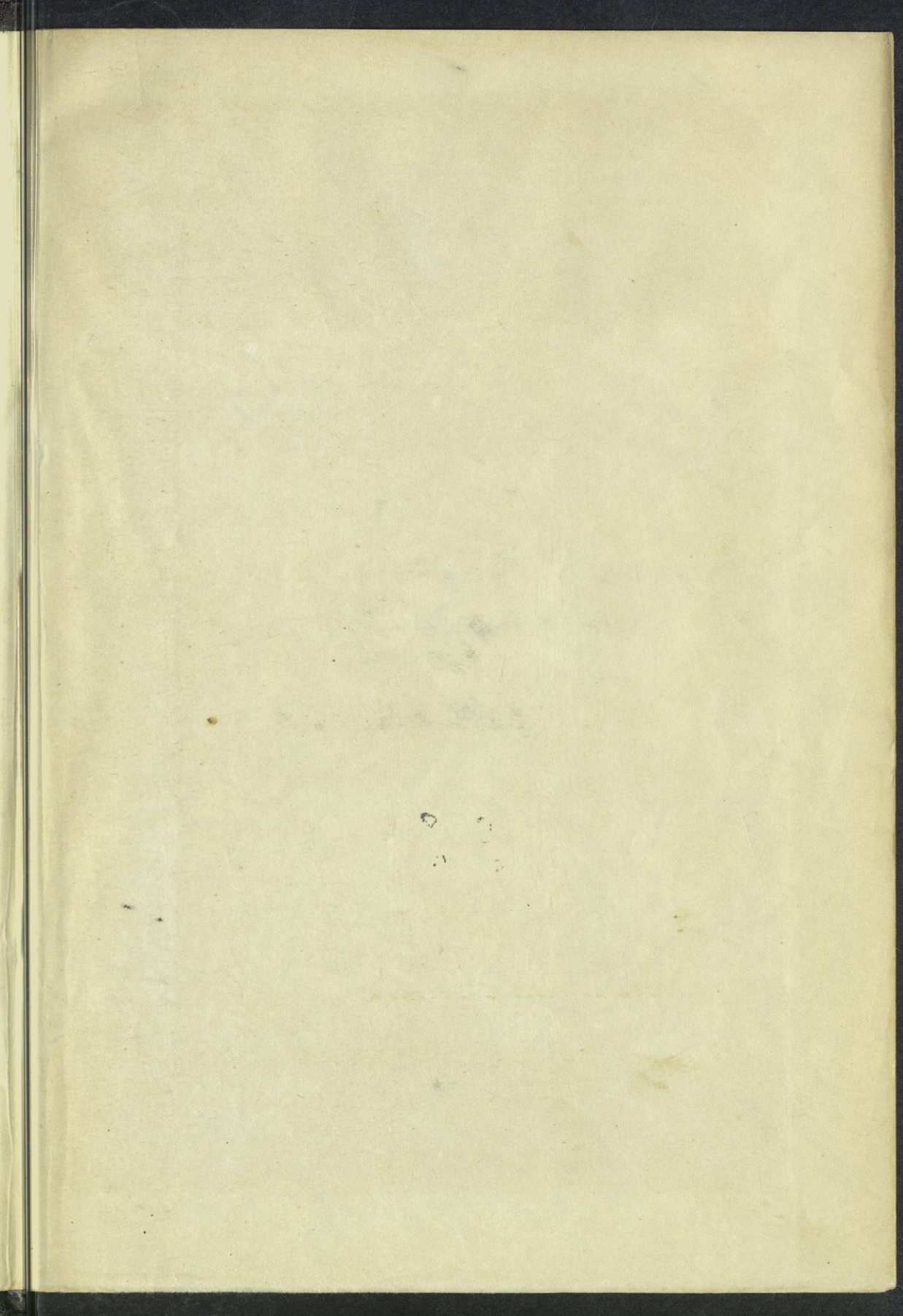
تجد فيها دائماً :

- ١ — أهم الكتب من مصادر التاريخ الإسلامى .
 - ٢ — الكتب الأساسية فى الفقه والدين الإسلامى .
 - ٣ — أمهات كتب الأدب العربى والبلاغة .
 - ٤ — المعاجم والقواميس المختلفة .
 - ٥ — أنواع النوتات الموسيقية .
 - ٦ — مختلف القصص القديمة والروايات الحديثة .
 - ٧ — كتب الأغانى والمنولوجات لمختلف المغنين والمطربين .
- كل ذلك وغيره تجده فى :

مكتبة المثنى ببغداد — تليفون ٣٥٨٨

مطبعة دار الكتاب العربي
شارع فاروق ص ٥٠٩٣٨
تلفون ٥٠٩٣٨





892.74:H64nAe1

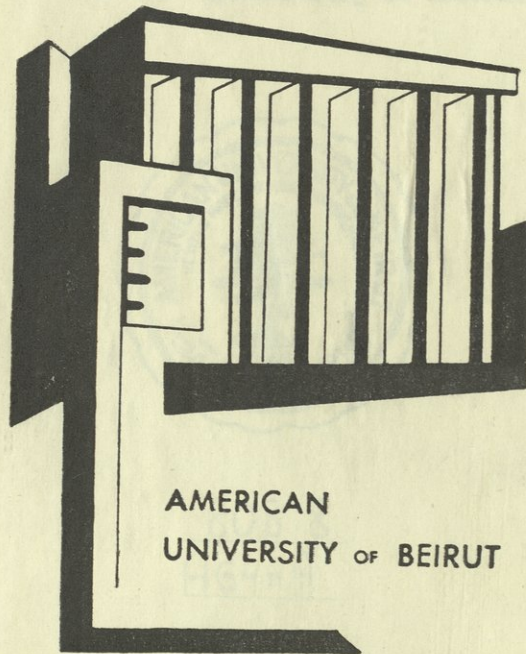
الهلالى ،امين

ندى الفجر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038317



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

